ألفِ كتاب وكتاب

الدكتور علي شريعتي

العودة إلى الذات

ترجمة

دكتور ابراهيم الدسوقي شتا

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى

قســـم النشـــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٦٨٠٢١٣ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يو إن

P . O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 680213 - Telex : 94021 Raef U N

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م



الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى
تصميم الغلاف والإخراج الفنى : عصمت داوستاشى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

إهداء

إلى هذا الجيل من طلابي وغيرهم، رحلة فكرية في الأعماق تتجاوز السطوح وأجوبة على كثير مما يحتبس في الصدور وطرحا جديداً لمشكلات قديمة ودعوة إلى التدبر والتفكر وتفجيرا لواقع من الركود والسأم .

إبراهيم الدسوقي شُتا

الفهـرس

الموضوع	الصفحة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، رب المستضعفين وقاصم الجبارين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فأعود للمرة الثالثة إلى ترجمة أعمال المفكر الشهيد الدكتور (على شريعتى)، فى المرة الأولى ترجمت بحثه القيم « بناء الذات الثورية » والذى نشر ضمن كتابى « الثورة الإيرانية : الجذور والأيديولوجية»، وفى المرة الثانية ترجمت بحثه « المفكر ومسئوليته فى المجتمع » ، وفى هذه المرة الثالثة أعود إلى هذا المفكر العظيم داعية الأصالة ورسول الفكر الإسلامى العصرى ، ومنظر الثورة الايرانية المظفرة ، ويحتوى هذا السفر الذى بين أيدينا على:

القسم الأول : العودة إلى الذات : وهو عبارة عن محاضرة ألقاها فى جامعة جنديسابور ، ثم طبعت بعد ذلك فى أوربا مع محاضرة أخرى عنوانها « نيازيهاى إنسان امروز : احتياجات الإنسان المعاصر » . وأعيد طبعها ضمن مشروع حسينية الإرشاد لنشر كل تراث الكاتب الشهيد مع القسمين الباقيين من هذا الكتاب ، وهو الذى اعتمدت عليه فى ترجمتى هذه .

القسم الثانى : العودة إلى أى ذات ، وهو كتاب ينشر ضمن هذه المجموعة لأول مرة كتبه الكاتب الشهيد فى أخريات حياته .

○

وغنى عن الذكر أن فكر شريعتى ليس فكرا محليا ، بل هو فكر يهم كل العالم الثالث « أو الثانى كما يحب أن يسميه شريعتى » ، ويتناول قضايا تهم كل مفكرى العالم الإسلامى فى هذا الجزء من العالم والعصر من الزمان . ولاأريد هنا أن أخل بالكتاب عن طريق عرضه ، بل أتركه بين يدى القارىء طالبا منه أن يلقى نظرة إلى الكتاب ، ثم يلقى نظرة حوله أيا كان بلده ، وأيا كان النظام الذى يعيش فى ظله ، وأنا واثق أن قضايا سوف تتفجر فى ذهنه طالما أمضته وحيرته ، وأن أصناما سوف تتحطم امام عينيه طالما سدت أمامه أفق الرؤية ، وأنه سوف يجد نفسه بعد قراءة الكتاب أشد غضبا لكنه أوضح رؤية ، هذا ولم أتدخل بشخصى هنا اللهم إلا ببعض الهوامش التى تبين للقارىء العربى بعض ماقد يخفى عليه من التاريخ ومن الشخصيات الإيرانية ، أو لكى أحول نظره حيث يعيش . هذا ومنى الجهد ومن الله التوفيق ، والسلام على من يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

دكتور / إبراهيم الدسوقى شتا

أستاذ اللغات الشرقية

كلية الآداب – جامعة القاهرة .



على شريعتي :

حياة وفكر



○

لاشك فى أن ثورة إيران الإسلامية أهم أحداث القرن الرابع عشر الهجرى قاطبة إن لم تكن أهم الأحداث فى تاريخنا المعاصر ، بل إن الانتصار المحير لهذه الثورة سوف يكون مجال بحث وأخذ ورد ونقاش مستمر بين الباحثين في العالم ، ذلك أنه ـــ وربما لأول مرة فى التاريخ ـــ تقف أمة مستضعفة خالية الأيدى مفتوحة الصدور إلا من سلاح واحد تملكه،وهو الإيمان فى وجه قوى طاغوتية ، وتقف وتصمد ولا تبخل ببذل الروح والدم حتى تجندل فى النهاية كل القوى الطاغوتية ، وتلقى بها فى مزبلة التاريخ ، وهذا فى حد ذاته يثبت أن سلاح الإيمان غير قابل للهزيمة ، ويبرهن تماما إلى أى حد يتناسق الإسلام مع المبادئ الثورية المغيِّرة لمصائر الأمم ، وإلى أى حد تستطيع البلاد الإسلامية أن تستفيد من هذا السلاح القديم الجديد ، الحقى والمتروك ، لكنه كالنار تحت الرماد يومض ويحيا فى قلب الأمة .

هذا الأصل الإسلامى للثورة ، أى الأفكار الإسلامية التى فجرت الثورة وفى الوقت نفسه فجرتها الثورة فتحولت من خلالها إلى قوى حية وفعالة ، هو بلا جدال أهم أصول الثورة ، لأنه مهما قيل عن اتجاهات الثورة ، ومهما كان الهجوم الذى تتعرض له من عدو حاقد أو منافق مشفق أو مدعى أخوة لكى يشوه من وجه الثورة ، فإن الثورة الفكرية التى واكبت الثورة الفعلية سوف

تبقى وتنتشر ، ذلك أن تأثير مفكرى الثورة « **على شريعتى** » « **وآية الله الطالقانى** » « **وآية الله مطهرى** » « **واية الله منتظرى** » « ومهدى بازركان » فى نشر الفكر الثورى ، وتحويل المبادىء إلى تيارات حية فى قلب الآمة لايقل تأثيرا إن لم يزد عن دور أولئك الذين بذلوا الأرواح .. فى الميادين وإن كان على شريعتى أبعد أثرا .. لقد كان الحاضر الغائب فى ساحة الصدام ، ذلك أنه كان قد استشهد قبل انفجار الثورة بعدة شهور .

ولد على بن محمد تقى شريعتى فى « مزيتان »وهى قرية من قرى سنروار فى منطقة خراسان تقع على حافة الصحراء الكبرى المعروفة باسم « دشت كوير » سنة ١٣١٢ هـ . ش [ديسمبر سنة ١٩٣٣ م] ، كان أبوه محمد تقى شريعتى من كبار المفكرين والمجاهدين الإسلاميين ، أسس فى مدينة مشهد بالاشتراك مع عدد من رجال الدين المناضلين « مركز الحقائق الإسلامية » (كانون حقايق إسلامى) ، وقام بنشاط واسع فى تنقية أصول التشيع مما علق بها عبر القرون من (الدخيل) والخرافة .. كما قام بتوعية الجماهير بالدور الحقيقى للدين فى المجتمع ، وفى مثل هذه البيئة ، وفى كنف مثل هذا الأب شب (على شريعتى)، مهتما منذ طفولته بقضايا الدين والأمراض المنتشرة فى المجتمع ، مدركا أن مبادئ الدين الموجودة فى الكتب التى تدرس شىء ، وتلك الشعائر التى يمارسها الناس شىء آخر ، أما التشيع الحقيقى فهو شىء ثالث مختلف تماما ، وبالرغم من اكتشافه هذه الحقيقة فى سن صغيرة ، لم يقم كما قام غيره بالفرار من الدين والنفور منه ونبذه ظهريا .. كان يرى أن الدين فى حاجة إلى ثورة تقوم بتحويله من عامل ضعف وخمول إلى عامل قوة وطاقة وحياة .

إلى جوار ذلك لم يعكف شريعتى على البحث المجرد فحسب ، بل انضم إلى جناح الشباب فى الجبهة الوطنية وهو لم يزل بعد صبيا ، وبعد سقوط مصدق انضم إلى حركة المقاومة الوطنية التى أسسها آية الله زنجانى وآية الله طالقانى ومهدى بازركان ، وعندما ضربت بعنف سجن شريعتى ستة أشهر ولم يكن قد تخرج بعد من كلية الآداب (سنة ١٩٥٨) وعندما تخرج من الجامعة من كلية الأداب بدرجة الامتياز فى السنة التالية برغم كل هذه الظروف ، أرسل فى بعثة إلى فرنسا (سنة ١٩٥٩) .

وتعد سنوات فرنسا من أكثر السنوات خصبا فى حياة شريعتى القصيرة المريضة،كان شابا ذا ضمير طاهر ذكيا يقظ القلب ، مسلما حقيقيا يعرف تماما قيمة كونه مسلما حقيقيا ، عرف تراثه جيدا،وحمل معه زادا غنيا وفياضا وقيما من الثقافة الإسلامية ، وبالتالى لم يتعرض شريعتى لتلك الصدمة التى يتعرض لها المبعوثون من العالم الفقير المستضعف عندما يتعاملون مع العالم الغنى المستكبر لأول مرة ، فتكون نتيجتها أن« يتغربوا »و « يفرغوا من الداخل » و « يتشبهوا » دون مقاومة لم يحس بنفسه قط « كمسلم » ضئيلا أو صغيرا أو متخلفا أمام الجبروت الغربى ، لم يفقد شخصيته الإسلامية وذاته الحقيقية ، بل على العكس كانت فرصته سانحة لكى يعرف شريعتى عن قرب حقيقة الحضارة الأوربية ، والشخصية الغربية وكبرياءها وغرورها ، ووسائل الاستعمار الجديد ، وسياسة السلب والنهب والتسلل وطحن الإنسان ، وعلى أساس من هذا الفهم وضع شريعتى أهم نظرية فى فكره الحى الثورى،وهى نظرية العودة إلى الذات ، ومرة أخرى وبعد مايقرب من مائة سنة من سيد جمال الدين الأفغانى والكواكبى ومحمد عبده ، يثبت على بن محمد شريعتى أن المسلم الصادق المؤمن العارف بأصول الفكر الإسلامى والمتفهم للإسلام جيدا لايمكن أن يحول وجهه عن الإسلام أو أن يرضى عنه بديلا ، وأن الحضارة الغربية مهما كانت « عالمية » ومسيطرة ومتسلطة لايمكن أن تصلح للمسلم الحقيقى ، بل إن المسلم الحقيقى يستطيع أن يدرك نقاط الضعف فى الحضارة الغربية وأن يستغلها لصالح الإسلام ، على الأقل عندما يقوم بمقارنة هذا الذى يقدم على أنه « الحل الأخير » بما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وهكذا فعل شريعتى عندما اختار علم الاجتماع الدينى ميدانا لتخصصه ، وكأنه كان يستشرف المستقبل عندما رأى أن تلك الشعوب الإسلامية المقهورة لن تتحرك إلا بالدين ، ولن تنجو إلا بالإسلام فنال الدكتوراة فى علم الاجتماع الدينى كما نال دكتوراة ثانية فى تاريخ الإسلام وفى فرنسا واصل نشاطه السياسى فأسس فرع أوربا لحركة تحرير إيران التى أنشأها بازركان وطالقانى سنة (١٩٦١) م ، وشارك مشاركة فعالة فى دعم الثورة الجزائرية ، وتعرف على مناضلى العالم الثالث من أمثال إيماسيزار وفرانز فانون الذى قام بنقل جزء من كتاب « معذبو الأرض » إلى اللغة الفارسية ، كما سجن فى فرنسا لمدة

أيام ثلاثة إذ كان ضمن المقبوض عليهم خلال المظاهرات التى اندلعت فى فرنسا احتجاجا على مصرع لومومبا .

وفى منتصف الستينات عاد شريعتى إلى إيران ، وعلى الحدود ألقى القبض عليه ثم أطلق سراحه بعد فترة ، عين مدرسا بجامعة مشهد . حسنا : كان شريعتى يستطيع آنذاك أن يكون أستاذا مثل بقية الأساتذة ، مفكرا مزيفا ومفرغا من الداخل وناقدا وعالما بالغرب ودليلا متطوعا للتنوير والتغريب ذا حيثية وأموال ووجه متألق فى وسائل الإعلام ، متحدثا فى كل محفل ، وخطيبا لكل مجلس ، لكن متى يمكن للمسئول الملتزم ذى الهدف المحدد الواضح أن يكون أهلا لهذه الأمور ؟! عاد شريعتى وبدلا من أن يقوم بترجمة « الوجود والعدم » لسارتر ويشتهر كفيلسوف « وجودى » ترجم « سليمان الفارسى » لماسيفيون ، وبدلا من أن يكتب عن أقطاب الغرب كتب عن « أبى ذر الغفارى » ، وبدلا من أن يتحدث عن الأصول ، التى لم تكن موجودة سوى فى خيال الإعلام (الشاهنشا هى)، وفلاسفة الماركسية الشاهنشاهية المفسرين لعهد «أعتاب الحضارة العظمى » ، أخذ يلقى الدروس والمحاضرات العامة ذات الهدف التنويرى الدينى ، وكم من الأحجار ألقاها فى ذلك المستنقع الآسن الذى كان غائبا فى نوم الغفلة ، وفجأة خلال هذا الحلم (الشاهنشا هى) عن «حضارة الشاه العظمى » التى تقوم بإحياء عظام ملوك جاهلية إيران ، يعلن الشاب أن إيران لاتملك سوى حضارة الإسلام ولاعلماء ولاشعراء،ولا فلاسفة،ولا أدباء فيها إلا أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام ، ويصبح ذلك الشاب الذى يبلغ نيفا وثلاثين سنة حجر عثرة ، ليس بالنسبة للبلاط فحسب بل بالنسبة لرجال الدين المنتسبين إلى البلاط « أولئك العمال الهواة للظلمة » والذين كانوا يجاهدون فى تلقين الناس « إسلاما مزيفا ضعيفا متوائما مع الطواغيت مؤديا إلى النوم » .. وكان صوت شريعتى مخلصا عالما بعيد الغور بسيطا فى نفس الوقت بحيث كان عدد المشاركين فى ندواته ومحاضراته لايقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مشترك ، ولم يكن هناك يد سوى طرد الشاب « الخطر » من الجامعة ونقله إلى إحدى القرى النائية معلما فى المدارس الابتدائية لكن « لا بأس » إنه لم يفقد صفته كمعلم على كل حال فلم يهن ولم يستسلم ، والناس يقطعون الفيافى لكى يستمعوا إليه ، فتستسلم السلطة وتنقله مدرسا فى جامعة طهران ،

على الأقل لكى يكون تحت سمعها وبصرها قريبا من أعوانها وجواسيسها .

فى سنة(١٩٦٩)كانت « حسينية الإرشاد » قد افتتحت لكى تكون مركز إشعاع إسلامى ، ويركز فيها شريعتى كل نشاطه ملقيا محاضرات منتظمة عن الإسلام وتاريخ التشيع ، مصححا من خلالها المفاهيم السائدة ، ملقيا بثقل الإسلام عاملا لشحذ الهمم والتعبئة الفكرية والسياسية فى أوساط الشباب ، ومؤسسا لخمس لجان للإشراف على النشاطات المتعددة : لجنة لتاريخ الإسلام ولجنة لتفسير القرآن،ولجنة للأدب والفن،ولجنة للغة العربية لتصحيح منابع التراث الشيعى،ولجنة للغة الإنجليزية لحمل رسالة الإسلام العالمية ونشرها . والتف حول حسينية الإرشاد جيل كامل من الشباب ، نعم ، لقد حول المجتمع كله إلى جامعة يلقى فيها دروسه ومحاضراته ، ومرة أخرى أثبت شريعتى أنه هو نفس الأستاذ اليقظ الصامد ، وملأ ذلك الرجل الفريد رسالته ، وبأسلوب واضح ومفهوم استطاع أن يجعل من قضايا الإسلام قضايا يومية ، وفى دروس معرفة الإسلام (إسلام مشناسى) جلا الإسلام فى ضوء بقية الأديان والمذاهب الفلسفية المعاصرة ، وهيأ أرضية مناسبة تماما للثورة الفكرية ، وطرح « التشيع الثورى » فى مقابل « التشيع الصفوى التقليدى » وصار وحده جيشا يقاتل « التغرب » و « التشبه » و « عبادة الشاه » و « المفكرين المزيفين » ، ويقف بالمرصاد للعملاء فى لباس رجال الدين ووعاظ السلاطين و« استغلال الدين ضد الدين » وقامت عليه الدنيا وقعدت ، فهو حينا يتهم بأنه وهابى ، وحينا يتهم بأنه زنديق ، وهو يقف لكل حملة مفندة دعاويها فاضحا ماوراء أستارها ، ولاتجد السلطة بدا من إغلاق حسينية الإرشاد (سنة ١٩٧٣) وتقوم بالقبض على شريعتى ووالده ، ويبقى فى السجن ثمانية عشر شهرا متعرضا لصنوف العذاب ، ويتدخل المسئولون الجزائريون فيفرج عنه سنة(١٩٧٥)لكنه يوضع تحت المراقبة ويمنع من أى نشاط ، وتسمح له السلطة ــ لأمر فى نفسها بالرحيل عن إيران فى مايو سنة ١٩٧٧ ، ويسافر إلى لندن ، وبعد شهر من إقامته فى لندن يعثر عليه ميتا ، ميتة غامضة تعلن عنها السلطة أنها نوبة قلبية ، والكل يعلم أنها من تلك النوبات المصطنعة التى دبرتها السلطة عشرات المرات لأعدائها ، ولا تسمح لجثمانه بأن يدفن فى إيران ، فينقل إلى دمشق ويدفن فى الحرم الزينبى شهيدا شابا كشهداء الثورة الحسينية التى طالما اعتبرها نموذجا

يحتذى ، ويترك لنا حوالى مائة وعشرين عملا مابين فلسفى وأدبى وتحريض لكنها كلها تتخذ من جذوة الإسلام القبس الذى يضئ الطريق أمام جماهير الشباب ، وتؤدى إلى انخراط جيل كامل من الشباب فى صفوف الحركة الإسلامية فى إيران ، ويكون فى موته أكثر حياة وأكثر حضورا .

أما هذا الكتاب الذى أقدمه للمكتبة العربية بعد طول انتظار فهو يلخص كل فلسفة شريعتى ، فإذا أردنا أن نقدم عنوانا جامعا لفكر شريعتى فلن يزيد عن هذه الكلمات الثلاث « العودة إلى الذات » .. والعودة إلى الذات هى الحل الذى يقدمه شريعتى بالنسبة للمسلم على كافة المستويات : المستوى الفردى .. ومستوى الأمة والمستوى العالمى ، فهى التى تخلص المسلم من « التقولب » و« الاستقطاب » و« الاتجاهات المحددة سلفا » ، وهذا فى حد ذاته يمثل معجزة يقدمها الإيمان والوعى ، وتذهب الخيوط التى نسجها الحكام فى التاريخ على مر القرون ــ وبرغم المجتمع ــ أنكاثا وتحرقها وتحولها إلى رماد ، فكل مفكر ينبغى أن ينطلق من تاريخه ومن ثقافته وبلسان قومه ، ولاشك فى أن المفكر « المفرغ » أو « المتشبه » هو اكثر خطرا من كل المتشبهين والمفرغين داخليا ، وهنا ينبغى أن تكون على حذر ، ففى الوقت نفسه كان متفلسفو الشاهنشاهية يتشدقون هم الأخرون بالعودة إلى الذات ، لكن هدفهم كان تلك الذات الفانية المهترئة أى إيران قبل الإسلام .. تلك الذات التى جاء الإسلام وقضى عليها تماما بحيث لم يعد لها أى وجود فى قلب الأمة الحى .. ولا يمكن حتى دراستها إلا على يد قلة من المتخصصين أغلبهم من الأجانب الذين يتحمسون لها لأسباب مفهومة ، بينما لاتتذكر منها الجماهير أى شىء .. ويصدق هذا تماما على جميع الدعوات الجاهلية الحديثة (القومية) والتى ظهرت فجأة فى الأمم الإسلامية .. واذا سألناهم : أيها السادة ماهى بقايا الثقافة الفرعونية أو الفينيقية أو الأشورية بين جماهير الشعب المصرى واللبنانى والعراقى ؟ فإنهم سوف يصمتون فهم أكثر الناس علما بمصادر هذه النظريات وبالهدف منها .

حسن : لنتحدث إذن عن تلك « الذات الأخرى » التى تسعى إليها أمم العالم المستضعف مغمضة العينين .. وتقصد بها « الذات الغربية » النموذج والمطمح

والمثال عند الأمم المتأخرة والنامية : تلك الذات التى تحتكر « التمدين » و « الحضارة » و« التقدم » وتمثلنا لهذه الذات هو من قبل الأخطاء البشعة ، لأننا عندما أردنا أن ننقل التجربة الغربية كانت النتيجة « مأساة » و « خسارة لكل شىء » فقد فهمنا أنهم تقدموا لأنهم حبسوا الدين فى الكنيسة ، فقمنا بحبس الدين فى المسجد ، وأقاموا حكومات علمانية ففعلنا مثلهم ، ولم يفهمونا أنهم أقاموا حضارتهم على نهبنا واستغلالنا و« استحمارنا » . وعندما جاء مفكرونا « صناعة أوربا » ونادوا بهذه المبادئ ثم طبقوها علينا كانت النتيجة «مأساة» لماذا ــ بتعبير الشيخ محمد عبده ــ«أوربا تركت الدين وتقدمت ونحن تركنا الدين وتأخرنا » ؟ يجيب شريعتى : لأن السلاح الوحيد الذى كنا نملكه ويدافع عن كياننا هو الدين ، ولأن الدين والدنيا لدينا واحدة فإن ضياع أحدهما يستتبع ضياع الأخر ، وللأسف فإن مفكرينا الذين صنعوا فى الغرب أفهمونا أن الدين نوع من التعصب ، وأن التعصب رجعية وتأخر ، فاضعفا الدين وضاعت الدنيا وذلك لأننا غفلنا عن « جغرافية الكلمة » لأننا طرحنا الفكرة دون أن ندرى متى نطرحها وأين نطرحها ، وهذه النظرة المطلقة إلى الأمور نظرة منحرفة تماما ، فلا الدين مفهوم منفصل عن الزمان والمكان، ولا اللادينية والعلمانية مفهومان مجردان منفصلان عن الزمان والمكان .

حسن ؛ عندما اكتشف بعض مفكرينا بعد « خراب البصرة » أن التغرب لايحمل معه الدواء الناجع الشافى ، بل يحمل فى طياته سما زعافا ، فهل أقلعوا وتابوا ؟ أبدا .. لقد تركوا الحل الأوربى ولجأوا إلى حل أوربى آخر .. هربوا من « التغرب » إلى « الشيوعية » لماذا ؟ لأن المفكرين الغربيين عندما يضيقون بمجتمعاتهم يلجئون إلى الشيوعية .. ولم يدرك مفكرونا السطحيون حتى الآن هذه الحقيقة القائلة بأن العالم الآن لايضم اكثر من كتلتين : كتلة الراكبين من الغرب الرأسمالى والشيوعى ، وكتلة « المركوبين » والمستضعفين التى تضم بقية العالم .... هربوا من المطر إلى القناة .... وفى الدول العربية والإسلامية أثبت الحل الشيوعى فشله التام ، فالمفكرون الذين يطرحون هذا الحل فى بلادهم لم يفهموا حتى الآن ولا يريدون أن يفهموا أن الماركسية ليست إلا سلسلة من التحليلات النظرية التى تؤدى إلى أحكام غير ثابتة ووهمية وفى النهاية الى خطوط سير اجتماعية وسياسية خاطئة .. وإلى أهداف بعيدة تماما .. وأيضا

فإن الذى حدث بعد ماركس أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن تلك الحتميات التاريخية عند ماركس لم تكن إلا من قبيل النبوءات البدائية ومن كثرة ما حدث داخلها من تجديد لم يبق شيء تقريبا من أصل النظرية .. وثالثا : أن تلك الجماعة قامت عند تطبيق المبادئ والأصول بارتكاب أخطاء بشعة وأهدرت سنوات طويلة فى التفلسف والجدل الكلامى والمناقشات المنطقية والمنازعات العلمية والصراعات السوفسطائية ، لقد بذلوا جهدهم لتحريك الله من القلوب ولم يقوموا بتحريك الاستغلال من المجتمع ، والنتيجة أن الفلاح أو العامل ربما شك فى الدين وفى البعث لكنه لم يفهم شيئا عن واقع الاستعمار ومعنى الاستغلال وفلسفة الفقر والعبودية .. ثم إن سياسة الوفاق (على من ؟!) المطردة تثبت يوما بعد يوم أن الغرباء واحد مهما تعددت مذاهبه وهل يمكن بعد أحداث أفغانستان أن نكون فى حاجة إلى دليل يثبت أن هذه الذات ليست لنا ولا تخصنا ولا تحمل حلا لضعفنا وتخلفنا ؟

وهنا نسأل : ما الحل ؟! أى إلى أية ذات نعود ؟! يجيب الأخ الشهيد : لنعد إلى الإسلام بثقافته وفكره ومعتقداته وأسلوب حياته .. هكذا فحسب ؟! لا : بل ينبغى أن نحدد إلى أى إسلام نعود ؟! إلى أى ذات نعود من ذواتنا ، ففى العالم الإسلامى اليوم ومن المسلمين أنفسهم يوجد أكثر من إسلام ، إن الأمر يبلغ بأن الذى يمتص دماء المسلمين يدعى الإسلام ، ويمكن أن نرى بعض رجال الدين الذين « يحجلون » حول رجال السلطة جاهزين بالفتاوى والتبريرات ويفهمون جماهير الأمة أن الإسلام هكذا ، ومرة ثانية يتحدثون عن مقاومة التعصب والأخوة بين الأديان .. وعلى أن الإسلام لا وجود له خارج المسجد .. وكل هذه الترهات . إن الإسلام المطروح هو الإسلام نفسه الرسالى الذى جعل من بضعة من « البدو » الحفاة الجهلة « أمة » استطاعت خلال سنوات قليلة لاتكاد تحسب فى عمر التاريخ أن تقضى على أكبر امبراطوريتين فى زمانها ، وخلال سنوات أخرى أن تقيم حضارة فاتحة مسيطرة ولدت منها حضارات العالم اليوم ، الإسلام هو نفس الإسلام الذى حول جندب بن جنادة قاطع الطريق الوثنى الذى يأكل صنمه إلى ثورى عظيم ومفكر عظيم دون أن يبدل ثوبه أو يغير راحلته .

على كل حال : يرى الأخ الشهيد أنه من أجل العودة إلى الذات الإسلامية لابد من قطع مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى : وتتعلق بالفرد .. وهى مرحلة بناء الذات الثورية ، ويعنى « تربية الذات ثوريا كأصالة محددة ومعينة ومنح التكامل لجوهر الوجود » وأرضية بناء الذات الثورية هى هذه الجماهير نفسها التى كونت عبر مراحل التاريخ الأرضية الحقيقية للإنسانية والبشرية ولاتزال تكونها ولابد لنجاح أية حركة من وجودها الفعلى .. ولابد أن ترى فى أبعادها الثلاثة : العبادة والعمل والنضال الاجتماعى ، وهناك نماذج عظيمة جدا فى تاريخ الإسلام وحضارته ، شخصيات كانت تحقق الأبعاد الثلاثة : فالقلب فى عبادة والعقل فى تفكر والسلاح فى اليد ذلك أن الاسلام لايعرف « الكوادر » ، ولا « الطبقات » فالمدينة المنورة لم تعرف طبقة رجال الدين وطبقة العلماء وطبقة الزراع وطبقة الزعماء السياسيين فلا تناقض فى الإسلام من أن يكون المرء معلما وعالما وعاملا وفى الوقت نفسه عنصرا سياسيا فعالا إلى حد شغل منصب الإمامة ، وعندما يريد أمرا يكون بطلا مناضلا بالسيف ، لا تناقض فى أن يكون المرء خليفة للمسلمين وفى الوقت نفسه يكون صانعا للسلال أو تاجرا صغيرا يكسب قوت يومه(بالكاد)أو عاملا فى تأبير النخل عند جماعة من منحطى اليهود .

المرحلة الثانية : وهى لا تنفصل عن المرحلة الأولى .. وتتمثل فى تصحيح مفاهيم الدين فى المجتمع .. لم يكن الأخ الشهيد يرى أن التشيع الموجود فى المجتمع الإيرانى تشيع صحيح ، وفى كتابه الصغير العميق « أبى ، أمى ، نحن مهتمون » يقارن بين التشيع الرائج الذى سماه بالتشيع الصفوى وبين ماورد فى الكتب والمصادر عن التشيع الصحيح أو التشيع الحسينى ، وبين إلى أى حد يكون الفارق الموجود بينهما ، بل يرى أن كل رموز التشيع الموجود فى إيران وشعائره رموز مسيحية ومظاهر مسيحية أدخلها الصفويون على يد طلائع الغزو الفكرى الغربى لكى يفصلوا إيران تماما على الإسلام السنى الذى كان مذهب الدولة العثمانية عدوتها التقليدية ، وفى الوقت نفسه فإن الصفويين قد ارتكبوا ذلك الخطأ الفادح بالتحالف مع الأوربيين ضد العثمانيين مما أودى بإيران وبالدولة العثمانية معا . ويرى(شريعتى)أنه لو خرجت كل هذه المظاهر

الدخيلة على التشيع فلن يبقى هناك خلاف يذكر بين مذاهب الإسلام .

المرحلة الثالثة : العمل على قيام إسلام عالمى أممى لاتكونه قومية أو نعرات مذهبية بأن يكون الإسلام الرسالى هو الجنسية وهو الوطن — والآن وقد اتحد الغرب الرأسمالى مع الغرب الشيوعى ، وبالأمس كان اتحاد المسيحية والاستعمار ، أو توافق المسيح وقيصر .. لابد من قيام العالمية الإسلامية ، وينبغى أن تسكت الخلافات المذهبية تماما ، وأن تدْرَك مصادرها وتبعاتها وعواقبها والأيدى التي تحركها ، وهي الأيدى نفسهاالتي تحرك مبدأ فصل الدين عن السياسة وتقصد بالدين الإسلام فحسب ، وبينما يوصف أئمة المسلمين بالجنون والإرهاب توظف أجهزة الإعلام حتى في بلادنا لتغطية رحلات البابا المشبوهة التحريضية ذات الصبغة السياسية ، وكأن عزل الدين يقصد الإسلام فحسب .

وبعد فإن القارئ الواعى قد يختلف مع شريعتى فى قليل أو فى كثير ، لكنه سوف يجد نفسه مختلفا بعد قراءته ، متجها إلى حيث ينبغى أن يتجه مصححا الكثير من مفاهيمه السالفة ،ومُفتح العين ويقظ القلب فى عالم لم يعد يطيق عمى العيون وموتى القلوب .[١]

وأترك الكتاب بعد ذلك يقدم نفسه املا أن يجد اذانا مصغية وقلوبا واعية وهمما متوثبة ، ومنى جهد المقل ومن الله تعالى التوفيق .

العمرانية فى ١٩٨٥/٣/٣٠

دكتور

ابراهيم الدسوقى شتا

استاذ اللغات الشرقية — كلية الأداب

جامعة القاهرة

---

(١) اعتمدت فى كتابة هذه المقدمة المختصرة على كتب على شريعتى الآتية :

— كوير .. سيرة ذاتية كتبها على شريعتى .

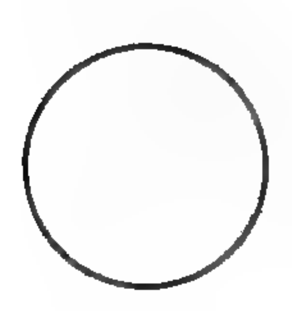
— خود سازى انقلابى .

— بازكشت به خويشتن .

— بدر ، مادر ، ماتهميم .

— إسلام شناسى .

— روشنفكر ومسئوليت دى ورجامعة .



القسم الأول

العودة إلى الذات

عندما تتحد الصفوف :

حضرات السادة المحترمين ،أيتها السيدات أيها السادة ، أعزائى الطلاب . إننى سعيد لأننى ولأول مرة فى هذا المكان ــ وهو بيتى الروحى والمعنوى ــ أرى أناسا هم أهلى فى الروح وفى المعنى ، وهم فقط الذين يمنحون حياتى معنى وهدفا واتجاها وفلسفة للبقاء .

إن مجتمعنا مثل كل مجتمع آخر ، وزماننا مثل كل زمان آخر ، قد تقولبا واستقطبت أفكارهما ، وشكلت عقائدهما ، فهما ذوا أنماط معينة واتجاهات محددة ، فالمتدين والمفكر والمتعلم والعامى والصفوة والرجعى والتقدمى ، لكل منهم قالبه المحدد وعلاقاته المعلومة ولغاته المفهومة ، بحيث يفهم كل منهم الآخر . وكل من يريد أن يكون موفقا فى هذا العصر أو عنصرا مفهوما فى المجتمع عليه أن يكون ذا نمط فكرى يصل به إلى هذا النجاح ، عليه أن يرفع لافتته الفكرية ، وكما يقول الكتاب التقدميون اليوم : على كل فنان أو كاتب أن يحدد انتماءه الطبقى – وهذا قول صادق للغاية ، فان على كل فرد أن يحدد قاعدته الاجتماعية ، وأية جماعة ينتمى اليها بحيث يجد له مؤيدين محددين ومتميزين فى المجتمع .

وكل شاعر أو كاتب أو مفكر أعلن عن قاعدته الاجتماعية قائلا : إننى متدين أو مفكر علمانى أو اعتنق أيديولوجية كذا ، أو أرتبط بقطب كذا أو بجناح كذا ، سوف يفهمه الناس ببساطة ويدركون مايقول ، وبالتالى سوف يجد من

يؤيدونه فى فكره . لكن بعضهم لايجدون الفرصة لاختيار قالب من بين هذه القوالب الموجودة سواء كانت الدفاع عن الدين أو رفضه ، أو ممارسة الفكر ، أو اعتناق نظرية من النظريات أو الارتباط بقطب من الأقطاب أو جناح من الأجنحة ، أو تحديد رؤية معينة أو عقيدة معينة أو اتجاه معين ، وعلى كل حال فأمثال هؤلاء إذا انطلقوا من الدين فإن رجال الدين هم أول من يسىء فهمهم ، وإذا تحدثوا منطلقين من فكر مستنير وطرحوا قضايا على أساسه فإن المفكرين هم أول من يسىء فهمهم ويكيل لهم التهم .

مثل هؤلاء غالبا مايبقون وحداء غرباء أسىء فهمهم ، ولايملكون الضوابط المعلومة للاختيار ، وهم بالقطع أناس محبطون ، إنهم عندما ينظرون إلى كل الأجنحة المختلفة يدركون أنهم لايستطيعون الانضمام إلى جناح مابنسبة مائة فى المائة ، وعندما ينظرون إلى الأيديولوجيات التى تعد آخر ماظهر ومن ثم باتت تسيطر ، لايستطيعون اعتناق واحدة يعرفون بها فى المجتمع بنسبة مائة فى المائة ، وعندما ينظرون إلى ماهو باسم الدين ، لايستطيعون التسليم له لأنه تقليدى ومخدر . مثل هؤلاء الناس عندما ينظرون إلى المجتمع ، ويرون أن هناك عوامل صارت عبر عدد من القرون سببا فى انحطاط البشر ، وارتبطت برباط وثيق بأفكارهم وآدابهم ومعنوياتهم ، يخرجون بنتيجة وحيدة فحواها أنه ينبغى أن تمر قرون عديدة حتى يتبدل مارسخ فى أفكار الناس وصار سببا فى جمودهم وركودهم إلى وعى وحركة وفكر صحيح . لكن الواقع يبين لنا خلاف ذلك : ففى آسيا وأمريكا اللاتينية كانت هناك دول تعتبر منتدى قمار للغرب ، دول كانت بؤرة فساد خاصة للرأسماليين الغربيين ، دول كانت قد وضعت أعظم مواهبها وأعظم أحاسيسها فى خدمة العمالة للأجنبى ، دول كانت عبر قرون من الاستعمار قد اعتادت على عبادة الأجنبى والاستسلام أمام قوة الأجنبى ، بل وأخذت هى نفسها تؤمن بذلتها وضعة أصلها ، ولو أن عالم اجتماع نظر فى سحنة هذا المجتمع ، لم يكن ليحدوه أدنى أمل فى أن حركة ماسوف تحدث فى هذا المجتمع ولعدة قرون تالية .

معجزة الإيمان والوعى :

أجل ، فى مثل هذه المجتمعات ، حدثت فجأة معجزة ، وأية معجزة مثيرة للدهشة لم يستطع علماء الاجتماع فهمها ، فإن المجتمع الذى كان يحس بالفساد حتى أعمق أعماقه وبالاهتراء والجهل والغفلة حتى النخاع ، وبتكرار ماهو مكرر وعبادة التقليد وعبادة الوهم ، والعبودية ، قد نهض فجأة وجرت فى عروقه دماء الحياة الحارة ، فتحرك ، وألقى من فوق وجهه بهذا القناع المبتذل ، وفى الجيل نفسه اتخذ سحنة إنسان حر متيقظ ومسئول ومصمم ، ومن أعمق أعماق مجتمع ميت ليس إلا مقبرة تاريخ ومرحاض له ، ظهرت الحياة فجأة ، وظهرت الحركة .

فجأة ، نفخ عامل روحى فى هذه الأجساد الذابلة النحيلة بحيث أحدث هذه الحركة، ومنتديات قمار الغرب الشهيرة نفسها، وتلك الدول نفسها التى كانت بؤرة فساد وقمار وتهريب دولى ، تبدلت فجأة إلى مجتمع من الحياة والفكر والحركة والوعى . لاشك أن سبب المعجزة هنا عامل واحد وهو الوعى ، لكن ليس ذلك الوعى الذى يرد فى المنشورات الدورية ، أو الذى يستورد طبقا للموضة ، أو يشكل مثل صندوق من المواد الغذائية وتوضع عليه علامته التجارية ويصل من الغرب فيستهلكه المفكرون ، أو يصير مفكرا وواعيا كل من يستهلكه ، لكنه الوعى المستقل لجماعة من الجماعات تصل إلى وعيها فجأة على أساس من تاريخها وتناقضاتها ومشكلاتها ، وبالتأثير على عوامل انحطاط المجتمع فيها ، هذا الوعى يطلق شرارة فى كل مجتمعها بحيث يصير كل فرد فيها « برومثيوس » الذى كان يقبس النار الإلهية ويأتى بها إلى أرضه ويوصلها إلى قومه فيهتك أستار الظلمة ويبدد برودة الشتاء ، وتنتشر هذه الشرارة ، ثم تجذب أنظار المواهب والأبطال والتاريخ وجهودهم إليها ، هذه الشرارة هى الوعى المقترن بالعشق والإيمان ، هذا هو نوع الوعى الذى يحدث فيخلص المجتمع الذى كان قد توقف عدة مئات من السنين بل عدة آلاف من السنين ، توقف إلى درجة أن كل المفكرين وعلماء الاجتماع فيه بل حتى الذين يتصفون بالشوفينية كانوا يقرون بتفاهتهم ويعوون فى عوالمهم الخاصة ، بل إلى درجة أن العالم كله كان يعتبره مجتمعا مبتذلا خلق أصلا لكى يركبه الاستعمار

الغربى ، ذلك الوعى يحدث فيه قوة معنوية تفعل فعل سحر مثير للدهشة ، فتقضى على كل الأشياء التى كان قد اشتد رسوخها فى علاقاته الاجتماعية عبر ألف سنة بل عبر آلاف السنين ، وصارت جزءا من نظامه الحاكم الموروث ومعتقداته الدينية الموروثة والتقليدية ، فراح فى سبات عميق حبيس هذه القوالب القديمة ، فإذا به ينتقل به من الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة .

هذه هى التجربة التى كانت أمام الجيل الشاب بعد الحرب الثانية ، ومنحت كل المفكرين المحبطين الأمل ، وعلى كل المفكرين الذين لايفكرون فى مستوى تحليل الواقع سطحيا ، ولايصابون نتيجة لذلك باليأس الاجتماعى أو اليأس الفلسفى أن يؤمنوا بأنه من الممكن أن تحدث هذه الحركة العظيمة المعجزة فى مجتمعاتهم ، وبالرغم من كل عوامل الإحباط والتناقض فيها تحولها من أجنحة متفرقة فى سبيلها إلى التفرق والتلاشى إلى مجتمعات سعيدة ، تقف على قدمها كمجتمعات إنسانية ، إنسانية بالمعنى الذى يقصده فرانز فانون بقوله : مجتمع ذو عرق جديد وجلد جديد وفكر جديد .

قلت فى طهران منذ فترة:إننى لم أكن قد صادفت هذه المعجزة العظيمة طوال عمرى ، ولم تبد هذه الظاهرة أمامى فى سنوات(٥٥ و٥٧ و٥٨) وربما (٦٠). حتى ارنست رينان المفكر الإنسانى كان يقول : إن الغرب هو جنس أصحاب العمل وان الشرق هو جنس الفعلة ، ومن هنا فإن الطبيعة تكثر فى إعداد جنس الفعلة وتقلل من أعداد جنس أصحاب العمل . وكان السيد زيجفريد يقول : إن للغربى عقلا صناعيا وإداريا خلاقا للحضارة ، أما الشرقى فذو عقل عاطفى متوسط عاجز عن الفكر والنظام والاستنتاج العصرى ، وكان موريس تورز رئيس الحزب الشيوعى الفرنسى واحد عظماء قادة الحركة الشيوعية الدولية ، بل واحد من أبرز الوجوه المعدودة البارزة فى هذه الحركة يقول : إن الناس فى الجزائر وإفريقيا وشمال إفريقيا ليسوا شعوبا بل إنهم لايزالون فى دور التكوين ، أى أن سيطرة الاستعمار الفرنسى عليها ذات هدف ، ولابد لهؤلاء من أن يعيشوا فترة فى أحضان الإمبريالية الأم القاسية ويربوا على يديها من أجل أن يصيروا شعوبا متحضرة ، هذا هو فكر السيد الاشتراكى ، ثم رأوا كيف أن هذه الأمة نفسهاالتى كانوا يطلقون عليها اسم الجرذ الصحراوى ، كم من

التغير أحدثته فى نفسها بمعجزة الوعى المقترن بالعشق والإيمان .

وأنا نفسى رأيت فرنسا التى كان كل فخرها أنها مهد الحرية وحرية الفكر على مستوى العالم ، وباريس التى كانت تفخر بأنه فى كل مقهى من مقاهيها كانت تنعقد نطفة واحدة من الثورات العظيمة فى العالم ، باريس التى كانت تقول أن أحضانها مفتوحة لكل الأيديولوجيات وكل الحركات وكل الثورات ، باريس التى كانت تعتقد أنها قوية لدرجة أن تتقبل دون خوف أكثر الأفكار والمدارس الفكرية والقوى العالمية الثورية ، باريس التى كانت تحتوى على كل هذا العدد من المكاتب والصحف الناطقة بألسنة القوى الفكرية والأيدلوجية من قبيل : مكتب الملكيين مؤيدى أسرة لويس والمطالبين بإعادة الملكية ، والعدميين الفوضويين وحتى أتباع فلسفة اليوجا والثوريين الأفارقة والتابعين لأمريكا اللاتينية وما إلى ذلك ، باريس التى كان فخرها هو هذا ، وكانت تنشد أراجيز الفخار أن فيها حضارة أوربية وديموقراطية غربية وليبرالية قومية ، أجل: باريس نفسها التى لم تكن قد أقامت علاقة سياسية بعد مع الدول الثورية فى آسيا لكنها تطبع وتنشر صحفها ، فى باريس هذه نفسها ذهبت ذات يوم لأشترى مجلة ثورية أفريقية ، فقيل: إن وزارة الثقافة الفرنسية قد صادرتها لأنها ذات أثر منحرف وسىء فى أفكار الشباب والمفكرين وأنها من عوامل الخطر .

إذن : كيف حدث فى أمة ليس لها حق الحديث ، اللهم إلا بما يوضع فى أفواهها من كلمات تأتى من لندن وباريس وامستردام على حدقول سارتر ، أن اجتمع بعض « الأولاد » وأصدروا مجلة تخشى فرنسا من انتشارها فيها ؟

هذه هى المعجزة التى يصنعها الإيمان والوعى ، هو الذى يجعل الخيوط التى نسجها النساجون المسيطرون عبر التاريخ بالرغم من مجتمع ما أنكاثا ويحرقها ويجعلها رمادا ... ونموذج لكل أولئك الذين لايريدون أن يمكنوا لقالب من القوالب القديمة أو المستوردة من أوربا ، ويريدون أن يفكروا بأنفسهم ويفهموا ويختاروا ، ولايبقون مجبرين فى مجتمع لاملاذ له ولا قاعدة ولاموقف ، ويبين لهم أن عليهم أن يأملوا فى أنهم لو استقاموا وعملوا عملا متواصلا ، وصاروا جديرين ، يستطيعون أن يستردوا ماحرموا منه من قيم ، أو فى كلمة واحدة يعيشون ، ويبنون حياتهم على أساس من الفكر ، ويتنفسون

على أساس من إيمانهم ، ويموتون على أساس من إيمانهم ، ينبغى أن يأملوا فى أن شرارة العشق والوعى تتألق فى قلب هذا الجمود والنوم والفرقة فجأة ، وفجأة أيضا تذيب جمود الشكل المكتسب الذى يجعل المفكر السطحى يائسا ، ومن بين الانحطاط ، وجهل عدم الأصالة وعدم المسئولية ، يقوم فجأة مجتمع ذو جسد واحد وهدف واحد وحركة واحدة على أساس وعى مقترن بالعشق والقوة .

حسنا ، أريد هنا أن أطرح قضية أساسية ، أتناول قضية أساسية مطروحة الآن بين المفكرين ، بين مفكرى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وطرحت أخيرا فى ايران[١] وهى قضية : العودة إلى الذات . وفى البداية ينبغى أن أوضح أننى إن كنت أنطلق من الدين وأنطلق من الإسلام فإن منطلقى إسلام معدل أو لحقه الإصلاح ، وأعيد فيه النظر بوعى ومرتكز على حركة نهضة إسلامية ، هذه الرؤية الدينية لم تتأت لى عن طريق أننى جلست ووضعت أمامى الفرق المختلفة والأديان المختلفة ، ثم درستها واحدا بعد الآخر ، وبعدها اعتقدت فى الإسلام « كدين أسمى » لكنى سرت فى طريق آخر . وإنى إذ أعلن هذا الطريق هنا ، فلأن المفكرين أو الطلاب الذين لايعتقدون فى الدين هم الذين يستطيعون الإنصات إلى دعوتى ويستطيعون قبولها ، بل إن كل مفكر مستنير وذى وعى مستقل ويريد أن يؤدى خدمة لوطنه ومجتمعه ، ويحس برسالته الفكرية تجاه جيله وعصره ، يستطيع أن يسلك هذا الطريق نفسه الذى سلكناه . الخلاصة أننى لاأطرح قضية الدين فى المجتمع بهذا الشكل على أساس فكرة ما أو عاطفة ما ، لأن منطلقى من الدين من نوع يستطيع معه حتى مفكر علمانى أن يأتى وينطلق معى منه ، والفرق بينى وبينه أن منطلقى يعد إيمانا ومسئولية اجتماعية ، بينما يستطيع ذلك المفكر أن يشترك معى من موقع المسئولية الاجتماعية فحسب .

على كل حال ، أريد هنا كمفكر مسئول عن عصره وجيله أن أحدد الهدف من مسئوليتنا ، وأن أحدد الدور الاجتماعى الملقى على عواتق المفكرين

---

(١) بالرغم من أنها طرحت فى إيران قبل أن يطرحها المفكرون الأوربيون أو يطرحها الأفارقة على الخصوص إلا أنها نسيت ، ولكنها الآن وبعد أن طرحت فى أوربا سرعان مابلغت تأثيراتها وذيولها إلى محافل المفكرين فى إيران أيضا .

والمتعلمين والمثقفين فى المجتمعات الآسيوية أو الإسلامية .[1] وذلك على أساس الشعار نفسه الذى قبله المفكرون الدينيون وغير الدينيين ــ خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية – مثل عمر اوزجان وإيما سيزار وفرانز فانون ويوجين يونسكو ، فهم يعتقدون أن من حق كل مجتمع أن يكون المفكر فيه مرتكزا على تاريخه وثقافته ، وعليه أن يلعب دوره كمفكر ويقوم برسالته على أساس تاريخ السواد الأعظم وثقافته ولغته ، أجل على أساس هذه المبادئ الثلاثة .

على كل حال فإن شعار العودة إلى الذات ، شعار لم يطرح الآن فى عالم المتدينين ، بل إن أكثر المفكرين التقدميين العلمانيين من أمثال إيما سيزار وفى إفريقيا مثل فرانز فانون وجوليوس نيريرى وجومو كينياتا وسنغور فى السنغال [2] وكاتب ياسين الجزائرى وجلال آل أحمد [3] فى إيران هم الذين طرحوا هذه القضية لأول مرة . هؤلاء هم الذين طرحوا شعار العودة إلى الذات ،

---

(١) لاشأن لنا بما قالوا ، أو بما كتبوا فى منشورات مملاة من الخارج ووزعوه وفرضوه كأيديولوجية .

(٢) المترجم : على مدى هذا الكتاب يذكر الزعماء الأفارقة الذين أمسكوا بمقاليد الحكم فى بلادهم بعد استقلالها الصورى على أساس أنهم من كبار المفكرين الأصلاء ، فى حين أنه مهما كانت لبعضهم بعض الاجتهادات الفكرية علينا أن نلاحظ عدة نقاط من أهمها أن أغلب هؤلاء الزعماء قد تقلدوا الزعامة فى بلادهم على أساس اختيار شعبى عام أو سابقة ممتدة فى الكفاح بل كان معظمهم مباركا من السلطة الاستعمارية ربيبا لها ، اما فى جيشها أو فى جامعاتها ، ومعظمهم الجيل الأول المرتد من أسر مسلمة ، ولاأدرى كيف فات على شريعتى أن معظم هؤلاء مسيحيون من أبوين مسلمين ، وأن بعضهم يحكم شعوبا أغلبيتها مسلمة وهو مسيحى ، وجواز السلطة الوحيد أنه مسيحى ، أما « أفريقانية » سنغور فهى « أفريكانية » فرنسية للاستهلاك العالمى وهدفها الوحيد الحيلولة دون أفريقيا وواحد من أهم مقومات ثقافتها وهو الإسلام ، ولاأدرى أيضا كيف لم يلحظ شريعتى المصير الذى لقيه بعض حكام أفريقيا الذين حاولوا الحفاظ على إسلامهم من تشنيع وتلويث ثم إقصاء ، وأفضل هؤلاء الحكام هم بالفعل الذين يتظاهرون بالفكر ووضع النظريات ، وهم أرحم حالا من الميجورات الذين انقلبوا فى يوم وليلة إلى جنرالات ثم سلطوا على شعوبهم بمساعدة الفرقة الأجنبية ، ويعمل التبشير العسكرى فى بلادهم على قدم وساق ، بينما يحرم المسلم فى بلاد غالبيتها من المسلمين من أبسط الحقوق المدنية ، ليس نيريرى وسنغور وكينياتا ذوى الروابط الوثيقة جدا بإسرائيل بالنماذج والمثل التى تضرب هنا ، بل هم من وجوه الاستعمار الجديد .

(٣) المترجم : جلال آل أحمد (١٩٢٨ ــ ١٩٧٤) كاتب وناقد وباحث إيرانى معاصر . بدأ ماركسيا فى حزب توده ، يعد متابعة التيار الثقافى عنده نموذجا لأزمة المثقف الإيرانى المعاصر ، خرج من حزب تودة بعد فشله فى التعبير عن الشعب الإيرانى ، ووجد ضالته فى الحركة الاسلامية التقدمية ، يعد كتابه « غرب زد كى : الابتلاء بالاستغراب » من أخطر الكتب التى كتبت عن الغزو الفكرى فى إيران المعاصرة . توفى فجأة فى كوخ له على بحر الخزر وفاة مشكوكا فى أمرها .

ولايعتبر واحدا منهم نمطا دينيا ، فهم من الشخصيات البارزة فى الحركة الفكرية العالمية ومن القادة المعادين للاستعمار فى العالم الثالث وممن ينعمون بقبول كافة الأجنحة . إذن ، على أساس هذه الدعوة نأتى إلى إيران ، فى مجتمعنا هذا ، وفى جيلنا هذا ، بين هذا الجيل وفى هذا العصر ، لنأت ولنطرح هذه القضية ، وعلى هذا الأساس ، حينما تطرح قضية العودة إلى الذات بالنسبة لى أنا المفكر الدينى وبالنسبة لك أنت المفكر العلمانى - وكلانا مشترك فى المسئولية الاجتماعية ، وقد بلغنا نقطة تفاهم مشتركة ، سوف تتبدل القضية من العودة إلى الذات إلى العودة الى ثقافة الذات ، وفى مسيرة هذه الدراسة ، سوف تصل إلى :

« العودة إلى الثقافة الإسلامية والأيديولوجية الإسلامية » وإلى الإسلام لاكتقليد أو وراثة أو نظام عقيدة موجود بالفعل فى المجتمع ، بل إلى الإسلام كأيدلوجية وإيمان بعث الوعى وأحدث المعجزة فى هذه المجتمعات ، ليس الأمر فى الحقيقة استنادا على دين موروث أو إحساس روحانى جاف . على أساس شعار المفكرين الذى طرح على المستوى العالمى ، وعلى أساس تلك القضية التى تناولها مؤلف كتاب « المسيح يصلب من جديد »[1] ، على أساس هذا الشعار نفسه أقول فى إيران « الحسين يستشهد من جديد » . أريد أن أوضح معنى « العودة إلى الذات » حسنا جدا ، هذا هو شعار الجميع ، شعار إيما سيزار فى أمريكا اللاتينية ، وشعار فرانز فانون مواطن جزر الأنتيل ، علينا أن نوضح الأمر بطريقة أخرى فى هذه المنطقة المتميزة ثقافيا وتاريخيا وجغرافيا ، وإلا أصبح شعار العودة إلى الذات شعارا مبهما وعمومية ذهنية ، كما أصبح اليوم ظاهرا فى صورة مبتذلة تهدف إلى إلغاء أصالة البشر الثقافية فى العالم كله من أجل إرساء دعائم المبدئية المطلقة لقيم الغرب .

فالغرب منذ القرن الثامن عشر يريد بمساعدة علماء الاجتماع والمؤرخين والكتاب والفنانين بل والثوريين والإنسانيين فيه أن يفرض على العالم النظرية القائلة بأن الحضارة واحدة هى هذا الشكل نفسه من الحضارة الذى صنعه

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية ، وأوصى كل الإخوان بقراءته . المترجم : وترجم أيضا إلى العربية ، ونشرته هيئة الكتاب .

الغرب وعرضه على الدنيا قائلا : إن على كل من يريد أن يصير متحضرا عليه أن يستهلك الحضارة التى نصنعها ، وإذا أراد أن يرفضها فليظل وحشيا وبدائيا . والثقافة أيضا ثقافة واحدة هى ثقافة الغرب ، وعلى كل من يريد أن يكون صاحب ثقافة فى القرن العشرين أن يشترى الثقافة من الغرب كما يشترى البضائع من الغرب ، كما أن كل إنسان يريد أن يمتلك تليفزيون يشتريه من الغرب ويأتى به إلى منزله ، عليه أيضا عندما يريد أن يكون صاحب ثقافة ، وعندما يريد أن ينمى القيم الثقافية فى نفسه ، أن يقبل هذه الأنماط التى يفرضها الغرب ، وإلا فهو فاقد للحضارة والثقافة أى بدائى ووحشى . إذن : إما أن تبقى بدائيا أو متحضرا غربيا ، هذان هما المصيران المحتومان ، وعلى كل إنسان أن يختار واحدا منهما ، كل جهد الغرب فى القرنين الأخيرين كان مبذولا لخلق هذا الإيمان بالغرب وعدم الإيمان بالذات . ومن هنا يقول السيد موريس تورز إنه لايوجد شعب باسم الجزائر فى أفريقيا ، لكنه شعب فى حالة التكوين ، ذلك لأنه يريد أن يتجاهل تماما حضارة شمال أفريقيا العظيمة التى أخرجت منذ عدة قرون أعظم الفلاسفة وأعظم علماء الاجتماع فى العالم ومؤسس علم الاجتماع ، وحينما كانت هناك حضارة عظيمة فى شمال أفريقيا ، كان كل مالدى الغرب هو « أغانى رولان » وكانت آدابه عبارة عن أغانٍ شعبية تغنى للقوافل المسيحية المتجهة إلى بيت المقدس ، فى ذلك الوقت كان المكان الوحيد المتحضر فى أوربا هو أسبانيا ، التى كانت تلميذة مقلدة للمغرب أى شمال أفريقيا ، لكن هؤلاء يريدون محو كل الحضارات ، حتى يفرضوا على العالم أنماطهم التى صنعوها ، وكانت كل تلك الغارات والمذابح التى اجتاحت كل الأمم من الصين إلى مصر ، تلك الأمم التى صنعت حضارات عظيمة فى التاريخ .

بالنسبة للغرب ، تعد الزراعة الأحادية « أى الاقتصار على محصول واحد » من معالم الاستعمار ، لأن الاستعمار يعتبر نفسه سيد الدنيا ويعتبر العالم مزرعة له ، ومن هنا فإن توحيد المحصول فى دولة ما واحد من معالم الاستعمار ، فهو يرى على سبيل المثال أن كوبا تنتج قصب السكر جيدا ، فيأمر بأن تزرع كل الأراضى بقصب السكر ، وعندما لايجد الشعب فيها خبزا يأكله عليه أن يستورد القمح من أمريكا ، أو الشعب المسلم فى شمال أفريقيا ، مادامت لديه شمس ساطعة ، ينبغى أن تختفى كل محاصيله وأن يزرع الكروم فقط الذى

يستخدم فى تقطير الخمور ، ومن هنا نجد أنه عندما أمسك سكان شمال أفريقيا بزمام الأمور ، وجدوا كل أراضيهم قد زرعت بالكروم (بالرغم من أنهم جيمعا مسلمون ولايشربون الخمر أصلا وليس لديهم ما يأكلونه) .

وهناك تشابه لفظى دقيق وهو طريف جدا وهو ان كلمة culture الفرنسية تعنى المزرعة وتعنى أيضا الثقافة . وتوحيد الزراعة والحاصلات فى العالم الغربى ، وتوحيد الحضارة والثقافة والتاريخ فى الدنيا كلاهما من فعل الاستعمار ، وكما يقومون بتوحيد المحاصيل فى البلاد المستضعفة بحيث تموت جوعا إن لم تبع محصولها للغرب ، فمن ناحية « الزراعة المعنوية » أى الثقافة ينبغى أن تمحى كل مزارع العالم الثقافية ، التى كان فيها عبر عدد من القرون وعبر آلاف السنين مواهب بشرية وتجارب متنوعة ، وأنتجت فنونا متنوعة وأذواقا متنوعة وألوانا من الجماليات ومعنويات عظيمة وثقافات روحية ، كلها ينبغى أن تمحى وتأتى « جرارات » الاستعمار الثقافية فتحصد كل حضارات آسيا وأفريقيا وإيران وكل المجتمعات الإسلامية من أجل أن تزرع فيها الثقافة الغربية فحسب . وعلى الأمم مهما كان أصلها وتاريخها وحضارتها أن تكون جميعا فى صورة أوان خالية متشابهة لاتحتوى على شىء اللهم إلا حلق مفتوح ظامئ وفوهة خالية من أجل أن توصل فقط وفقط بذيل هذه الآلة الغربية التى تنتج الفكر وتنتج الاقتصاد فتمتصها ، من أجل أن تصير عامل استهلاك لاعامل إنتاج ، ومادامت الحضارة تعنى استهلاك منتجات الغرب ، فبالتالى كل من يستهلك منتجات الغرب يكون متحضرا ، ومن أجل أن يصيروا مستهلكين لإنتاج الغرب ، على الجميع أن يعتقدوا أن ثقافتهم المحلية وشخصيتهم المحلية غير ذات مفهوم ، وأنهم لايستطيعون بناء حضارة أو صناعة ثقافة ، وأن عليهم من أجل أن يكونوا متحضرين أن يقبلوا أدوات الغرب وأنماطه وقيمه . ومن هنا نرى أنه لايوصف إنسان فى مجتمعنا بأنه متحضر إلا إذا كثر استهلاكه ، وليس إذا سمت أحاسيسه وعواطفه ، أو يقال:إن طهران صارت أكثر حضارة بالنسبة للأعوام الثمانية عشرة السابقة لأن الناس فى سنة(١٩٥٥)كانوا منحطين لدرجة أنهم كانوا يستهلكون فقط سبعة عشر أو ثمانية عشر ظفرا صناعيا ، أما الآن فقد تضاعف هذا العدد خمسمائة مرة ، أو أن معدل سلعة أخرى قد تضاعف آلاف المرات أما أولاء

الأمهات اللائى كن يربين أمثال « ستارخان »[1] وغيره فى حجورهن وكن يصبغن شعورهن بالحناء ، فقد كن غير متحضرات .

وهذا الشاب الأفريقى الذى كان يفخر بجواده وكلبه وغنمه قبل أن يدخل الاستعمار أفريقيا لم يكن متحضرا ، أما الآن وقد ذهب الفرنسيون إليهم ، فإن رئيس القبيلة وقد استبدل سيارة غربية بجواده ، يجلس إليها ويقودها وهو سعيد لأنه متحضر . وكان أحد السادة يقول : إن الله بالرغم من أنه أعطى هذا الأوربى المال والقوة والذكاء قد حكم عليه بأن يذهب إلى المناجم والمصانع وأن يصنع السيارات والآلات لينتفع بها المسلمون .

على كل حال ، ينبغى على الصينى واليابانى والإيرانى والعربى والتركى والأسود والأبيض أن يتحولوا جميعا إلى مخلوقات فارغة خالية ، مستهلكين محتاجين ، كل فخرهم وعظمتهم وتجلى إنسانيتهم ومثلهم فى الاستهلاك الغربى ... ومن هنا فعلى كل القيم والمفاخر الأخرى التى تنتسب إليها هذه الأمم أن تمحى ، بحيث يبلغ الانسان العظيم درجة يفخر فيها بسلعته المعدنية ، وينبغى أن تحدث كارثة دولية عظيمة حتى يفرغ هؤلاء البشر المرتبطين بكل المذاهب والتواريخ من ذواتهم . وإخلاء الذات مصطلح وجودى ، لكنه ليس من وجودية سارتر ، بل من هايدجر وياسبرز (ياسبرز وجودى دينى عظيم) اللذان أهتم بهما كثيرا . ماذا يعنى إخلاء الذات أو تفريغها ؟ يقول هايدجر : إن لكل إنسان وجودين ، أحدهما ال « أنا » كموجود حى فى المجتمع ، وبهذا الوجود يحسب من بين المجتمع ، وحينما يقال : إن تعداد إيران ثلاثون مليون نسمة ، فأنا واحد من أفراد هذا المجتمع الذين يشكلونه ، أحس أنى واحد من هذه الملايين الثلاثين . وكل البشر سواء فى هذا الوجود ، كل منهم له قدر من الاستهلاك والوزن والقوام والذوق وأشياء أخرى ، وهذا هو الوجود المجازى للإنسان ، أما الوجود الآخر فهو – على حد قول هايدجر – الوجود الأصلى أو الحقيقى ، والوجودية قائمة على أساس هذا

---

(١) المترجم : ستارخان بطل من أبطال الحركة الدستورية (١٩٠٥ – ١٩١١) تصدى للقوات الروسية فى تبريز وقاومها عسكريا ، وزحف بقواته إلى طهران لانقاذ الدستوريين . انظر الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية للمترجم .

الوجود ، أى مبدئيتها هذا الوجود ، وذلك لأن الوجود البدائى الذى يوجد عند الجميع ، ويصنعه الوالدان بالتعاون معا هو الوجود الأول ، أما الوجود الثانى فهو لايوجد عند بعضهم أصلا ، وهو على درجات فيمن يوجد عندهم ، هذا الوجود الثانى وجود تصنعه الثقافة وتخلقه عبر التاريخ ، وهذا هو الوجود الحقيقى والواقعى والإنسانى عند الانسان . فالوجود المجازى هو الوجود الذى كون فى فترة العمر المكتوب فى بطاقة هويتى : ثلاثين سنة أو أربعين سنة ، لكن الوجود الحقيقى أو الأصيل هو الوجود الذى تبلور فى طول التاريخ وتكوين الثقافة وإبداع الفن وصناعة الحضارة ، ذلك الشىء الذى عندما أضعه أمام الثقافات الأخرى ، أمام الغرب أو الشرق ، أمام الأمريكى أو الأفريقى فيعطينى هوية ثقافية هو الوجود الثانى ، وبهذا الوجود الحقيقى أستطيع عندما أقف فى مواجهة الإنجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى أو الصينى أن أقول « أنا » كما يستطيع هو أن يقول أنا ، ولكل منهما معنى يشير إلى وجود واقعى وعينى ومميزات وقيم محددة ، هذا هو الوجود الذى خلق على مر التاريخ ، ويتحقق فى الوجودات المجازية فردا فردا ، وليس التعليم والتربية إلا تدعيم الوجود الحقيقى وتربيته وتنميته فى الوجود المجازى ، وتربية تاريخ أمة ما وثقافتها داخل الأبدان المذكورة فى بطاقة الهوية ومزجها بها ، هذه الشخصية هى شخصية « الأنا » الإنسانية ، وهى التى تميزنى عن غيرى ، لكن ال « أنات » الأخرى سواء ، وتستطيعون أن تتصوروا شخصيات ما ذات وجود مجازى لكنها لم تكن قد منحت الفرصة بعد لبلوغ الوجود الحقيقى ، لأن الوجود الحقيقى من صنع يد الإنسان نفسه ، وعن طريق العوامل الثقافية والتاريخية لذاته التى يربى نفسه على أساسها ، ومن هنا يقول سارتر: إن الوجود المجازى من صنع الطبيعة أو الله وإننا بأنفسنا نصنع الوجود الحقيقى، الوجود الحقيقى هو ماهيتى وهويتى الإنسانية وشخصيتى الثقافية ، وكل من يملك شخصيته الثقافية الخاصة إنسان مستقل ومنتج ، والإنسان المنتج هو الذى يصنع الفكر والأيديولوجية والايمان والحركة كما يصنع العربة ، وهذا هو ماأقوله : مالم تصل الأمة الى مستوى الإنتاج المعنوى والفكرى والثقافى ، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى مستوى الإنتاج الاقتصادى ، وإذا وصلت اليه ففى مستوى مايفرضه الغرب ، وفى صورة خادعة أى فى صورة استعمار جديد ، وإلا فإن المجتمع

المنتج هو هو المجتمع الذى يفكر بنفسه ويخلق بنفسه مثله وذهنه وقيمه وفنونه ومعتقداته وإيمانه ووعيه الدينى وآراءه التاريخية والاجتماعية ونظامه الطبقى واتجاهاته الجماعية ، هذا المجتمع الذى يصل إلى الانتاج الصناعى والاستقلال السياسى يصل إلى إنتاج رأس المال وإنتاج الحضارة المادية ، ومن هنا لايوجد مجتمع قط يرادبه ألا يصل إلى الإنتاج الاقتصادى الصناعى إلا وسلبت من أجياله فى البداية إمكانية الإنتاج الفكرى والذهنى ، ومن أجل ألا يستطيع جيل قط أن يصل إلى استقلاله فى مواجهة الغرب الحاكم المطلق على العالم ، ينبغى أن تدمر فيه كل قواعده الأساسية الإنسانية والثقافية التى تمنحه شخصية مستقلة للأنا الإنسانية الحقيقية وأن يحول إلى إنسان غث وفارغ مغسول ومكنوس ومدهون : مثل قبر الكافر مزدان الظاهر ، أما فى الباطن فغضب الله عز وجل .

يصف مولانا جلال الدين[1] هذا الصنف من الناس بأنه مثل قبور الكفار . فقبر المؤمن باطنه نور وظاهره خرب وقبر الكافر ظاهره زخرف وزينة وأحجار قيمة وباطنه قهر الله عز وجل ، وهذا النوع من البشر الذى يصنعه الغرب فى الأمم غير الغربية نوع مغسول ومكنوس ومدهون ومزدان فى ظاهره ، لكنه فى الباطن خال وغث ولا محتوى فيه .

وهناك نظرية جدلية عند سوردل تشير إلى العلاقة بين الشرق والغرب فى إطار الاستعمار الثقافى وفحواها أن : على الغربى ألا ينكر ثقافة الشرقى وتاريخه وشخصيته لأنه حينئذ يتخذ موقف الدفاع ، بل عليه أن يقوم بعمل يجعله يعتقد أنه مرفوض ويعتقد أنه عرق من الدرجة الثانية وأن الغربى هو الجنس الأعلى والدرجة الأولى ، وأن للغربى عقلا يفكر ويصنع وعلى الشرقى فقط أن ينظم الشعر وأن ينسج نظريات العرفان « التصوف » . ومن هنا فإن أغلب مستشرقينا يوجهون كل اهتمامهم لمخطوطات الصوفية عندنا ويحققون الواحدة منها عشرات المرات (فى حين أن ٧٩ ٪ من مخطوطاتنا العلمية تتحلل فى المكتبات وتأكلها الفئران ولايعلم عنها أحد شيئا) ، هذا من أجل أن يجعلوا الشرقى

---

(١) المترجم : مولانا جلال الدين محمد بن الحسين البلخى الرومى (٦٠٤ - ٦٧٢) شاعر الصوفية الأكبر . من أشهر أعماله : المثنوى « ترجم جزء منه إلى العربية على يد محمد عبد السلام كفافى » وديوان شمس الدين التبريزى .

يفهم أنه كان يهتم فحسب بالأحاسيس المجردة الأثيرية الغيبية ، وعليه عندما يعود إلى الحياة وينزل إلى الأرض أن يتبع نظمهم ، فهو محتاج إلى سلعهم الاستهلاكية . وقد قسموا الكون إلى قسمين : العالم المادى وهو ميتة وجيفة ويخص الغربى ، وعالم المعنى والأبدية وماوراء الطبيعة وكلها لك أيها الشرق ، (هكذا قسموا بين عالمى الشرق والغرب . إن فكرة القومية التى تظهر فى القرن العشرين ليست من قبيل المصادفة ، كيف تظهر هذه الفكرة الجاهلية فى القرن العشرين ؟ كانت معتقد العربى الجاهلى وجاء الإسلام وقضى عليها ، فكيف تبعث من جديد فكرة سمو الغرب وفلسفة الأنوية «اعتباره نقطة الانطلاق »؟ Egocentrisme والغربوية occidentalisme ؟) والجواب : من اجل أن فحوى أطروحة العرقية والعنصرية هو : أنه عندما يفهم الشرقى أنه من جنس أدنى فى الدرجة الثانية ويعتقد أن الغربى من جنس أعلى وفى الدرجة الأولى وصانع للثقافة ، فان علاقته به سوف تشبه علاقة الطفل بأمه ، علاقة من هذا الصنف سوف تقوم تلقائيا بين المستعمَر « بفتح الميم » والمستعمِر « بكسرها » ، فالمستعمر يسمى دولته « الوطن الأم » ، أما الآسيويون والأفارقة فهم أطفال مفتقرون إلى التربية عليهم أن ينشئوا فى حجره ، وفى جدلية سوردل تقوم هذه العلاقة : العلاقة بين الأم والطفل ، فالأم تنهر طفلها ، والطفل يلوذ بحضن الأم خوفا منها وطلبا للأمان ، وهذه الجدلية تمحو نفسها بنفسها وتصير عامل جذب وتبعية ، وعندما يحس الشرقى أنه غثاء وهباء ، منتسب إلى دين منحط ، ومنتم إلى عرق ثقافته وجمالياته وفنونه وأشعاره ونظمه الاجتماعية وتاريخه وشخصياته التاريخية ومفاخره الماضية كلها منحطة وأنه لايملك شيئا قط ، يحس تلقائيا بالعار ، ويتهم نفسه بأنه من عرق منحط ، ومن أجل أن يدفع هذه التهمة عن نفسه ، يتشبه بالغربى ، حتى يقول بعد ذلك : لست من هذا العرق المتهم ، إننى من صنفكم ، ويتظاهر بأنه يشبهه ، يشبهه فى الحياة والسلوك والتصرفات والحركات والسكنات والزينة وأسلوب العيش ، ومن هنا فالتقليد ظاهرة نتجت عن جدلية سوردل فى العلاقة بين الشرقى والغربى .

العودة إلى الذات :

بناء على هذا : اليوم وقد أخرج الغرب كل البشر من قواعدهم الذاتية والثقافية ومن قدرتهم على التوالد الذاتى والانفعال الداخلى وجعلهم فى صورة

عبيد محتاجين أذلاء ضعفاء ملتصقين ومقلدين ، ماالذى ينبغى عمله ؟ الشعار الذى طرحه المفكرون فى الخمسة والعشرين عاما الأخيرة كآخر تجربة ثقافية مضادة للاستعمار هو العودة إلى الذات ، حسناً جداً لكن النقطة التى أريد أن أدق عليها هى : العودة إلى أى ذات ؟ ماتقوله إيما سيزار أو ماأقوله أنا فى إيران؟ ذلك لأن ذاتها تختلف عن ذاتي ، وحينما أقول أنا هنا ، أو تقول إيما سيزار أو فرانز فانون كمتعلم أفريقى أو من جزر الأنتيل : العودة إلى الذات ، فاننا هنا نفترق عن بعضنا ، فى حين أننا إذا أخلينا من ذواتنا كما يقول ياسبرز فنحن ثلاثة من المتأوربين المتعلمين فى فرنسا ، وكل منا فى هذه الناحية يشبه الآخر ، لأننا كلنا مرتبطون فى هذا بالغرب ، وكنا كلنا مقلدين متشبهين ، لكننا الآن ونحن نريد أن نعود إلى قواعدنا الثقافية ، ينبغى أن يفترق كل عن الآخر . على كل منا أن يعود إلى منزله ، ولذلك على كل منا نحن المفكرين عندما نقول : « فلنعد إلى ذواتنا » وكلنا مشتركون فى هذا ، على كل واحد منا أن يطرح أمام نفسه هذا السؤال : أى ذات ؟ وهذه هى القضية التى لم تطرح فى إيران .

عندما طرح المفكرون الأفارقة قضية « العودة إلى الذات » ، كان الشعار الذى ينادون به مختلفا عن الشعار الذى ينادى به مفكرو العالم الإسلامى وإيران ، ففى أفريقيا طرح الاستعمار قضية الثقافة بصورة وطرحها فى الأمم الإسلامية والشرق المتحضر بصورة أخرى ، وماطرحه مفكرونا المعاصرون فى الخمس عشرة سنة الأخيرة هو تماما ترديد لأطروحة إيما سيزار وفرانز فانون وأمثالهما ، فى حين أن ترديدها بالنسبة لنا لايمثل علاجا للداء (بالرغم من أننى أؤمن تماما بهذه الأطروحة) ، وذلك لأن الغربى تحدث معنا-نحن المسلمين والإيرانيين والشرقيين-بأسلوب وتحدث مع إيما سيزار السوداء الأفريقية بأسلوب آخر . فهو يخاطب الجنس الأسود قائلا : إن عقلك لايمكن أن يصنع متحضرا ، فالأجناس فى الدنيا صنفان : جنس صانع للحضارة وجنس غير صانع للحضارة والجنس الذى لايصنع الحضارة يستغل لخدمة الجنس صانع الحضارة ويستعبد له . لكنه لايقول لنا : لستم من صناع الحضارة . بالمصادفة إنه يجاملنا كثيرا ويغرر بنا حتى نخدع ونذوب خجلا . فقد جاء الغربيون وأنفقوا أعمارا من المشقة على نقوش حجارتنا حجرا حجرا ، وتعبوا ، واكتشفوا الآثار ،

وأعظم مؤلفاتنا ومخطوطاتنا طبعت فى لندن وباريس وقدمت على أنها أعظم آثار العالم الثقافية ، وللسيد « جب » موقف من أجل طباعة مخطوطاتنا القديمة ، إذن فهم يعتبرون تعظيم تراثنا من أعمال البر ، إذن فنحن لم نحقر ، بل إن الغربيين يعظموننا دائما ويهتمون بماضينا أكثر من اهتمامنا به . الغربى نفسه الذى يقول للزنجى المفكر : لست صاحب ماض ، كنت دائما عبدا ، عبدا للعرب أو للمصريين والآن أنت عبد للأوربى . إذن فماذا يصبح معنى العودة إلى الذات ؟ إنه يقول للأفريقى : لست صاحب حضارة ، لكنه يقول لنا : كنتم أصحاب حضارة . يقول له : إنك لاتستطيع أن تصنع حضارة ، لكنه يقول لنا : لقد صنعتم حضارة ، من هنا أنكر على الأفريقى حضارة ماضية ، أما بالنسبة لنا فقد مسخ ماضينا والمسخ أسوأ من الإنكار ، ليته قال لنا : لم يكن لكم فى الماضى دين عظيم ، ولم يكن لديكم حضارة أو علم أو كتاب أو آداب ، لم يكن لديكم شىء قط ، حتى تثبت لجيلنا أننا كنا نمتلك كل شىء ، إنهم لم يفعلوا ذلك . إننى حين أقول الماضى فلست أقصد الماضى الذى قبر ، بل أقصد الماضى الذى لايزال يوجد ، الماضى الذى هو «كلاسية» حية والذى هو محسوس الآن نحيا به . هذا الماضى نفسه الذى يصنع شخصيتنا الثقافية والذى ننطلق منه ، أجل ، الماضى نفسه الذى مسخوه أمام عيوننا ويصورونه فى صورة سوداء منحطة ومقززة وقبيحة ، إنه يقول لإيما سيزار : ليس لديكم شىء قط ، ويقول لنا : لديكم كل شىء ، لكنه يصور أمام عينى سحنات مقززة بحيث أهرب من هذه السحنات نفسها إلى أحضان الغربى . والآن لماذا لايواجه الشاب الأفريقى مشكلة الهرب من القديم أو الرجعية أو الهرب من الماضى ؟ المفكر الأسود يفخر ببساطة بكونه أسود وبكونه أفريقيا وحتى بكونه قبليا ، هذا بالرغم من أن ماضى الأفريقى ليس ماضيا يبعث على الفخر [1] فى حين أن المتعلم الايرانى المسلم الشرقى لا يشبه الايرانيين أصلا ولا يشبه المسلمين أصلا ، انه يهزأ بكل شىء ويتظاهر بالتفرنج .

---

(١) المترجم : تعد أفريقيا الشرقية والوسطى حضاريا جزءا من الحضارة الإسلامية ، وقد دامت إمبراطورية مالى الإسلامية ثلاثة قرون ، وكانت (تمبكتو) عاصمتها حاضرة من حواضر الإسلام شأنها شأن بغداد ودمشق ، كما كانت شنقيط الى عهد قريب جدا مركزا لعدد كبير من المشايخ خدموا العلوم الإسلامية . والعلاقة بين إيران وشرق أفريقيا علاقة حضارية وثيقة جدا ظلت دائمة لعدة قرون ، ولاأدرى كيف صدق

كان أحدهم قد جلس إلى جوارى فى الطائرة ، فقلت له : أعطنى جريدتك ، ورأيت أن لهجته قد أصبحت أوربية بحيث لايستطيع الحديث معى ، وقلت فى نفسى : بالقطع من كثرة ماأقام فى الخارج نسى الفارسية ، ولكن بعد ذلك كان أحد الأوربيين يطلب منه شيئا فرأيت أنه أيضا لايعرف لغة أجنبية ، انظروا إلى التظاهر . كم رأينا من الناس قضوا سنتين أو ثلاث سنوات فى أوربا وبأى فخر يقولون إنهم نسوا الفارسية ، وأنا أرد عليهم قائلا : أيها الأحمق ، وأنت على هذا القدر من الاستعداد بحيث تنسى فى ثلاث سنوات اللغة التى تعلمتها فى خمس وعشرين سنة ، كيف إذن تعلمت اللغة الأجنبية فى ثلاث سنوات ؟ لماذا هذا التظاهر ؟ مم تخاف ؟ إنه يخاف من نفسه ، إنه ضائق بنفسه وبكل ماتنسب إليه نفسه وبكل مايذكره ومن يذكره بانحطاطه وقبحه ، إنه ممتن لكل من لايذكره بنفسه ، يهرع إليه ويفخر بصداقته أو التظاهر بصداقته ، لأنه لايعلم العرق الذى ينتمى إليه .

هذه الذات لماذا إلى هذا الحد قبيحة أمام عيوننا ومنفرة ، بحيث إن كل من ينتسب إليها وكل من ينتسب إلى ثقافتنا أو ماضينا ، وكل من ينتسب إلى ديننا حتى كعقيدة وحتى فى صورة تخصص علمى يتهم بين نسل الشباب لماذا عندما يطرح مفكر هنا شخصية أبى ذر الغفارى – وهو شخصية لو طرحت اليوم فى أوربا لاعتبرته القوى التقدمية فيها كشخصية ثورية وتقدمية عظيمة — يتهمه الشباب هنا وجيل المفكرين بعبادة الماضى ؟ لكن إذا جاء هذا الشخص نفسه وترجم أغانى « بليتس » البغى اليونانية إلى الشعر الفارسى فسوف يقدم كشخصية عصرية وتقدمية ومستنيرة لماذا يقوم جيلنا من المفكرين وهو ملتزم وذو أيديولجية يفكر فى مصير مجتمعه وذو التزام اجتماعى وطبقى بإنفاق كل حياته فى قضية الشعر الجديد والشعر القديم والفن للفن أو لغير الفن والسيد يونسكو والسيد جوزيف دو كاسترو ، ليست أبحاث اجتماعية هذه التى يقوم

المفكرون الأفارقة هذه الفرية القائلة إن أفريقيا لم تكن ذات يوم مركز ثقافة وحضارة ، ولم يفطنوا إلى أن هذه الأكذوبة قد وضعت خصيصا لفصل افريقيا عن العالم الاسلامى ، وإفهام الأفارقة أنهم كانوا مجرد عبيد للعرب لتبرير عبودية أوربا لهم وضرب الإسلام من الظهر ومن هنا نرى شريعتى يعتبر أفريقيا جرما منفصلا عن العالم الإسلامى ، وإن صدق هذا على جنوبيها فهو لايصدق على شرقها ووسطها وشمالها

بها مفكرونا بل هى أقذر أنواع الهيروبين التى تزرق فى دماء هـذا الجيل مرة ثانيـة؟، لماذا يتظاهر هذا المفكر الذى يعتبر نفسه ملتزما صاحب رسالة ومسئولية بقراءة بيكيت في حين أن بيكيت ليس سوى « بوق عليشاه »[1] على الطريقة الغربية ؟ وهو عامل التخدير نفسه الذى حقنوا به دماء الإيرانيين فى القرنين السادس والسابع الهجريين ليسمموا هذا الدم ، فهم يستوردونه اليوم على صورة لعبة بيكيت ، وعن طريقها يتظاهر مفكرونا أصحاب النظرة الطبقية والأيديولوجية العلمية ، وكل مافى الأمر أن بيكيت إنسان لاعلاقة له بى ولا بتلك الذات ، أما أبوذر بالرغم من أنه رجل ثورى من الناحية الإنسانية والاجتماعية وحتى الطبقية ومنطلقه منطلق طبقى ، فلأنه منسوب إلينا ، منسوب إلى تلك الذات ، علينا أن نهرب منه . من هنا قاموا بمسخ ماضينا أمام عيوننا ، لكنهم بالنسبة للأفريقى محوا ماضيه تماما .

ذات مرة عقد في مشهد مؤتمر لتعليم الدين حضره معلمو الدين من كل الأقاليم ، ودعيت لإلقاء محاضرة ، فقلت : سوف أحدد موضوع الحديث من البداية فإن قبل سوف ألقى المحاضرة . وسألونى : ماهو ؟ قلت : بحث بشأن اقتراح إلى وزارة التعليم وتنفيذه سهل جدا ولايريد خبيرا ولاتلزمه ميزانية وهو إلى جوار ذلك أعظم خدمة للإسلام وهو : أن تلغى برامج تعليم الدين فى المدارس ، وتوضع الرياضة البدنية محله . لأنه إن لم يوجد شيء يمكن أن يقال بعد ذلك للسادة المتخرجين والمتخرجات شيء عن الدين ويقال لهم : هذا هو الدين ، وهذه هى الرؤية وهذا هو الوعى ، والخريج سوف يفهمها بدوره على أنها قضايا جديدة ، لكن : ماالذى يجرى الآن عندما تطرح قضية الدين ؟

كنت ذات مرة أقدم بحثا عن الإمامة فى ميدان علم الاجتماع وفلسفته فى « الكوليج دى فرانس » ، والبحث عن الفلسفة الشيعية والمكان كنيسة الجزويت ، وعندما انتهيت من إلقاء البحث فى الكنيسة ، طلب منى الحاضرون أن أواصل الحديث فى جلسة أخرى ، وهكذا استمرت الجلسة إلى الصباح .

---

(١) المترجم : يضرب بوق عليشاه فى الفارسية مثلا على الحديث ظاهر الجد والذى يبدو أنه يحوى على فكر فى حين أنه لايعدو مجرد شقشقة لسان أو تخريف تحت تأثير مخدر ، وعليشاه علم على الدرويش الذى لايعى مايقول .

وفى بيئة جامعية مثل الكوليج دى فرانس عندما طرحت قضية الإمامة كان كل الماركسيين والاشتراكيين والوجوديين والكاثوليك والمتدينين وغير المتدينين يفهمونها كفلسفة علم الاجتماع السياسى ويستطيعون إدراكها . لكنى عندما أتحدث فى مجتمع إيران الدينى يكون ماحدث هو العكس تماما ، وإذا كنت فى جامعة طهران فإننى أستطيع أن أنطلق من الدين أكثر مما أستطيع فى جامعة مشهد ، وإذا كنت فى كلية الهندسة أستطيع أكثر أن أتناول قضايا دينية ، ويستطيعون فهمها أكثر مما أكون فى كلية الآداب أو فى كلية المعقول والمنقول .. عندما قلت فى الكوليج دى فرانس فى جامعة السوربون أن رجلا بطلا فى ثورة كربلاء ، كان وفيا إلى هذا الحد ، وجاهد إلى هذا الحد ، ولعب دوره بهذا الشكل ، ومات برجولة بهذا الشكل ، صفقوا لى ، (لأنهاأمورلم تمسخ فى أذهانهم كما مسخت فى أذهان هؤلاء) .

وبالنسبة لثقافتنا يوجد سوء الفهم المسبق نفسه ، وليتها لم تمسخ ، ليت الأوربى كان قد قال لنا : إنكم لاتملكون ثقافة وأدبا وعرفانا وحضارة ودينا ، إذن لكنا قد اكتشفناها وأعدنا جيلنا إليها بكل احتياجاته وبكل شعوره وبكل وعيه . لكننا الآن عندما نريد الحديث تفيض العيون والأحاسيس والمشاعر بالكراهية ، ثم نفر نحو الأنماط الغربية ، ومن هنا على إيما سيزار أن تقول : لنعد إلى ذواتنا وأنفسنا ، أما أنا فينبغى أن أقول : إلى أى ذات ينبغى أن نعود ؟ أينبغى أن نعود إلى هذه الذات الممسوخة التى علمونا إياها ؟ لا ، لايمكن العودة إليها . ماهو عبادة للتقليد وعبادة للقديم ورجعية ليس جديدا .

ألا تعلمون أنه توجد الآن حركة عودة إلى الذات؟، ذات يوم ذهبت لزيارة أحد السادة العصريين جدا الذين قاموا بالعودة إلى ذواتهم ، وهناك رأيت أنه وضع عراقة حمار « مايوضع تحت السرج » أمام حجرة الضيوف فى منزله ، قلت : أيها السيد المحترم ، هل هذا يعنى العودة إلى الذات ؟ لماذا وضعت عراقة الحمار هنا ؟ ينبغى أن تضعها أمام غرفة نومك ، هذا النوع من العودة إلى الذات عودة إلى الذات على الطريقة الأمريكية ، منذ أن جاءوا واشتروا هذه العراقات واشتروا أيضا الخرز البدائى قبيح الشكل وعلقوه فى رقاب زوجاتهم ، اكتشفنا أنفسنا ، انظروا إلى الاستحمار ، الاستحمار الجديد :

اذن : الى أى ذات نعود ؟ إلى أى ذات ؟ هل نغرق فى مفهوم وهمى مطلق يسمى : الإنسانية؟أو العالمية اليوم كذبة يراد بها محو الشخصية الثقافية الحقيقية للجميع ، حتى تَمّحِى فى إنسانية وهمية كاذبة لا وجود لها ، إن الإنسانية تعني اشتراك كل الامم فى معنى واحد وفى حقيقة واحدة أى اشتراك الإنسان خاوى الوفاض مع الإنسان الرأسمالى ، اشتراكنا نحن المحليين المفرغين من ذواتنا والمفترقين إلى ثقافة معك أنت الذى يعد كل وجودك ملكا لك ، وحينذاك سوف تكون العلاقة بيننا علاقة السيد بالتابع ، علاقة أحد طرفيها مفلس وعامل وأداة والطرف الآخر غني ورأسمالى . ومن هنا فالغربى فقط هو من له وجود ، أو بتعبير سارتر : يوجد فقط خمسمائة مليون من البشر ومليارات ونصف من

المحليين ، وبتعبير الاستعمار : الفرق بين الإنسان والمحلى هو الفرق بين الغربى والشرقى . إذن : إذا أراد الشرقى أن يكون شريكا مع الغربى على أساس « الإنسانية » يكون قد أذاب نفسه وشخصيته الحقيقية فى نظام وهمى عابد للبشر وكاذب وخيالى ، ومحا شخصيته الأصيلة وأصالته الذاتية ، وطالما ظللنا على حد قولهم محليين وهم بشر ، يعد أى نوع من الشركة الإنسانية معهم خيانة لوجودنا، وعلينا أن ننفصل عنهم وأن نتقيهم ، لأن علاقتهم بنا لاتعدو علاقة المستعمر بالمستعمر ، وأية علاقة يمكن أن تكون هذه ؟ علاقة من يمتص بمن يمتص « بضم الياء » ، بين من يقوم بالإنتاج وبين من ينبغى عليه أن يستهلك ، بين من ينبغى أن يتحدث ومن ينبغى أن يسمع ، بين من عليه أن يتحرك وبين من عليه أن يتبع ويقلد ، علاقة بين قطبين متنافرين ، ومن ثم فهى ليست علاقة فى الحقيقة بل رباط كاذب لاوجود له ، مثل علاقات من قبيل العرقية والأخوة الوطنية ... وكل هذه علاقات كاذبة يراد إقامتها بين قطبين عدوين متنافرين لصالح القوى ولضرر الضعيف ، هذه ليست علاقة وإن وجدت فهى عداوة ، فمن المسلم به أن الدودة التى تمتص تكون شريكة فى دم الإنسان الذى تقوم بامتصاصه ، هذه الشركة فى الدم شركة بين عدوين .

على كل حال ، هذه الروابط روابط عداوة يريد الاستعماريون إقامتها باسم العرق أو القومية أو الدين بين القطبين العدوين فى العالم : الاستعماريين والمستعمرين ، وذلك الذى يعتبر نفسه انسانا ويعتبرنا محليين ، ويعتبر نفسه

عقلا ويعتبرنا نحن إحساسا وشعورا كيف يمكن أن يكون على علاقة معنا ، مثاله برتراند راسل » ولست أتحدث عن مستغل أو استعماري عالمي بل أتحدث عن أحد المناضلين في سبيل الحرية المشهورين عالميا » ، إنه يقول : النفط ملك الحضارة ، ليس ملك حسن أو حسين أو قبيلة كذا أو شعب كذا ، ملك الحضارة وملك الصناعة وملك البشرية ، ماهي الخلاصة من هذا القول؟إنه يريد أن يقول : إنه ليس ملكا لكم ، إنه ملك من يستطيع استهلاكه من أجل الإنسانية ، هل تستطيعون استهلاكه ؟ أبدا ، إذن فهو ملكنا . وهذه هي علاقتنا بالغرب في ظل الإنسانية . إذن الى أى ذات نعود ؟

إذا عدت الى أى ذاتي القومية ، فإنني سوف أسقط فريسة للعرقية والفاشية والجاهلية القومية وهذه عودة رجعية . لاأريد أن أقول : الفضل عند الإيرانيين فحسب ، لكني أريد أن أقول إن تاريخي يدل على أنني فنان وعلى أنني صنعت فنا ، أريد أن أقول إنني انسان وإنني تركت في التاريخ علامات تدل على أنني إنسان وخالق فنون ، وعلى أنني خالق نبوغ . ومن ثم : إذا كان في الأمر عودة إلى العرق فهي عرقية وفاشية ونازية ، نوع من الشوفينية الجاهلة الحمقاء ، عودة إلى نوع من القومية المحلية وعودة إلى قلاع عبادة التقليد بضيق أفق ، عودة إلى الجمود القومي والقبلي . لانريد أن نعود إلى العرق . لانريد أن نعود إلى القلاع المحلية الكلاسية ، ولانريد أن نسوق الإنسان إلى عبادة الدم والتراب ، فقد جاء أربعون ومائتان وألف من الأنبياء يدعون هذا الإنسان المتكبر العنيد إلى عبادة الله مظهر الجمال المطلق ، وهو لايطيع ، والآن نريد كمفكرين أن ندعوه إلى عبادة التراب لا . هل العودة الى الذات تعني العودة إلى ذاتنا الثقافية والمعنوية والإنسانية التي اكتشفنا أنها تبلورت في حضارة ما أو في عصر ما ، أو في دين ما أو في ثقافة ما في عصر خاص ؟ إننا نملك ذاتا قديمة ترجع إلى العصر الأكميني أو العصر الساساني أو العصر الأشكاني وعصور قبلها ، فهل نعود إليها ؟ انتبهوا من فضلكم إلى هذه النقطة لأنها آخر ما أتحدث فيه ، وهي نقطة حساسة جدا . هذه الذات ذات قديمة وعتيقة ذات سجلت في التاريخ ، ذات قطع أمد طويل من القرون علاقتنا بها ، تلك الذات الأكمينية القديمة ذات موجودة في التاريخ يستطيع المؤرخون وعلماء الاجتماع وعلماء الآثار والعلماء

عمومااكتشافها وقراءتها وفهمها [1] لكن أمتنا لاتحس بأن هذه الذات هي ذاتها ، وليس لشخصيات تلك الفترة أو أبطالها أو مواهبها ومفاخرها وأساطيرها حياة أو حركة أو نبض بين أهلنا ، فقد جاء « مقص » الحضارة الإسلامية ووضع حدا بين ذاتنا قبل الاسلام وذاتنا بعده ، بحيث أصبحت ذاتنا قبل الإسلام قابلة للرؤية والدراسة على أيدى العلماء المتخصصين فى المتاحف والمكتبات فحسب ، وأمتنا لم تعد تذكر عنها شيئا قط ، انظروا إلى النقوش والآثار التى توجد بين الناس عندنا أى نوع من الإحساس عندهم بالنسبة لها ؟ وكيف يعرفونها وماذا يعتبرونها ؟ إنهم يقولون إنها من كتابة الجن . وهذا يجعلنا نعلم أنه لاتوجد بينهم وبينها أدنى علاقة . الخلاصة : إن هذه العودة إلى الذات التاريخية التى ندعو إليها ، لاتعنى العودة إلى عراقة الحمار ، بل هى العودة إلى الذات الموجودة بالفعل والموجودة فى قلب المجتمع وفى وجدانه ، تصير مثل مادة ومنبع من منابع الطاقة ، تفتت على يد مفكر وتستخرج وتحيا وتتحرك ، هى تلك الذات الحية . ليست تلك الذات العتيقة القائمة على عظام نخرة ، هى تلك الذات القائمة على أساس الإحساس العميق بالقيم الروحية والإنسانية عندنا ، والقائمة على أرواحنا واستعداداتنا ، والموجودة فى نظرتنا إلى الأمور ، لكن الذى صرفنا عنها هو الجهل والانقطاع عن النفس ، وجعلها الجذب إلى ذوات أخرى مجهولة ، لكنها على كل حال لاتزال حية ذات حياة وحركة ، وليست كلاسية ميتة تتبع علم الآثار .

هذه الذات تنبع من صميم الناس ، فهل هى ذات دينية ؟ هل هى ذات إسلامية ؟ أى إسلام ؟ وأى مذهب ؟ أهو المذهب الشيعى ؟ هنا أقول : نعم ، ثم أقول على الفور : أى تشيع ؟ نحن نعلم أن هذه الذات الثقافية عندنا ذات تجلت

---

(١) هذا يمكن الرد به أيضا على دعاة الفرعونية ، أولئك الذين يتجاهلون ألف عام وأكثر من الحضارة الحية المستمرة المؤثرة ، ويجاهرون بإثم يبلغ القول أن الدعوة إلى التوحيد خرجت من مصر فى عهد الفرعون اخناتون وعلى يده ، وأن مصر فرعوبية الحضارة والجنس . حقيقة أن الفراعنة تركوا لنا آثاراً ملء السمع والبصر ، لكن ماهو تأثيرها الفعلى على المصريين المعاصرين ؟ وماذا نملك الآن ما يمكن أن يسمى فرعونيا من مقومات الحضارة والثقافة؟: هل نملك كتابا واحدا فى الطب أو الأخلاق أو الأدب أو الشعر أو الفلسفة . ؟ الخ ، هل نملك شبه رؤية كونية عن الفراعنة ؟ هل نملك تصور الدين متكامل إلا عبادة العجول والفراعين ؟ هل نعرف لغتهم ؟ حتى الآثار العظيمة فى الصعيد ، أليس السكان هناك لا يزالون يسمونها « المساخيط » ؟ . المترجم .

فى العالم كذات عظيمة عن طريق جامعاتنا الموجودة فى الألف سنة الأخيرة وفى آدابنا طوال الألف سنة الأخيرة ، وعن طريق مفاخرنا وتاريخنا وحضارتنا ومواهبنا واستعداداتنا المتنوعة من عسكرية ورياضية وعلمية وفلكية وأدبية وعرفانية فى هذه الألف سنة أو الألف ومائة سنة الأخيرة ، بحيث أستطيع أمام أوربى ينتسب إلى عصر النهضة أن أقول له : إننى فرد منتسب إلى ثقافة اسلامية عظيمة وهؤلاءالبشر ، وهذه الشخصيات ، وهذه الحضارة والشخصية وهذا الاستعداد للتوالد والخصب والمواصلة فى وفىّ حضارتى ، لكن المهم هو : أى إسلام وأى مذهب ؟ هل هو ماهو موجود الآن ؟ هل هو ماهو موجود الآن فى صميم المجتمع بصورة تكرارية وعفوية ؟ إن العودة إليه من قبيل تحصيل الحاصل .

والآن يعيش قومنا على أساسه ويعملون ، ويؤمنون به ، لكن لافائدة منه قط ، بل إنه فى الوقت نفسه عامل من أهم عوامل الركود فيهم ، وعامل من عوامل عبادة التقليد وعبادة الجهل وعبادة الأشخاص وعبادة الماضى وتكرار ماهو مكرر . إن ماهو موجود الآن باسم الدين يرد البشر ، ليس عن مسئولياتهم الفعلية فحسب ، بل ويمنعهم عن الإحساس بأنهم مخلوقات حية فى الدنيا . هذا الدين نفسه الموجود لايستطيع أن يواجه الناس بحساسياتهم ومشكلاتهم .

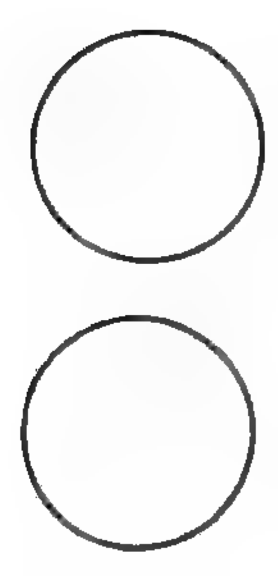
ومن هنا نرى أنه من على بعد ألف كيلو متر يكتب أحدهم : سيدى : إن لدى مشكلة عويصة لى عدة أيام أبحث عن حلها ، والآن انظروا ماهى مشكلته ؟ إنه يقول : إننا حين نقول أن آدم وحواء هما أول البشر ، وهما أول من ولد بشرا ، فكيف تزوج أبناء حواء وآدم وبناتهم وهم إخوة ؟ وكأنما يريد أبناء حواء وآدم وبناتهما الزواج الآن ، والمأذون لم يرض والأمور معطلة ، أجل ، هذا هو الدين نفسه الذى نقل المشكلات والمثل والتفكير من مرحلة ماقبل الموت إلى مرحلة مابعد الموت ولاشأن له بهذه الدنيا . مع هذا الدين يقوم الإنسان بكل مايقوم به من عمل من أجل الآخرة ، أما بالنسبة للدنيا فلا إحساس بمسئولية أبدا ، لا من أجل نضجه ولا من أجل حياته الاجتماعية ولا من أجل القيام بمسئولياته . هذا الدين نفسه الذى يعتنقه كل مفكر اجتماعى ويعرفه .

والان أقولها كلمة صريحة : إن منطلقنا هو الذات الإسلامية نفسها ، وينبغى

أن نجعل شعارنا هو العودة إلى هذه الذات نفسها، لأنها الذات الوحيدة القريبة منا من بين كل الذوات ، وهي الثقافة الوحيدة التي لاتزال حيه حتى الآن ، وهي الروح والإيمان والحياة الوحيدة في المجتمع الآن ذلك المجتمع الذي ينبغي للمفكر أن يعمل من خلاله ويعيش وينبض . لكن ينبغي أن يطرح الإسلام بعيدا عن صورته المكررة وتقاليده اللاواعية العفوية وهي أكبر عوامل الانحطاط ، بل ينبغي أن يطرح في صورة إسلام باعث للوعي تقدمي ومعترض ، وكأيديولوجية باعثة للوعي وقائمة بالتنوير ، حتى يبدأ من هنا هذا الوعي ، وهو مسئولية المفكر دينيا كان أو علمانيا ، وذلك من أجل العودة إلى الذات ، والبدء من الذات ، بحيث ترسخ على أكثر الأسس عمقا في واقعنا الروحي وشخصيتنا الحقيقية الإنسانية ، لأنه حي وموجود في قلب المجتمع ، ويتغذى من هذا الكنز ويقف على قدميه ، وفي الوقت نفسه وعن طريق تغيير ما ، يتحول الإسلام من صورة تقليد اجتماعي إلى صورة أيديولوجية ، ومن صورة مجموعة من المعارف العلمية تدرس إلى إيمان واع ، ومن صورة مجموعة من الشعائر والطقوس والأعمال التي تؤدى لنيل ثواب الآخرة إلى أعظم قوة تهب الإنسان قبل الموت المسئولية والحركة والميل إلى التضحية ، ويتحول إلى استخراج مادة عظيمة تستخرج الوعي والعشق من صميم هذا المجتمع ، ويقوم المفكر بمعجزة « بروميثيوس » في جيله ، ويبدى المعجزة المتولدة من الوعي والإيمان عن طريق هذه الطاقة ، فيتبدل الجمود فجأة إلى حركة والجهل إلى وعي ، وهذا الانحطاط الذي دام بضعة قرون إلى بعث وحركة ونهضة يؤدي إلى مايشبه القيامة ، وبهذا الشكل يعود المفكر سواء كان دينيا أو علمانيا إلى ذاته الواعية الإنسانية القوية ، ويقف في مواجهة الاستعمار الغربي ، وبقوة الدين يوقظ مجتمعه ، ويحركه فيقف على قدمه إنسانا منتجا ، في صورة جيل يواصل حضارته وثقافته وشخصيته المعنوية ، ويجلي بني جنسه جميعا واحدا واحدا في صورة « بروميثيوس » يأتون بالنار الإلهية إلى الأرض .

والسلام





القسم الثانى

العودة إلى أمى ذات



مصير الأفكار :

إن مصير الأفكار بيننا أيضا مثير للشفقة ، فالأوصياء على الفكر - ونتيجة لوصايتهم يدعون أن لديهم مايقال - هم أنفسهم نفس الفريقين المتشاحنين من القدم ، وقد اشتبكا معا فى الخمسين سنة الأخيرة ، وأضاعا أعظم الفرص فى « جعجعة بلا طحن » ، وفى تلك السنوات الغالية التى اغتنمت فيها كل الأمم الأسيرة الفرصة - فرصة تشتت المستعمرين واختلال الموازين الدولية بين الحربين وظهور الفاشية وثورة أكتوبر وخروج أمريكا من عزلتها الدائمة - وقام المفكرون الأحرار وأهل الفكر فيها بإيقاظ أممهم وأقاموا قواعد وحدتهم الاجتماعية على أساس إدراك الذات والتفاهم القومى وإحياء روح الجرأة والرؤية النقدية والوعى السياسى والثقافى ، وظهروا بين أقوامهم ، وجاهدوا فى تعلم لغتهم والإحساس بآلامهم والامتزاج بصميم وجدان مجتمعهم ، وأعادوهم من حالة السلبية وموقف الدفاع و « قبول الأمر الواقع » ، إلى البناء والهجوم ومرحلة البحث عن مثل ، وعن طريق استخراج المنابع المجهولة والمتحجرة لثقافتهم ، وانطلاقا من قواعد منسية فى شخصيتهم القومية ، وتعبئة للقوى المعنوية وإحياء للعناصر الثورية والإيجابية فى دينهم وعند أقوامهم وتاريخهم ، هيأوا الأرضية لحركة مضادة للاستعمار ، وانتفاضة باعثة للنجاة وثورة اجتماعية عميقة ذات جذور .

أما فى وطننا ، فاننا نجد الرجعيين والعصريين ، فريقا فى دفاع عن دين لم يكن يعلم عنه شيئا ، وفريقا فى كفاح من أجل إقرار مدرسة فكرية لم يكن يدرى عنها شيئا ، وقاما بمعارك مقززة وصراعات قبيحة ، كانت نتيجة المنتصر فيها هزيمة الأمة ، وكانت هزيمة المنهزم فيها أن هزيمته أيضا كانت تنسحب على الوطن ، وأشد وأنكى من هذا مصيبة ، أن هذه الحرب لم تنته ، وصارت إلى شكل من نتيجته أننا ابتلينا معا بمصيبة هزيمة المهزوم وبمصيبة انتصار المنتصر .

فى منتصف القرن التاسع عشر ، تماما فى السنوات نفسهاالتى أخذت دول أوربا تنصب خيامها السياسية والاقتصادية والثقافية فى دول آسيا وأفريقيا بعد غزوها عسكريا ، وكان المفكرون المستنيرون والعلماء والكتاب فى أوربا يتحدثون عن الاستغلال ، وكانت الحرب الطبقية والتحررية والعمالية والكفاح ضد الرأسمالية مشتعلة فى أوربا الغربية والوسطى وإنجلترا ، وكانت تطرح قضايا من قبيل المجتمع الحر الإنسانى الذى يتمتع بالمساواة والاشتراكية والنقابية ورفض سيطرة الدولة والمجتمع الطبقى ، وكانت تصدر كتب من قبيل « الملكية سرقة » و « رأس المال » و « مقدمة فى الاقتصاد السياسى » و « فقر الفلسفة » و « فلسفة الفقر » ، وكانت ألمانيا وفرنسا وإنجلترا مسرح صراع طبقى ، ونقابى ، وكان البحث دائرا ، حول الثورة الطبقية وشخصية الشعب وإقامة الملكية الجماعية بينما كان كل ذلك دائرا ، كان عدد من أئمة الزمان « المهديين المنتظرين » يظهر فى كل دولة إسلامية ، وفى إيران ظهر اثنان منهم بينهما عشرون سنة ، ادعى الثانى منهما النبوة ثم الألوهية[1] ، وكان وطيس البحث قد حمى حول خلافة (ميرزا على محمد)، وقامت الحرب بين الأزلية والبهائية حول مسألة الإمامة وحول مسألة « باب المهدى المنتظر » وبشارته ببعثة ميرزا (حسين على بهاء) ، وإدغام الإمامة والنبوة والألوهية فى وجود « النقطة الأولى » [2] .

وفى مكان آخر كان كشف عالم الأثير والهوريقيليا عند الشيخ أحمد الأحسائى [3] واختراع الركن الرابع فى جنس الإمام ، والتنقيب فى أعمدة

---

(١) من الطريف أن نعلم أنه فى تلك الأيام نفسها التى ظهر فيها المنشور الشيوعى فى أوربا

وبلغت النهضة العمالية أوجها ، ظهر إمام الزمان فى إيران . وأيضا فى نفس هذه الأيام تكررت لعبة أدعاء الإمامة فى سبعة عشر مكانا آخر فى الدول الإسلامية .

(٢) المترجم : المقصود هنا قيام ميرزا على محمد الباب بادعاء الإمامة ثم تفرع البابية من بعده إلى أزلية وبهائية ، وتطور الأخيرة إلى البهائية المعاصرة بعد هجرتها إلى عكا وسقوطها فى يد الصهيونية والماسونية ، فاستغلت فكرة وحدة الأديان والدعوة إلى الحب والسلام بينها لضرب الإسلام ولاتزال تعمل تحت الشعارات نفسها .

(٣) المترجم : الشيخ أحمد الأحسائى المتوفى ١٢٤١ هـ . مؤسس الطائفة الشيخية ، وصاحب « جوامع الكلم » و « شرح الزيارة » ، كفر من الفقهاء الاثنى عشرية لآرائه المبتكرة حول الإمامة .

الروايات والأخبار الموجودة فى بحار الأنوار[1] من أجل اكتشاف علائم ظهور الإمام الثانى عشر عند الشيعة الاثنى عشرية وخصائصه من أجل مطابقتها على مدعى المهدية ، ثم الصراع بين قوى الفقهاء والشيخية والصوفية وكارثة اشتعال الحرب بين البابية والبهائية ، والهرج والمرج فى كل المدن وكل القرى ، والتضحيات والمذابح ، وأنواع الجدل الفقهية والكلامية حول هذه المسائل نفسها وفى خضم هذه المعمعة إذا بالدستور يصدر فجأة بصدور عدد من الفتاوى ، مثل البرق ومضى ، ومثل الريح مضى ، وقامت الحرب العالمية الأولـــى .

ومنذ ثلاثين سنة عندما دارت رحى الحرب العالمية الثانية ، واشتبك البول فى صراع مع الغائط ، وأخذ الغرب المستعمر بمعاصيه فنزلت عليه نازلة الفاشية ، وقامت أفريقيا وآسيا تستردان الروح ، وأخذت كل أمة فى جبهة صريحة وصامدة بل ومسلحة تهاجم الاستعمار الجريح المتفرق وجها لوجه ، وفى العالم الذى كان يسمى بالثالث[2] سابقا طرحت قضايا من قبيل تاريخ الاستعمار وأنواعه وأهدافه وحيله وجرائمه ، والمعاهدات المفروضة وطرق فسخها ، وفى العالم الإسلامى كانت حركة سيد جمال الدين فى حينها تتقدم فى جبهتين : جبهة سياسية وجبهة ثقافية ، وكان الوعى التقدمى الإسلامى المضاد للاستعمار يعبئ قوى واسعة من الشعب . أما فى مجتمعنا بعد الحرب كانت أعظم الشعارات التى تطرح من قبل المتدينين هى المطالبة بالسيطرة من جديد على المدارس القديمة ، وإحياء اللحى والعمائم التى ضاعت ، والعودة

---

(١) بحار الأنوار موسوعة فقهية تاريخية للشيعة الاثنى عشرية ألفها ملا محمد باقر المجلسى المتوفى سنة ١١١٠ هـ ، جمع فيها كل ماوصل إليه « ومالم يصل » من أخبار عن الشيعة الاثنى عشرية ، ويعد من نتاج العصر الصفوى الذى كان يؤصل التشيع الاثنى عشرى فى ايران بشكل أو بآخر . المترجم .

(٢) فى رأيى أنه نظرا لتداخل التكتلات العالمية ، وتغير العلاقات السياسية بين الأقطاب (حيث كانت أمريكا واوروبا تعتبران قطبا واحدا للرأسمالية ، والاتحاد السوفيتى والصين وأوربا الشرقية قطبا للشيوعية ، وأمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا التى لم تكن قد وصلت إلى مرحلة الرسمالية أو اعتنقت الشيوعية تسمى بالعالم الثالث) هذه التسمية وهذا الوصف لم يعد له مصداق أو معنى . وحتى هم أنفسهم يعترفون بهذه الحقيقة ولكنهم عندما يعترفون ، يريدون أيضا تفسير هذه الواقعية التى لم يعودوا بعد يستطيعون .

إلى التكايا ، وإقرار « إنشاد الروضة » (١) فى المنازل ، وتشكيل هيئات الدق على الصدور والضرب بالسلاسل ولفها مغلقة بالأقفال حول الأجساد (٢) ، وإعادة « عورات » المسلمين إلى الملاءات السابقة ، وفتح حجرات التجارة القديمة (٣) ، وعودة الدين إلى خلاصة الحساب للشيخ بهائى وحاشية ملا عبد الله والرسائل والمكاسب والمبحث الحيوى عن العتق والمشاكل الضرورية عن الاجارة ، وطرح دقائق باب الطهارة والنجاسية ، وحل المشكلات الموجودة والمحتملة فى العلاقة بين السيد و « العبد » ، والخلاصة : العودة إلى الوراء عشرين سنة لا ألف وثلاثمائه سنة كما كان أتباع السيد جمال الدين يعلنون .



كتابتها بشكل فيه بعض التطرف ، وهذه خاصية بارزة وشائعة فى اللغة الاستعمارية ، فهم يقولون : إن العالم الآن لاينقسم إلى معسكرين بل ينقسم إلى خمسة معسكرات أمريكا وأوربا المستقلة عن أمريكا والصين والاتحاد السوفيتى والقوى المستقلة التقدمية للعالم غير الملتزم « الثالث سابقا » . وفى هذا الشعر المخمس توجد حقيقة بلاشك ، ولكنهم استعملوا بعض المغالطة فى هذا المخمس السياسى ، إذ إنهم أولوا ببعض الاحيال واقعا سياسيا وجعلوه واقعا اجتماعيا ، وهذه قاعدة رائجة إذ يجرعون الناس الباطل على أنه حقيقة ببعض الاحيال ، وهذا كما يتحدثون عن النظم الاجتماعية الداخلية ، إذ يرفضون التثليث الحاكم الذى يبدو أمام الناس فى صورة طبقة واحدة متحدة ، استنادا على بعض الاشتباكات الداخلية التى تكون حادة أحيانا بين الأجنحة الثلاثة : السياسية والاقتصادية والدينية ، حتى يخمدوا الوعى الذاتى الطبقى بين الناس ويفرقوا بين الجبهات .

(١) المترجم : المقصود بإنشاد الروضة ، قراءة سير آل البيت ومقاتلهم فى المناسبات الدينية أو لمجرد التبرك فى المناسبات ، والاسم مأخوذ من أول كتاب كتب فى هذا المجال وهو « روضة الشهداء » لحسين الواعظ الكاشفى من أوائل وعاظ الصفوية ، وقد تلاه عدد كبير من الكتب فى هذا المجال منها طوفان البكاء للجوهرى .

(٢) من طقوس احتفالات المحرم عند الشيعة الاثنى عشرية المتبعة فى إقامة العزاء أو التعزية أو المصيبة لآل البيت . المترجم .

(٣) المترجم : الحجرة : عربية ، والمقصود بها الحجرة التى كان التاجر القديم يدير منها أعماله التجارية وتعد من ملامح التجارة على النظام القديم فى إيران فى مقابل الشركات والمحلات العصرية فى شمال المدينة .

المصلحون التقدميون :

لكن : ماذا فعل مصلحونا التقدميون ؟ أيضا قاموا بنوع من اللعب بفكرة إمام الزمان وصناعة الرسل ، لكن بطريقة عصرية تصلح للزمان من قبيل : تدوين قرآن « ورجاوند بنياد » (١) وكتابة الكتب فى دحض الامام الصادق ، وبدء الكفاح المستميت ضد الكلمات العربية والخط الفارسى ، وإلقاء تبعة انحطاط الأمة وفقرها وكل المصائب والمظالم فيها على « جيد معشوقة الشاعر حافظ الشيرازى » ، واعتبار شعر سعدى ومثنوى جلال الدين السبب الرئيسى فى سوء أحوال الناس واستغلالهم ، وإقامة احتفالات « حرق الكتب » وتحديد مبادئ الحرية القومية والرقى الاجتماعى والهدف الثورى للأمة : بتغيير الخط « إحلال الخط اللاتينى محل الخط العربى » ، وإجازة يوم الأحد محل يوم الجمعة ، واعتبار العملاء الأجانب والعناصر الأجنبية التى سيطرت على مجتمعنا هى الألفاظ ذات الأصل العربى ، ونتيجة لذلك فمن أجل العودة إلى الذات والكفاح ضد العملاء المعادين لإيران تقرر : إدانة الألفاظ الرائجة التى يفهمها كل إنسان والتى ظلت ألف عام لغة تخاطب وأدب وثقافة وتاريخ وإيمان عند الناس ، وطردها من المجتمع ، واختلاق ألفاظ شبيهة بألفظ الجن لتحل محلها ، واعتبار أن علل مصائب القوم فى الحجاب واللحى واللبادة والكرسى (٢) ، وتحريم التلفظ بكلمة ليس أصلها الممتد لألف عام « آريا » ومن ثم فهى لاتوافقنا ونحن من أصل « آرى » ، فلتقلب شيرين إلى « شلب » وعنصر إلى « آخشيجان » ومستقيم الى « سيخكى » ودائرة إلى « كردكى » ومنطق إلى « منتر » ، وهذا يعنى إصلاح المجتمع ونجاة الأمة وحرية الناس وتقدمهم وإحياء الثقافة والكفاح ضد الأجانب ، وطرد العناصر الدخيلة .

والخلاصة ، فى هذه البيئة الراكدة ، وفى تلك الأيام التى كان الاستعمار يجاهد فيها ليرسخ ويبقى ويمد جذوره فى أعماق مجتمع الأمم الشرقية وفكرها وذوقها عن طريق قلب قيمها الثقافية والتاريخية وشخصيتها المعنوية والدينية ومسخها ومحوها ، وفرض أنماط حياته الفردية والاجتماعية عليها ، فإن طريق

(١) المترجم : من كتب إيران قبل الاسلام .

(٢) الكرسى : وسيلة شعبية للتدفئة ، وهو عبارة عن فرن يقام وسط الحجرة وتترك فيه فجوة لوضع مواد التدفئة ، ويغطى بالأغطية المبللة . المترجم .

خلاصنا هو ما يقوله ذلك المفكر المستنير المصلح العصرى التفكير : « فلنلق بقنبلة الاستسلام للأوروبى فى هذه البيئة ولنفجرها ، والخلاصة : لنصبح أوربيين من قمة الرأس إلى خمص القدم »[1] ؛

الثوريون اليساريون :

وذلك الجناح الآخر المفكر المستنير عندنا ، جناح اليساريين الثوريين السياسيين ، انعكاس الحركة الاشتراكية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى الغرب والنصف الثانى من القرن العشرين فى الشرق ، لم يكن على هذه الدرجة من السذاجة بحيث يلتصق باللحى والعمائم من أجل الحفاظ على الاسلام والأمة فى زمان طرحت فيه الفلسفة والعلم مشكلة الله وطرحت فيه أوروبا مشكلة الإسلام وطرح فيه الاستعمار مشكلة وجود الأمم ، وإنفاق تلك الحرية المستردة التى صارت بمصادفة عالمية نصيبا وبالمجان لأسرى آسيا وأفريقيا والمسلمين فى إحياء اللحى والعمائم والأوقاف والدق على الصدور والنواح والبكاء على آل البيت أو عرض تمثيليات القصاص[2] أو تمضيتها

---

(١) من أراجيز العلامة تقى زاده الحماسية ، وهو الذى كان شديد التظاهر الى هذه الدرجة إبان الحركة الدستورية ، وهو نفسه صورة مجسدة للتاريخ المعاصر وتمثال حى لكل الأحداث التى مرت بنا فى القرن الأخير . ومن ملكم خان حتى تقى زاده نستطيع أن نتابع بدقة حركة الإصلاح الالتباسية ولعبة المفكر المستنير التقدمية التفرنجية . ومن أجل توضيح هذه القضية ، وهى أخطر مشاكل الشرق خصوصا العالم الإسلامى فى القرن الأخير ، ينبغى الانتباه إلى الدور المشابه الذى بدأ القيام به هؤلاء الممثلون العظماء بالنمط نفسه .

وفى الوقت نفسه فى الدول الإسلامية الأخرى من أمثال : سيد أحمد خان المصلح العصرى فى الهند ، وضيا كوك آلب الأب الفكرى لأتاتورك وآخوندوف فى المجتمع الإسلامى المستعمر من روسيا القيصرية ، وعلى هذا النسق نفس فى شمال أفريقيا ومصر والعراق ، أولئك الذين جاهدوا باسم العصرية حتى يزيحوا الإسلام عن طريق دخول الاستعمار .

المترجم : ناهيك عن التداعيات التى يستدعيها هذا الموضوع فى مصر وهى كثيرة والقافلة مستمرة ، قافلة « دعاة التنوير » أو « رواد الحركة الفكرية » كما يحلو لهم تسميتهم ، ابتداء من رفاعة « بك » المبهور بعربة الرش ومرورا بأحمد لطفى السيد « باشا » وطه حسين « بك » ، وانتهاء بطواشيهم « توفيق الحكيم » المفكر « العالمى » و « حسين فوزى » و « زكى نجيب محمود » مع جيش من الصحفيين والمترجمين وأساتذة الجامعات والأسماء الطنانة الرنانة التى لايتطرق الشك إلى علمها .

(٢) المترجم : بعض تمثيليات احتفالات التعزية فى إيران ، وتدور حول تأصيل عداء الشيعة لأعداء آل البيت وقتلتهم ، وهى من نتاج العصر الصفوى .

فى « المصيبة » [1] ، ولم يكونوا بلهاء وحمقى إلى هذا الحد ، بحيث يعتبرون أن إحياء أمة ميتة وخلاص مجتمع أسير وتقدم دولة متأخرة مصابة ببلوى الاستعمار – ليس كما ينبغى فى الوعى السياسى والنضج الاجتماعى والإحساس بالمسئولية والقيام بالالتزام والكفاح والتضحية – بل بصراحة ووضوح فى القيام بدور القرد للقرداتى الأوروبى ، أو تسمية « العصرية » بخبث « حضارة » ، أو اعتبار السترة والسروال والقبعة وال « مينى جوب » والقيام بريجيم إنقاص الوزن ولوازم الزينة والسيارة والموبيليا والديكور والبنك والعمارة الحديثة والراديو والتليفزيون والزينة والحركات الحديثة والتصرفات المستحدثة تقدما ، أو اعتبار « الرقى فى الاستهلاك والشكل » « حضارة فى الإنتاج والفكر » وهم ناسون أن بدائيا من الإسكيمو يمكن فى خلال أسبوع واحد أو حتى يوم واحد يمكن أن ينبدل إلى عصرى أمريكى ، لأن العصرية أو الرقى يحدث بسرعة وكثرة عن طريق الصادرات التقليدية والطبيعية والواردات الحديثة الصناعية والاتفاقيات الملعونة ورؤية الأفلام المدبلجة الممسوخة وقاذفات قنابل الدعاية ، وقراءة مجلة « زن روز : المرأة اليوم » و « اطلاعات بانوان : اطلاعات النساء » ، والحركات والسكنات المقلدة الجديدة ، والسلع الاستهلاكية الحديثة . [2]

كانوا يعلمون أن الحضارة هى درجة التكامل فى القدرة على التفكير واتساع الرؤية وعمق الروح ولطفها ، والنضج الاجتماعى ، وخلق الوعى الإنسانى والإحساس بالمسئولية ، ومعدل الثروة الثقافية والقفزات الفكرية والعقائدية ، واستقلال الشخصية واستعداد الخلق والقدرة على الاستغناء والنقد والاختيار ،

---

(1) المترجم : المقصود الحداد الرسمى والشعبى فى مناسبات ذكرى مصارع آل البيت .

(2) تقول الإحصائية التى نشرتها مجلة « زن روز » أن عدد مؤسسات الزينة وبيع لوازم الزينة قد تضاعف فى طهران خمسمائة مرة ، وحين تقارن هذا الرقم باستهلاك الحناء والسدر وزيت الفازلين ونفقات الزينة وإزالة الشعر عن طريق الخيط ووضع الكحل والوشم فى الماضى ، نستطيع أن نحدد القفزة المدهشة التى قطعتها المرأة اليوم فى طريقها الى الرقى ، لكن حركتها فى طريق « الحضارة » عجلة ، دقق النظر إلى تمثال « المدام » التى ازدانت بفراء من « هيتاتشى » ومعطف من الخز من إنتاج « سقراط » وضرار « ميرون دى بوته » و « مينى جيب » و « شورت » من « هيبورق » وحورت « استارلايت » وحذاء إيطالى وحقيبة يد من « سامارتين » وروج كريستين ..... ويفوح من « حضرتها عطر خيانى بثير العشق ، وماء كلونيا « باميوس » وكريم « بودوس » ... هل هى نفس « ملا باجى نفسها » (اسم قديم للنساء) ؟ نعم لا .؟ تغيرت « بردعتها » فحسب .

وإيجاد ضمير تاريخي واجتماعي ، والوعي والالتزام بالمستقبل ، وتحديد حق المرء في الاشتراك ونصيب اشتراكه في الصنع وتغيير المصير حسبما يجب وفي كلمة واحدة : الثورة الأيديلوجية ... كانوا يعلمون أنه لا يمكن الحصول على هذه الأشياء كلها بمساعدة مصممي كريستيان ديور وهجوم بضائع مانشستر وبناء الذات عن طريق كتالوج « البردة »، إنها تريد تعبا وعملا وصبرا وشجاعة روحية واستقامة أخلاقية وإخلاصا وتضحية وتحملا للحرمان ومواجهة للخطر وكسبا للجدارة والوعي وصمودا وتقوى وعلما وذكاء كثيرا وطمعا قليلا ووعيا ذاتيا وإنكارا للذات وتوقعا للخطر من الأعداء وضرر الكائدين وحسد الأصدقاء وتعرضا للحيل والأحقاد وضيق الأفق والعقد المرضية الدنسة و .... [١] كل ما يلزم لايجاد الحركة والدعوة إلى اليقظة والتحرر في مجتمع مريض متأخر قام الاستعمار من الخارج ب « استغفاله » ، وقام الاستعمار من الداخل بالشيء نفسه .

كانوا يعلمون أن الحضارة هي من قبيل العمل الذى قام به موسى . صنع مثل هذا التاريخ من بضعة من الأساري الأذلاء الذين تعودوا على الرق والذلة وحب المال والجرى وراء المصالح الفردية والاحتيال الحقير ، هو العمل الذى قام به محمد ، جعل من عدد من البدو المتفرقين في صحراء الجهل والفقر ومذابح الحقد البدائية إلى محطمين لأعتى القوى الاستعمارية في شرق العالم وغربه ، وواهبي النضج لكل حضارات الإنسان وثقافاته . كانوا يعلمون أن العصرية والرقى يمكن استيرادهما كسلعة من الخارج ، لكن الحضارة ليست سلعة تستورد يمكن استيرادها إلى بلد ما . الحضارة مزرعة ينبغي أن تبذر بذورها في المدينة ثم تظهر وتنمو ، لا كما حدث في شرق شبه الجزيرة عند عرب الحيرة وفي شمالها عند العرب الغساسنة ، وفي جنوبها عند القبائل اليمنية ، أولئك الذين باختلاطهم وانتقالهم وتقليدا لعادات إيران الساسانية وتقاليدها ، أو الروم الشرقية المتحضرة المتقدمة قبل الإسلام ، ونتيجة لاستعمار اليمن على يد الساسانيين ، كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر امتيازا من بقية العرب ،

---

(١) من شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد .

وكان شيوخ القبائل يظنون أنهم ارتقوا من البدوية إلى رقى الساسانيين والبيزنطيين وحضارتهم عن طريق إقامة صور كاريكاتورية ممسوخة ولامحل أو معنى لها من رسوم بلاط قيصر وكسرى ومراسيمها ، أو بإقامة القصور العظيمة الأسطورية مثل الخورنق والسدير فى دول فقيرة تقليدا لبلاط كسرى فى المدائن ، أو المظاهر البدائية المقززة .

أجل ، كان أفراد هذا الجناح الثورى التقدمى الطليعى بالفعل مفكرين مستنيرين ، وكانوا يعلمون أن لعبة العصرية والرقى غير صناعة الحضارة ، وأن التحضر يعنى موت الاستعمار فى كل صوره العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، أما العصرية فتعنى لحما جديدا لذئب الرأسمالية الأوروبية . كانوا يعلمون أن المتفرنج يعنى شبه الأوروبى ، ويعنى : « الإنسان الذى أخلى الأوروبى باطنه من المحتوى الإنسانى والفكرى والشخصية الخلاقة ، حتى يصير من قمة رأسه إلى أخمص قدمه معدة مفتوحة وحلقا مفتوحا من أجل المنتجات الصناعية الحديثة فى أوروبا وحينذاك يدهن هذا الجلد النتن ، هذا « الرجيل » الذى صاردمية من الجص ، وتوضع فوقه الملابس ، ويعبأ بالحركات والسكنات المزيفة التقليدية الشبيهة بال « كليشيهات » والتى لاسابقة لها حتى فى أوروبا حتى يظن أنه صار هو ، بل وأحيانا – وفى مجال النقد – يصفونه بأنه أوربى الظاهر وغربى ومقلد للأجانب ، امرأة أو رجل يفكر كالأوربيين ، ويحس مثلهم ، ويعيش مثلهم ، ويقلدهم فى كل شىء ، ويقوم فى نفسه وأسرته ومجتمعه وحكومته بتقليد الأوربيين .. وأية أكذوبة ، مثل هذا القرد الذى يبدو كالبشر ، إلى هذا الحد نظيف ووجيه وعصرى ، من المستحيل أن يتذكر وقت أن كان هو نفسه ، كان على كل حال يعد بشرا ، يعيش حياته ويصنع ويأكل ويختار ، من المستحيل أن يعلم بسقوطه إلى مرتبة حيوان مقلد مفرغ من نفسه ومجذوب ومجنون ولحم أضحية ومستهلك فحسب لما يصنعه الآخرون ، ليس هذا فحسب ، بل إنه يهرب من ماضيه كارها ، ويتجه بشوق إلى الحاضر ، ولما كان الحاضر من صنع الأوربى ومن عمله ، يصير صيدا أبله يسرع بقدمه نحو الصياد ، ويقع فى شراكه ، ويصير مستأنسا :

ليس عجبا أن يسرع الصياد فى أثر الصيد لكن العجيب أن يسرع الصيد فى أثر الصياد[1]

إذن ، كان أعضاء هذا الجناح يعلمون أن طريق فلاح هذا الشعب ونجاته ، ليس فى البدء بإقامته التكايا أو إنشاد الروضة أو التعزية أو إقامة التمثيليات التى تصور مصائب آل البيت كما يقول « أشباه المتدينين السلفيين » ولا بمتابعة الألاعيب الأوروبية والمظاهر التى يقوم بها « أشباه المتحضرين العصريين » ، وكانوا على وعى بأنه ينبغى أن يجتث الفساد من جذوره ، وأنه ينبغى أن يسلك طريق واقعى للنجاة والتحرر ، وأنه ينبغى تحديد الهدف الحقيقى من الرقى الاجتماعى . حسنا : ماذا كان الهدف من هجومهم ؟ الاستعمار الأجنبى والاستبداد السياسى والاستغلال الداخلى؟، وبمعنى أكثر وضوحا : النفط والشركة الإنجليزية ، والخانات والملكيات الكبرى والإقطاع المتعفن المتحجر الظالم ، أما مجال الخطاب عندهم فهم الفلاحون والعمال وجماعات البروليتاريا ومادون البروليتاريا . لكن ، لاأدرى لماذا قام هؤلاء – بالرغم من كل هذا الذكاء والنضج والمعرفة والتجارب التى استمرت مائة سنة – بدخول البيوت من غير أبوابها ، أو بالتعبير الشعبى : لماذا أكلوا من أقفيتهم؟، أى أنهم كانوا يحملون اللقمة جيدا لكن بجهد ومشقة كانوا يديرونها من أقفيتهم إلى الطرف الآخر من وجوههم ويوصلونها إلى أفواههم ، رأينا إذن أنهم حملوا اللقمة جيدا ، وخلافا لكل الجماعات التى سبق ذكرها ، كانوا يعلمون أنه ينبغى عليهم وضعها فى أفواههم ، حتى تأخذ منها كل أعضاء البدن وخلاياه بقدر حاجتها القوة والحرارة والحركة ، ولكن هذا الاسلوب فى التناول المعكوس أو المقلوب أو من « اليسار » تسبب فى أنهم بذلوا كل هذا المجهود وعرقوا وضغطوا على أنفسهم بصورة تهد القوى ، ولم يخلوا بأى جهد أو عمل متواصل ، وبينما كانت اللقمة اللينة الدسمة الحاضرة لهم ، كانوا يديرونها من خلف رءوسهم حتى يوصلوها إلى أفواههم من الطرف الآخر ، وكان هناك قط أسود يسير فى ظلمة الليل كامن خلفهم ، فقفز من الخلف وظفر باللقمة وأكلها وانصرف ، وبقى « حضرات السادة » والمجهودات التى بذلوها

(١) جدلية سوردن المعروفة فى الرباط الثقافى والنفسى الخاص بالإنسان المبتلى بالاستعمار .

دون طائل والعرق الذى تصبب منهم كما ينبغى ، وبعدها فهمنا أنهم يسمون « اليسار » من هنا ، وليس بمعناه المعهود ، أى اليسار بمعناه الفارسى[1] ولا بمعناه فى الاصطلاح الفرنسى الذى بقى لنا تذكارا من الثورة الفرنسية الكبرى .

هؤلاء اليساريون المعادون للاستعمار والإمبريالية والاستغلال الطبقى وغيره ، عندما بدءوا النضال لدعوة الناس ضد الخانات ، كان أول مافعلوه أن أمسكوا بخناق الله واقتصرت دعواتهم على عدم إثبات وجود الله ثم وعلى الفور أمسكوا بخناق الروح ، على أساس أن العلم اليوم لا يعترف بالروح ، وبعدها أمسكوا بتلابيب الرسول والإمام والقرآن وعلى والحسين .. ثم القومية والأخلاق ، فالدين جاهلية قومية ، وهو نتيجة لجهل البشر بالعلل المادية ، وأن العلم صعد اليوم إلى السماء ورأى ألا إله هناك ، وأن علم الكيمياء صنع المادة الإلهية وفهم ألا روح هناك ، وأن الفلسفة العلمية الجديدة ترى أن الدين باطل والإسلام والقيامة ضلال ، والصوم والصلاة باطلان ، والرسول والإمام عبث ، والإسلام من صنع العرب ، والتشيع تفسير من الإيرانيين ، ودعكم من كل هذا الكلام ، والأخلاق والشرف والتقوى والعرض والحمية والعفة والحلال والحرام ... الخ كلها مجموعة من التقاليد الاجتماعية وهى نسبية واعتبارية ووليدة المصالح والظروف الطبيعية ، وأن مقولات الخير والضمير ، والمقدسات والقيم الروحية والخصائص الإنسانية كلها خرافة ، ولا يوجد شىء مقدس ، وكل الأشياء متغيرة واعتبارية ، أو بتحليل أعمق اقتصادية ومادية .

والخلاصة ، أبحاث فلسفية وكلامية من هذا النمط ، وكلها موجهة إلى الفلاح القروى والعامل السوقى فى مشهد وتبريز وأصفهان وقرى ايران . انظروا إلى كتبهم التى أرادوا بها منذ الوهلة الأولى إثبات رسالتهم الاجتماعية وقاعدتهم الثورية لشعبنا المسلم ذى الروح الاجتماعية الدينية ، والحديث إليهم عن طريقها : « المادية الجدلية » و « العرفان وأصول المادية » و « الروح أيضا مادية » و « المدارس الفلسفية فى اليونان القديمة » و « الماركسية فى علم اللغة » من تأليف الرفيق ستالين ، و « جدلية التاريخ » و « مقدمة فى أصول

---

(١) المترجم : چپ فى الفارسية تعنى اليسار ، وتعنى مقلوب ومعكوس .

الفلسفة » لجورج بوليتزر ، وأمثال هذه المقولات .. والنتيجة ؟ إن الحكم العام الذى أصدره قومنا اعتمادا على أعمال هذه الجماعة وأفكارها : هؤلاء أناس بلا دين ، أعداء الله والوطن والدين والأخلاق والقيم الروحية وكل المقدسات وكل المفاخر وكل التقاليد ، ومخربون لكل الأحكام والعقائد وأعداء الله والقيامة والعرض والشرف والناس جميعا والأشياء كلها ، كل هدفهم أن يأخذوا منا ديننا ، ويأتون لنا بالإلحاد من الخارج عوضا عنه ، هكذا : وبناء على تفسير ذلك الخبيث المهذار الذى يفهم العامة جيدا ، وكان أكثر علما من كل هؤلاء الأتباع لـ « علم الاجتماع العلمى » ودعاة الأيديولوجية الشعبية ، ومدعى « الشعبية » بنفسية هذا الشعب ولغته ، وبلغ به الحال أن فسر كلة « كمو » بأنها تعنى « الله » ومن ثم فإن كمونيست أى شيوعى بالفارسية تعنى لاإله .

لاشك أنكم سوف تضحكون من هذا التفسير العامى . أجل ، لكن : أليست الأرضية الأساسية لعملهم والمخاطب الأساسى عندهم ولأقوالهم هم أولئك العوام ؟ والعوام تعنى الشعب ، تعنى « دمو » ، تعنى الفلاح والعامل والأجير والجماعات المتفرقة التى لا رأس لها من قدم ولا نظام فيها ولا تحديد لها ، فضلا عن أنهم عوام الإيرانيين وفى تلك الأيام كان تسعون فى المائة منهم من الفلاحين القرويين ، لا عوام الألمان وتسعون فى المائة منهم من البروليتاريا التى تسكن المدينة ، وعوام عصر الإقطاع والدين لا عوام عصر الرأسمالية الصناعية بعد قرنين من عصر النهضة وبعد قرن من الثورة الفرنسية الكبرى وبعد ثلاثة قرون من إحياء الروح القومية وعزل الكنيسة وانزواء المذهب من المجتمع . أين أنت أيها المفكر الملتبس عليه ؟ اليسار ؟

ومن هنا ما كان يجرى : إنك عندما كنت تذهب إلى قرية « مؤمن آباد » ، وترى عيون الشرطى والخان غافلة عنك ، وتظفر بالفلاحين وهم جوار أكوام محصولاتهم – وإلى هنا وسيرك صحيح – وبعد بضع عبارات من إظهار المعلومات الفلسفية والموضوعات الفكرية العلمية الأيديولوجية العالية وذلك حتى يدركوا أوضاعهم ، تقوم بتحريضهم وتعبئتهم ، إلا أننا كنا نرى بالفعل أن فلاحيك قد حملوا مناجلهم ومطارقهم ، وبغضب وجلبة واستنفار أسرعوا خارج مزارعهم ، يسرعون خلفك وأنت تسرع أمامهم ، وكنا نراك تهرع إلى

مخفر الشرطة (لكن) بعد لحظةتنتبه إلى أن الأمر .. لا .. إن الأمر مقلوب ومعكوس ، أنهم قد تعقبوك ، وأنك خوفا من أن تمزق إربا مثل المقانق تحت ضربات فئوس حميتهم قد ألقيت بنفسك بين أحضان أمان المخفر ، حتى تبقى فى أمان « الأمن » من « غضب الفلاح » .

فمتى وجدت الفرصة لكى تقول لهم:إنك عدو للخان ؟ إنك عدو للشرطة ؟ ومتى وجد الفلاح الفرصة ليفهم أن إلحادك غير إلحاد ابن الخان العائد من أوروبا والذى يغافل أجراء والده ليسكر ويعربد بحرية ؟ هل يمكن فى مجتمع تقليدى وزراعى وشرقى وإسلامى أنك إذا بدأت بالله يمكن أن تمنح الفرصة أو تجد المجال لكى تتناول الخان بعد موضوع الله ؟

وهكذا كان من أمر هؤلاء أنهم أضاعوا سنوات الحرب وما بعد الحرب فى وضع الفلسفات والاحتجاجات الكلامية والمجادلات المنطقية والمنازعات العلمية والصراعات السوفسطائية ، جاهدوا لإزاحة الله من القلوب ولم يكن لديهم الوقت لإزاحة الخان من القرية . وقد خدش إيمان الفلاح عندنا فى ما يختص بالقرآن والصلاة وعلى ، لكنه لم يع شيئا عن واقعية الاستعمار ومعنى الاستغلال وفلسفة فقره وعبوديته . كتب الكتاب ، وترجم المترجمون الكتب والمقالات عن المادية والجدلية وعلم اللغة وحركة التاريخ ودحض نظرية بركلى وخرافة المثالية ونهاية الروح والله وأصول الأخلاق ، لكن من بين مائة ألف أو يزيد من أنواع المجلات التى نشروها من أجل هذا الشعب بالفارسية ، لا نشاهد ترجمة لكتاب « رأس المال » ، ومن هنا لم يبق فى أذهان عوام الناس عنهم إلا ذكرى لحفنة من الملحدين أعداء الله ، ولا يزال مفكرونا على اختلافهم يجترون تلك المقولات نفسهاالتى كانت قد هلعت وهربت منذ عشرين عاما ، ويستغلونها فحسب لإظهار العلم ، وقد صكت مسامعهم أشياء مبعثرة وغير مترابطة ، ومهترئة وغامضة وكلها مجردة وغريبة وملتبسة عليهم أحيانا عن أمور تتصل بشكل أو بآخر بالجدلية والمادية ودلائل دحض الدين ومبدئية الاقتصاد والبنية التحتية والبنية الفوقية الاجتماعية وغيرها ، أما فيما يختص بالقضايا الأساسية والمباشرة من قبيل : كيفية إقامة المجتمع اللاطبقى والفرق بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة والإنسان الكامل ، والفرق بين النقابية والاشتراكية والطرق الممكنة للوصول إلى الاشتراكية والأسلوب الخاص للإنتاج

الآسيوى ، والاغتراب فى نظام الرأسمالية الصناعية والقيام بمسخ البورجوازية ... فهم لايعلمون شيئا ، وربما لم يسمعوا بأسماء بعضها ، ولايعلمون هنا أن هذه المقولات مطروحة هنا بحيث إننى ذات يوم كنت أتحدث عن « الإنسان الكامل » وقام أحد هؤلاء المتعصبين بجهل للماركسية ونفرت عروق رقبته استعدادا للجدل ، وأخذ يتشنج ويسوق أدلة عديدة فى دحض هذه النظرية ، وكنت بينى وبين نفسى أضحك مما يفعل ، وأتحسر على أحوال شيخه المظلوم ، ففى الحياة ليس العدو الحاقد المسلح بأخطر وأشد ضررا للـ « شيخ » من مريد متعصب متفان لكن لاعقل له . وعندما طرحت قضية « الاغتراب » كان أغلب الماركسيين المحليين وثوريى أماكن التجمع يستقبلونها برفض وعناد ، وكانوا يظنون أننى طرحت قضية دينية وصوفية ، وأخيرا بعد أن أيدت من قبل المراجع العليا ، خلوا ما بينى وبين ما أقول .

كنت أريد أن أقول: إن مرحلة سلوك الطرق الملتبسة قد انتهت الآن ، وهى مرحلة طبيعية يمر بها كل إنسان فى مسيرة رشده ونضجه ، يقول علماء النفس: إن الطفل فى بداية حياته يقوم بتصرفات عديدة جدا من أجل التعبير عن ظمئه مثلا ، ويطلق عشرات الأنواع من الأصوات ويحاول عشرات المحاولات اليائسة ، وفى كل مرة يقلل من عدد حركاته وأصواته ويفهم بالتدريج عبثها ولايكررها ثانية حتى يصل الى مرحلة يختار فيها حركة واحدة أو صوتا واحدا لبلوغ هدفه ، كالبكاء أو الدق بقدمه على الأرض ، ثم تقل الأصوات تدريجيا حتى ينطق بكلمة « ماء » . وهكذا المجتمع مثلما عبر مراحل سلوك طرق ملتبسة لاحصر لها ومضحكة أحيانا من أجل إيجاد العلل العلمية لظواهر الطبيعة أو الإيمان بالله ، وقام بالتدريج بتصحيح اختياراته وآرائه حتى وصل إلى التوحيد ، أو عند تفسير ظاهرة المرض مثلا : فهو يعلم اليوم أن مرضه من تأثير فساد طعام كذا وأن علاجه كذا من العلاج ، ولم يعد بعد يعتبر « يوم الاثنين » أو الثالث عشر من شهر صفر مذنبين ، أو عين الجار الحسودة أو نظرة زوجة عمه الحادة أو القيام صباحا من الجنب الأيسر . وفى المسيرة الاجتماعية أيضا ، تمر كل أمة بمثل هذه المرحلة ، وإلى جوارنا أمم كثيرة مرت بالحكاية نفسها .

كان بطرس الأكبر مصلح روسيا الكبير يدرس فى هولندا ، وكان يرى عمران هولندا ورقيها ويحزن على خراب روسيا وانحطاطها ، وكان يفكر ما العمل ؟ وفجأة اكتشف أن السبب الرئيسى فى نبض الحياة والعمل والحماس والثروة والعظمة والتقدم فى هولندا هو أن الرجال الهولنديين رجال منظمون وذوو شخصية ومتحضرون ، لأنهم يحلقون لحاهم بالموسى كل صباح ويعطون للنظافة أهمية كبرى ، وعلى العكس فان السبب الرئيسى فى اضطراب الشعب الروسى وتأخره هو هذه اللحى نفسها الكثة الطويلة المدلاة حتى السرة والتى جاوزت فى بعض الأحيان « أسفل السافلين » عند الروس . وبناء على هذا : عندما عاد إلى وطنه وتولى السلطة أصدر أوامره بأن تجتث هذه اللحى الخائنة عدوة الشعب من جذورها ، وبدأت الحركة ، وبدأ الجنود المسلحون بمقصات الحلاقين يطاردون الملتحين الفارين فى الحوارى والشوارع ويقبضون على هؤلاء الملتحين أعداء الثورة . واشتعلت نيران « ثورة اللحى » فى أنحاء البلاد وبين كل الطبقات والطوائف الاجتماعية والاقتصادية والجماعات والعائلات والتجار والنقابات المختلفة من كل جانب وبدون تفرقة أو غش أو وساطة ، بدون رحمة وبالمعنى الحقيقى لكلمة « بحسم » ، وفى كثير من الأماكن المختلفة فى الدولة ، ومن قبل جماعات مختلفة رجعية جوبهت هذه الثورة ذات الجذور – التى وجه نصل هجومها لا إلى الأغنياء أو ملاك الأرض أو ذوى الجذور أو رجال الدين أو القادة أو الأقوياء أو الساسة أو أصحاب الحيثيات بل وجهت فقط إلى أصحاب اللحى (١) بمقاومة شديدة ، لكن فى طريق الثورة الشاملة التى تجتث اللحى من جذورها والتى كانت تعبيرا عن الإرادة الجبارة لشخصية الإمبراطور التقدمى العصرى بطرس الأكبر ، أنه على روسيا أن تغير السحنة القديمة للمجتمع الرجعى فى غمضة عين ، وأن عليها أن تتحول من دولة متأخرة إلى دولة تدور فى فلك الدول المتقدمة الصناعية فى أوروبا الشمالية والغربية ، وفى ذلك ينبغى أن تتحطم كل عقبة ، وقد تحطمت ، وانتصرت الثورة ، واجتثت اللحى ، وتغيرت سحنة المجتمع التقليدية ، لكن لم يتغير شىء .

---

(١) المترجم : يتلاعب المؤلف هنا بين لفظى ريشه بمعنى جذر أو أصل وريش بمعنى لحية .

فى هذه الثورة فقد الشعب الروسى عدة فراسخ من اللحى ، وفى مقابلها لم يحصل على شىء قط ، ربما كانت النتيجة الواقعية والأثر العينى لهذه الثورة على اللحى من نصيب الشركات الهولندية التى كانت تصنع شفرات الحلاقة ... فقط ... والسلام ، نعمة من الله .

المجتمع والتاريخ :

إننى أومن بأن كل مجتمع له أيضا – كما يقول فرويد ويونج بالنسبة للفرد ما يسمى باللاشعور . وهذا غير الوجدان الجماعى الذى يتحدث عنه يونج بمعنى وبتعبير ويتحدث عنه دوركهيم بمعنى آخر وبتعبير آخر . إننى أتحدث هنا عن المجتمع – لا عن فرد اجتماعى – كشخص ، وكموجود حى مفكر وواع وحساس وذى إرادة وإيمان وعاطفة خاصة به . وليس المجتمع تجمعا من أفراد ، بل هو مركب من عناصر فردية ، وكما أن لكل تركيب صفات وطعما ولونا ورائحة وخصائص فيزيائية وكيميائية مستقلة لا توجد فى أى واحد من العناصر التى دخلت فى تركيبه ، فالمجتمع أيضا تركيب ذو خصوصيات وأحوال وقوانين وقواعد لا تصدق على أى فرد منه . فالأفراد فى المجتمع ، أى « الضمائر الفردية أو ذوات الوجود الفردى » لم توضع إلى جوار بعضها مثل المجتمع الموجود فى صالة عرض سينمائى أو قاعة امتحانات أو تجمع حول حادث مرور مثل كومة من المحصول ليست شيئا إلا بعض حبات القمح وبعض القش . ليس المجتمع مجموعة من الأشخاص ، إنه نفسه « شخص » ، إنسان والأفراد خلاياه ، والإنسان الفرد غير الخلايا التى كونته ، فالإنسان له حياته وماضيه وحركته وإحساساته ومميزاته التى تختلف وتتمايز عن خلاياه وعن أعضاء جسده ، وما أقدمه تحت عنوان البنية الاجتماعية لا هو بالاقتصاد ولا هو بالسياسة ولا هو بالعقيدة ولا بالإرادة ولا بأى عامل آخر ، لكن « البنية التحتية » لأى مجتمع عبارة عن تشكيل عناصره المادية وكيفية تركيبها والعوامل الروحية والمعنوية التى صنعت « شخصية المجتمع » ، وكما أنه لا يمكن معرفة فرد ما بمعرفة مقدار ثروته ونوع عمله وشكل شغله ودراساته وماضيه وأصله وعقيدته وبيئته وإيمانه فقط ، بل ينبغى أن توضع كل هذه العوامل فى الشكل الكمى والكيفى لتركيبه واستخدامها لادراك « شخصيته » ، هكذا المجتمع ،

سوف يكون الأمر سطحيا ومن جانب واحد أن نعتقد أننا عرفنا مجتمعا ما بمعرفة تاريخه كما يقول التاريخيون « أصحاب نظرية مبدئية التاريخ » ، أو بمعرفة دينه وفكره كما يقول ماكس فيبر ، أو بمعرفة ثقافته فى اتجاهها القومى كما يقول إشبنجلر ، أو بمعرفة عرقه كما يقول الفاشيون ، أو بمعرفة بنيته الاقتصادية كما يقول الماركسيون الإنجليزيون أو الستالينيون ، أو حتى عن طريق رؤية اقتصادية صرفة .

إن معرفة أى مجتمع تعنى معرفة « الإنسان الأعلى » أو بتعبير أدق « ما فوق الإنسان » وما فوق الإنسان هذا ، يعنى المجتمع . وأليس من الأدق من الناحية العلمية أن نستخدم بدلا من كلمة المجتمع ، وأكثر ما تبادره إلى الذهن مفهوم تجمع الأفراد؟ أليس من الأدق أن نستخدم بدلا منها كلمة « الجماعة » ؟ خاصة وأن هذه الكلمة تستخدم بدلا من كلمة المجتمع فى ثقافتنا الإسلامية ، مثل : يد الله مع الجماعة ، الشاذ من الجماعة للشيطان كما أن الشاذ من القاصية للذئب . (أحاديث نبوية) .

ولاشك أن العوامل التى صنعت شخصية الجماعة ليس إلا الطبيعة والعرق والاقتصاد والشكل الطبقى والجماعى والنظام السياسى والدين واللغة والفن وأصول الإنتاج والتاريخ فيها ، « وفى الوقت نفسه كل عامل من هذه العوامل لا وجود له فى حد ذاته منفصلا ومجردا عن بقية العوامل ... فالذى يكون أسرة و يصنعها مثلا هو تاريخها وهو أيضا دينها وهو اقتصادها وهو بيئتها الجغرافية وهلم جرا » ، لكن الشخصية على كل حال ليست واحدا من هذه العوالم ، وهل حامض السولفريك شيئا إلا الكبريت والأكسيجين والهيدروجين وفى الوقت نفسه لاهو بالكبريت ولا الهيدروجين ولا الأكسيجين ولا حتى خليطا من هذه العناصر الثلاثة ؟ (١)

---

(١) هذه هى نظرية « الفردانية الاجتماعية » (فى مقابل أنصار الفردانية الفلسفية والأخلاقية والمعرفية وهى مقولة أخرى) ، وهى تخريف لدرجة أنها لاتستحق عرضها ، ونظريتهم تشبه أن يدعى فسيولوجى عصبى أنه يعرف بيتهوفن مثلا عن طريق معرفة الخلايا التى كونت جسده خلية خلية . وهناك أيضا نظرية أصحاب النزعة المؤسساتية الذين يعتقدون بأن المجتمع عبارة عن مجموعة مؤسسات من قبيل الحكومة و ... والأسرة واللغة « كأصول أساسية » والبنك وديوان الوزارة والتأمين والبريد وصندوق التقاعد والمؤسسات الاجتماعية الأخرى « أصول فرعية » وشبيه أن يقول عالم عظيم فى التشريح وعلم وظائف الأعضاء مدعيا: إننى قد عرفت أينشتين بتشريح أعضاء جسده .

وإننى أومن أيضا بقدر التاريخ « الذى فسر خطأ بحتمية التاريخ فى أن الحتمية determinisme ليست جبرا سواء فى اللفظ والمعنى بل هى تحديد وقدر ، ويعنى وجود قوانين علمية محددة وثابتة فى التاريخ « كما فى الطبيعة » . كما أننى أومن بعلم الاجتماع بمعنى وجود قوانين مسلم بها يستند عليها كل مجتمع ، لكنى فى الوقت نفسه أعتبر تفسير كل مجتمع أو أمر اجتماعى أو تاريخى وتأويلهما على أساس القوانين الكلية والأحوال العامة لعلم التاريخ أو علم الاجتماع نوعا من التعميم العام الخطر ونظرة كلية تؤدى إلى منزلقات بحيث يلطم أكثر من أى عامل آخر من عوامل المعرفة حقيقة مجتمع ما ، وعلى وجه العموم يلطم العلم والبحث وكشف المجهولات الجديدة فيه ، ويحول المفكر المستنير من مجتهد خلاق واقعى النظرة عميق التفكير مدرك للواقع باحث عن الوسائل ، إلى مقلد واضح للعموميات ونمطى ، وبدلا من أن يترصد الحقائق المتنوعة والمتغيرة لبيئته وعصره ، يقوم بتكرار ما هو مكرر واجترار أقوال القدماء ، وفرض كل ظاهرة جزئية وتطبيقها واعتسافها وقياسها على كل الكليات ، وبدلا من أن يكون باحثا واقعيا ، يصير متكلما أصوليا ، ويبتلى نتيجة لذلك بالذهنيات عن غير وعى .

وهنا أيضا تطرح قضية معرفة الفرد والقوانين العلمية لعلم الإنسان ، ولاشك أن أفراد البشر يولدون طبقا لقوانين البيئة الكلية والثابتة وقوانين الوراثة والنضج الخاص بمراحل العمر المتتالية والأصول الفسيولوجية والنفسية العامة ، وعليها أيضا ينشئون ويربون ويموتون لكن ، طبقا لهذه القوانين ، لا يمكن أبدا أن تعرف شخصية فرد ما معين أو توجه أو تفسر ، تلك الشخصية التى تشكل حقيقته الواقعية بدقة وشمول . فلينين وتولستوى وراسبوتين كلهم يتشابهون من ناحية البيئة والعصر والتاريخ والعرق والانتساب الطبقى والبيئة الجغرافية ، كلهم ذوو « عناصر مكونة للشخصية الاجتماعية والفردية » واحدة ومشتركة ، وفى الوقت نفسه كلها شخصيات غير متشابهة بل ومتناقضة .

إن ما أسميه الشخصية الاجتماعية أى شخصية مجتمع ما ، هى من ناحية التركيب الاجتماعى أو تركيب مجتمع ما ، ومن ناحية أخرى خصائصه التى تميزه وتميز وجوده عن المجتمعات الأخرى . ولا أريد أن أفعل مثل بعض المثاليين فأنسب هذه العوامل وأرجعها إلى عوامل غامضة أو ميتافيزيقية أو إلى

المصادفة أو إلى الإرادة والاختيار ، وأكرر على سبيل المثال قول بونتيير : « إن النبوغ شعلة غامضة محفوفة بالأسرار ولغز مجهول غير قابل للتنبؤ وأيضا لا يوصف » لكنها وليدة تلك « الكيفية نفسها من التركيب » التى مهما كان تفسيرها وتحليلها صعبا إلا أنه ليس محالا ، مهما لم نستطع علميا بالمعلومات المتاحة .

ومن هنا فإننى مع إيمانى بالوجود العلمى الذى يعرف باسم التاريخ أو الاجتماع أى القوانين الثابتة والكلية التى يحيا المجتمع الإنسانى على أساسها ويتغير ، أعتقد أن تأويلها أى تطبيق هذه الاصول والمعايير الكلية الموضوعة سلفا – ولو وضعا علميا [1] على مجتمع ما فى حالة جزئية ، أو قضايا اجتماعية لفترة من التاريخ فى مجتمع معين ، يستوجب ألا نعتبر أن هناك أوجه نقص على الإطلاق أو بطلان فيما نسميه فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع ، لأننا افترضنا أنها قوانين ثابتة ومعايير حاسمة نقيس بها الحقائق والواقعيات ونزنها بميزانها ، وليس العكس كما هو مفروض ، بحيث لانصل أبدا إلى كشف جديد واستنباط قانون أو استنتاج دقيق لا ينطبق على تلك القوانين والقوالب ، وكلما واجهنا ظاهرة عميقة جدا ولا سابقة لها ، نقوم بتحريفها بشكل ما حتى تكون قابلة للتطبيق والتعليل مع موازيننا التى اعتقدنا فيها وآمنا بها آنفا .

وإن خطر الوقوع فى الخطأ يكون أفظع حين نرى أننا لازلنا نستطيع الحديث عن علم التاريخ وعلم الاجتماع بصعوبة ، ومهما كان أى مجتمع محدودا ، أو مهما كان فرد من الأفراد أو مصداق من المصدقات الأخرى « كلية » بمعنى المجتمع منطبقا على الأصول الكلية لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، فإنه هو نفسه وفى الوقت نفسه « شخصية » ، ولمعرفته « علينا بعد أن نعتبر أحد الأفراد « كلية » باسم « المجتمع » أن نفسره هو الاخر « شخصية » [2] وهكذا هو

(١) هذا فى حين أننى اومن مائة فى المائة بصحة هذه القوانين والأصول الموجودة فى فلسفة التاريخ علميا ، وهذه الثقة ليست خالية من الشك فى سذاجة الظواهر والعناصر الإنسانية وسرعة تصديقها والعمق عند فيها من عمق مدهش وغموض وعدم قابلية للإحصاء وعدم ثبات ، خاصة فى شكلها الأكثر تعقيدا أى المجتمع والتاريخ . ومن هنا لاينبغى الاكتفاء بتأويل القوانين والأصول الكلية وفرضها لعدم النسخ وعدم الغفلة عن الحقيقة الاجتماعية . (٢) كما أن علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع وعلم الإنسان لاتغنينا من أجل معرفة شخصية ثقافية أو علمية أو سياسية عن علم النفس الفردى ودراسة سيرته وخصائصه النفسية بل والفسيولوجية .

ما يقوله جورفيتش: «إنه لايوجد شيء اسمه المجتمع بل توجد مجتمعات» .

وقضية «البنية الفوقية الاجتماعية» ، بالرغم من أنها صحيحة إلا أن وضعها وكيفيتها يختلفان ، فليس المجتمع الإنساني بناء بسيطا بحيث يوضع بناء اقتصادى أسفله ، ثم تبنى من فوقه الأخلاق والدين والفن واللغة .. الخ والشخصيات والفضائل والأفكار والعلوم و ... وكل الوجوه المختلفة للروح الإنسانية الغامضة والأبعاد المعقدة للتجليات الاجتماعية ، بل إن مجموع هذه العناصر تمزج فيما بينها بشكل ما ثم تبدو في صورة شكل أو جنس يشكل البيئة الاجتماعية ، وفى الوقت نفسه فإن كل هذه العناصر تشكل مزاجا وجنسا يقتضى ظروفا خاصة ومتناسبة ، بحيث إنه بعد معرفة هذا الجنس والمزاج ، فإن كل شيء أى كل الوجوه والتجليات والحركات قابلة للمعرفة وقابلة للتحليل وعلى أساس ذلك قابلة للتعليل ، بل ويمكن التنبؤ بالمستقبل والحدس بالنسبة له ، والتدخل إلى حد كبير وباحتمالات قوية جدا ، وهنا يمكن فضح قضية «التقوى» (العلموية) «تلك القضية الساذجة أو الخبيثة التى تريد أن تفصل العلم عن السياسة وعلم الاجتماع عن الأيديولوجية والتاريخ عن الالتزام والهدف ، وهذا غير «العلم الملتزم» و «الفلسفة التقدمية» الموجودة عند جماعة هدفها ونتيجة عملها تحريف العلم وتحريف الفلسفة ، هذه الجماعة التى اخترعت «العلموية الجديدة» لخدمة مدرسة عقائدية وأهداف اجتماعية حددتها . (١)



(١) إن الحياد والموضوعية وتقديس حرية العلم أفكار ليست من أجل تنزيه العلم ولكن من أجل أن يخلص العالم بكرامة وعلم من آلم الرأس والالتزام واستصال اللازم للعقيدة ويفر منها .

موقعنا من التاريخ :

ماهو موقعنا من التاريخ ؟

لقد تحدثت في هذا الأمر مرارا وتكرارا ، وسألت بجدية شديدة المفكرين المستنيرين الصادقين من مواطني الذين يشتركون معي في الألم والاهتمام ، كما سألت أولئك الذين يعيشون في الدول الإسلامية أو غير الإسلامية من دول العالم الثاني (الثالث سابقا) (١) ، هذا السؤال هو : ما هو موقعنا وما هو العصر الذي نعيش فيه ؟ وليس هذا سؤالا بسيطا ، ليس قضية علمية وفلسفية وتاريخية فحسب ، إنها تضم كل هذه الجوانب .

وقبل أن نؤمن بمدرسة فكرية ما ، وقبل أن نبدأ عملا ما بداية صحيحة علينا أن نحدد في البداية : في أي مكان نحن من الأرض وفي أي عصر من الزمان ؟ وقبل أن نعلم في أية مرحلة من مسيرة التاريخ ، وفي أي منعطف من عصور التطورات الاجتماعية ، يكون اتباع أيديولوجية ما تقدمية أو منحطة ، صحيحة أو مخطئة ، دينية أو مادية ، تعصبا لا محل له بالمعنى الحقيقي للتعبير ، ونتيجة لذلك فإن سلوك أي طريق ضلال ، وترك للعمل السياسي والاجتماعي ووضع لمصير المجتمع والمنزل الأول للإصلاح والثورة تحت رحمة المصادفة والاحتمال ، هو كتابة وصفة لمعالجة مريض لا نعرف عمره ولا مدة مرضه ولا نوعه بل ولا نعرف المريض نفسه على أي وجه ، بل علاج كتب تقليدا لطبيب حاذق مجرب عالج في مكان آخر مريضا آخر وكان علاجا ناجعا .

ربما تتعجبون لماذا أطرح هذه القضية الواضحة والبديهية هنا ؟ الجواب : ذلك لأن مخاطب سان سيمون وبرودين وماركس وإنجلز حوالي سنة (١٨٥٠)

---

(١) إن العالم الثالث ليس إلا مجرد ذكرى تاريخية ، فلا يوجد الآن أكثر من عالمين . ومن نفى كونه اختلاف في الاسم والرسم والعنوان ، واختلاف في العلم و « الألفاظ » . فالعالم هو عالم الراكبين حشاة أو الراكبين والمركوبين . فأولئك هم الأغنياء والأقوياء وأكلة السحت والرأسماليون وبائعو المصانع ومشترو المواد الخام ومحددو الأسعار والحدود والمصائر وموجدو الحوادث الجسام أو بعبارة واحدة « العالم الصناعي » ، ثم عالم الركود والتقليد والاستهلاك والتبعية في الشكل والادعاء والتشيد والعلم . في السياسة والاجتماع ، ينبغي أن يكون المرء واقعيا لا متحمسا وضع أسماء .

لا يشبه فى شىء قط مخاطب المفكرين المستنيرين الاجتماعيين فى الدول الإسلامية حوالى ١٩٥٠ .

أولئك ألمان وفرنسيون وانجليز ، وهؤلاء إيرانيون وأفغان وترك وعرب ..

أولئك غربيون ، وهؤلاء شرقيون .

أولئك ذوو رؤية غالبا ماهى قائمة على الحساب والمصلحة ، ومنطلقون من مبدئية الكسب ، وهؤلاء ميالون غالبا إلى العاطفة وعباد للحقيقة ومنطلقون من مبدئية « القيمة » أولئك من البورليتاريا الصناعية وهؤلاء مزارعون قرويون ومادون بروليتاريا هناك شكلت طبقة العمال وشملت كل أعضاء المجتمع ، واتسعت وتعمقت وغلظت وتكثفت واكتسبت ثقافتها ولغاتها وسماتها ورموزها وعاداتها ، وهنا مجرد جماعات متفرقة وفى أركان مختلفة من العمال الصناعيين ، وأفرادها فى الغالب الجيل الأول من العمال ، وكانوا من قبل فلاحين أو عمالاً زراعيين هاجروا إلى المدينة .

هناك بلغوا مرحلة الصناعة الثقيلة ، وهنا لا يزال معنى الصناعة عندهم معنى استهلاكيا وأغلبه « رمزى » [١] ، وهم يبررونه ويتجهون فيه وجهة غربية واستيرادية ، وأحيانا توجد بضع مصانع للتجميع أو الإنتاج الجزئى الحقير للسلع الاستهلاكية قليلة القيمة . هناك انتقلوا من البورجوازية إلى الرأسمالية ثم من الرأسمالية إلى آخر مراحلها أى الإمبريالية والاستعمار ، وتطوروا من مرحلة تصدير السلعة إلى مرحلة تصدير المصنع بل وأحيانا تصدير رأس المال . أما هنا فالبورجوازية الجديدة لاتزال فى مرحلة « السمسرة » يقوم بها عدد من وكلاء البيع المتعاقدين مع الشركات الغربية .

هناك ، أدت الليبرالية والديمقراطية لعدم تآلفهما الفطرى مع الرأسمالية إلى أنواع الفاشية ، وأصبحت الحرية عندهم تعنى حرية التجارة وحرية رأس المال غير المقيد والتحرر من القوانين والقيود الجمركية . أما الحرية هنا فذات مفاهيم مفعمة بالحياة والثورة أخلاقية وإنسانية ومطالبة بالعدالة ومقدسة .

(١) الاستهلاك الرمزى : الموبيليا والتلفزيون وشاطىء البحر والموسيقى الغربية وأعياد الميلاد والذهاب إلى قاعة الرودكى للموسيقى ... وهو بالنسبة للكثيرين منا ليس استهلاكا حقيقيا ، إننا نحس فيه فحسب بأوجه اشتراك مع البشر الأعلى فى الغرب الذى نحس باحتقاره لنا فى داخلنا .

هناك : تركوا القرون الوسطى خلف ظهورهم منذ ثلاثة قرون ، وهنا لا يزالون يعيشون فى معمعتها .

هناك قاموا بالثورة الفرنسية منذ قرنين ، أما هنا فلا تزال ترجمة « روح القوانين » لمونتسكيو كتابا جديدا وعميقا ومكتشفا بالنسبة للعلماء والمفكرين المستنيرين ، أما دائرة معارف فولتير ، فلم يسمع عنها أحد شيئا .

هناك قاموا بالثورة الصناعية منذ قرنين فى إنجلترا ، وأصبح شعارهم الآن « الموت للآلة » تضامنا مع العمال ، وهنا بعد قرنين : إدخال الآلة يعنى آلات من صنع أوروبا ومن تخريب هنا وأمل العاطلين : مجىء الآلة .

هناك : المتعلمون أناس ذوو وعى اجتماعى ورؤية نقدية وفكر وأيديولوجية وتعاطف مع الناس وسلوك مضاد للأرستقراطية ومضاد للبورجوازية وعواطف عالمية إنسانة بدرجات متفاوتة ، وهنا : المتعلمون أشخاص يذهبون إلى الجامعة عدة سنوات ويعودون منها ، ويمتحنون تبعا لذلك ويأخذون التقديرات طبقا لحضورهم ، ويأخذون شهادات الفراغ من الرسائل المملاة و « إبدال النسخ المطبوعة إلى نسخ مخطوطة أو مصورة » ، وبها يدخلون فى خدمة الحكومة ، ويشتركون فى المحافل والمدارس الخاصة القاصرة على الأصدقاء والرفاق ، يتبوءون المناصب ويقبضون النقود ، ويحلون محل « السادة الحجاج » التجار السابقين واليهود الأسبقين والأشراف المفلسين القدماء . (١)

هناك يحيا أستاذ الجامعة إنه أعلى مقاما وأشرف من الجنرال « ديجول » ، وهنا يرضى حتى بتعيينه فى « الرئاسة العامة للأمور المتعلقة بحفظ الأموال والأثاث والإشراف على نظافة الأماكن الخاصة فى الكلية .

---

(١) أحيانا يقوم طبيب صحة فى القرية وحده برسالة أربعة من المستخدمين التقليديين أى : الخان والآخوند « رجل الدين » والشرطى والسارق المسلح ، يقوم بها على أكمل وجه بل يزيد . وقبل ظهور هذه « الطبقة الجديدة » كان كل منزل ملفت للنظر أو حديقة عامرة أوعقارغال على ناصيتين تراه وتسأل عن مالكه ، كان الرد : ملك الحاج فلان أو الخان فلان أو اليهودى فلان ، أما الآن فيقولون : ملك الدكتور فلان أو المهندس فلان ، انظروا إلى الأحياء الجديدة فى طهران .

هناك يقرأ كل فرد عادى كل يوم شيئا فى المتوسط ماهو مقداره أحد كتب الجيب فى سلسلة « ماذا أعلم » ، وهنا يقرأ كل إيرانى سنويا ما يستغرق ثلاث ثوان ونصف من وقته ، والرجال الفضلاء الجامعيون والمفكرون المستنيرون فيه أيضا يقرعون « زن روز » و « بر سردوراهى : فى مفترق طريقين » .

هناك بلغت الثقافة العامة مستوى بحيث يعتبر نتاج ثمانى وعشرين سنة من البحث لنابغة مثل ماسنيون عن « سلمان الفارسى » مجرد محاضرة بالنسبة للطالب الفرنسى ، وهنا تعد ترجمته الفارسية بالنسبة للإيرانيين الفضلاء المسلمين الشيعة ، نصا غامضا وغريبا وغير مفهوم ، ولايهم أحد من العلماء المهتمين بالقديم والجديد . (١)

هناك : سقط الدين عاجزا مقعدا منزويا فى أركان الكنائس ، ولا يقوم معارفه القدماء بزيارته إلا فى أيام الآحاد ، وهنا يدق نبض المجتمع على أنغامه ، وبدنه مفعم بحرارة الإيمان ، وتعداد الشهداء الذين يقدمهم يوميا يتجاوز تعداد مجموع الأرقام التى تقدمها كل الأيديولوجيات غير الدينية فى النصف الأخير من هذا القرن .

هناك يستطيع أهل الخير من الأفراد والجمعيات الخيرية والأوقاف غير الدينية أن يقفوا على أقدامهم أمام رجال الدين والأوقاف الدينية والجمعيات الدينية وينافسونهم أما هذه الأمور هنا فهى مائة فى المائة دينية ، فالأوقاف قاصرة على الدين ، أما المستوصفات الخيرية فأكثريتها الغالبة دينية بالرغم من أنها لم تبدأ إلا منذ عشر سنوات ألا إنها أكثر من مجموع مستوصفات جمعية الأسد والشمس الحمراء الإيرانية « الهلال الأحمر الإيرانى » ووزارة الصحة ومؤسسة الخدمات الاجتماعية كما وكيفا ، وفى مقابل كل هذه المؤسسات الخيرية

---

(١) اللهم إلا اذا كان المرحوم العلامة تقى زاده قد وفق فى ترجمته حين ذاك كنت ترى أى سباق أحتدم بين أدبائنا وفضلائنا ومحققينا العميقين ذوى الوزن حول تقريظ مقام المترجم وتقدير مثل هذه الترجمات وتقديس مثل هذا المتن وتعظيم مثل هذا المؤلف ، وتكريم .. وجوائز وأية شروط وأية أوصاف وأية تحليلات دقيقة ومناقد موضوعية علمية غير مغرضة من أجل العلم فى حد ذاته وقيمة البحث ، لكن : عندما يأتى شاب غريب ومغمور فيقوم بهذا العمل الذى كان من المقرر أن يقوم به الأستاذ العلامة وزعيم الحركة الدستورية ، لاينشر حتى خبر صدوره فى فهرس الكتب التى نشرت فى إيران ١٣٤٤ هـ ش

والأوقاف العامة والنذور والصدقات وغيرها ، فإن للعصريين العلمانيين فقط نادى الأسود « ليونز » (الأشبال) ونادى آخر أصله فى أمريكا لا يحضرنى اسمه .

هناك : لاتزال الزراعة فرعا للإنتاج الصناعى ، وهنا على العكس تماما .

هناك : المزارع والقرى أقمار للمدن تدور فى فلكها ، وهنا لاتزال المدن طفيلية على القرى أو كما يقول السيد المهندس بازرجان : مستهلكة الخبز والنبوغ وما سختهما ، وكلاهما تنتجه القرية .

هناك : يعتبر الماضى مجرد ذكرى محترمة وعصر تاريخى ، أما هنا فالماضى فى حال الحضور دائما والكلاسية حية ذات تيار وحركة وهى العصر الذى يعيش فيه قومنا .

هناك : تعيش الأغلبية عصرها وينطبق الزمان الاجتماعى عندهم مع الزمان التقويمى ، وهنا : أفراد معدودون فقط وبصورة فردية يعايشون عصرهم ، وفى الحقيقة فإن القرن العشرين بالنسبة للأغلبية عبارة عن « خبر أجنبى » أو رقم فلكى ورياضى .

هناك : المفكرون المستنيرون على علم بأقوامهم ومجتمعاتهم وثقافتهم ، أما هنا فمجرد أشباه لهؤلاء غرباء عن أقوامهم ، وأقوامهم فى دهشة يتساءلون : من هم ؟ وماذا يقولون ؟ وماذا يريدون ؟ وفى أى شىء يفكرون ؟ وبأى لغة يتحدثون أصلا ؟

أولئك : يعود تراثهم الفكرى إلى أرسطو وحتى ديكارت ، أما ماضينا فيعود إلى إبراهيم وبوذا وزردشت وموسى ومحمد وعلى وحتى أبى على ابن سينا والغزالى وحافظ ومولانا جلال الدين ونانك وداراشكوه وملا صدرا . [1]

---

(١) المترجم : حافظ : هو حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى المتوفى ٧٩١ هـ ، ونانك : هو مؤسس طائفة السيخ أو السك فى الهند وهى من نتاج امتزاج الإسلام ببعض النحل الهندية وداراشكوه : هو محمد داراشكوه أحد الأمراء المغول المسلمين فى الهند ، كان مفكرا باحثا فى الأديان وحاول القيام بحركة فكرية للتآليف بين الأديان الهندية والإسلام للوصول الى نوع من الامتزاج فى الهند ، وملا صدرا : هو محمد بن ابراهيم الشيرازى الملقب بصدر المتألهين وهو أحد الفلاسفة الإيرانيين العظام

بورجوازيوهم مفكرون تقدميون عصريون مضادون للكنيسة وثوريون مطالبون بالحرية ، ومن أعمالهم الثورة الفرنسية الكبرى ، أما بورجوازيونا الكلاسيون فهم عبارة عن السوق وهو عبد مطيع للمسجد ، وبورجوزيونا العصريون في استسلام كامل للشركات الأجنبية . المرأة العصرية هناك ثمرة للحرية ودليل على تقدمهم ، وعندما يقومون بإحصائهن يقومون بذكرهنّ ضمن الشهداء الذين قدموهم في حركة المقاومة ضد احتلال باريس على أيدى النازى ، وضمن الأساتذة والكتاب والمترجمين وعلماء الموسيقى وقادة الأوركسترا والمكتشفين والمخترعين والمناضلين الاجتماعيين والسياسيين والقائمين بخدمة البشر وأمور وتخصصات من هذا القبيل ، أى الجهاد فى المشاركة الفعالة بأكثر ما يمكن من المفاخر التى كانت فى الغالب قاصرة على الرجال ، أما المرأة العصرية هنا فإن الإحصائية الوحيدة التى تقدمها كدليل دقيق لمعدل التقدم والتطور والحرية لديها ، وأكثر الأناشيد الحماسية التى ينشدها إيقاعا ، ويعتبرنها من الانتصارات التى اكتسبنها فى طريق الحرية والتقدم إنه ..[1] منذ سنة ٣٦ (٥٧) حتى الآن ٤٦ (٦٧) وفى فترة لاتزيد عن عشر سنوات تضاعفت مؤسسات التجميل والزينة وبيع لوازم الزينة والرموش والأظافر الصناعية فى طهران خمسمائة ضعفا ، وأضاء الله عيون الرأسماليين أصحاب مؤسسات مرجريت دى ستور وكريستيان ديور وميزون دى خم .[2]

(١) ناهيك عما « أعطى لها » ولن أتحدث عنه ، فان مايؤخذ هو المعيار لامايعطى . سوف تعترضون قائلين : أليس الحق الذى يعطى لفرد أو لجماعة فى حد ذاته دليلا على أنه جدير به وحقيق باكتسابه ؟ أى سؤال هذا ؟ إنكم ترون أن الأمر ليس هكذا ، الجواب نظريا على ذلك بالإيجاب أما عمليا فهو بالسلب . والحقيقة أحيانا لاتنطبق على الواقع فحرية الرأى ليست فى الغالب مقرونة بحرية إبدائه أو حرية التصويت ، فما أكثر أصحاب الرأى الذين لا يستطيعون إبداء آرائهم ، وبالعكس ماأكثر الذين يستطيعون إبداء آرائهم لكنهم لايبدونها ، وسوف تسألون : فى النهاية اذا لم يكن لأحد رأى فما الذى يستطيع إبداءه ؟ والجواب على حد قول المرحوم نيما يوشيج « فى النهاية ليس لكل سؤال جواب » .

(٢) هناك مبدأ فى علم النفس الاستهلاكى اسميه « تداعى الاستهلاكات » ، أى أنه اذا استدعى الأمر استهلاك نوع من السلع الاستهلاكية فإنه يجر معه استهلاك نوع آخر . اجعل مثلا عاملا يستخدم رباط عنق ، فان رباط العنق هذا لن يأخذ وحده بخناقه . وبسرعة شديدة سوف يصطحب معه ياقة منشاة وقبعة أوربية وسترة وسروالا وجوربا وحذاء مناسبا . وبسرعة شديدة سوف يعد رباط العنق الغليون الشعبى عن يد صاحبه ويوقعه فى تدخين السجائر ، وعلى الفور يصل دور السيارة .... والأثاث . هذا الرقم هو تضاعف استهلاك أدوات الزينة إلى خمسمائة ضعف دليل على تصاعد السلع الاستهلاكية الأخرى وهو مخيف إذا قورن بمعدل ارتفاع الدخل القومى .

هنالك يدور الصراع بين القديم والجديد والكلاسية والعصرية حول الفكر والعقيدة والرؤية الكونية والإحساس بالطريق واختياره وأسلوب الحياة والرؤية الدينية والسياسية والفلسفية والعلمية والذوقية وتذوق الفنون ، أما هنا فتدور حول المحافظة على الحجاب والملاءة من ناحية ، ونبذ السروال القصير وحمالة الصدر من ناحية أخرى ، وفى صف : يقف الوفاء للحى والشيلان والسراويل الشعبية والكرسي وإبريق الماء .. الخ وفى صف : التظاهر بإزالة اللحى ، وإطالة الشعر ، والانسجام الإجبارى من الموسيقى الأجنبية غير المفهومة وغير المأنوسة ونسيان بعض الألفاظ الفارسية والعبارات المتداولة فى اللغة الأم بينما كانت لغة حديث لمن يدعي ذلك طيلة ثلاثين سنة ، وذلك بعد التجول عدة شهور حول السين والتايمز ومشاهدة ميدان الأوتوال وبرج إيفل ورؤية الاجانب ، ونبذ سجاد كاشان وكرمان من قلة الحيلة من أجل اسم « الموكيت » ورسمه (١) ، واعتبار البزة الأصفهانية المسماة بالترمة والتى تعمى عينا فنان فى رسمها مجرد (بقجة) حمام فظة وثقيلة ، وإزالة أعمال الجص المعجز فى ضريح « شيخ جام » بدعوى أنها أصبحت قديمة ، وتغطيته بالموزايكو الصناعية ، ثم تزيين الجيد بالخرز البدائي ووضع « عراقة » الحمار على جدار الصالون الفخم كديكور عند أفراد هذا الصف من العصريين المعاصرين مستنيرى الفكر وأشياعهم ، ثم الاهتمام الفجائى عن طريق النقطة الرابعة لترومان ببضائعهم القديمة الجميلة الكلاسيكية ، وتقليدا للرسالة العملية للمليونيرات الجهلة الذين يدعون الإحساس من الأوروبيين ونساء الجاويشات الأمريكان والمقاولين الأوربيين والمتشردين الجهلة الذين صاروا إكراما لشعورهم الشقراء وعيونهم الزرقاء ولكنتهم الأوربية أقطاب الفن وحجج الفهم والمراد وأصحاب الفتيا فى الفكر عند قرودنا الملمعة الجديدة يقومون بشراء تماثيل النحاس المصبوب التى يقوم الأصفهانيون الخبثاء بصبها وعليها صور رستم واسفنديار وبعض الخطوط كيفما اتفق وعرضها على السياح – الذين يعرفون الشرق بقدر ما يعرف عصريونا الغرب – على أساس أنها آثار شرقية

---

(١) فرش مجلس شيوخ إيران – مركز السجاد فى العالم – بسجاجيد من صنع إنجلترا .

قديمة ، يقومون بشرائها وتعليقها على حيطان المنزل ، واعتبار الأغنية المبتذلة السوقية « بانو » للسيدة دلكش فنا إيرانيا محليا كلاسيا أصيلا ، ثم إبراز السعادة والسرور - مصلحيا - من أجل كل هذا ، وكأن الواحد منهم يريد بهذا أن يقول : « إنني - بالرغم من أن بضع نفر من أقاربي ومعارفي قد سافروا إلى الخارج وبالرغم من أنني نفسي درست لغة أوربية عبارة عن سبعة دروس من « در اشبيجل » - لازلت أحتفظ بأصالتي ، وخلافا لكل هؤلاء الذين فقدوا أنفسهم وأصيبوا بداء الاستغراب بقيت إيرانيا خالصا أحب ثقافتي الأصيلة !! ولعله بذلك يمنن على فرانز فانون وإيما سيزار وسوردل وعمر مولود ونيريرى وكاتب ياسين وموريس دى بارى وحتى على قورش ودارا وكيكاوس وجمشيد ورستم والجميع لأنه بدلا من أن يأكل الطعام الأوروبى مثل الجيجو والراجو والشاتوبريان والبفتيك والأسترويبف لايزال يحب لحم الرأس والأكارع وأحيانا يأكلها مع « الويسكى » فى الحفلات ، وبلغت به القومية والأصالة والعودة إلى الذات ومناضلة الغرب والاستقلال فى الذوق والفكر والفلسفة أنه مواجهة للحضارة الأوروبية المحيرة اليوم قد بلغ حدا جعله مستعدا للجلوس مستدفئا بواسطة « الكرسى » بل إنه يفعلها أحيانا ، بل وينتوى فى السنة القادمة أن يضع فى غرفة جلوسه « كرسيا » يعمل بالكهرباء ، وأن تدخن زوجته فى السهرات الغليون الشعبى .

هناك : يوجد أساس ثقافى عقلانى ومادى ومؤسساتى وميال إلى العينية وعابد للكسب ويونانى ، وهنا : يوجد أساس ثقافى روحانى معنوى جماعى ميال إلى التجريد والذهنية عابد للقيم .

هناك يتعاملون مع دين هو دين العبودية وتبرير الضعف والفقر والزهد والأمر بتقبل القتل ، ومظهره الصليب ، يعنى أداة القتل لنظام من صنف نظام القيصر ، وهنا دين يدعو إلى العزة والجهاد والقوة والتمتع أيضا بالمائدة ويأمر بالقصاص ، يبدل بسرعة شديدة فئة من الأذلاء المتفرقين إلى قوة مهاجمة طالبة للعدل وتدعى القيمومة على الدنيا ومظهره السيف ، السيف والكتاب .

هناك : يضحى شهيدهم المسيح بنفسه لحسابات غرامية وخاصة بينه وبين الله ، أما هنا فمسيحهم يستشهد فى انتفاضة ضد الظلم ومن أجل تحرير الناس ،

والخلاصة أن قاتل شهيدهم هو الله ، وقاتله هنا هو يزيد ، ومن هنا يقدسون هناك المشنقة (الصليب) الذى صلب الجلاد مسيحهم عليه واختاروه رمزا مقدسا لدينهم ، وهذا أمر مخيف بالنسبة لشيعى ولا يصدق ، وفي الوقت نفسه دال على السذاجة المتناهية التي يتصف بها خراف السيد المسيح ، ويشبه مثلا أن يقوم شيعى بتعليق سيف شمر على صدره وتقبيله ونصبه فوق حسينياته وتكاياه ، وبدلا من « ذى الفقار » سيدنا على ، يجعل رمزه الدينى السيف المسمملابن ملجم . [1]

هناك : يعيش إمامه (البابا) فى بلاط يخطف أبصار رئيس الولايات المتحدة ، ويلبس قطيفة يذوب منها قلب اليزابيت تايلور حسدا ويتمتع بثروة تجعله يشفق على فقر أوناسيس ، وهنا : يموت آية الله البروجردى مدينا وفى منزل شديد التواضع ، ويعتبر حاجى شيخ عبد الكريم مؤسس المركز العلمى فى قم حساء اللحم كل ليلة من قبيل الإسراف. [2]

هناك : يعتبر رجل الدين طليعة الاستعمار ورائده ، وهنا : ضحية للغرب والاستعمار وطليعة كل الحركات المضادة للاستعمار .

هناك : للكاردينال مقام يهبط تماما فوق رءوس الخلق ، وهنا يخرج رجال الدين من بين الناس ، وينتخبهم الناس ، وهم أحرار فى قبوله .

هناك : الكنيسة مخدع للروح واستراحة للمؤمن .. وهنا : المسجد ! اللهم إلا اذا لم يكن مسجدا ، كان المسجد منبع كل الثورات والحركات والانتفاضات الشعبية .

هناك : يتحدثون عن الشراب الذى يصير دما ، وهنا يتحدثون عن الدم الذى يصير نارا هناك يعظ بولس الرسول قائلا : ابحثوا عن الله في الجوع وأشكروا من يخطف خبزكم لأنه قد أجلسكم على مائدة العشاء الأخير إلى جوار الهنا المسيح . وهنا يصيح أبو ذر باستنكار غاضب : عجبت لمن لا يجد قوت

(١) ابن ملجم قاتل سيدنا على ، وشمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين وذو الفقار سيف الإمام على
(٢) آية الله البروجردى مرجع الشيعة الأعظم وأستاذ آية الله الخمينى وحاجى شيخ عبد الكريم الحائرى مؤسس المركز الدينى فى قم ١٣٤٠ هـ. وأستاذ آية الله الخمينى . المترجم .

يومه ، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه ؟ ويعلن رسوله بحسم « من لا معاش له لا معاد له » .

هناك : الارستقراطية ذات جذور ونظام طبقي شديد واقطاع متقدم ، والدين هو البنية التحتية لهذا النظام الاجتماعي ، وهنا : الأرستقراطية لاجذور لها ، ودائما ما هي حديثة الظهور ، ولم يكن الإقطاع موجودا في الأصل ، وبدلا منه كان هناك نظام إنتاجي يسميه ماركس نفسه « نظام الإنتاج الآسيوي » وليس إقطاعا . والدين دائما ما كان في صدام فكري وأحيانا عملي مع أخلاق الأرستقراطية وتكون الطبقات .

هناك : كانت العبودية تصنع طبقة واسعة اجتماعية ، وكانت أعظم قوى الإنتاج ، بل وكانت موجودة إلى قرن مضى « في روسيا إلى قبيل ثورة اكتوبر » ، أما هنا : فقد قام الإسلام بإيجاد جو لا يساعد على ظهورها من الناحية القانونية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية بحيث جفت جذورها ، وعندما ظهرت ثانية في عصر المغول لم تتشكل أبدا في صورة طبقة اجتماعية وقوة منتجة ، وفي الغالب كانت ذات طابع رفاهي وللخدمة ، وتثبت الثقافة الإسلامية ويثبت الرجال المسلمون المشاهير ، أنه في ظل الثقافة والتعليم والتربية الحرة الإسلامية كيف كان العبيد يستطيعون بأسرع ما يمكن نيل حريتهم ، والبلوغ بأنفسهم مستوى الشخصيات البارزة ، بل والقيام بأعظم الأدوار العسكرية والسياسية والعلمية خاصة في المجتمع ، ومما هو مثير للدهشة أنه في أوج ازدهار الحضارة الإسلامية وعالمية القوة الإسلامية نرى أن أكثرية المواهب العلمية والفقهية والمناصب القضائية والدينية وحتى الإمامة في العالم الإسلامي العظيم تبوأها الموالي ، بدرجة تبين أن عهد ازدهار الإسلام ، هو عهد التفوق الفكري للموالي على العرب .

هناك : عندهم حكومة ديمقراطية منذ ثلثمائة وألفي عام ، وفلسفة سياسية مستندة على الشعب وسيادته والسلطة اللادينية والروح القومية والرؤية الكونية والفلسفية المادية ونظام إداري مدني « بلتيك » ، وهنا : بعد ثلثمائة وألفي سنة لاتزال الديمقراطية كلمة أوربية غامضة ، والفلسفة السياسية قائمة على سيادة

« الزعيم » ، ومنبع السلطة « من فوق » وذو صبغة دينية ، والروح القومية غالبا ما هى تحت سيطرة الإيمان والدين ، والرؤية الروحية ، والعالمية المادية ذات مفهوم ممتزج بالكفر وملوث بالفساد ، والنظام فى الدولة قائم على الزعامة والسياسة « لاإدارى » .

هناك : عندهم قانون ، وهنا : عندنا حكم .

هناك : حكيم ، وهنا : رسول .

هناك : عبادة الواقع ، وهنا : عبادة الحقيقة .

هناك : عالم الغيب هو الجار اللصيق لعالم المادة . والآلهة يسكنون فوق قمة جبل الأوليمب وفوق جبل البرناس ، وهنا : الغيب بعيد بمسافة الأبدية ، والله فى العرش الأعلى وملكوت الجلال والجبروت اللامتناهى والإحساس الدينى والقدسية الغيبية والسرية المطلقة التى لا تنالها يد والمسيطرة على الوجود .

هناك : العلاقة بين الإنسان والآلهة هى العلاقة بين الإنسان والأبطال ، وفى ألطف حالاتها هى العلاقة بين العشق والجمال ، وهنا : فى أكثر حالاتها عادية علاقة بين ما هو صغير إلى ما لا نهاية وما هو عظيم إلى ما لا نهاية .
هناك : ينزل الآلهة إلى الأرض بسرعة وبساطة وتتشكل فى شكل الإنسان وصورته ، وهنا يصعد الإنسان ببساطة وسرعة إلى السماء ويعتبر لاهوتيا وما وراء مادى ومخلوقا متألها وما فوق إنسان .
هناك : يتعب الدين من نوع من المناقشة بين البشر والآلهة ، وهنا : يفيض الدين بالرحمة والمحبة والغفران والعفو .
هناك : كان بروميثيوس المحب للإنسان يسرق النار الإلٓهية من السماء وفى غفلة من الآلهة يأتى بها إلى الأرض ، وهنا كان الله نفسه يسلمها جبريل ليودعها أحد الأفراد العاديين بل والأميين من البشر ليقدمها هدية إلى قومه ويحض البشرية على قبولها بتعيين الثواب والعقاب .. وهناك يقوم زيوس بعقاب بروميثيوس على إتيانه بهذه النار المقدسة الإلٓهية بشده إلى الأغلال والحكم عليه بالنفى والعذاب وصب الغضب عليه والعقاب ، وهنا : يقوم أعداء الله وهم من نوع الإنسان ومن أصدقاء إبليس بتعذيب بروميثيوس عن طريق إلقائه فى نار النمرود وقتله

بالصلبان القيصرية وحبسه فى جبال القفقاز وشعب أبى طالب والحكم عليه بالتعذيب والنفى والطرد من قبل القوى البشرية الجاهلية : القوة والذهب ومذهب الليل والشتاء ، أعداء النار الإلهية ومشعلى نار النمرود .

علم الاجتماع أو علم التاريخ ؟

إن تفسير المجتمع كـ « شخصية » يقضى على التناقضات الموجودة بين أنصار الفردية وأنصار الاجتماعية الذى كان رائجا فى القرن التاسع عشر ، وعلى الحرب بين علم النفس وعلم الاجتماع الذى حل محله الآن ، وأيضا الهجوم والصراع بين المعتقدين فى فلسفة التاريخ من الأوفياء لمدارس القرن التاسع عشر الفكرية ومخالفيهم الذين صاروا أقوياء جدا فى ميدان علم الاجتماع الجديد ، ويعتبرون أن طرح أى قانون أو قاعدة بالنسبة للتاريخ ، وتحديد مسير له أو مرحلة أو التنبؤ بمستقبل على أساسه من الأمور الوهمية ، وهذا التفسير يقضى بطريقة حاسمة على التناقضات والصراعات بين أولئك الذين يجاهدون بما يملكون ويسمى بالقوانين العلمية لعلم الاجتماع والمبادئ المسلم بها لعلم التاريخ وفلسفته التى يؤمنون بها أو عن طريق معايير عامة ومطلقة من قبيل « الاقتصاد » و « الفقر والعشق » و « الحاجة المادية والنضال ضد الطبيعة من أجل الحياة » أو مبدأ « الهجوم والدفاع » و « الغريزة » أو « الاتفاق » أو « المذهب » يحاولون تفسير المجتمع كل مجتمع أو فترة تاريخية أو ظاهرة اجتماعية أو حادثة اجتماعية أو تطور اجتماعى أو سياسى وتحليلها أو فى الحقيقة تبريرها وتأويلها على أساسها ، وأولئك الذين لايؤمنون بأى قانون أو ناموس بالنسبة للتاريخ والمجتمع البشرى ولا يهتمون به ، ويعتبرون التاريخ على حد قول كارليل من صنع إرادة الأبطال ، أو ينظرون إلى المجتمع – لاكوجود مستقل وحقيقة حية واقعية – بل كتجمع من الأفراد ، ويعتبرونه أمرا « اعتباريا » ويقولون بوجود « مجازى » بالنسبة له ، ويعتقدون أن المجتمع مجرد اسم أو مفهوم أو أمر مجرد .

ومن جهة ، فإن القضية الأساسية جدا المطروحة اليوم هى عجز أو على الأقل ضعف فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع المشهورين فى القرن التاسع عشر أى الماركسية الكلاسيةفى تحليل كثير من الحقائق التاريخية ، لأنه مع تقدم علم

التاريخ واتساع معرفتنا اليوم بالنسبة لتجليات وجوانب عديدة وغامضة من التاريخ ، أو بالتعبير الجيد لريمون أرون أستاذ علم الاجتماع فى جامعة السوربون بالنسبة له « أبعاد الضمير التاريخى » (١) طرحت موضوعات فى ميادين واسعة ومتنوعة ، خاصة وأنه فى المائة سنة الأخيرة توسع علمنا (٢) فى كل المجتمعات الصغيرة والكبيرة والمعروفة و الموجودة والآبدة أيضا توسعا لايقارن بما كان عليه فى الماضى ، ليس هذا فحسب ، بل إن ماكان يسمى فى القرن التاسع عشر بعصر ما قبل التاريخ كعصر مهمل ومظلم ومجهول لاعلم صحيح لهم به ولا يهتمون به أهمية تذكر (٣) قد توسع اليوم توسعا غير عادى ، واكتشفت فيه جوانب لا حد لها مثيرة للدهشة بمساعدة علم الآثار الجديد وعلم اجتماع القبائل البدائية ، واتساع تاريخ الفن وعلم الآثار الفنية ، وبمعونة العلوم الطبيعية المتقدمة مثل علم الحجارة وعلم الجيولوجيا وعلم طبقات الأرض وعلم الفيزياء وعلم الكيمياء وطرقه الحديثة كل هذه الأمور غيرت فلسفة التاريخ وأضعفتها وجعلت علم الاجتماع الذى ظهر فى القرن التاسع عشر عاجزا ومتزلزلا ، لأنه كما قام علماء اجتماع وانثروبولوجيا « علم الإنسان » واثونولوجيا (علم السلالات) عظام من أمثال لويس بارول واسبنسر وتايلور ودوركهيم بدراساتهم للمجتمعات الوحشية والبدائية « فيما قبل مرحلة الكتابة بل وارتداء الثياب وظهور نظام الزواج ونظام الأسرة وتأسيس كثير من الأسس الاجتماعية» وبمعرفتهم للروح البدائية استطاعوا أن يصححوا علم الاجتماع الجديد بعناصر جديدة ومعلومات جديدة أو على الأقل يمنحونه عمقا أكثر وغنى أكثر . والمؤرخون أيضا : نظرا للاتساع والوضوح العظيم لفترة ما قبل التاريخ التى كانت غامضة كلية ، وما نتج عن ذلك من عظمة وتعقد مدهش لحقيقة التاريخ ، وتنوع وكثرة اكتسبتهما أبعاد التاريخ ، أخذوا يحسون بأن فلسفة التاريخ التى ترجع إلى القرن التاسع عشر قد أصبحت ضيقة جدا وغير ملائمة ، لأنها كانت قد « فصلت » على قوام « واقعية التاريخ » فى القرن التاسع عشر ،

---

(1) R . Aroh , rimensions de la conscience hatorigue .

(٢) المترجم : التعبير هنا ب « علمنا » لأن المؤلف متخصص فى علم الاجتماع .

(٣) كان أكثر من يتناولون هذا الميدان علماء سيولوجيا وعلماء آثار وعلماء أجناس وهم علماء تاريخ طبيعى لاتاريخ بالمعنى المفهوم .

ولم تعد بالطبع ملائمة لقوامه الحالى ، ومن ثم وصل التاريخ من ناحية إلى منازل جديدة ، وأخذ يبرز من لدنه أحوالا وحركات مدهشة لم تكن معروفة بل ولم يكن يمكن التنبؤ بها ، لأنه : كما أن علم الآثار وعلم الإنسان من تلك الناحية « أى الذيل » قاما بتوسيع ميدان التاريخ كثيرا ، فمن هذه الناحية . أى الرأس قام علم الاجتماع الجديد وعلم النفس وعلم الإنسان بتوسيع ميدان التاريخ كثيرا ، هذا إلى جوار أن ظهور البيروقراطية والآلية وأزمة الضمير الإنسانى الجديد وتداخل كل المبادئ بلا نظام وتفسخ كل الروابط ، كل هذه الأمور جميعا أصابت التاريخ بالغموض والشعور بالحيرة ، بحيث بقى علم الاجتماع الخاص بالقرن التاسع عشر- بمعاييره المحددة وقواعده المعينة - عاجزا عن تفسير كثير من الظواهر الجديدة فى الحياة الإنسانية والمجتمع المعاصر وتفسيرها وتبريرها . من هذا القبيل : ظهور الفاشية بعد الشيوعية فى وطن الشيوعية وفى قلب أوربا وأوج الحركة العمالية وسلطة الليبرالية والديمقراطية والاتجاه الإنسانى والعلم وعصر وضوح الرؤية والاشتراكية والسطوة الأمريكية فى صورة وصول الرأسمالية فيها إلى قمتها أى إلى الإمبريالية وتصدير رأس المال وإشعال الحروب الاقتصادية ، وكلها عوامل ينبغى أن تؤدى حسب « القاعدة » وضرورة الجدلية إلى انفجار الثورة من الداخل وبعنف ضد رأس المال .

والأطروحة التى بلغت آخر مراحل نضجها وبمقتضى فطرتها ومنطقها ينبغى أن تكون قدر ربت عكس الأطروحة و « الحركة البروليتارية » و « الشيوعية » فى باطنها ، إلا أنه خلافا لحتمية التاريخ ومسير الجدلية الحاسم ، لا خبر هناك ، والرأسمالية باقية فى قواعدها ثابتة وقوية ، وعلى حد قول السيد آرون : « أكثر الماركسيين تفاؤلا لا ينتظر حادثة من هذا القبيل ولو بعد مائة سنة » ، فلا أمل فى خبر عن الحتمية التاريخية والتيار الجدلى ، وكما نرى : المشاكل الداخلية للرأسمالية الصناعية الأمريكية - وهى أكثر الرأسماليات تقدما فى العالم وقطب الرأسمالية العالمى - ليست من قبيل التمرد الطبقى البروليتارى أو الجنوح نحو اليسار ، وليست مشكلات طبقية أو حتى نقابية أصلية ، لكنها فى الأغلب مشاكل اجتماعية وأخلاقية وإنسانية من قبيل : التفرقة العنصرية » وهى مرض اجتماعى من ذلك النوع الذى كان موجودا فى النظم التقليدية المنحطة ، ويبدو من نوع ما كان موجودا فى الهند

القديمة وعند أعراب الجاهلية لكنه أشد قسوة منها » ، وأيضا : الجريمة والعنف وانعدام الأمن وسقوط الإنسانية ومسخ ما هية الإنسان .

وفى أوروبا الشمالية - بالرغم من أنها احتفظت بالملكية الخاصة ، وبالرغم من أنهم متقدمون من الناحية الرأسمالية والصناعية - نزلت الحرب الطبقية إلى أقل مستوى لها ، فى حين أنه ينبغى أن تكون فى عنفوانها ، ولا يوجد ميل إلى اليسار حتى فى الأفكار ، وهم يعيشون فى سلام اجتماعى وتعايش طبقى لم يكن منتظرا ، بحيث إنه لا المجتمع فحسب ولا العامل بل حتى الحزب الاشتراكى صار حزبا يمينيا . وفى إنجلترا وأوربا الغربية كإيطاليا وفرنسا وألمانيا الغربية ، يشير قوس الميول اليسارية إلى أنه منذ سنوات ما بعد الحرب وحتى الآن ، انخفض صعود اليسار ونفوذه وبلغ بعضنا قريبا من التوقف ، وفى فرنسا تشير المقارنة بين بارلمانى سنتى ٤٥ ، ٤٦ وبارلمانات ما بعد ذلك بعشرين عاما إلى تدهور شديد ، بحيث إنه فى إنتخابات الجنرال ديجول واستفتاءاته على الجمهورية الخامسة ، لاحظت بنفسى أنه حتى فى أحياء العمال والمراكز الصناعية ، كان مرشحو الحزب الشيوعى ينهزمون أمام المرشحين المستقلين أو مرشحى الوسط وحتى أمام اليمينيين الديجوليين ، وكنت أشعر بأن الجاذبية الشخصية لمرشح ما هنا - حتى فى المحيط العمالى - أحيانا أقوى وأشد تأثيرا من الأيديولوجية الطبقية أو الارتباط التقابلى ، كما أننا جربنا هذا الأمر فى انتخابات السنوات الأخيرة فى إنجلترا .

بناء على تكليف من المركز العلمى الفرنسى لأبحاث علم الاجتماع - الذى كان يقيم أبحاثه الاجتماعية اعتمادا على الرأى العام - وباختيار أحد أساتذة علم الاجتماع ، وبالاشتراك مع السيد جورج جيوز وهو من موظفى توجو كمتخصص فى العلوم السياسية والسيد موند كعالم فى الاقتصاد والسيدة جاكلين شيزل الفرنسية معاونة مدرسة المؤتمر العليا كمساعدة ومرشدة لنا فى إعداد الوثائق والاتصال بالمؤسسات والمصادر والشخصيات ، كلفنا جميعا كـ « جماعة علمية » لبحث العلاقة بين « الرخاء الاقتصادى » و « الميول السياسية » فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية فى فرنسا ، كانت جداول التطورات الاقتصادية التى أعدها السيد جيوز متناسقة مع الجداول المشابهة لها بشأن التطورات السياسية من ناحية الميول اليمينية والميل إلى الوسط أو إلى اليسار والتى أعدها السيد موند تناسقا

لا يتصور ، أى أن الظواهر الاقتصادية والسياسية تبرر كلاهما الأخرى وتفسرها بوضوح [1] بحيث إنه كلما كان القوس الاقتصادى يشير إلى تصاعد إيجابى يدل على تحسن مستوى الحياة بالنسبة للناس والوصول إلى رخاء بالنسبة للماضى ، كان القوس السياسى يسجل ميلا نحو اليمين بنسبة تصاعد القوس الاقتصادى ، وعلى العكس كانت الحالة الاقتصادية المنهارة تحوله نحو اليسار ، الى درجة كان معها يمكن تماما التنبؤ السياسى بشأن نتائج الانتخابات وانتصار مرشحى اليمين واليسار عن طريق الظاهرات الاقتصادية .

وهذه القضية صارت اليوم مقرا مطمئنا بالنسبة لنجاة الرأسمالية من الثورة العمالية الحتمية والحرب الطبقية الجدلية ، أو بالمصطلح المعروف « إن الرأسمالية قد تعقلت » ، ونتيجة للتنبؤ بالخطر تجاهد فى « التوسيع على العامل » ، فهى تعطيه إمكانيات كاذبة حتى يستطيع أن يقلد الأغنياء فى الحياة ، ومن ثم يعتوره إحساس كاذب بالرفاهية والتمتع والتقدم المادى والمعنوى ، وبالطبع يميل إلى التفاهم والنعومة والتحمل ، وتحل روح المحافظة محل التمرد والعقد والحقد والإحساس بالظلم والكدح والحرمان ، حتى ولو كان ذهنيا على وعى بأنه يستغل ، فإنه معنويا يقنع نفسه بالسلع الاستهلاكية الجديدة والإمكانيات التى تزداد تنوعا يوما بعد يوم والتمتع ، لأنه لم يعد يحس بعد أنه مثل ذلك العامل الذى لم يكن يجد لديه ما يفقده فى النضال إلا القيود التى تلتف حول يديه وقدميه . إنه عامل يدفع « الأقساط » ولا يستطيع أن يجازف ويصبح ثوريا ، ومن هنا فإن البروليتاريا فى الوقت نفسه لم تعد – كما كان متوقعا فى القرن التاسع عشر – تتناسق فيها الروح الثورية مع الاستغلال ، بل إن العكس هو الصحيح كما هو محسوس ، وكما أحس اشبنجلر وهو إحساس صادق بأن أوروبا تتقدم نحو روح المحافظة بالنسبة للنصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأن الوعى الطبقى والحس الثورى فى سبيلهما إلى الاختفاء نتيجة لحيل الرأسماليين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع – الذين يعملون

---

(١) فى كتاب Sarval en Paison التحليق فى السجن ، وهو متن المناقشة التى استمرت ثلاثة أيام بينى وبين جيوز ، فى تلك الأيام التى كنا فيها سجينين معا فى سجن المدينة نتيجة لسوء التفاهم الذى نشأ عن اضطرابات باريس التى أعقبت استشهاد لومومبا وقبض علينا مع مئات آخرين اشتركوا فى مظاهرات الاحتجاج فى ميدان الأوتوال أمام سفارة بلجيكا ، حدثنى جيوز عن منحنيات هذا العمل الجماعى واستنتاجاته . طبعة توجو ١٩٦٥ .

لأجلهم - المعنوية والاقتصادية من قبيل الديموقراطية والليبرالية والنقابية والأيديولوجيات الخادعة المنحرفة ، وإيجاد القدرة على الشراء بين الناس وتوسيع نطاق الحياة الاستهلاكية والكمالية وإمكانيات الذهاب إلى المسارح ودور السينما الأرستقراطية والحريات الجنسية وإيجاد الأذواق والميول الفنية والجماليات البورجوازية بين العمال ، ثم فى النهاية منح « التأمينات الاجتماعية » و « بوليصات التأمين المختلفة » والمسكنات القانونية والعملية .

مسيرة الماركسية :

ومن هنا فإن ماركسية القرن التاسع عشر التى حددت حركة التاريخ على أساس الجدلية المتجهة حتما نحو البورجوازية المتقدمة والرأسمالية الصناعية فى الغرب وكانت ترسم هناك انتظار الانفجار الطبقى الحاسم والمحدد ، والثورة ضد الرأسمالية البروليتارية الصناعية ، فوجئت بأن نبوءتها مثل نبوءة الأنورى (١) وذلك الذى كانت تنتظره على أساس الحتمية التاريخية والأصول العلمية للاشتراكية قد شاهدته وتشاهده ، لا فى قلب الرأسمالية أو فى ملامح البروليتاريا الصناعية فى الغرب ، بل تماما حيث لم تتصور قط بناء على هذه المبادىء نفسها المنطقية والعلمية والحتمية ، أى فى آسيا وشرق أوروبا ، وفى قلب الإقطاع ، وفى ملامح الفلاح المحافظ التقليدى .

إن نزعة المحافظة عند طبقة البروليتاريا الصناعية ، ودهاء الرأسمالية الغربية ووعيها ، وتكوين التكنوقراطية والبيروقراطية كطبقة حاكمة فى الغرب (والآن فى روسيا أيضا) ، وكارثة الفاشية والنازية الغامضة فى إيطاليا وألمانيا ، وانتشارها الفعلى فى فرنسا وأسبانيا وأمريكا ، وازدياد حدة الثورة عند الفلاح الصينى والجزائرى وحتى الروسى فى فترة الثورة بين (١٩٠٥ و ١٩١٧) ، وقضية الاستعمار والحركات المضادة للاستعمار ، كلها أمور تشير إلى عكس

(١) المترجم : المقصود الشاعر الفارسى أوحد الدين الأنورى المتوفى على الأرجح سنة ٥٨٣ هـ ، وكان قد درس علوم عصره ، وحاول دخول البلاط كعالم ومنجم ، إلا أن نبوءاته كلها باءت بالفشل ، فاتجه إلى التكسب بالشعر وكتب ديوانا كاملا فى سلاطين السلاجقة يعد نموذجا لفن مديح السلاطين فى الأدب الفارسى . انظر : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى تأليف براون ترجمة : إبراهيم أمين الشواربى .

الأطروحة الكلاسية الماركسية ، وتشير إلى أنه فى البلاد التى ابتليت بوباء الاستعمار ، يعد الاستعمار البنية التحتية للمجتمع وليس الاقتصاد ، والاقتصاد بنية فوقية توجه بواسطة البنية التحتية أى الاستعمار ، وأن دور الدين ليس دور الأفيون أو المادة المخدرة ، لكنه مادة محركة فى الحركات المضادة للاستعمار فى الدول الإسلامية وحتى فى الشرقين الأوسط والأقصى : (البوذيون فى الصينية وحركة ماكاريوس وحركة المسلمين والهنادكة فى الهند والمسلمين فى الجزائر ، وحركة مجتمع علماء شمال أفريقيا والجمعية الإسلامية للطلاب الجزائريين ، وحركة اليقظة والحركة الثورية المضادة للاستعمار عند جمال الدين وحركة تحريم الطباق عند آية الله الشيرازى والحركة الدستورية ودور السوق فيها) . [1]

وهناك أيضا اهتزاز الأسس العلمية للمادية بعد ظهور نسبية آينشتين ، وقانون « عدم الحسم » عند هايزنبرج فى الفيزياء الحديثة ، وحساب الاحتمالات والأعداد العظمى فى الرياضيات وتعميمها فى العلل الانسانية [2] ، والحرب الجدية والشاملة « العسكرية والسياسية والأيديولوجية » فى قلب العالم الماركسى ، بحيث إن التناقض الموجود بين هذين اللذين ينتسبان إلى طبقة واحدة وإلى عقيدة واحدة وكلاهما فى يده قيادة الطبقة العمالية والعداوة العميقة والمطلقة بين المستغل « بكسر الغين » والمستغل « بفتح الغين » ، أشد وأعمق من التناقض الموجود بين كل منهما مع أقطاب العالم الرأسمالى **إلى درجة أن الشيوعية الروسية تقوم من ناحية بالسعى إلى التعاون مع الرأسمالية الأوروبية لوضع المشروع العسكرى لأمن أوربا ضد الخطر الشيوعى الصينى ، أى أن قضية الأمن والمنفعة الإقليمية أبدى من المصالح الأيديولوجية والمنافع الطبقية** ، ومن ناحية تقوم الصين الشيوعية الثورية بعقد معاهدة ضد الهند مع إحدى الدول الأعضاء فى الحلف المركزى ، كلها أمور تتناقض قطعيا مع الجدلية والاشتراكية العلمية والحتمية التاريخية ، فهى دفاع عن « السلام العالمى» ، وماهو أهم « تعايش سلمى » بين الرأسمالية والإمبريالية العالمية وبين الشيوعية والبروليتاريا الثورية ، وهذا من جانب القطب العالمى للعمال .

---

(١) المترجم : انظر كتابى « الثورة الإيرانية : الجذور والأيديولوجية .

(٢) دروسى فى « تمدن جديد : الحضارة الحديثة » .

وهناك أيضا تقدم القومية على الشيوعية فى أفريقيا والدول العربية وحتى فى أمريكا اللاتينية فى الحروب التحررية بعد الحرب الثانية . ومن الناحية الفلسفية والفنية هناك الميل العام لجنوح الفكر والخلق من الواقعية والطبيعية أو على وجه العموم من العينية إلى الذهنية ، والميل الشديد إلى « الاستبطان » فى الحركات الفلسفية والأدبية والفنية ، والجنوح من العالم المادى إلى الذات الإنسانية فى التجليات المختلفة للحياة الروحية والأخلاقية عند الإنسان الجديد ، وعودة الفلسفة إلى نوع من المثالية والميتافيزيقية الحديثة مثل الحركة الوجودية ، وتدهور الأشكال والقوالب الفلسفية للقرن التاسع عشر ، وضعف أصول الجدلية فى الرؤية والثقافة المعاصرة ، ونضج نوع من « الحاجة إلى المعنويات » ، أو تشكل ميول سالمة أو منحرفة للروحانيات ، ليس فى الغرب فحسب بل وفى المجتمع الشيوعى نفسه ، وعودة القومية إلى الحياة فى قلب المجتمع الشيوعى الأحمر (المذابح فى المجر وإعدام رئيس وزرائها إيمرى ناجى ، وغزو المجر عسكريا واحتلال برلمانها ، ثم غزو تشيكوسلوفاكيا عسكريا) ، وهناك قضايا أخرى مثل : الإيمان بالماركسية كـ « مدرسة أيديولوجية » فى حين أن ماركس نفسه من ألد أعداء الأيديولوجيات ، والتعصب لأصول الاشتراكية الماركسية ولنصوص مثل المانيفستو « المنشور الشيوعى » ورأس المال ومقد مة فى الاقتصاد السياس التى مر مائة عام على كتابتها خلالها تغير المجتمع المعاصر أشد مما تغير خلال ألف عام ، والتناقض الواضح مع المبدأ المسلم به أى الجدلية الذى يرى أن كل شيء فى حالة تغير وأن « المبدأ الثابت دائما هو التغير » ، والاعتقاد فى أن كل نوع من تجديد النظر خيانة للماركسية والطبقة العمالية وخدمة للرأسمالية ، ثم زوال الرأسمالية التنافسية التى كان أساس علم الاجتماع الطبقى عند ماركس قائما عليها فى المجتمع المعاصر ، وحلول الرأسمالية الاحتكارية مع ملاستها ووعيها وقدرتها على التنبؤ والاحتواء محلها ، وظهور طبقات جديدة ، وتغير أشكال الطبقات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر وأنماطها ، تلك الأمور التى دفعت هنرى ليمفور الشارح المعروف للمدرسة الماركسية لأن يقول : « انها أمور صارت سببا فى أن تصبح الماركسية لازمة لمعرفة المجتمع المعاصر والإنسان ، لكنها لاتكفى وحدها » .

مسئولية المفكر بالنسبة لهذه القضايا :

إن معرفة هذه القضايا بالنسبة لمفكرى الدول الآسيوية والأفريقية ، لا تجعلهم فحسب يشكون فى أساليبهم الدائمة فى الميادين الاجتماعية والأيديولوجية القائمة على الترجمة والتقليد الصرف ، ولا تطرح فحسب ضرورة ثورة فكرية أو تحول أساسى فى الرؤية الفلسفية الاجتماعية عندهم على الفور ، بل وسوف تجعل مسئولياتهم كعقول مفكرة فى مجتمعاتهم ومهمتهم فى « توعية الناس بأوضاعهم » أكثر جدية وصعوبة .

من أجل أن يكون المرء مفكرا فى دول الدرجة الثانية الآن ، يكفيه فقط إتقان لغة أجنبية واستمداد العون من كتاب ، ومن ثم فإن الفرق بين المفكر التقدمى وبين المتعلم الرجعى هو أن هذا مترجم تلك الكتب والمقالات وذاك مترجم تلك الكتب والمقالات ، صورة طبق الأصل من الجناحين العصرى والسلفى ، فالسلفى هو من احتفظ بملابسه وبأسلوب زينته المظهرية ، ويتصرف كما كان على الدوام ، والعصرى هو الذى غير فى ملابسه وزينته وتصرفاته لاعلى أساس الاختيار بل على أساس التقليد ، ومن هنا لادخل لقضية الحضارة فى الموضوع ، فالحرب بين العصرية والسلفية هى حرب فى الاستهلاك ، والا فإن الرؤية الكونية والرؤية الشخصية والإحساس والفكر والروح والرسالة والهدف كلها كما كانت ، ولو تحركت أدنى حركة لانفجرت وتناثرت ولسقطت فى ابتذال مثير للغثيان ، فحمام النساء صار « المنظمة النسائية » و « سفرة حضرة عباس » [1] صارت « حفلة فى حديقة وسهرة لمساعدة المعوزين » وهيئات الدق على الصدور ومجالس النواح صارت « الأحزاب السياسية والنقابات العمالية » و « الفتونة » صارت « نقدا أدبيا » و « مقهى المعلم قنبر » صار « كافتيريا سميراميس » ، ومقلدو آية الله الفلانى صاروا مقلدين لماركس وبليخانوف ، ورواة الأخبار الدينية القدماء الذين كانوا يعتقدون بأن « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » صاروا من الاشتراكيين أعداء المطالبة بتجديد النظر » و « آنتى نيتيست » ، والطلاب

---

(١) المترجم : سفرة حضرة عباس نوع من الأطعمة النذرية الشعبية تجرى فى توزيعه طقوس دينية ومذهبية معينة

الصبيان السابقون الذين كانوا يعتقدون فى أن : كل من قرأ صرف «مير مير» فإنه يكسر مائه قفل وجنزير . صاروا أخيرا فراريج الفلسفة لمجرد أنهم صادفوا شخصا ادعى أنه قرأ كتاب « مقدمة فى أصول الفلسفة » لجورج بوليتزر الذى كتب للعمال ، (فضلا عن أن كان قد فهمه أو لا) ، فهم ينظرون إلى الجميع نظرة العاقل للسفيه وكأنه لم يبق مجهول بالنسبة لهم فى الدنيا وما عليها ، فالتاريخ لاشىء ، والبشرية اليوم : حدث ولا تسل ، ومستقبل المجتمعات البشرية بالنسبة لهم : أوضح من أكف أيديهم ، وويلاه لو أن واحدا من هؤلاء كان قد سافر إلى أوربا وظل فترة هناك مع بعض الرفاق الإيرانيين يطبخون الـ « قرمه سبزى » (١) فى أيام الآحاد ، وشربوا مع صديقاتهم الأوربيات « قهوة » ذات مرة ، ورأوا أحيانا سارتر أو راسل رؤية عابرة بأعين رءوسهم ، حينذاك يصيرون مخلوقات من ماء آخر ومن طينة أخرى ، يصابون بالسعار ويعضون ويرفسون ، ولو أنهم – لاقدر الله – قرءوا فى الصحف أن إيما سيزار بذيئة اللسان ووقحة ، لو اتتهم الجرأة على الفور فى أن يزونها فى هذا المضمار بمراحل ، تعال ...... ولنر .

إن الفرق بين المفكر اليسارى والمفكر الرجعى ، ليس فى أن هذا يقلد قدماء المسلمين التقليديين وأن ذاك يقلد الفلاسفة التقدميين الأوروبيين ، وأن هذا يكتب « الحواشى » على أسفار ملا صدرا ، وذاك يترجم مؤلفات جورس وبليخانوف ، أبدا ، الفرق بينهما : أن هذا غير واع ومقلد ومن صنع التاريخ والتقاليد ، وأن ذاك واع ومفكر ، وفى كلمة واحدة : إن المفكر هو من يملك رؤية نقدية ——— هكذا فحسب .

والسبب فى هزيمة كل الحركات الاجتماعية وانحرافها فى الدول التقليدية والمتأخرة هو أن المتعلمين فقط « المثقفين » – جماعة واعية وعلى معرفة بالعصر – هم الذين كانوا يتحدثون عن مصير المجتمع والطريق والمستقبل ، ولما كانت الأمية عامة ، كان هؤلاء طوعا أو كرها هم الذين أمسكوا فى أيديهم بقيادة الحركات « نيابة عن الأمة » ولما كانت فطرتهم الاجتماعية تغاير قيادة الشعب وهو من صميم عمل الشعب نفسه ، فمن الطبيعى أن روح حركة ما وتقدمها وحماسها كلها تتغذى من عصارة إيمان الشعب وإرادته فإما أن

(١) طعام إيرانى .

هذه الحركات كانت تموت وتمسخ فى القوالب المنطقية والقانونية والحقوقية والعقلية المجردة البعيدة عن « الواقع » التى صاغتها عقول المتعلمين المصابين بداء الكتاب والمتفلسفين والموجهين ، ثم تتحول فى النهاية إلى « كلمات علمية » ، وإما أنها كانت تنحرف علنا أو توضع عليها « العمامة الخادعة » المسماة بالـ « مصلحة والاستراتيجية والتكتيك » و « الحلول الفكرية » التى كانت تقوم بتشديد قبضة العبودية الاستحمارية على الأمة . وما يسمى بالاستعمار الجديد هو عبارة عن المصير الذى جر المثقفون البارزون حركات أممهم المضادة للاستعمار الناجحة إليه .

والخطر الذى يهدد كل الحركات التحررية المضادة للاستعمار فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، بل وحاق بالكثيرين من شعوب هذه المناطق ، هو أن العوام أهل الحوارى والسوق والمصنع والمزرعة ، شخصيات مجهولة علاها التراب وأمية مثل ستارخان وباقرخان والشيخ على مسيو الخباز التبريزى (١) يقومون بتضحياتهم الزاهدة وميتاتهم الطاهرة وبطولاتهم غير الشهيرة والمجهولة فى قمع الاستعمار والاستبداد ، وبمجرد أن يطرد العدو وينتهى عهد الجهاد ويصل عهد الإدارة والحكم ، لا تعود هناك أية أهمية بعد للمجاهدين الذين قضوا أعمارهم فى الريف والمصنع ، وكانوا يحاربون السنوات الدموية فى الجبهة ، فيضعون البنادق ويمضون إلى أعمالهم ، أما أولئك الذين كانوا طوال هذه السنوات الدموية الخطرة على ضفاف السين والتايمز ،وفى هولندا وبلجيكا وأمريكا ودول الـ « متروبول الأخرى غارقين فى المتعة والأمن ، يعيشون بعيدين وغرباء عن مجتمعاتهم وحركات قومهم ، وصاروا أطباء ومهندسين ومتخصصين فى الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع والتخطيط والحقوق والطب ، فانهم يعودون ويحتلون المناصب الحساسة القيادية ، ويجعلون من دماء الشهداء مكاتب وسيارات ومرتبات ضخمة وامتيازات اجتماعية كثيرة ويبتلعونها ، وفى مقابلها يقدمون للناس المحاضرات العلمية والمؤتمرات وقاعات البحث والمصطلحات الفنية والبرامج التخصصية وموضوعات علم

---

(١) المترجم : باقرخان رفيق ستارخان فى الحركة المسلحة فى تبريز والهجوم على طهران إبان الحركة الدستورية وكان رزازا والشيخ على مسيو مجاهد عظيم وكان خبازا .

الاجتماع والفلسفة ، وفى النهاية فإن عزاء الناس والمجاهدين فى أنه : فى السهرات وحفلات الكوكتيل ووراء المكاتب ، هناك أشخاص أسماؤهم ومحال ميلادهم محلية بدلا من ذلك الفرنسى والهولندى والإنجليزى والبلجيكى .

ومن بين الوجوه المعروفة فى الحركات المضادة للاستعمار الناجحة والحاكمة فى الدول الآسيوية والأفريقية التى فى يدها الحكم الآن ، نادرا مايشاهد وجه مثقف بارز وهذا جدير جدا بالانتباه ، فهذا الأمر من ناحية وتجربة هزيمة تلك الحركات التى استولى عليها المثقفون وكانوا أمام الناس وقائمين مقامهم أو قامت الحركات التحررية بعد النصر فى مجتمع ما بوضعهم محل مجاهدى الشعب وأبطاله كمتخصصين وخبراء ، تجربة هزيمة مثل هذه الحركات أو فشلها وانحرافها أو مسخها من ناحية أخرى ، أبدت ضرورة نوع من الشك الديكارتى فى أسلوب مزاولة الفكر وتقاليده عند المتعلمين المستقيمين والجديين فى الدول الراكدة والتقليدية ، وهو خاصة فى المجتمعات التى تعيش فى « فترة انتقال » أمر فورى وحيوى .

لاشك أن اليوم ، أصبح المفكر الذى كان - طبقا لمصطلح ماركس - هو الذى يتحدث عن الطبقة العمالية ، فى حالة تحول إلى طبقة عالمية . لأن الرؤية الكونية والرؤية الشخصية و « الميل الاجتماعى » و « القيم » التى تعتبر السمات المعنوية للمفكرين مشتركة فى كل جماعات الفكر فى المجتمعات الأوربية والآسيوية والأفريقية والأمريكية أو على الأقل متشابهة ، فهى رؤية كونية واقعية ومنفتحة ومتحركة وميالة إلى الجديد ، وهى رؤية علمية ومنطقية وتحليلية ، وميل اجتماعى نحو الشعب ومضاد للاستعمار والخلاصة أنه ذو قيم إنسانية « بمعنى العالمية » ، ومن هنا يمكن قبول تعريف جامع بالنسبة للمفكر الذى يعيش فى مجتمع شرقى دينى فى العالم الثانى والمفكر الأوربى ، وفى الوقت نفسه ينبغى أن نكون على حذر ذلك أن الاشتراك فى الطبيعة الاجتماعية لايعنى بالقطع الاشتراك فى الرسالة الاجتماعية ، وعدم وعى مفكرينا بالثنوية فى هاتين المقولتين التى تستقل إحداهما عن الأخرى صار سببا رئيسيا فى الأخطاء والهزائم

الكثيرة فى الآراء وفى بحث القضايا وطرحها ، وفى النهاية فى مسرح المسئوليات والنضالات السياسية والاجتماعية فى نصف القرن الأخير فى دول العالم الثانى ، وهو يحمل لها ذكريات مرة .

ولايتسع المجال هنا للحديث عن رسالة المفكرين فى معناها الأعم ورسالة مفكرى العالم الثانى فى معناها الأخص ، فان هذا فى حد ذاته فى حاجة إلى بحث أو أبحاث مفصلة ، لكن ماأحس أنه من الضرورى التذكير به هو أن النضج الاجتماعى واليقظة السياسية الشعبية ووجود الأحزاب والنقابات القوية المتقدمة ، وقدرة المؤسسات الديموقراطية ووجود نوع من الليبرالية والديموقراطية « مهما كان سطحيا » ، وحضور شخصيات شعبية موثوق فيها وواعية حيثما يحدد مصير الناس والأمة ، ووجود صحافة حرة « طويلة اللسان » ذكية ، وكتاب ونقاد متيقظين يراقبون الأحوال والأوضاع بمائة عين ، ومن ناحية أخرى وجود رفاهية نسبية وشبع عند الشعب ، وانعدام الحرمان الحيوى من الحاجات الأولية كالماء والخبز والصحة والمسكن والملبس والتعليم ، وخلاصة الأمر التشكل بالشكل الأوربى ، كل هذا يسبب فى أن عوام المتعلمين (وهم غير المفكرين الفلاسفة والنوابغ أى القادة الحقيقيين للثقافة والحياة والمحددين لطريق الحاضر وصورته ومستقبل المجتمع والحضارة) لايكونون نسيجا وحدهم فى المجتمع أو صفوة المجتمع ونجومه أو العصا التى يتوكأ المجتمع عليها ، والمخ المفكر الوحيد عند الشعب أو بعبارة أخرى القائمين مقام الشعب ونوابه والقوامين الأوصياء عليه ، فالمتعلم فى مجتمع أعمى وعاجز يحمل كل هذه الألقاب .

والعمل الذى يقوم به « عارف بالطريق » يشبه العمل الذى تقوم به « عصا توكؤ » ، لكنهما ليسا شيئا واحدا بالمرة ، فمدرس ما حيثما يكون تعريفه واحدا وهو « الشخص الذى يقوم بتعليم الأطفال مواد دراسية محددة » لكن المدرس الذى يعمل فى مدينة متحضرة ليست على عاتقه رسالة تشبه رسالة زميله الذى يرسل إلى قرية نائية ومتأخرة .

وهنا نصل الى تناقض واضح ومسلم به ، فمن ناحية : لايصح للمفكر أن يحل محل الشعب فى امتلاك مصير حركة ثورية فهو إما يقود الحركة الى الهزيمة أو إلى الانحراف ، ومن ناحية أخرى : ففى المجتمع الذى يسوده الجهل أى الأمية الثقافية وانعدام الوعى الاجتماعى ، لأن المفكر وحده هو الذى يتمتع بثقافة ووعى نسبيين ، وهو وحده الذى يرى ويعلم ، فإن مسئوليته صعبة وشاملة لأنه فى المجتمع الأعمى : ليس المفكر هو العارف بالطريق فحسب ، وليس هو المتخصص فحسب ، بل هو أيضا عصا التوكؤ فى مجتمعه .

والحل الذى قدمه مجاهدو جبهة التحرير الجزائرية فى سنة (١٩٦١) يحل نصف المشكلة .

ولاشك أنه عندما انتصرت الثورة المضادة للاستعمار وقاموا بطرد الأجانب والخونة وقبضوا على زمام السلطة ، لم يعد من المستطاع أن توضع وزارة الثقافة تحت إشراف أمثال ستارخان أو هيئة التخطيط ووزارة الاقتصاد تحت إشراف أمثال باقرخان والشيخ على مسيو . فقد آن أوان البناء والمطلوب هو التخصص فلا نفع آنذاك فى الشجاعة والفدائية والرجولة والإنسانية ، فطافوا أنحاء فرنسا وألمانيا وإنجلترا وأمريكا وجمعوا الأطباء والمهندسين والفنيين الجزائريين [1] واستقدموهم بتقديم الأموال والسيارات والمنازل الفخمة وماستطاعوا تقديمه من امتيازات ، ووضعوا مااستخلصوه من يد العدو بأعز الدماء والموت فى الجبهات فى أيدى هؤلاء المواطنين الغرباء . لكن المجاهدين كانوا يحسون بالخطر من قبل ، واقترحوا حلا كشق ثالث بين تلك « الضرورة » وهذا « الخطر » ، وكانوا يعلمون أن كل منصب من المناصب الحساسة التى تحدد مصير الأمة ذو شقين : أحدهما شق « تحديد الاتجاه » و « تعيين خط السير والطريق الكلى ووضع الأهداف السياسية » وهو الشق الأيديولوجى ، والآخر هو الجانب الفنى والتخصصى وهو الجانب التنفيذى والواقعى ، فعلى سبيل المثال : فى وزارة الخارجية يوجد جانبان : جانب يتعلق بتحديد الاتجاه

---

(١) استعانت الجزائر فى بداية استقلالها - بل وقبل الاستقلال - بعدد كبير جدا من الفنيين والمتخصصين المصريين فى كافة المجالات ولاتزال تفعل حتى الآن خاصة فيما يتعلق بالتعريب والتعليم فى كافة مراحله والخدمات . المترجم .

السياسى للدولة فى مقابل التكتلات وفى العلاقات بين الأمم وفى تعيين خط السير والمسيرة السياسية العامة للنظام وهو جانب سياسى ، وهناك جانب آخر فنى وعلمى من قبيل المراسم الدولية ومعرفة الاتفاقيات القانونية والسياسية والحقوق الدولية وهو جانب ديلوماسى . ، وحينما تكون قضايا الخط العام للسير والتوجيه والهدف واتخاذ الاتجاه وتحديد الاتجاه مطروحة يلزم حضور أحد المجاهدين على الدوام ، فالمجاهد الواثق الواعى لأنه ليس عالما ولامتخصصا ، ينبغى أن توضع الناحية الفنية لعمله فى يد متخصص وفنى يعمل تحت إمرته وتحت القيادة المباشرة للمجاهد ، وفى مثل هذا النسيج ذى الوجهين المنفذ بذكاء الذى سترتديه الحكومة القومية ، فإن القيادة العامة سوف تكون دائما فى أيدى المجاهدين الواثقة والقوية ، أولئك الذين دخلوا الميدان فى نضالهم ضد الاستعمار والظلم بكل حيويتهم ، وسوف يكون المتخصصون والمتعلمون مجرد أدوات فى أيدى المجاهدين ووسائل لتنفيذ أهداف الثوريين .

لكن ، قبل أن يصل المجتمع إلى هذه المرحلة ، أو بعبارة أفضل : من أجل أن يصل المجتمع الى هذه المرحلة ... ماالذى ينبغى عمله ؟ ماالذى ينبغى عمله فى مجتمع أعمى ومشلول ومتحجر فى قوالب روحية واجتماعية منحطة ؟

فى هذه المرحلة : لم يصل الناس بعد إلى مرحلة فيها يكون من بينهم مجاهدون مستنيرون ويقظون وأبطال مشاهير وواعون لكى يقوموا باليقظة والحركة فى مقابل المتعلمين البارزين ، إن الناس فى هذه المرحلة يرون المتعلمين فقط ويعرفون المتعلمين فقط ، وهم فقط الذين لديهم مايقال ، وبالنظر إلى هذه المسائل تكون رسالة المفكرين فى العالم الثانى صعبة وحيوية ، إلى جوار أن تميزها وتحديدها الصحيح والدقيق معقد جدا .

وفى رأيى أنه قبل أن نؤمن بتلك المدرسة أو تلك من المدارس الاجتماعية ، وقبل أن نطرح خلافاتنا الأيديولوجية فى مجتمع المفكرين ، ينبغى أن نقر ونتوافق على هذا الأساس المشترك أن الطريق والهدف مهما كانا فهما :

أولا : مالم يوقظ قلب الأمة ، ومالم يجد ضمير الأمة وعيا اجتماعيا ، فكل مدرسة وكل حركة ، سوف تبقى عقيمة ومجردة .

ثانيا : أن الناس ، والناس فحسب هم الذين يستطيعون تحرير أنفسهم ، وينبغي أن تكون قيادة الحركة الاجتماعية فى أيديهم مباشرة ، ومالم يصل قلب الأمة إلى « الحماس والانفعال التلقائي » والحركة والخلاقية الاجتماعية ، ومالم يصنع الشعب من بينه أبطالا وشخصيات جديرة بنفس السمات الشعبية المخلصة والأصيلة والصادقة ، أو بالتعبير العميق الرائع الوارد فى القرآن « أمين » ، ومالم يقدمهم إلى صفوفه الأولى ، فإن حضور المتعلمين بالنيابة عنهم ، لن يستطيع أن يكفلهم أبدا ، ولو أنهم حققوا بعض الانتصارات فى بداية الأمر مؤقتا ، فإن مواصلة العمل فى المراحل التى سوف يكون فيها العمل صعبا قاسيا ، وتهجم وسوسة الذهب ووسوسة القوة ، لن تكون باعثة على الاطمئنان .

ثالثا : خلافا للغفلة الذهنية التى ابتلى بها كثير من المتعلمين بل وكثير من المفكرين « وهذه الغفلة وليدة العرقية الخاصة بالمفكرين على حد قول اشبنجلر : بدلا من أن نقوم بالاتصال المباشر مع قلب الواقعية ولمسها ، نجلس معا ونتحدث عن الواقعية على أساس المقولات الكانتية والأصول العقلية والمنطقية ومبادئ [العلموية] ، ونحكم عليها غيابيا ، ونقوم بتحليلها ، ونستنتج منها القواعد ، وعلى أساس مثل هذه المعرفة التى حصلنا عليها والتى هى ذهنية إلى هذا الحد وبعيدة عن الواقع ، نقوم بوضع المشروعات والخطط والعمل ، وحين نتجه نحو الواقع نحس بمسخها وتحريفها لأننا نحس أننا غرباء عنه تماما » . وواحد من المبادئ التى أدت الى أخطاء فاحشة من المبادئ العقلية والعلموية هى أننا نظن أن الفقر والظلم والحاجة والتناقضات الشديدة فى المجتمع فى حد ذاتها ، وصعود منحنى نضج طبقة ما إلى أوجه ، وتضاد المصالح فى حد ذاته ، والاستغلال وما تقتضيه الحتمية التاريخية ، كلها أمور فى حد ذاتها سوف تصير علة للتطور الحتمى فى المجتمع ووقوع التمرد والانفجار والتغير الحاسم . وعندما نفكر بأذهاننا نصل إلى أمثال هذه النتائج ، نتائج معقولة تماما ومنطقية وقائمة على دليل وعلمية مائة فى المائة ، لكن الواقع للأسف لايؤيدها دائما ، إذ نرى أنه ليس الفقر هو الذى سيصير سببا فى الحركة والتمرد لكنه الإحساس بالفقر ، إن شعور الطبقة المحرومة بالنسبة للوضع الطبقى المتناقض فى مجتمعها هو الذى يدفعها للحركة .

الحتمية التاريخية والإنسان :

إننا نفهم الحتمية التاريخية بالطريقة التى كان أسلافنا يفهمون بها « القضاء والقدر الإلٓهيين » ، كنوع من الجبر المشيئى ، فيه اتخذ التاريخ مكان الله ، وحلت أداة الإنتاج محل المشيئة الإلٓهية ، ففى كليهما : يعتبر الإنسان ألعوبة لاإرادة فى يد آخر ، ومصيره حدد دون حضوره ، وأن الحتمية التاريخية تفسر هذا المعنى نفسه وحتى هذا اللفظ نفسه (عين ، قضى **Determiné**) على كل حال فإن أى عامل يلغى دور الإنسان كصانع مصيره وتاريخه ، لم يحقر الإنسان وينزل به الى مستوى نبات أو حيوان ، وهو تابع محض للبيئة وقوانين الطبيعة والغريزة والفسيولوجيا ، بل سلب من الإنسان المسئولية ، وهى النتيجة المنطقية للإرادة والحرية أو « الاختيار » بمصطلحنا و « الانتخاب » بالمصطلح الأوربى . وهذه المسئولية هى أعظم فضائل الإنسان ووجه تميزه عن كل الكائنات ، وفى هذه الحالة يكون قد سلب – طوعا أو كرها – الحركة والتعامل مع المجتمع أيضا ، وقد رأينا فى عصور انحطاطنا أن شيوع الإيمان بالقضاء والقدر والجبر الإلٓهى والمصير المحتوم الأزلى بالطريقة التى فسرها بها رجال الدين ، وأكثر منهم فى الأفكار الفلسفية والآثار الشعرية والعرفانية الصوفية تحت تأثير الرؤية الصوفية والهندية والفلسفة العقلية اليونانية والظروف الروحية الاجتماعية للبيئة السوداء الظالمة لعصر الخلافة وعصر المغول ، إلى أى حد ألقى تاريخنا فى الركود ، وشل كل أنشطتنا الاجتماعية ، وعلى حد قول جوروفيتش « الإيمان بالجبرية» حتمية التاريخ «نوع من الكسل» وعلى حد قول شاندل : «عندما يقوم فلاح صينى أو هندو صينى يعيش فى عصر الإقطاع ، فيحمل بندقيته من أجل تحقيق الاشتراكية ، فهذا يعنى أنه داس الحتمية التاريخية بأقدامه المصممة كإنسان » .

ولايعنى هذا أننى لاأؤمن بالحتمية التاريخية ، لكننى أريد فقط أن أقول:إن الإنسان هو الذى يستطيع – بقدر نضجه وتصميمه – أن يفرض إرادته على إرادة التاريخ ، كما أن الطبيعة تجعل النبات والحيوان – نسبيا – تابعة لإرادة الإنسان وصنعه ، هذا بالرغم مما لهما من حياة وحركة طبقا للقوانين العلمية المسلم بها و « المعينة » .

وأنا أفسر حتمية التاريخ التفسير التالى : « إن التاريخ والمجتمع البشرى لا يستندان على أساس المصادفة والعبث ، بل على واقعيات مثل كل واقعيات هذا العالم ذات حياة وحركة طبقا لأصول علمية (وبالمصطلح القرآنى : سنن نغير قابلة للتبديل والتحويل)[1] وبقدر مايكتشف الإنسان هذه الأصول عن طريق العلم وعن طريق التكنيك (الأيديولوجية والتخطيط الاقتصادى والثقاق والاجتماعى والسياسى) وعن طريق اختيار قانون بدلا من قانون آخر ، أى استخدام القوانين العلمية كما يهوى فى قلب هذين الواقعين ، يستطيع أن يغير مسيرها الطبيعى كما يريد ، وعن طريق التنبؤ العلمى الصحيح يستطيع أن يواجه المصير الطبيعى لتاريخه فى المستقبل ويوجهه إلى المسيرة التى يحددها ، وكما يقوم بتغيير شجرة فاكهة برية تنمو طبقا لسنتها الطبيعية وجبرها الذاتى وتثمر ، وذلك عن طريق معرفتها والتدخل فى مسيرتها ، يقوم بتربيتها ويأخذ منها الفاكهة التى يريدها شكلا ولونا ، هو قادر أيضا على فرض الشكل الخاص الذى يؤمن به من أجل مجتمعه الوحشى المتأخر فى أية مرحلة تاريخية يكون فيها ، لأن تطور المجتمع وحركة التاريخ نتيجة للعبة « اختيار » الإنسان وجبر التاريخ .

فلو صح الاعتماد على الحتمية التاريخية والتسلسل الجدلى الذى ينادون به ، لكان ينبغى على فلاحى الصين أن يقوموا بالثورة الاشتراكية بعد ثلثمائة سنة ، ولكان ينبغى على القبائل العربية البدوية التى لم تكن قد وصلت بعد إلى مرحلة الزراعة ، ولم يكن قد ظهر فيها حتى شكل الحكومة وهو أقدم الأشكال الاجتماعية فى التاريخ ، أن تصير أكثر من ألف سنة أخرى حتى تصل إلى مرحلة تشكيل مجتمع بورجوازى تجارى متقدم وأشكال اجتماعية ناضجة جدا وحكومة مركزية على مستوى الدولية والامبراطورية والى ثقافة غنية ذات مجموعة من القيم الإنسانية والعالمية تحتوى على رؤية كونية منفتحة وممتدة .

---

(١) المترجم : لن تجد لسنة الله تبديلا . الأحزاب (٦٢) لن تجد لسنة الله تحويلا . فاطر (٤٣) .

على كل حال سواء كنا دينيين أو علمانيين ، وسواء كنا اشتراكيين أو ليبراليين ، ينبغى أن تنظر إلى الإنسان كإرادة ذات دخل ، وكعامل يستطيع أن يغير قدره التاريخى باستعداده الإلهى : العلم والخلاقية . ومن هنا فإن الوعى فحسب هو الذى يستطيع أن يغير المصير ، ويغير مسيرة التاريخ وفق هوى الإنسان ، ومن أجل الوصول إلى هذا الوعى الاجتماعى لاينبغى أبدا انتظار بلوغ التاريخ مرحلة النضج البورجوازى وتطور أداة الإنتاج ، وجعل الثورة الاجتماعية موكولة بالازدياد الحتمى للتناقض فى قلب المجتمع والنضج الكامل للأطروحة الطبقية المضادة .(١)

إن وضع كل نوع من التقدم أو الثورية على كاهل « التطور الحتمى لأدوات الإنتاج » و « المسيرة التكاملية للتاريخ على أساس الصراع الجدلى » يفضى إلى نوع من التواكل والقدرية والتفويض المادى ، ويجعل المفكرين من المؤمنين بالقضاء والقدر ، فى حين أن البحث الدقيق فى التاريخ برؤية نابعة من علم الاجتماع والطبقية ، وفوق ذلك تحليل الثورات التقدمية التى قامت فى المجتمعات التقليدية والمتأخرة فى آسيا وأفريقيا والتى لم تكن قد وصلت إلى مرحلة الصناعة وتشكيل طبقة البروليتاريا أو حتى نضج البورجوازية كطبقة حاكمة ، يوضح هذه الحقيقة التى لم تكن قد عرفت بعد معرفة صحيحة أن أى مجتمع أيا كانت المرحلة التاريخية التى هو فيها ، يستطيع الإنسان فيه أن يصل إلى الوعى الاجتماعى كما يستطيع أن يتسلح بأيديولوجية طبقية متقدمة . والوعى يعنى العلم بكيفية المجتمع والتاريخ ، والظروف الطبقية والأيديولوجية تعنى كيفية حياة الإنسان وكيفية صنع المجتمع ، وفى عبارة واحدة : القدر الذى يقول به الإنسان بالنسبة لنفسه وبالنسبة لمجتمعه ، والمنظر « صاحب الأيديولوجية » هو المخطط المثالى للمجتمع .

---

(١) سوف تقولون: إن الإيمان بحتمية التاريخ هو الذى يسلح الطبقة العمالية بفلسفة تحميه من السقوط بين براثن اليأس والهزيمة المعنوية ، لأنه يؤمن بمصير التاريخ المحتوم وهو انتصاره ، أجل ، هذه هى الناحية الإيجابية لكل جبر . والإيمان بامام الزمان « المهدى المنتظر » والخلاص القطعى والسقوط الجبرى للظلم ، والذى ضمنته الإرادة الإلهية يمكن أن يعطى مثل هذا الأمل ، لكن الناحية السلبية فى هذه العقيدة هى إلغاء المسئولية الفردية ، والسقوط فى التواكل ، وتفويض الإرادة الإنسانية ، وهى المشكلة التى نواجهها .

ونتيجة للإيمان بالمبادئ الثلاثة الآتية :

١ - أن المتعلمين المثقفين لايستطيعون مواصلة قيادة الحركات الاجتماعية الأصيلة فى مرحلتها الطبقية ، والعمل نيابة عن الناس أنفسهم ، بل يستطيعها أولئك الأبطال الأميون الذين تتجسد فيهم إرادة الأمة ، ويستمدون روحهم ورؤيتهم وحركتهم وصمودهم الفطرى والإرادى من قلب المجتمع مباشرة ، ولهم جذور فى أعمق أعماق الأمة الخصب .

٢ - أنه مالم يصل الناس إلى الوعى ومالم يصيروا هم أنفسهم أصحاب شخصيات إنسانية وتحديد طبقى واجتماعى للوضع ، ومالم يرتقوا من مرحلة التقليد والتبعية لشخصياتهم الدينية والعلمية التى تحتكر الفتوى والقدوة (وعلاقتها بالناس علاقة المراد والمريد والعالم والعامى والإمام والمأموم) إلى مرحلة من النضج الاجتماعى والسياسى يكون فيها القادة هم الخاضعون لإرادتهم وخط سيرهم الواعى .

٣ - وأخيرا ، بالعلم بأنه ليس وجود الاستغلال الطبقى والفقر وانعدام العدالة والانحطاط ، بل الإحساس بهذه الواقعيات الموجودة والوعى الصحيح للضمير الاجتماعى والطبقى بالنسبة لها هو الذى يحدث الحركة الثورية الصحيحة الواعية . وإلا فان الأمر كما رأينا ولازلنا نرى كثيرا فى التاريخ (والجغرافية أيضا) أنه ماأكثر المجتمعات التى احتفظت لقرون طويلة بالفقر والتناقض والاستغلال والتفرقة الطبقية والاجتماعية فى قلبها ، وماأكثر المجتمعات الإنسانية التى توقف فيها التاريخ عند مراحله الأولى وتوقف عن الحركة آلاف السنين ، وكأنما لاتصدق عليها مقولة قط من هذه المقولات التى جاء بها علم الاجتماع والاشتراكية العلمية وفلسفة التاريخ والمسير الجبرى للجدلية والمبدأ الأصلى الدائم للتغيير والتطور .

والخلاصة أنه بناء على هذه المبادئ ، فإن رسالة المفكر المنتسب إلى مثل هذه المجتمعات هى فى عبارة واحدة : نقل واقعيات التناقض الموجودة فى قلب المجتمع والعصر إلى أحاسيس الناس ووعيهم . يقول روسو : بينوا الطريق للناس ولاتحددوا ماعليهم ، امنحوهم الرؤية فحسب ، وهم سوف يجدون الطريق بأنفسهم ، وسوف يعرفون ماعليهم .

إن السبب فى فشل الحركة الدستورية عندنا ، لم يحدث إلا لأن القادة قاموا بتوجيه الناس وتقديم الحلول النهائية دون أن يمنحوا الناس الوعى الاجتماعى والرؤية السياسية ، ورأينا مرة أخرى كما رأينا قبلها وبعدها ، أن نتيجة فرض الثورة على مجتمع لم يصل إلى الوعى بعد ، ولاثقافة ثورية لديه ، لن تكون إلا مجموعة من الشعارات التقدمية لكنها فاشلة .

التشبه والابتلاء بمرض التغرب :

إن الخطأ الفظيع الذى نقع فيه هو أنه حينما يتحدث مفكرونا التقدميون عن التأثر بالغرب ينسون أنفسهم ، ويرون هذا التأثر فحسب فى الرجال أو النساء الذين يقلدون الأوربيين كالقردة دون تميز واختيار فى الزينة والملبس والاستهلاك وأسلوب الحياة اليومية والتصرفات والحركات والعادات الاجتماعية ، فى حين أن كارثة الابتلاء بمرض التأثر بالغرب والتقليد غير الواعى يشمل مفكرينا الثوريين واليساريين ، وهذا النوع من التغرب أشد وأنكى وأكثر تأصلا بمراحل من مرض تلك الجماعة « المتفرنجة » التى لاصمود لديها الجوفاء اللامعة من الخارج أو فى كلمة واحدة « المستهلكة العصرية » .

إن النساء والرجال العصريين الذين يتفضلون بقراءة مجلات « مارجو » و « البوردة » و « ايس بارى » و « بارى ماتش » ... الخ ، وتحدد المؤسسات التجارية لكريستيان ديور وغيرها أنماطهم الاجتماعية ورؤيتهم الفلسفية والفنية والإنسانية وتروجها بينهم ، وتقوم فلسفة وجودهم فحسب على استهلاك السلع الواردة من رأسمالية الغرب ، ومايتبع هؤلاء من قبيل « زن روز » و « مرد جنتلمن : الرجل الجنتلمان » والعصرية والحضارة واتباع العصر والتربية الحديثة والتفكير العصرى ... الخ كلها كلام فارغ . فهؤلاء هم أنفسهم المخرفون الرجعيون المتعفنون المتحجرون والعوام القدماء الذين قامت أجهزة الدعاية الغربية بمحو كل ملامحهم ومحتوياتهم التاريخية والثقافية والدينية والأخلاقية والقومية والعرقية والإنسانية وغسلتها ، وجعلتهم عصريين . فالعصرى هو الإنسان الذى سلبوا منه كل مايملك وحولوه إلى « بطن » حريص ملتصق بأجهزة الإنتاج الصناعية للرأسمالية العالمية . فحسب .

وبالنسبة لامرأة إيرانية أصابوها ببلوى التغرب ، أى تغيير يقومون به فيها ؟

وأى تأثير لهذا فى مجتمعنا ؟ كانت تصبغ أظافرها بالحناء الحمراء والآن تصبغ أظافرها بالمانيكير الصدفى ، خلعوا عنها ملابسها القومية وألبسوها ال « مينى جوب » الذى عندهم ، جعلوها اجتماعية : أى أخرجوها من المنزل وأرسلوها إلى شوارعهم وأسواقهم ، بحيث تقوم بالشراء من الصبح إلى المساء ، وتتحدث عن مشترياتها الجديدة من المساء إلى الصباح ، فتجيب بالغيرة و « المنافسة فى الاستهلاك على المنافسة فى الإنتاج» الموجودة عندهم . وماهو «مانيفستو» هن ؟ «زن روز» ، ومشكلاتهن ؟ موضوعات «بر سردوراهن» من صنع السيد مجيد دوامى ، ويعد أعظم مظهر لمجدها والسبب الرئيسى لدوامها بين الجماعة أن «جمتها» مصففة بطريقة مثلثة جميلة جدا تعطيها «حالة حالمة» هى من وجهة النظر الفكرية والثقافية فى الرؤية الكونية والرؤية الجديدة عند نساء اليوم ، قد منحتها تأثيرا عميقا دائما .

وحقيقى أن ظهور هذه الموجة العفنة ، والكثرة المتزايدة المتصاعدة للجيل « المدبلج » تليفزيونيا وسينمائيا ، كان من نتاجها مايسمى بالموجة الجديدة وهى نوع من الأمراض الاجتماعية الفاجعة ، لكن « الابتلاء بالتغرب » عند المتعلمين والمفكرين الجادين جدا هو الذى أحدث كارثة قومية وشللا اجتماعيا عميقا . فالفئة الأولى من البشر الذين صاروا أشياء ، فان التغيير والتحديث والتبديل والأوربة عندهم فى الجسم ، فهم ليسوا إلا أجساما ، ومالديهم وضعوه تحت سيطرة الغربى ، أما الفئة الثانية فهم فكر ، وعندما يشلك الفكر ويفقد القدرة على التحليل والتحديد والاختيار ، ويتحول إلى صورة « مستملى » للآخرين ، فالأمر مصيبة مؤيسة وسوداء ، يطرأ عليهم نوع من « الاغتراب الثقافى » وهو أسوأ أنواع الاغتراب ، وتصدق عليهم « جدلية » سوردل وابماسيزار وفانون التى كنا قدأحسسنابها منذ سنوات بشكل مباشر ، ذلك أن الاستعمار كان قد جرب وفهم أنه مادامت الأمة تعتقد أن لها شخصية ، فإن النفاذ إليها ليس بالأمر السهل . والثقافة والتاريخ فى أمة مايؤديان إلى شخصية وتعصب ، ولابد للاستعمار من أن ينفذ إلى داخلها عن طريق فصلها عن تاريخها وجعلها غريبة عن ثقافتها ، وعندما يرى المفكر نفسه خواء ، فاقد الأصالة ،

لاجذور له ، معطوبا فى شخصيته ، فلا مفر من أن يقرب نفسه عن وعى أو غير وعى من الأوربى الذى تبدل أمام عينيه فى هذه الحالة إلى أصالة إنسانية مطلقة وصاحب ثقافة وقيم معنوية مثالية وكمال مطلق ، يصير مفتونا به ضائقا من نفسه ، ويعوض بالتظاهر بالسمات الأوربية فقدانه لخصائصه الأصيلة وفقر شخصيته وخلائها ، وهذا مبدأ مسلم به فى علم النفس أن الفرد الذى لاشخصية له ولاأصالة عنده والتابع الذى لاقيمة له ، يقوم دائما عن طريق التقرب والتظاهر والتقليد بتعويض نقصه نفسيا ، وعن طريق إلغاء نفسه وكل ماهو منسوب إلى نفسه وإنكارها وتحقيرها ، والفرار من كل مايذكره بنفسه وبماضيه ، وعن طريق التشبه بالآخرين يبحث لنفسه عن شخصية جديدة وصفات جديدة وقيم جديدة . ونتيجة لاكتشاف هذا المبدأ من مبادئ علم النفس قام الاستعمار الأوربى بتخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها وفصلها عن تاريخها وجعلها غريبة عن ثقافتها وبعيدة عن نفسها عن طريق الحيل العلمية الدقيقة وعلم الاجتماع المعقد الذكى ، بحيث لاتجد شيئا داخلها ولاتعرفه ، فيقوم بمسخ تاريخها وثقافتها وكل قيمها المعنوية والتقليدية وتحقيرها ، وعندما أصبحت هذه الأمم لاتعرف شيئا عنها ، أصبح من العسير أن تصدق أنه كان لديها . وعندما حقق الاستعمار هذا الهدف من أجل دخوله وسيطرته وغارته وإيقاع الأمم فى أسره لم يعد لديه شيء آخر يقوم به ، ذلك لأن الأمم نفسها جاهدت بكراهية وحقد خارقين للعادة فى تخريب أنفسها بقدر ماتستطيع ، وتحقير دينها وأخلاقها وأصالتها التى مسخت ، وبشوق وإصرار ألقت بأنفسها فى أحضان الأوربيين ، بل وتظاهرت بالضيق من نفسها وكتمان الروابط الثقافية والقومية والتاريخية عندها ، والتوسل بالخصائص الأوربية والتسليم للقيم التى كان الاستعمار يجاهد فى فرضها عليها ، وهى - أى الأمم - التى كانت ثقافتها وشخصيتها تلغى من قبل المستعمر ، قامت بإلقاء نفسها لائذة بالمستعمر ، متشبهة به لتأمن هجومه ، هذه هى الجدلية التى اكتشفها سوردل وايما سيزار فى العلاقة الثقافية والإنسانية بين المستعمر « بكسر الميم » والمستعمر « بفتحها » ، لأن الطفل عندما يتعرض لغضب أمه ، يلجأ اليها هى نفسها من أجل أن يقاومها ، ويلقى بنفسه فى أحضانها .

وهذا هو الاتجاه الاجتماعى الموجود فى نفس الرابطة الجدلية الموجودة فى تصوف « وحدة الوجود » عندنا فى العلاقة بين الإنسان والله : ممكن الوجود وواجب الوجود . فالإنسان بقدر مايعرف الله ويدرك صفاته الإلّهية ، ويحس بوجوده المطلق وكماله الأعلى ، ويتحير فى عظمته وجلاله وجماله ويعشقه ويعبده ، ينفى صفاته كموجود غير الله ، وك « أنا » منفصلة عن الذات الإلّهية ، وفى هذا « السير والسلوك » يصل إلى مرحلة لايجد فيها نفسه ، ويغترب عنها ، ولايعرف شخصا اسمه « الحسين بن منصور الحلاج » ، ويصير كله « هو » ويصل إلى مقام « لا » وهو النفى المطلق لنفسه ، وبالطبع يصل إلى مرحلة الـ « لا » على الفور، وبالغناء عن نفسه يصل إلى مرحلة البقاء فيه ، والفناء فى الله من أجل البقاء بالله جدلية عرفانية . وفى هذا التركيب لو وضعنا « العصرى » بدلا من « العبد » والاستعمار الأوربى بدلا من « الله » ، فإن العلاقة لاتختلف والنتيجة واحدة ، الفرق الوحيد هو الفرق بين الله وبين المستعمر « بكسر الميم » ، لأنه فى هذا التركيب يكون للاستعمار فى نظر العصرى التجلى والتقدس والجمال والجلال المطلق الإلّهى الأعلى ، وللعصرى تجاهه العبودية والطاعة وذات العبد ، الفرق أنه عبد على خلاف عبيد الله ، فقد أوصله إلى معبوده ملائك عرش كبريائه .

مثل هذه المخلوقات التى كانت فيما قبل صاحبة ماض وجذور وقيم أصيلة وانفعال داخلى وبناء للذات وغنى معنوى بارز ، ووصلت اليوم إلى فقر لم تعد تحس معه بوجودها إلا فى علاقتها بالأوربى وتشبهها به ، وإذا سلبت منها موهبة « التقليد والتظاهر والتشبه » تصير وجودا فاقدا للماهية ، تسمى أنفسها « متحضرة » ، لأن أول عمل قام به الأوربى بالنسبة لهؤلاء هو محو كل الثقافات ودفنها وإنكار كل القيم وإثبات هذا المبدأ القائل بأن الشكل الوحيد الممكن للثقافة والحضارة هو أن يضع المرء قناعا أوربيا ، لاشك أنه وهو يبحث عن التشبه بالأوربيين يسمى نفسه متحضرا ، أما الأوربى نفسه فهو لايعرفه بهذا الاسم والرسم ، إنه لايسميه متحضرا ، بل يسميه متشبها .

والتشبه بمعنى التقليد ، إنه ليس أوربيا لكنه « يشبه » بالأوربى ، ولدهشتى الشديدة وجدت نفس هذا المصطلح مع هذه الجدلية نفسها الموجودة فى العلاقة بين الأوربى وغير الأوربى ، وجدته فى الحديث النبوى الشريف العميق :

« **من تشبه بقوم فهو منهم** » ، أى أن كل من تشبه بقوم آخرين ، ولم يعد له أى ارتباط بمجتمعه ، بل ارتباطه بقوم آخرين ، وانفصل عن جذوره ، فقد صار غريبا عن نفسه ، بل مرآة لآخر ، ومصطلح Assimilé لفظا ومعنى هو المتشبه . لأن من يجعل نفسه شبيها بآخر يفر من نفسه ، ينكر نفسه بعجلة وإصرار ، يكتم علائقة بل وفطرته التاريخية والاجتماعية وماهياته الاجتماعية والثقافية ، وبتحقير نفسه ، يهرب من نفسه إلى أحضان الأجنبى ، يجاهد ليصل إلى فنائه فيه وهو الأعلى والأكمل والأجل ، وفى مواجهة الأوربى يحس بمركب النقص فى نفسه ، ويكون أى أشقر أزرق العينين أفضل من أى واحد من مواطنيه وأحسن منهم ، يرى قوله فصل الخطاب ، ويفخر برفقته ، ويفهمه عن طريق تحقير دينه وتقاليده وقيمه وأخلاق مجتمعه والسخرية منها أنه « استثناء » وأنه بعيد عنهم ، وأنه منفصل عنهم وغريب عنهم ، بل هو شبيهه ، يرى مثله ويحس مثله ويعيش مثله ، وكأنه يريد أن يقول له : من يوجد مثلى فى مجتمعنا ؟ من هم أمثالى ؟ من هم ؟

منذ ثلاث سنوات ، وكنت قد طرحت هذا الموضوع للبحث للمرة المائة وبطريقة مختلفة ، وكنت قد طرحته فى قاعة المحاضرات ، كان السيد « ناصح » وهو مدرس يحضر مستمعا قد استنتج أثناء المحاضرة نقطة ذكرنى بها ، وبعد طرحها ، لاشك أنها كانت نقطة تتسم بالسطحية وتفتقر إلى الأهمية ، قال :

مثل هذا النمط من العلاقة لم يكن موجودا فى احتكاك الأوربيين بمجتمعنا التقليدى ، عندما كان أحد «أنماطنا » القديمة يلتقى بواحد من الأوربيين أيا كان هذا الأوربى : جاويش أمريكى أو سائح إنجليزى أو فنان فرنسى أو رأسمالى ألمانى ، لم يكن يحس فى نفسه بأى إحساس بالنقص أو انعدام الشخصية ، بل العكس ، كان هو الذى ينظر اليه باحتقار ويستخف به ، كان يرى دينه وحياته وأخلاقه وصفاته الإنسانية ومعنوياته وتقاليده وكل مايتعلق به أكثر أصالة واحتراما وأفضل مما لدى الآخرين ، كان يؤمن بنفسه ويؤمن بأصالته ، وكان يحترم كل هذه القيم التى تكون معنوياته وثقافته ويقدسها أكثر ، إن التعصب وهو النتيجة المنطقية لهذا الإيمان ، و « الشخصية » التى هى تجلى هذا الروح ،

كانت السبب فى أنه كان يرى نفسه فى مواجهة الأوربى « مستقلا » و « مستندا على ذاته » ولم يكن يفقد نفسه أبدا ، ولم يكن يجعل من نفسه « استثناء » من القاعدة أمامه عن طريق السخرية من نفسه ، والتحقير « الناتج عن الفكر والنقد العصرى » لدينه ومجتمعه وقومه وآدابه ورسومه وذوقه وتقاليده ، ولم يكن يهب مجاهدا لاكتساب شخصية جديدة عن طريق تقليد حركاته وسكناته ، ولايفضل « الخادم الأوربى عن السيد هنا » ، ولايباهى بصداقته ، ولايفخر أمام قومه فخرا كاذبا بمعرفته إياه ، ولايشكو من ضعفه فى لغته الأم وغربته عن تقاليد الناس ، ولايحترف التلفظ الخاطئ عمدا لمصطلحاته بل ولأسماء أعلام الدين والتاريخ والثقافة عنده ، ولأنه عاش سنتين أوثلاثة عيش « الكلاب » فى حى السود فى باريس أو لندن أو نيويورك ، وتناول الطعام فى مطاعم الدرجة الثالثة ، و « عاشر » خادمات الغرب والتسعيرة المقررة للواحدة منهن فنجان من القهوة بثلاثين سنت ، لأنه فعل ذلك أصبح يصاب بالغثيان عند رؤية النساء الرجعيات لأنهن يطأطئن الرأس خجلا عندما يطرى جمالهن إنسان وتعلوهن الحمرة بدلا من تقبيله ، ولايجاهد جهاد المستميت لإجبار جدته « الحاجة بى بى كلبن آغا » على ارتداء ال « مينى جوب » عند ذهابها إلى رأس الجسر ، أو على أن تمشط شعرها على هيئة « ذيل الحصان » ، أو يرغم عمته « الحاجة رقية » على وضع نظارة « اودرى هيبورن » على عينيها ، ويقوم بكنس المنزل من السجاد والفرش والوسائد التى عاشت مع الأسرة ستين عاما ، لكى يؤثثه ب « استيل مودرن » أمريكانى مأخوذ من مجلة ال « بورده » ، ثم يقوم بعمل الديكور له ، ولما كان قد سمع أن الدين لم يعد « موضة » فى أوربا بعد عصر النهضة ، يقوم برفع صورة حضرة الأمير « سيدنا على » من فوق جدران منازل أعمامه وخاله ووالده العجوز أولئك الذين عاشوا أعمارهم مع الدين وعشق سيدنا على ، وبدلا منها يقوم تقليدا للمنازل التى رآها فى الأفلام الأوربية — لأنه فى فترة إقامته لم يدخل شقة أوربية واحدة تعيش فيها أسرة حقيقية وسليمة ، وكل الأوربيين الذين عرفهم لايعدون عجائز النسوة إياهن اللائى يؤجرن حجراتهن للأجانب والبنات اللائى فى مقابل أن يتعيشن ويظفرن بقهوة أو عشاء أو سينما أو حفلة رقص أو استحمار إلى آخر العمر يحبون النمط الشرقى جدا — تقليدا لتلك المنازل التى رآها فى الأفلام الأوربية يضع صورة

جين مانسفيلد التى أعدت من أجل حجرة النوم على جدار منزل والده المصلى وفى موضع القبلة ، أو لأن الأوربيين أصبحوا يعجبون بالفن والجمال الأفريقى بعد معايشتهم له قرنين من الزمان ، يأتى صاحبنا ويضع تمثال امرأة زنجية سوداء على رف حجرة جلوس والدته التى تظن أنه تمثال « البعبع » نفسه التى كانت تخوف به أطفالها حتى يسكتوا ، فى حين أنها نفسها تخاف أن تظل وحدها فى الحجرة أثناء الظلام ، ومن ناحية أخرى فهى تسعد جدا ، لأنها هى الأخرى قد صدقت أن هذا النوع من الأشياء أى مجلة « زن روز » و « اطلاعات بانوان » تعنى الخروج عن تخريف العصور الوسطى ووحشيتها .

أجل ، هذه الأحوال خاصة بمتعلمينا وحملة الشهادات الجدد عندنا ، فإن قدماءنا سواء كانوا من العلماء أو من العامة ، لم يبتلوا بمثل هذا الشقاء المثير للغثيان فقد كان الخان والفلاح والتاجر فى السوق والفتوة والحكيم والعالم والأديب يؤمنون بأن لهم شخصية وأصالة يفتقر إليها الأوربيون بكل مالهم وقوتهم ومظهرهم الغربى ، بينما هؤلاء الأساتذة العلماء الذين ذهبوا إلى أوربا ، بمجرد أن كانت عيونهم تقع على مستشرق مبتدئ قرأ فى مدرسة اللغات الشرقية كتاب « أكابر الفارسية » ، كانوا لايملكون أنفسهم ، ويقيمون من أجله الندوات والمؤتمرات ، ويتنافسون فى التقرب إليه .

كانت تعقد فى طهران جلسات أسبوعية ، وكان يحضرها البروفسير هنرى كورين أستاذ السوربون وعالم الإسلاميات المعروف والمتخصص الأوربى الفريد فى الثقافة الشيعية ، كما كان يشترك فيها السيد محمد حسين الطباطبائى مدرس الحكمة وتفسير القرآن فى قم وعدد آخر من الفضلاء والعلماء فى العلوم القديمة والجديدة ، وكان طباطبائى وكأنه سقراط قد جلس وحوله تلاميذه ، وكان كوربن العظيم حسن الأدب يجاهد فى اغتراف جرعات من هذا المحيط العظيم للأفكار والعواطف العميقة والمتنوعة التى كونتها الثقافة الإسلامية الشيعية .

أية روح وقوة وهبته هذا الثبات فى الشخصية والاستقلال الفكرى ؟ ليس هذا تعصبا قوميا أو غرورا ناشئا عن جهل ، إنه يعرف نفسه كممثل لتاريخ عظيم

وحضارة عظيمة وكنز فياض من الأفكار الفلسفية والمواهب الإنسانية والمعنويات الأخلاقية والعواطف والجماليات المدهشة العرفانية والفنية والأدبية ، إنه مرتكن على جبل من الثقافة البشرية . فى هذا الموقف: هناك ثقافتان كل منهما فى مواجهة الأخرى ، فليس طباطبائى شبيها أو متشبها بكوربن . ليس شابا نال الديبلوم أو الليسانس لايعرف شيئا عن الدين إلا نصائح أمه و « علق » أبيه من أجل الطهارة وصلاة الصبح ومنابر منشدى الروضة التى يتقاضى الواحد منهم أربعة تومانات أو خمسة ، ولم يقرأ من الأدب إلا « موت حسنك الوزير » والمقالة الرابعة فى الكتابة والشعر من مقالات نظامى العروضى الأربع وبضع قصائد كتبها متسولو بلاط السلطان محمود المتأدبون ، ولايعرف عن العرفان إلا سحنات حفنة من الدراويش الأقذار المبتلين بالحشيش أو عدد من « الفقراء الميليارديرات » المصابين بالحول ورءوسهم فى حجور الأستقراطية وذيولهم فى أيدى الشركات والخدمات إياها ، ولايدرى من التاريخ إلا سير بعض الخانات والسادة وبهذه المواد ، وبهذه المعرفة عن نفسه وعن كل ماهو منسوب اليه ، يذهب إلى أوربا ويرى هناك تاريخيا وفلسفة وعلما وفنا وشخصيات انسانية عظيمة ، ويوازن بينها وبين مالديه من تاريخ وثقافة ، ويرى البون الشاسع ، فلا بد من أن ينجذب ، ويهرب من نفسه ، ويكتم روابطه الثقافية ، وينكر علاقته بتاريخه ، وعندما يحس بنفسه وجودا خاليا من الذات ، قشرا بلا لب ، وخواء بلقع ، ومنسوبا إلى دين وروحيات وعرق وماض كله قبيح وخرا وحقير ، ويضع نفسه فى مقابل لثقافة الأوربية المزدهرة المتقدمة العظيمة ، فإنه طوعا أو كرها يلغى نفسه ، ويتظاهر بالشخصية الأوربية ويصير غريبا عن نفسه ، فتتمدد الذات الأوربية فى ذاته الخالية من كل ماهية ، ويحس بالقيم والاحتياجات والميول والخصائص الموجودة عند ذلك الأوربى محل قيمه واحتياجاته وميوله وخصائصه ، ويمسخ إلى الشكل الأوربى ، ويتحول إلى مخلوق ليس نفسه ، ولما كانت هذه القيم والاحتياجات والميول والصفات الإنسانية نتيجة لتاريخ وظروف اجتماعية وخصائص قومية وثقافية أوربية وهو فى الواقع مرتبط بتاريخ آخر وظروف اجتماعية أخرى وقوم آخرين وثقافة أخرى ، يصير مريضا بأمراض ليست عنده ، وغافلا عن أمراض عنده بالفعل ومستريحا منها ، إنه يتألم من آلام عند آخر ، جائع يمارس طريقة « لإنقاص الوزن » ، يعيش فى مجتمع كادح العمل فيه شاق والطبيعة فيه قاسية

والزراعة بدائية ، وقد سلب سوء التغذية وفقدان الصحة والأكواخ الرطبة المظلمة الرمق من الأجساد والحمرة من الدماء والدماء من الوجوه ، وجعل السحن المصابة باليرقان صفراء مُغَرْوَرقةً ، بينما هو تقليد للذوق الأرستقراطى والجماليات البورجوازية يحس فى نفسه بآلام تنتسب إلى صالات السهر والحياة المرفهة اللذيذة والراحة واللهو والسكر والرقص والفراغ التام من كل عمل واللون الخافت فى لون ضوء القمر والقوامات الخيالية الرومانسية التى هى دليل على عدم العمل والسهر حتى الفجر فى النوادى العائلية والطبقية وصالونات الرقص ، وثمة معلم يعيش بمرتب لايضمن له الكفاف ، ويدرس فى فصول يفيض الجوع فيها من عيون خابية لارمق فيها غارت فى محاجرها وتومض بالموت ، ويعيش فى مجتمع لاتزال همومه المسكن والخبز والماء والملبس الذى يمنح الدفء والفحم اللازم للشتاء ، وعندما يضع رأسه بين يديه ويفكر فى نفسه وفى الدنيا وفى الحياة ، يحس فى نفسه بآلام من نوع آلام « كافكا » ، ومخاوف بورجوازية وأحزان غامضة ومضايقات وهمية واضطرابات فلسفية وميول سوداوية ناشئة من حياة شبعة ومليئة ومرفهة لاانفعال فيها ولانقص، ومستريحة لا ألم فيها بل استغناء مطلق وعبث ناتج عن روح حققت كل أمانيها وبلغت آخر الطريق فى الحياة المادية ، ولم تعد لذة فى الأرض أو نعمة فيها تحرك قلبها .

هذا هو المخلوق الذى لم يعد نفسه ، يحس محل ذاته بآخر ، مثل مجنون سكنه جنى أو شيطان ولم يعد يذكر نفسه ، يفقد صفاته وخصائصه وآراءه وآماله وحتى ماهياته الروحية ، فقد حلت شخصية الجنى محل شخصيته .
هذا هو الاغتراب ، والاغتراب الثقافى أشد وطأة من كل أنواع الاغتراب وأصعب علاجا ، والمتشبه هو من دفع إلى الاغترلب بواسطة ثقافة قوم آخرين وشخصيتهم ، والذى دفع إلى الاغتراب عن طريق « شىء ما » ، نظرا للتباين الواضح بين الذات الإنسانية وذات الشىء ، سرعان مايحس أنه مريض ، ويستطيع طبيب نفسانى مجرب أن يعالجه بالدواء والوسائل النفسية ويعيد إليه شخصيته المفقودة و « يعيده إلى وعيه » . لكن ذلك الذى يصير « مرآة » فى مواجهة شخصية أخرى وثقافة أخرى وقيم معنوية أخرى ، لايحس هو نفسه

ولايحس الآخرون أنه مجنون أو مريض فحسب ، أو أنه شخصية مبتلاة «فقدت ذاتها» ، بل إن هذا التحول يرتقى به ويتظاهر به أكثر وأكثر ، بل إنه يجاهد جهادا شديدا من أجل تحقق أكثر لهذا المسخ أو التناسخ الثقافى والتاريخى ، خاصة وأن ظروف العصر تساعده على هذا ، بل ويساعده الاستعمار بكل قوته المادية والعلمية فى هذا التبديل . والمرآة الثقافية مغترب آخر ، مجذوب ، لايعد أوربيا متحضرا أوربيا ، ليس هذا فحسب ، بل ولايعد شبه أوربى أو شبه متحضر ، إنه « شبه إنسان » .

الانسان وليد التاريخ :

ماهو الإنسان ؟ لاشك أن هناك أجوبة عديدة على هذا السؤال مرتبطة بالمدرسة العلمية أو الفلسفية التى تؤمن بها ، لكن مهما كانت المدرسة الفكرية التى تؤمن بها : الدين أو الإنسانية والعالمية أو المادية أو الموجودية ، لاشك أننا سوف نقول بهذه الخاصية فى الإنسان وهى : إن الإنسان وليد التاريخ ، ومهما رأينا فى مدرسة مبدئية التاريخ من مبالغة ، لانستطيع أن ننكر أنه إذا كان النوابغ والشخصيات ذوات الثقافة العالمية (أو امتزج تخصصهم امتزاجا تاما بتاريخ آخر وثقافة أخرى) استثناء إلى حد ما ، فإن عامة الناس والضمير الجماعى لمجتمع ما والخلاصة العناصر التى تكون الفرد فى المجتمع كلها من صنع التاريخ ، ومن هنا فالفرد على حد تعبير شاندل : « لم يتكون فى فترة عمره فحسب بل فى فترة تاريخه » والعمر الحقيقى لكل إنسان هو تاريخه وليس عمره الحقيقى أى سنوات حياته ، والعمر المكتوب فى بطاقة الهوية لفرد ماهو المدة التى يصنعه التاريخ فيها ، الفترة التى يودعه فيها التاريخ تراثه ومواده وخصائصه ... ومن هنا فالشخصية الإنسانية لكل فرد هى مجموعة الخصائص التى استمدها من تاريخه ، فليس الإنسان شجرة بدأت منذ يوم أن ولدت ، بل هو شجرة مدت جذورها فى أعماق تاريخها ، تتغذى منه دائما وحتى لحظة الموت .

ومن هنا فأول مافعل الاستعمار خاصة فى المجتمعات ذات الحضارة التاريخية ذات الجذور ، هو أنه فصل الجيل الحالى عن تاريخه ، ووفق فى هذا الأمر

لدرجة أن العصريين فى هذا المجتمع لم تعد لهم أية صلة بماضيهم ، ولم يعودوا يعرفونه ، ولايفهمون منه إلا قدما قديما منحطا وغامضا (لاشيء يذكر فيه إلا ويعد نبشا للقبور وغيبة للموتى وتناولا لكل ماهو نخر وخرافى ومعدوم بل ويسمى الميل إليه بالرجعية أى الاهتمام بالماضى دون المستقبل) ، وكان من أمرهم أنهم بينما اهتموا باحياء آثارهم الماضية التى لاقيمة لها وحفظها والتعريف بها إلى درجة أنهم يعرضون السروال الداخلى لعشيقة نابليون فى متحف ، وفى سنوات الحرب بينما كانت مدن أوربا تقذف بالقنابل ، كانوا يحافظون على آثارهم التاريخية مضحين بالأرواح والأموال ، وكانوا ينقلون تذكارات الماضى تحت قصف القنابل ودانات المدافع من المتاحف إلى المخابئ الجبلية ، بل وأنفق كثير من علمائهم وباحثيهم أعمارهم كلها فى خرائب شوش وبعلبك وجراح وبين النهرين وصحراء بلاد العرب المحرقة ومصرو اليمن وأفريقيا وتركيستان والصين ... وفى أقصى العالم وأدناه فى استخراج الآثار القديمة وكشف الخطوط المجهولة ومعرفة ملامح تواريخ كل الأمم ، وكان بعضهم يمضى على مدى ثلاثة أجيال متعاقبة فى هذه الخرائب النائية ، بينما هم كذلك نجد عصريينا الذين يشبهون الأوربيين أى هؤلاء المتشبهين أنفسهم صنيعة الاستعمار تضطرب أحوالهم من كل مايتأتى منه رائحة القدم والاهتراء ، لأنهم كانوا قد اكتشفوا أن هذه الآثار المشئومة هى التى أصابتنا بالانحطاط والتأخر . ولأنهم ضاقوا بعرقهم وتاريخهم فإنهم يعادون عداوة شديدة كل مايذكرهم به ، ولما كان يذكرهم بمركب النقص عندهم أخذوا يجاهدون فى محوه وتجاهله ، وأخذوا يعتبرون التاريخ اتجاها مناقضا للمستقبل وعاملا مضادا للتقدم والنمو .

ومن ناحية أخرى فإن غالبية الشعوب التى كانت قد فصلت عن تاريخها وثقافتها قد تدهورت إلى مستوى أمم بدائية جاهلة فاقدة للحضارة والثقافة ، لأنه على حد قول شاندل « ان أحد أوجه التميز التى تميز المتحضر عن البدائى هو أن يكون له ضمير تاريخى ومعرفة بالتاريخ وعشق له » . فالتاريخ حقيقة عميقة متعالية يستطيع أن يفهمها فحسب إحساس مهذب وفكر منطقى متكامل عند إنسان متحضر ومتقدم ، وقد لاحظت هذه النقطة بعينى رأسى عند قيامى بأداء فريضة الحج ، وكم هو سخيف ومثير للأسف ، فالتحديث الأمريكى الشكل

الذى فرض على البدو فجأة فى السنوات الأخيرة ، وأموال النفط وإلغاء الجمارك أو دفع الضرائب على السلع المستوردة ، أمور حولت مكة والمدينة الى سوقين حرين للبضائع الممتازة للرأسمالية الأمريكية والأوربية ، وأغرقت السيارات من آخر طراز الكريزلر والشيفورليه ذات السلندرات الثمانية وأجهزة الراديو والتلفزيون والأقمشة وآلاف الأنواع من البضائع الفاخرة ولوازم الزينة من إنتاج مرجريت ستور وكريستيان ديور كعبة إبراهيم وحرم الرسول ، وأحدثت نوعا من الحياة البورجوازية الصناعية من النوع الأمريكى بين الأقلية من سكان المدينة فى مجتمع بدوى لايزال يعيش فى مرحلة القبلية ، ولايزال نظام الإنتاج فيه ومستوى ثقافته على ماكان عليه فى الجاهلية ، وكما نرى فى أنماطنا الجديدة العصرية المتبرجزة ، نرى بدويا يسقط فى حياة استهلاك لامعة متأوربة ، ويفرط بطريقة مضحكة ، وعلى حد قول المرحوم آية الله زاده نورى : « لأنه أتى متأخرا فإنه يسرع فى سيره » ، فهو يعالج مركب الحرمان والنقص والتأخير عنده بمبالغة مدهشة فى الاستهلاك وقبول مايفرض والتقليد ... هم أيضا نموذج بارز للبدو الذين دخلوا مرحلة التحديث دون مقدمات وحياتهم مثال بارز على « فرض الاستهلاك البورجوازى الحديث على النظام الإنتاجى الكلاسيكى » (١) ، وبحرص وحقد وخصومة مجنونة قاموا بجنون بمحو كل الآثار القديمة والتذكارات التاريخية المليئة بالمفاخر الإسلامية ، وحتى السمات العزيزة للحياة الخاصة والاجتماعية عند رسول الإسلام والخلفاء الراشدين .

وفى مدينتى مكة والمدينة التى تتحدث كل قبضة من ترابهما إلى فكر المرء وعواطفه ، ونحس بثقل التاريخ فى جوها فوق صدورنا ، كنت أسير فى كل مكان بإرشاد من التاريخ وكل الحوادث التى صنعت أجيالا كثيرة عندنا وغيرت عالم البشر ، كنت أسير بحثا عن آثار أقدام ، عن ذكرى أو تذكار من تلك الأيام ، هنا « شعب على » طريق جبلى يمتد من جانب المسجد الحرام الى قمة جبل أبى قبيس ، فى البداية منزل أبى سفيان ، وبعد منحنى يوجد منزل الرسول ، ثم منزل أبى طالب ومسقط رأس على ، فى ركن آخر مسقط رأس فاطمة وفى النهاية مسجد بلال . والطريق يحتفظ بكل ملامحه ودلائله . وعندما

(١) هذا هو ماسوى مزارعنا النضرة وحدائقنا المشهورة بالأرض ، تلك المزارع والحدائق التى كان جيد وماسنيون وجوته يذكرونها بحسرة .

تدخل إليه وتصعد فوق مرتفعه الحاد ، تعود ألفا وأربعمائة سنة إلى الوراء ، تحس وكأن النبوة فى بدايتها ، وبعلى الشاب وأبى طالب الشيخ ومحمد العظيم ، وخديجة المضحية ، وفتاة صغيرة تسمى فاطمة سوف تلقى فيما بعد مصيرا عجيبا ، وبلال ... وأبى سفيان ... وهند آكلة الأكباد ، كلهم يمرون من هذا الطريق الضيق ، من هذا المعبر ، يروحون ويغدون ، حقيقة فى ذلك المكان تلمس التاريخ وتراه ، ينبض فى قلب تلك اللحظة حيا ، البيوت كما هى قديمة بزخارفها وخطوطها وواجهاتها كما هى قديمة .

ولكن تلك المنازل التى كانت لبضع سنوات خلت على طرازها القديم قد سويت من أسسها بالأرض ، وأقيمت فوقها عمارة من الخرسانة المسلحة تعلو عدة طبقات على الطراز الأمريكى ، وتحتها محلات الخردوات معرض المنتجات الأمريكية الفاخرة ، وإذا مضيت فى هذه الحارة ، تجد محلات أجهزة الراديو والتلفزيون ولوازم الزينة وإلى جوارها خباز بفرن آلى والى جواره محل حلاق ، تحت هذه العمارة العالية ، منزل أبى طالب ، مسقط رأس على ، وأيضا منزل فاطمة ، المنزل المميز للرسول ... فقط على ناصية الحارة وميدان المسجد الحرام كان هناك منزل خرب عمدا ، وصار مزبلة للبلدية والناس ، وسألت : أى مكان هذا ؟ فأجابوا بكل فخر وحماس وإحساس بالتوفيق الدينى : هذا منزل أبى سفيان اللعين ، حول إلى مزبلة ، ولايزال فيه مظهره القديم تشاهد فيه الأقواس والطاقات ، وسوف تكون مكة والمدينة بهذه العصرية الجاهلية بعد عدة سنوات فى وجود أموال النفط وانعدام الإحساس التاريخى والتعالى ، ووجود عقدة لعبة التحديث التى تزداد بصورة جنونية سوف تكونان مدينتين حديثتين مثل واشنطن ونيويورك ، وسوف تدفن كل الآثار التاريخية تحت ناطحات السحاب والفنادق وقصور جلالة الملك والأشراف المقربين .

هذا ، فى حين أنه فى إيطاليا ، تجاهد بكل مالديها من ذوق وتعصب وفن ومال فى المحافظة على فلورنسا كما هى ولاتقوم بتحديثها ، فى حين أن العصرية من عندهم ، وهى هناك حالة طبيعية ، وكل منزل خاص ينهدم ويحتاج إلى ترميم ، ليس لصاحبه أن يبنيه على ذوقه خاصة واجهته ، والشارع الرئيسى فى المدينة بالرغم من أنه منذ العصر الرومانى ، وبالرغم من أنه هبط كثيرا عن مستوى المدينة ، قد ظل على حاله لم تمسسه يد ، ببلاطه الأصلى بل وبالأعشاب البرية

التى نبتت بين حجراته وعلى جانبيه . أما فى البقيع : فى تمت الحدنة التى دفن فيها كل صحابة رسول الله وآله وكل الشخصيات البارزة الأولى . تقاصر الحدود ذات يوم . وكمزرعة بور ألقوا فيها بالجرارات . حتى الأسماء محوها . والسبب ؟ أنه لاتوجد فى الإسلام عادة قبور . إذ إنها تتحول إلى أضرحة ويأتى الزوار ويدورون حولها ويزورونها وربما يقبلونها . وفجأة أحسست بالخوف من أن يقوم هذا الإسلام الأمريكى بتعبير سيد قطب - بالغضب لأن بعض الحجاج العوام يقبلون الكعبة أو نوافذ قبر الرسول وأبى بكر وعمر « إلى جوار أن أضرحتهم مختفية » ، ويقوم المشايخ الذين جعلوا الحدود مفتوحة بحجة أن أخذ الجمارك على البضائع حرام فى الإسلام « ولعلها البضائع الأمريكية فحسب » ، حتى يحمل الأمريكان النفط ، ويأتون فى مقابله بروبابيكيا النفط . يقوم هؤلاء المشايخ - لاقدر الله - بالهجوم عليها بالجرارات ، وبناء عمارة « للكشافة » مكانها ، حتى لاتتكرر كل هذه المعاصى فى الإسلام . (١) فى المتحف البريطانى فى قسم الآثار الإيرانية القديمة ، أحد الحجارة المنقوشة النادرة التى ترجع إلى فترة ماقبل الإسلام ، وهو عبارة عن لوح حجرى كبير ، وقد انفعل صديقى الدكتور ناصر بقائى الذى كان آنذاك فى باريس رفيقا فى الدراسة انفعل الدكتور ناصر بقائى عند رؤية هذا اللوح الحجرى بشكل غير عادى وقال : عندما كنا صغارا فى كرمان ، كنا نذهب مثل بقية أهل كرمان إلى ماهان ، وكان منتزهنا هو الحديقة الجميلة لضريح الشيخ نعمة الله ولى ، وذات يوم وقر فى الأذهان أن هذه القطعة السوداء من الحجر ليست جديرة بمقام الشيخ ، وتعهدت مجموعة من أهل الخير بإعداد حجر قبر من المرمر النفيس جيد النحت من أجل القبر . ولم يمض كثير حتى تم إعداده ، وحملوا هذا الحجر وألقوه بعيدا ، وسعد الناس كثيرا لمعرفتهم بقدر الشيخ وتكريمه

---

(١) رأيت فى صحراء منى فى الجزء المتصل بمدينة مكة عدة عمارات مكونة من عدة طبقات قد ارتفعت ثم توقفت ، وظل بقية الأرض على حاله صحراء مليئة بالحصى . وسألت عن السبب ، قالوا : عندما بنوا هذه العمارات انتبه المشايخ فجأة إلى قول الرسول ﷺ : لابناء فى منى ، فخربوا هذه العمارات ، وفهمت كنه المسألة ، واستقصيت فوجدت أن فهمى فى محله . هذه الأراضى المتصلة بمكة ملك لبعض رجال الحكم ، أما الأراضى الأخرى إما أنها بلا صاحب أو ملك أناس بلا صاحب ، والبناء فيها حرام لاشك .

وشكروا الله ، ولم يعد أحد يحفل بهذه القطعة من الحجر التى لاقيمة لها ، ثم محيت من الأذهان ، والآن أراها هنا ، عندما يكون المرء بدائيا فاقدا للثقافة ، لاتكون رؤيته وإحساسه قادرين على إدراك قيمة التاريخ وجماله .

الضمير التاريخى :

إن الضمير التاريخى خصيصة من خصائص الروح المتحضرة ، والمحافظة على هذه الآثار وإحيائها ومعرفتها يدل على الماضى المستمر والقرون والأجيال الدفينة ، ليس لها فحسب قيمة عاطفية أو فنية أو علمية ، لكنها تهب التحقق لتداوم تيار التاريخ والارتباط الثقافى والروح القومية . والاتصال التاريخى هو الذى يحقق رباط الجيل الحالى بماضيه الذى تشكلت فيه شخصيته . و قد قام الاستعمار بجهود علمية ومتصلة بعلم الاجتماع ومعقدة جدا وغامضة لكى يضع « أشباه متحضريه » فى الأمم الإسلامية المتحضرة وفى الهند والصين بطريقة تجعلهم يعتبرون التقدم والعصرية نقيضين للتقاليد والتاريخ ، وباسم الواقعية والتقدم ، يقومون بإلغاء ماضيهم ومحو تاريخهم ، ويهربون منهما بحقد وكراهية شديدين دليلا على العصرية وتقدم الفكر .

عندما كنت عائدا من سويسرا إلى إيران ، كان رفيقى طالبا جامعيا تركيا من أهل أزمير ، مهندس زراعى تعلم فى سويسرا ، أى رفيق أفضل من هذا ؟ قلت فى نفسى : سوف يوضح لى كثيرا من النقاط المجهولة والعقد الغامضة والدقيقة فى « الفن المعمارى التركى » من النواحى الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، وسوف يقوم بهذا بأطراف أصابعه ، فهو شاب متعلم رأى الدنيا وأيضا يتحدث الفرنسية جيدا ، ولم أستفد شيئا من حديثى معه لعدة أيام ... وهذه قصة أخرى . وعندما دخلنا استانبول رأينا عرضا عسكريا .. وسألت : ماالخبر ؟ قال : إن الجيش التركى يحتفل بمرور أربعين سنة على تأسيسه . قلت : أربعين قرن ؟ وضحك وقال : لا ، أين عقلك ، أربعين سنة ، وسألت ثانية : أربعين ماذا ؟ وأكد ثانية : أربعين سنة ، ثم فسر لى أنا الذى أجهل تاريخ تركيا وماضيها : إن الدولة التركية والمجتمع التركى والجامعة والحضارة والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والحكومة والجيش فى تركيا كلها أسست منذ أربعين سنة ، ولم أستطع تحمله بعد ذلك ، وفررت من رفقة هذا المفكر الذى

ينتسب إلى أمة حديثة الظهور ، حديثة العهد بالإنسانية ، يعود تاريخها إلى نصف عمر إنسان . وكأن سماء القسطنطينية لاتزال تذكر آخر حادثة عظيمة وهي بالنسبة لي كأنها حدثت بالأمس فحسب : جيوش السلطان محمد الفاتح تدخل في سنة(١٤٥٣) ميلادية من بوابات هذه المدينة التي كانت قلب الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وأعظم مراكز حضارة القرون الوسطى . وتقذف بالمسيحية بحضارتها الرومانية الشرقية القومية من هذا الشاطىء للبحر المتوسط إلى الشاطىء الآخر ، وهذه السنة (وليست سنة أن أسس جيش تركيا المسلمة الحالية) اعتبرت نهاية العصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة في الغرب .

وهذا المتشبه الغريب عن نفسه الخواء ، السيد المهندس الذى تعلم فى سويسرا ، الذى سوف يصبح غدا أستاذا فى الجامعة أو وزيرا للزراعة فى تلك الدولة وصفوة الطبقة المفكرة فى مجتمعه ، لايدرى أن جيشه قد أسس بقيامه منذ ستة قرون بأعظم ملحمة عسكرية تاريخية صارت بداية لفصل من فصول التاريخ البشرى ، ومن ذلك الوقت فما بعد قام بتأسيس أعظم إمبراطورية غربية في القرون الوسطى والقرون الحديثة ، وكان يسيطر على كل دول اوربا الشرقية واليونان ، وأن المآذن والمساجد الفخمة التى بناها أجداده لاتزال فى يوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا واليونان دليلا على عظمتهم وقوتهم ومدى نفوذهم السياسى والثقافى والفكرى ، وأنهم تقدموا حتى فرنسا وإيطاليا ، وحاصروا فينا عدة مرات حتى أوائل القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وكانت لهم أعظم قوة بحرية فى البحر المتوسط ...... وماذا أقول ؟ منذ ألف سنة صدوا الحروب الصليبية وسيل هجوم جموع الغرب المسلحة عن الدول الإسلامية ، ولاتزال سيوفهم ودروعهم ومدافعهم التى نقشت عليها آيات الجهاد فى المتاحف العسكرية فى أوربا تدهش كل من ينظر اليها ... وماذا أقول ؟ قبل أن يكون هناك اسم للغرب المعاصر فى العالم ، وأشرق الإسلام بنوره من الشرق ، كانت هذه الأرض مهد الحضارة البيزنطية والرومانية الشرقية ، ومنذ ألف عام يدل تاريخ هذه الأمة على القوة العسكرية والحضارة والعلم والإيمان والثقافة والإمبراطورية العالمية والسيطرة المطلقة على البحر المتوسط ، وكانت « عقابا » حط على أبراج القسطنطينية السوداء ، وعلى حدود تقع بين الشرق

والغرب بين العالم المتحضر القديم والعالم المتحضر الجديد ، ألقى بظلال جناحيه على الشرق والغرب معا ، وحتى الحرب الأولى كانت أعظم قوة إمبراطورية وعسكرية فى أوربا وجزء كبير من آسيا ، وكان العرب واليونان وشمال أفريقيا وكل أوربا الشرقية تحت سلطانها ، ومنذ أربعين سنة ، ونتيجة للتكنيك العسكرى الأوربى من قدامها والخنجر الإسلامى الإيرانى العربى من ظهرها تركع على ركبتها ، ويأخذ منها الإنجليز بلاد العرب ، وتنفصل أوربا اليونان وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا ، وتحصرها فى مضيق ، ثم يطفو على سطح السلطة أتاتورك وبقية الشباب المتعلمين المتأوربين الذين كان السلطان العثمانى قد كلفهم بدراسة التكنيك العسكرى الأوربى والعلوم الأوربية الحديثة واللغات الأوربية ومعرفة الحضارة الأوربية ليقفوا فى وجه الهجوم العسكرى والاقتصادى السياسى والثقافى لأوربا ، وتفتت تلك القوة العالمية العظمى ، وتبدلت الإمبراطورية العثمانية الواسعة إلى دولة مهزومة مجزأة صغيرة ، ومن بين كل الأقطار الغربية والآسيوية والأفريقية يبقى لها استانبول وأنقرة فحسب ، ثم تصير اللاتينية أبجدية لها ، ويأتى جيل جديد يتعلم بهذه الأبجدية ويعتقد أن تاريخه يبدأ منذ أربعين سنة أى من الحرب العالمية الأولى ، أى تماما منذ أن هزموا وفتتوا وبلغوا منتهى الضعف والحقارة ، والجيش – مع كل تلك الملاحم الموجودة فى ماضيه – يبدأ تاريخه منذ اللحظة التى هزم فيها ... عجب وأى عجب .

وذهبت إلى مكتبة استانبول بكل شهرتها فى عالم الثقافة والكتاب كخزانة جمعت عبر القرون المجيدة الحافلة بالقوة الإسلامية ، رأيت قاعة المكتبة تقص حكاية المجد الغابر ، لكن فوق كراسى هذه القاعة يوجد هنا وهناك عدد من المستشرقين قد جلسوا إلى المخطوطات ، أما من الأتراك فقد رأيت فقط المرحوم أحمد آتش وهو من علماء الفارسية المشهورين يستطيع أن يقرأ هذه الخطوط المنسية ، أما الآخرون فهم ينظرون الى هذه الكتب وهى خزانة ثقافتهم ومعنوياتهم وماضيهم وشخصيتهم ، تماما كما ننظر نحن إلى النقوش الموجودة على « تخت جمشيد » . [1]

(١) المترجم : أثناء إقامتى لمدة عام فى إستانبول لدراسة التركية فى جامعتها ، سألت عن أعظم أساتذة الأدب التركى لأحضر محاضرته ، ولما ذهبت ، وجدته مشغولا مع الطلبة بقراءة نص عثمانى مؤلف فقط منذ حوالى خمسين عاما . وكم كان الأمر شاقا على الأستاذ والطلبة .

وعلمت أنه كان ينبغى فى البداية أن يحول هذا المهندس الشاب المتعلم إلى غريب عن هذا الماضى ، ثم يقال له : أجل ، إن كل ماتملكه من التاريخ هو أربعون عاما فقط ، أنت من أمة عمرها عمر الدول الأفريقية التى ظهرت حديثا ، مثل تشاد وتوجو والكونغو برازفيل واتحاد جنوب أفريقيا ، إلى جوار أنه تاريخ بدأ بالهزيمة ، أى أنك لم تكن شيئا ولست شيئا ، ونحن الذين ألبسناك ماتلبس ، وعلمناك الحياة ، ومالديك من فكر وعلم ولغة وكتاب وجامعة وحضارة .... كل مالديك نحن الذين قد أعطيناك إياه .

وسألت : لماذا وأنتم مسلمون تجعلون يوم الأحد عطلتكم الأسبوعية مثل الأوربيين بدلا من يوم الجمعة ؟ وماقدمه من تحليل عاقل جدا ، قال : إن الجمعة فى النهاية عيد دينى إسلامى وهو يوم مقدس ، فلو عطلنا الجمعة سوف يذهب الجميع للعبث واللهو والفسق والفجور ومن هنا أمروا بالعمل يوم الجمعة ، والعطلة الأحد ، حتى يكون كل مايقومون به من فضائح فى اليوم الدينى عند المسيحيين .

وتنورت ، ظننت أن الأمر نتيجة للارتباط الاقتصادى بالغرب ، وأنهم لهذا عملوا أيام الجمع ، وعطلوا أيام الآحاد ، حتى يكون العمل فى السوق الأوربى والسوق الإسلامى معا ، ولكن بتحليلهم الروحى الدينى تنبهت إلى أن الأمر ليس أمرا اقتصاديا بل إسلامى ، وسعدت بالطريقة التى تنتقم بها دولة الجهاد الإسلامى والمجاهدين ضد الصليبيين والمقاتلين العثمانيين ، وكيف تنتقم بخبث من المسيحيين .

وفى اليونان ، كنت ضيفا على اتحاد طلاب أثينا بدعوة من الطلاب اليونانيين فى أوربا ، وكنت سعيدا أننى سوف أكون بين جماعة من المتعلمين المفكرين ، وسوف أعرف اليونان العزيزة معرفة دقيقة وصحيحة ، فإن الوطن الحقيقى لكل إنسان مسقط رأسه بل ثقافته ، وأنا الذى اعتبر قلبى بجوار بيت إبراهيم ، أعتبر عقلى فى أكاديمية أثينا ، وأحب هذه المدينة بوله ، بحيث إننى كلما كنت أضع قدمى على ترابها كنت أحس بجسدى يرتعد ، وكأن ما تحت قدمى ليس ترابا وحصى بل عقلا وقلبا وعينا وأذنا . وعندما نزلت من القطار ، كان الفعلة

يشقون جدولا على جانبى الطريق ، وعندما كانوا يخرجون التراب الناعم الرطب بنى اللون ، كنت أنظر إليه وكأنه تراب مقدس معجز امتزج بالعقل والجمال والنبوغ ، وكنت أتعجب : لماذا لايحس العمال باحترام نحوه ؟ وفى أثينا كان الطلاب الشغوفون المخلصون اليونانيون قد أحاطوا بى ، وكانوا جميعا يتحدثون عن « الأخبار » و « المسائل الجديدة » ، وأنا من كانت شخصيات الميثولوجيا اليونانية العجيبة مثل زيوس وبروميثوس وتميس وجدا وأطلس وفينوس وباريس وهيلين وايفو قد أطلت برءوسها فى داخلى ، وكأنى أجد نفسى بينها ، لم أقرر رؤية جبل الأوليمب ، بل قررت رؤية جبل بارناس لأرى أين توجد بنات زيوس التسع وكل واحدة منهن إلهة واحد من الفنون التسعة الجميلة فى العالم ، وأن أذهب لزيارة معبد دلفى ، المعبد الذى كانت له حكايات مع سقراط ، والذى شهد آلهته العادلون بأن سقراط هو « أعلم أهل أثينا » ، وقام سقراط بهذا البحث الذكى ليرى لماذا اختاره آلهة دلفى الصادقون من بين كل رجال الدين والحكماء والشعراء والفنانين كأعلم رجل وهو رجل جاهل ، وفى النهاية يفهم أن السر فى هذا الاختيار هو أنه وحده من بينهم الذى يعلم أنه لايعلم شيئا ، ومن هنا اعتبرته آلهة دلفى أعلم أهل أثينا ، والأكاديمية ، تلك الحديقة التى كان أفلاطون يلقى فيها دروسه ويتحدث وقد تجمع الشباب حوله ، وهو ميروس ذلك الشحاذ الأعمى ، وتلك المحكمة التى أدانت سقراط ، والجبال المحيطة ، وكأننى أسمع فيها الصوت المجلجل لديموستين الشاب ، الذى قام دفاعا عن حقه فى المحكمة ، ومواجهة أقوى محامى العالم ، يتدرب وحيدا على الخطابة فى غار غرس فى جدرانه سيوفا لكيلا يستطيع أن يقوم بحركة لاهدف منها أثناء التدريب على الخطابة . وهذه السماء العجيبة والحافلة بالأسرار لزيوس ، وعالم كل تلك الآلهة المشهورة فى الأساطير ، وبروميثوس أعز أصدقاء الإنسان ، الذى فى سبيل خدمة الإنسان ومنح عالم الأرض العشق والنور ، فضل العبودية والعزلة فى جبال القفقاز على كبرياء ألوهيته فى السماء .

أية أفكار عجيبة وجماليات وحقائق موجودة فى هذه الأساطير وأحبها أكثرمما أحب التاريخ ، وتفعم قلبى بالانفعال والذكر والعشق ، وهأنذا غريق فى هذا المحيط للثقافة والفلسفة والجمال والنبوغ ، أخذت أسألهم بحرص وشوق عن

قصص التاريخ أو الأساطير أو أثر من آثار ذلك العصر الذهبي المليء بالمفاخر ، الذى لم يمنح اليونان وحدها بل منح البشرية جمعاء القوة والفخر والغنى ولايزال جاريا مفعما بالانفعال ، أما هم فإما أنهم كانوا يقولون : لاندرى ، أو يتفضل أحدهم بتقديم جواب أبتر يدل على أنه يريد أن يقول : أجل كأننى سمعت عن شيء مثل هذا ، وعلى الفور كانوا يتحدثون عن الشوارع الجديدة التى بنيت أو الحديقة الجميلة جدا التى غرست فى أطراف المدينة لتكون منتزها عاما ، وشارع فورسفوريوس أفخم شوارع أثينا ، والفنادق ذات ثلاثة النجوم والمحلات الفاخرة والنساء اللعوبات والشبان المتسكعين ودور السينما والمطاعم وصالات الرقص وكل ماهو جدير بالرؤية ولطيف قد تجمع فيها ، وأدركت أيضا أنه يبدو وكأن تاريخهم قد بدأ منذ أربعين سنة ، أى منذ تلك السنة التى فصلهم الغرب فيها عن الإمبراطورية العثمانية ، ومنحوهم استقلالهم ، لابد بمساعدة لورنس يوناني. (١)

ثم ، وعندما ذهبت إلى أرض الاستعمار الأصلية ، ورأيت أوربا الحديثة والموطن الأصلى لنفس هذا الرقى والحضارة والرقى والقيم والعلم والصناعة والتقدم والاهتمام بالمستقبل ، رأيت أن هذه الفلسفات من أجلنا فقط نحن أشباه الأوربيين فى الدول الشقية ، وأنهم أعدوا أشباه المفكرين هنا على هذا النسق ، وإلا فإن لندن وباريس ليستا فى الأصل مدينتين حديثتين ، بل متحفان فى مدينتين ، ففى كل حارة داخلية فيهما ، حتى المكان الذى سقط فيه فلان عضو المقاومة الفرنسية على يد النازى مكان متميز ، على جداره نقش اسمه وأوصافه على حجر وبقيت ذكراه خالدة ، وحدائق المدينة وممراتها وميادينها كلها مليئة بتماثيل شخصياتهم التاريخية بلوحة تعرف بهم للجيل الحالى ، والكنائس بل والجسور والجدران القديمة والمهدمة الباقية تذكارا من العصر الرومانى القديم أو القرون الوسطى مرحلة اختناقهم الملعونة المنبوذة كلها محفوظة كنور عيونهم ، وكل صبية أو غلام فى المدرسة يعرف تاريخه وشخصيات تاريخه العظيمة وثقافة دينه جيدا ، وطلاب المدرسة المعمارية ومدرسة الجسور ومدرسة الطرق والمدرسة الهندسية العليا يعرفون جميعا كل آثارهم الفلسفية والأدبية العظيمة

(١) المترجم : إشارة إلى دور ضابط المخابرات الإنجليزى لورنس فى تعبئة العرب ضد الدولة العثمانية قبيل الحرب الأولى وخداعه إياهم بفكرة القومية العربية ومنحهم الاستقلال بعد هزيمة العثمانيين

القديمة والحديثة ، ويعرفون كل قصص التوراة وسيرة المسيح والمسيحية ، بينما هذا الجيل الخاوى من أشباه المفكرين عندنا وأشباه العصريين الذين ربوه وصنعوه وقاموا بعملية غسيل مخ وقلب له من الداخل والخارج ، بحيث إنهم عندما يرسلون سفينة الفضاء أبولو ، وعندما يفتتون الذرة ، يقوم هنا بنفخ أوداجه ، ويدلى برأيه بفلسفة ويقول : سيدى ، اليوم فى عصر الذرة والصاروخ ، يكون الحديث عن الآداب والدين والتاريخ ومثل هذه الأمور فى الواقع ... الخ ، إن « علم اليوم » ألقى بهذا الكلام بعيدا ، والواقعية ... ومبدئية الاقتصاد ..... الخ

إنك هنا تهرف فى الغربة ، وتدق فى سوق النحاسين ، وتهاجم الدين الذى لاتعرف عنه شيئا معتمدا على أقوال اينشتين وداروين ووليم جيمس ، وأنت لاتعرف أيا منهم ، بينما هم من أبرز الشخصيات العلمية تدينا فى العالم ، وأنت – بناء على أقوالهم – تعتبر التاريخ رجعية والتقاليد قدما والتعصب جهلا والآداب أوهاما ، وهم أنفسهم يعتبرون التاريخ عين الشخصية الجياشة ، ويعتبرون التقاليد خصيصة اجتماعية وثقافية ، والتعصب مبدأ أخلاقيا وبشريا والآداب روحا لحياتهم وفخرا لحضارتهم . ومن هنا فإن الحضارة والعلم الجديد الذى عبئوهما فى « حزم » ذات قوالب ، وصدروه لاستهلاكنا غير ماهو لديهم وما يفهمونه بالفعل ، فالذى لديهم هو من أجل تحويل متعلميهم إلى مفكرين ومن أجل حضارة مجتمعاتهم ، أما الذى يرسل إلينا فهو من أجل أشباه الأوربيين حملة الشهادات عندنا وعصريى مجتمعاتنا ، أى أولئك الرفاق المعنويين المنجذبين إلى سادتهم الأوربيين ، العارفين بالطريق وفاتحيه أمام الاستعمار الأجنبى المتجه إلى مجتمعاتهم المحلية ، وخبراء تحويل المجتمع إلى سوق من أجل السلع الاستهلاكية الكمالية للجهاز الصناعى العظيم ، جهاز الرأسمالية الغربية .

ومن هنا قلت فى موضع ما : « عندما يقول أحدنا سعيدا : حسنا قد صرت متحضرا ، يبتسم هذا الرأسمالى الغربى بانتصار وهو يقول : نعم ، وجدت مستهلكا جديدا » .

الاحساس بالماضى ومعرفة الذات فى الشرق :

إن الإحساس بالماضى ومعرفة الذات فى المشرق هو أحد وجوه التميز فى الرؤية والروح الثقافية والفنية عند الشرقى . يقول البروفسير هوج مؤلف « الفن المعمارى الإسلامى » وهو من متخصصى الفن الشرقى: إنه التقى خلال عمله بهذه الحقيقة ، والشهادة التى قدمها قابلة للتعميم فى كل الوجوه المعنوية الشرقية وهذا التعميم كان أستاذى البرفسير «برك» أحد مؤسسى علم اجتماع الأمم الإسلامية يفسره بهذا التعبير الذى قاله ذات يوم فى إحدى حلقات الدراسة فى الكوليج دى فرانس التى اشتركت فيها : « إن الكلاسية حية فى الشرق ، ذات نشاط ، تتمتع بقدر غير معتاد من الحياة والحركة والحرارة » إننى أحس بهذه الخصائص فى كل أعضاء القوام الاجتماعى عندنا ، وأرى مظاهر هذه الروح دائما ، وتتوالد آثارها المختلفة فى صميم قلب مجتمعاتنا ، ونحن فى احتكاك معها على الدوام ، ولكن للأسف يعجز مفكرونا عن رؤيتها لأنهم يرونها بعيونهم الأوربية الصناعية وإما أنهم لايرونها وإما أنهم يحللونها تحليلا سطحيا مصطنعا عصريا بحيث تكون عامية جدا ومنفرة ، فالعامى الذى لاشعور عنده ويحلل كل القضايا بفلسفة شديدة وبحسم ، ويوضح كل المجهولات على الفور منفر ، والآن ليست مصيبتنا فى الأمية ، بل فى نصف أمية مفكرينا ، وماهو على الأعمى واضح وضوح ماهو على المبصر فالأعمى لايخدع أحدا ولايخدع نفسه ، يضع يده فى يد مبصر ليصحبه ويسير به فى الطريق ، لكن هذا النصف أعمى الذى يشد قامته ويلقى بنفسه وسط الشارع وهو أقل خشية وأكثر حركات من المبصرين ، يسقط تحت السيارات ، فيكون مصيره الألم أو الموت ، ويسبب الصداع للآخرين . انظروا إلى فرانز عالم الاجتماع وعالم الثورات وصاحب المدرسة ، عندما يشاهد قضية « رجعية ناشئة عن الخرافات المذهبية والجهل العام وانعدام الثقافة وعبادة القديم والجمود الفكرى ومحدودية الرؤية الكونية وعدم معرفة العالم المعاصر والبعد عن روح العصر وحتمية التاريخ » بين قرويى الجزائر ، انظروا إليه كيف يقوم بتحليلها ، وكيف يجاهد ليعلم جذورها التاريخية والاجتماعية والنفسية ، ويجدها ، ثم يحكم بعدها ، هو الذى كان طبيبا ومحللا نفسيا شابا من جزر الأنتيل فى أمريكا الجنوبية ، وكان يدرس للتخصص فى باريس ،

انضم إلى الشعب الجزائرى عندما بدأ ثورته ، وتجنس بالجنسية الجزائرية (تماما فى الوقت نفسه الذى أعلن فيه موريس توريز رئيس الحزب الشيوعى الفرنسى العريق الذى يضم عدة ملايين أن الجزائر ليست أمة ، إنها فى سبيلها لأن تكون أمة ، أى أمة فى حالة التكون » ١ » أى شهادة بالحرية للمستعمرين الرأسماليين والعسكريين آكلى البشر من أمثال الجنرال سالان وسوستيل وآرجو فى مايفعلون ، آرجو الذى كان يصيد السود فى غابات أفريقيا مع ولده ، ليتعلم ابن السيد الرماية وصيد الحيوانات ، وكان يكتب إلى زوجته فى باريس : أجل أحوالنا بخير ، كلنا بخير وسعداء ، أحوالى وأحوال كلبى ، وأحوال العرب تبعى) كان فانون قد صادف فى الجزائر حقيقة اجتماعية تشير إلى أن القرويين كانوا يبرزون حالة من الرعب تجاه كل ماكان ومن كان غريبا عنهم من نتيجتها حالة هروب إلى الداخل ، خاصة عندما يلتقون بوجه أو عنصر مجهول وجديد ، كانت فرق الصحة التى تذهب إلى الريف لتقوم بالتطعيم والتحصين والتطهير والعلاج ومكافحة الأمراض المعدية وتحسين مستوى الصحة فى البيئة تواجه بالخوف العام من الناس فى حين أنهم لم يكونوا يحملون شيئا إلا بعض الأقراص والمحاقن ، كان الناس ينظرون إليهم كذئاب آكلة للبشر ، وعندما كانوا يذهبون إلى البيوت ، كانوا يخفون أطفالهم عن موظفى الإحصاء أو الأطباء ، وكانوا يقدمون عن عمد معلومات خاطئة عن دوابهم وغنمهم وحدائقهم وأراضيهم ، بل وإجابة عن أسئلة عادية من قبيل العمر أو العمر عند الزواج أو وجود القرابة بين الزوجين أو انعدامها ، أو سعة الفناء وتعداد الحجرات ولوازم المطبخ ، كانوا يجاهدون فى سبيل إعطاء أرقام غير صحيحة ونقاط غير مرتبة وبعيدة . كانت المشكلة الملحة

---

(١) كلهم هناك نسخة واحدة ، لاتفرنك الأسماء والادعاءات ، وعندما يؤمنون بالعالمية فبشرط أن تكون أمتهم هى قلب الأمم ، هم الوطن الأم والآخرون أتباع ، إخوة صغار مرءوسون وأقمار صناعية تطوف بباب الحبيب وسقفه ، وإذا أراد واحد منها أن يدور فى فلك نفسه ، فينبغى طرده من الوجود بالتعاون والمعايشة السلمية مع القطب الآخر ، وفى هذا الربع الأخير من هذا القرن لدينا من التجارب فى هذا المجال بالقدر الكافى وزيادة تثبت أنه تحت هذه السماء لامنطلق لهم إلا أنفسهم ، وفى دين اليوم تستوى الكعبة ومعبد الأصنام ، وينبغى أن تقام الصلاة إلى قبلتهم فحسب .

عندهم هي كيف يقللون معرفتهم بهؤلاء بقدرالإمكان ، وكيف يخفون أنفسهم أكثر مما يستطيعون ، وكأنهم كانوا يرون أنفسهم وحياتهم طلسما لاينبغي أن تقع عليه عين لم يُؤْذَنْ لها ، بل لاينبغي عليه أن يلحقه هواء لاينبغي أن يفض وإلا بطل ، وفقد معناه وروحه وأثره واحترامه . مثل هذه الظواهر جربتها هذه الفرق في كل الدول الآسيوية ، فبمجرد دخولها القرية ، كان أكثر الناس أحيانا يصطحبون نساءهم وأطفالهم إلى الجبل أو إلى الصحراء ، وعندما كان البلاء ينصرف عنهم على خير كانوا يعودون مطمئنين إلى منازلهم وحياتهم ، وعندما كان يلزم أخذ بعض الدم اللا زم للتجارب الصحية ، فإن المصيبة تكون أشد وأنكى ، فلا أحد يشك بعد في « أنهم يريدون أيضا أخذ دمنا » وأكثرهم تفاؤلا وفهما كان يقول « لأنه يلزمهم في المستشفيات وفي الحرب لجنودهم الجرحى و .. ومن أجل أن يصنعوا منه شرابا وحقنا يشربونها ليقووا ، أو .. لا .. يشربونه كما هو ، إنهم يشربون دم البشر ، فلا خشية عندهم ولادين ، لايفهمون النجاسة والطهارة ، إنهم يشربونه أو يبيعونه ... الخ » ، أما أكثرهم تشاؤما فأولئك الذين لم يكن فكرهم يصل إلى هذه الأفكار الدقيقة ، فكانوا يقولون : « لا .. إن الهدف الوحيد عندهم هو ألا تكون هناك دماء تجرى في أبداننا ، إنهم يريدون امتصاص دمائنا ، ليس للتقوية أو الجراحة أو البيع أو هذا القبيل ، إنهم فقط يريدون شرب دمنا ، إنهم يتلذذون بهذا العمل ، يسكرون ، ربما يريدون أخذه معهم ليجروا عليه التجارب ليعلموا بأى دواء وبأى عمل يمكن أن يفقدونا رجولتنا ... لينقطع نسلنا ، وليختفى جنسنا من فوق الأرض ، أو يصنعوا أدوية تفقدنا الدين والشرف والرجولة ، أو يمسخونا دببة وخنازير وقردة ، حتى نصير خدما لهم ، ودوابا تحمل أثقالهم ، ولانفهم شيئا ، ولانمثل خطرا بالنسبة لهم أبدا ، ويستريح خاطرهم من ناحيتنا تماما ، ليستطيعوا فعل مايريدون بنا ، أو كل بلاء يريدونه بوطننا وبمالنا وأرواحنا وشرفنا ... ماذا تفهمون أنتم عن مقدار مالديهم من خبث وصفات ومشاريع ؟ كيف حدث أن صاروا هكذا فجأة جميعا شغوفين بالتفكير في شئوننا وأطفالنا ومالنا وحالنا فتركوا لهوهم ومتعتهم في المدينة وجاءوا إلينا فأخذوا يحجلون في هذه المناطق ؟ هؤلاء الذين قتلوا كل هؤلاء البشر ، كيف حدث أنهم فكروا في رؤية عما إذا كان ابن « كربلاء قربان » مصاب بالديدان أو أن « ننه رقية »

منزلها فيه براغيث وبق ؟ وهذا الحمام الذى انفقوا كل هذه النفقات وأقاموه من أجلنا لايخلو من حكمة ، إنه شيء ما ، ربما من أجل ألا يصح غسل أحد ، من أجل أن ندخله نجسين ونخرج أكثر نجاسة، بوجود هذا الحمام لانجاسة ولاطهارة بعد ، نكون دائما فى حيض أو جنابة ، فى حيض وبدون طهارة ، وبدون بركة ... مصيبة ... بالتدريج سوف يقولون: لاتوجد نفقات ، ليس من اللازم أن يذهب الرجال صباحا والنسوة عصرا ، فليذهب النساء والرجال والبنات والأولاد معا إلى الحمام ، مثل الأوربيين ، مثل العصريين ، فالاهتمام بالشرف والتعصب القروى هى الأمور التى أصابتنا بكل هذا التأخر ، أولئك الذين لايهتمون بهذا الكلام كيف أنهم طيبون وسعداء ؟ الرجال والنساء معا فى الحمام هذا هو ماقلته وسوف ترون أنهم لم يخربوا أحواض الحمامات القديمة بغير وعى ، ولم يقوموا بكل هذه الحيل من أجل لاشيء ، والا فأى ارتباط لحوض حمام قرية محمد آباد وراء الجبل بالفرنسيين والأمريكان والانجليز ؟

وعندما يضع مفكر «فعلك» هذا السلوك الاجتماعى أمامه يضحك فحسب بقهقهة فكرية ويهز رأسه هزة تدل على جهل هؤلاء الناس البدائيين المتأخرين فاقدى الإحساس ، وعلم هذا المتعلم المفكر العصرى المتحضر ، واذا كان إنسانيا فالإشفاق ، واذا كان جادا قليلا فى عمله وحساسا وملتزما بالأصول ، فرد الفعل هو : السب .
لكن فانون يعلم أنه لايوجد « سلوك اجتماعى » قط ، ولاتوجد « ظاهرة نفسية جماعية أو طبقية أو قومية » ولاتوجد عادة أو حساسية أو رد فعل مضاد فى مجتمع ما ، لاتوجد مثل هذه الأمور ليس لها جذور منطقية وأسباب اجتماعية وتاريخية ، وعلى كل حال فحتى الانحراف والمرض قضية علمية أيضا .

فالطفل الذى يقوم دون معرفة سابقة معك ، عندما تركن عربتك إلى جانب الطريق ، فيقوم بمشقة ومخاطرة وترتيب وتخطيط بخدش العربة أو بثقب إطار ، ويجعلك غاضبا ، تسميه طفلا سيء التربية شريرا وشقيا ، ورد الفعل الذى تبديه بالنسبة لعمله هذا هو أن تمسك به وتضربه ، وإن وفقت فى هذا فان الأمر ينتهى بإحساسك بالتوفيق . لماذا لاتطرح بينك وبين نفسك هذا اللغز

العجيب : لماذا بدر منه مثل هذا العمل الذى يدل على حقد ذى جذور فى أعماق هذا الطفل بالنسبة لك ؟ ليس بينك وبينه سابق معرفة ، لاهو رأى وجهك ، ولاسمع اسمك ، عداوة جدية منتقمة ضد شخص مجهول من أجل ماذا ولأى هدف ؟ إن هذه المسألة تصيبك بالغضب فحسب ، وبلا معنى يخرجك عمله عن طورك ... إن الصداقة والعداوة فى نهاية الأمر ليست بلا سبب ، إنك بالنسبة له لست شخصا غامضا ووهميا ، إنه يعرفك منذ بداية حياته ، بل ومعرفة وثيقة ، وحتى قبل أن يبدأ حياته ، إنه ورث الحقد عليك من أبيه وأمه وكل أهله وأجداده ، لست بالنسبة له شخصا غامضا ووهميا . إنك نفس هذا السيد « صاحب العربة » وأنت من أسرة « أصحاب العربات » المشهورة ، الأسرة التى كانت دائما تحتقره وتحتقر أسرته وتحتقر شخصيته وتحتقر حيثيته ولاتزال تفعل ، تبيع لها الهواء ، ولاتزال أنت وزوجتك وولدك تثيرون الغبار على أمه وأبيه ، إنهم دائما هم أولئك الذين ينبغى عليهم أن يتنحوا عن طريق عربتك حتى تمر ، لقد مصصت دماءهم جعلتهم أشقياء . وأبوه وأخوه وابن عمه ورفاقه ومعارفه جميعا كانوا يعملون تحت رئاسة أبيك وأخيك وابن عمك ورفاقك ومعارفك ، كانوا يشقون وبقوا جياعا ، وكانوا يسمعون السب والاحتقار والازدراء ولم تكن لديهم الجرأة قط للرد عليكم ، كانوا دائما فى خوف منكم ، فى المصنع والإدارة والسوق مصصتم دماءهم ، وهذه هى الفرصة الوحيدة التى استطاع فيها أن ينتقم لقليل مما فعلتوه به ، هذا العمل مظهر صغير لحقد قديم ذى جذور ، تراكم فوق بعضه منذ عهد قابيل وحتى الآن . وإذا قمت بتحليل القضية تحليلا منطقيا على هذا النحو ووجدت جذورها من الممكن ألا تغضب من شر هذا الطفل وإيذائه الذى لاسبب له ، ليس هذا فحسب ، بل وسوف ترق له لعجزه عن أخذ حقوقه .

هكذا كان فانون ينظر إلى سلوك هذا الشخص ، أى الى الضمير الاجتماعى لأمة ما ، والضمير الاجتماعى لأمة ما أو الشخصية القومية لقوم ما أو لمجتمع ما وليدة تاريخية كما أن حياة الفرد كتاب دون عبر حياة الفرد . هذا الفرار من الجديد والفرار من الأجنبى والانكماش داخل النفس ، والخوف من الظهور ومن أن يكون معروفا ، والإعراض واللجوء الى أكثر زواياه خفاء : إلى المنزل أو إلى داخل نفسه أو إلى التقاليد القديمة ، رد فعل منطقى وطبيعى وايجابى

لمجتمع أحس ويحس دائما أنه مجال لهجوم الأعداء والخطر والإغارة والجريمة والدليل على أن الجسد حى أنه عندما يتعرض لأذى ينكمش على نفسه ، هذا وهو نوع من ردود الأفعال فى مواجهة الخطر ، والدفاع والهروب من الخطر أمر إيجابى بنفس قدر الهجوم على العدو ومطاردته ، هذا السلوك الاجتماعى المتناقض الذى يبدو فى عيون أنصاف المفكرين العصريين تماما علامة على الرجعية والجهل والأمية وعبادة الخرافة ، هو فى عين المفكر الكامل نصف العصرى دليل على حياة القوام الاجتماعى ووجود القوة وإمكانية المقاومة ورد الفعل فى مواجهة الهجوم والخطر ، وفى النهاية هو ضمان للاستقلال المعنوى ، والثقافة والشخصية التاريخية،والوجود القويم لمجتمع جاهد الاستعمار الفرنسى القوى طيلة مائة وعشرين سنة،بقوته العلمية والاقتصادية وثقافته وحضارته، فى تحطيم أسسه وقواعده،وإلغاء وجوده وتذويبه فى قلب المجتمع الفرنسى .

ترى ماالسبب الذى أذهب سعى فرنسا الذكى والمتعدد الجوانب من أجل خلق جزائر فرنسية أدراج الرياح ؟ وفى هذا القرن الذى كانت فيه أوربا هى كل شىء وكانت أفريقيا والدول الإسلامية والعربية لاتعد شيئا قط ؟ السبب فى كلمة واحدة هو : التعصب ، هو الذى كان الاستعمار قد عرف للوهلة الأولى أنه مثل الحصن الحصين قد وقف فى مواجهة نفوذه ودخوله المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية ، ومثل برج شامخ وفولاذى وحصين كان يحرس قلعته ، وعلم الاستعمار أنه مادام هذا البرج قائما ، فسوف يظل خارج بوابات الشرق المتحضر،ذى الجذور كجنس نجس وجماعة مريبة وغريبة وخطرة ، ولايسمح له بالدخول لبسط فخاخه المختلفة وبدء عمله فى صناعة جيل وقتل ثقافة وتخلية البشر من أنفسهم والخلاصة القيام بعملية « صناعة المتشبه » الكريهة . كانوا لايتحدثون معه ولايستمعون إلى كلامه لكى يستطيع أن يجعلهم « مفكرين » ومن هنا ليس من قبيل المصادفة أن يكون أول مايقوم به هؤلاء المتشبهون بالأوربيين والمفكرين من أتباع الموجة الجديدة فى مجتمعاتنا الشرقية، هو « مقاومة التعصب » ، اقرءوا أناشيد المرحوم تقى زاده الحماسية وهو طليعة مفكرينا فى القرن الحالى ، اقرءوا كتب ميرزا ملكم خان الأرمنى ورسائله وهو رأس أسرة العصريين والنمط الأول الذى تقرر أن يصنع بقية المفكرين بمقاييسه .

لعبة العصرية :

وهذا هو السيد جمال الدين شيخنا القديم القروى ، وربيب قرية أسد آباد فى همدان ، يحس بالخطر قبل قادة آسيا وافريقيا التقدميين كلهم ، ويشم بأنفه ...

المحلى وشخصيته الأمية ، أية عاقبة سوف تكون من « لعبة العصرية » هذه ، وأن تحت هذا البريق الذى يخدع الحمقى، قد كمنت سحنة كريهة ومخيفة لاستعمار لايرحم ، للاستعمار الاقتصادى والسيطرة البورجوازية القذرة التى تحرق «قيصرية» من أجل منديل ، وأنه ينبغى أن تداس كل القوميات والمذاهب والتواريخ والأصالات والاستقلال والشخصيات والثقافات، فى آسيا وأفريقيا وتفنى حتى يستطيع أن يبيع بضائعه ، وحتى يستطيع أن يأخذ المادة الخام بالمجان أو يسرقها ولكى ينبغى أن يضحى بالبشرية فى معبد المال ، وأن الإنسان يعنى المستهلك ثم لاشىء ، ألستم ترون النساء والرجال العصريين الذين صنعوهم على هذا المنوال ؟ لم يعد الواحد منهم بعد « الحيوان الناطق » أو « الحيوان الذى يفكر » أو « الحيوان الذى يختار »، أو « الحيوان الذى يصنع الصور الذهنية »، أو « الحيوان الذى يخلق »، وكل التعريفات الأخرى التى وضعت من أجل الانسان لم تعد تصدق عليه ، إنه الإنسان الذى يشترى فحسب .

سيد جمال الدين هذا عندما يسمع أنهم « يريدون تأسيس بنك هنا » يحس برعدة تعتريه ، ويرسل إلى آية الله آغا ميرزا حسن الشيرزاى[1] (المفتى والفقيه البارز فى عصره خطابا (٢) ، وبعده بسنوات ، وبعد يقظة أفريقيا وتنوير أفريقيا والثورات المضادةللاستعمار العالمى وافتضاح حال الإمبريالية الاقتصادية فى

---

(١) المترجم : ميرزا محمد بن الحسن الشيرازى أو الميرزا الأول أو الأعظم « تمييزا له عن ميرزا محمد تقسى الحائرى الشيرازى الميرزا الثانى » ، مرجع التقليد الأعظم عند الشيعة الإثنى عشرية فى أواخر القرن الماضى ، وصاحب فتوى تحريم الطباق المشهورة التى تعد إرهاصا للحركة الدستورية . انظر الثورة الإيرانية للمترجم .

(٢) الناشر : هذا جزء من متن خطاب سيد جمال الدين إلى الميرزا الشيرازى وهو بالعربية : « بسم الله الرحمن الرحيم – حقا أقول: إن هذا الكتاب خطاب إلى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت وحيثما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة إلى نفوس زاكية تحققت بها وقامت بواجب شئونها كيفما نشأت وفى أى قطر نبغت أو وهم العلماء فأحببت عرضه على الكل وإن كان عنوانا خاصا . حبر الأمة ، بارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين واللسان الناطق عن الشرع المبين الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازى صان الله به حوزة الإسلام ورد كيد الزنادقة اللئام

الغرب ، يقول شاندل الشاعر الأفريقى المجاهد : « عندما طرد الجيش الفرنسى وأصحاب القدم السوداء من أفريقيا ، لم يغادر الاستعمار الفرنسى أفريقيا ، يمكن القول بأن الاستعمار الفرنسى ليس موجودا فى أفريقيا عندما يغادر بنك كريدى ليونيه هذه الأرض » .

وليس من قبيل المصادفة أيضا أن تكون الرسالة التى حددت لمفكرينا المصريين ، وكانوا يقومون بها بحماس وسرور زائدين فى مكافحة « الميل إلى التقاليد والدين والماضى والثقة فى النفس » ، كل هذه الأشياء كانوا يجعلون الناس يتجرعونها باسم العصرية والحضارة والتقدم والعلم المعاصر وعصر الصناعة ، ولكى يمهدوا الطرق لأصحاب الفتيا عندهم وشيوخهم ، ولأن برج التعصب وسوره صنعا من هذه المواد ، ومادام هذا البرج وهذا السور يحافظان على المدينة ، فلا يمكن أن تتحول المدينة إلى مدينة سوق حرة لمنتجات الرأسمالية الغربية . وهؤلاء الناس « القدماء المتدينون المخرفون » لايشترون البضائع الإفرنجية أصلا ، إنهم يلبسون ملابسهم ويأكلون غذاءهم وعندهم زينتهم الخاصة بهم ومنازلهم وأرواحهم وأفكارهم ، وتلك المرأة الأفريقية التى كانت تضع حلقات من عندها حول جيدها ، وتلبس حريرها وتصبغ ضفائرها

أيها الصدر الأعظم إن الملك قد وهنت مروءته فسلبت مريرته وضعفت مشاعره فقبحت سرائره ، وعجز عن سياسة البلاد وإدارة مصالح البلاد فجعل زمام الأمور كليها وجزئيها بيد زنديق أثيم غشوم بعد فلت زنبه . يسب الأنبياء فى المحاضر جهرا ولايذعن لشريعة الله أمرا ، ولايرى لرؤساء الدين وقرا ، يشتم العلماء ويقذف الأتقياء ويهين السادة الكرام ويعامل الوعاظ معاملة الطغام ، وأنه بعد رجوعه من البلاد الإفرنجية قد خلع العذار وتجاهر بشرب العقار وموالاة الكفار ومعاداة الأبرار ، هذه هى أفعاله الخاصة فى نفسه . ثم إنه باع الجزء الأعظم من البلاد الإيرانية ومنافعها لأعداء الدين : المعادن والسبل الموصلة إليها والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد والخانات التى تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التى تتشعب إلى جميع أركان المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول .... نهر الكارون والفنادق التى تنشأ على ضفتيه إلى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج ، والجادة من الأهواز إلى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول ... والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وسوق المستحفظين والحاصلين والبائعين أنى وجد وحيث نبت ، وحكر العنب للخمور وماتستلزمه من الحوانيت والمعامل ، والمنشآت وماتبعها مطلقا ، هو إعطاء زمام الأهالى كلية بيد عدو الإسلام واسترقاقه لهم واستملاكه إياهم وتسييدهم له بالرياسة والسلطان ، ثم إن الخائن البليد أراد أن يرضى العامة بواهى برهانه ، فحيق قائلا ان هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية لاتزيد مدتها أطول من مائة سنة . ناظم الاسلام كرمانى : مقدمة تاريخ بيدارى إيرانيان . بنياد فرهن إيران ص (٨٩ - ٩٠) ، والخطاب كله ص (٨٨ - ٩٢) .

بالصمغ والحناء والسدر والألوان المستخرجة من غاباتها ، وتعيش في منزل من صنع نفسها ، وذلك الرجل الآسيوى الذى يفاخر بجواده وحديقته وقصعة ، ويستند على تاريخه وأجداده وشخصياته القومية وقيمه الثقافية وقوته وعظمته ودينه وتقاليده ، كل واحد من هؤلاء لن يدفع مليما للتاجر الأوربى يتوق للعصرية ، وينبغى أن يصير ذوقه عصريا حتى يصير مستهلكا لرأسمالى العصر . ينبغى إلغاء دينه وتقاليده ، وأن تحل الإنسانية والعالمية الثقافية ووضوح الرؤية والرؤية الكونية محل التعصب القومى عنده ، وذلك حتى يصير عجينة لينة فى أيدى الثقافة الاستعمارية الماهرة ويستأنس ، حتى تحوله إلى أى شكل تريده وأى شكل يهمها .

ميرزا الشيرازى هذا الشيخ القديم الذى كان يخاف من اسم الشركة ، و « عبد القادر الجزائرى » ذاك الذى كان يفر من الشعر الأشقر والعيون الزرقاء ، وأمثالها من أولئك الذين لم يروا الدنيا ويفرون من البشر ، هم وسائل المتاعب وهم المتاريس والموانع العنيدة والمتعصبة فى طريق الاستعمار ، الذى كان قد قرر المجىء ليجتث كل شىء من جذوره ، وينبغى إذن صناعة المتشبه والعصرى لكى يقوما بتمهيد الطريق ، وإزالة الموانع وإيجاد التفهم والتشابه بين الناس الذين يفرون من الأجنبى ومن الثقافة الأجنبية ، ويكونون أدلاء وتراجمة لهذا القادم حديثا بين المحليين ، دلالين للظلمة ، عملاء هواة لهم .

يقول شاندل : لم يكن المحليون الأفريقيون يرتدون ملابس ، ولايستطيع الاستعمار الاقتصادى أن يغير أذواقهم بالطرق المتداولة حتى يلقوا بقماشهم المحلى عن أجسادهم فجأة ويشتروا القماش الأجنبى ، إذن : ينبغى أن تأتى الكنيسة فى البداية وتجعلهم يؤمنون بدين الله والإنجيل السماوى ولكى تهديهم سواء السبيل ، ولكى يفهموا معنى العفة والشرف والخجل والحياء ويصيروا متحضرين لابد لهم من ارتداء الملابس ، وكل هذا من أجل دخول منسوجات لانكشير ومانشستر إلى أفريقيا .

والأجهزة الإنتاجية الرأسمالية مجهزة بأعظم المعدات العلمية والنفسية، والتى يقوم بها علم الاجتماع ، وليس بالأمر السهل أننا نرى أحيانا أمة ماتنسى مشروباتها العادية التى تعودت عليها عدة قرون فى بضع أيام ، وفجأة يتغير ذوقها

حقيق الكوكاكولا والبيبسي كولا ، ومنذ تاريخ محدد لايعود ذوقها بعد يستسيغ الأبدوغ « اللبن الخثير المحض » أو عصير الليمون أو عصير الفواكه .

في سنة (١٩٦٢) كنت طالبا في قسم « علوم الاجتماع » وكان قد نشر إعلان في لوحة الإعلانات من قبل شركة « رينو » يطلب المتخرجين أو طلاب السنوات النهائية من قسمي الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي للعمل . ودهشت : ماذا يريد مصنع سيارات من عالم اجتماع أن يعمل ؟ وذهبت ، فإن كان هناك عمل ظفرت به عوضا من منحتي التي كانت قد قطعت ، وإن لم يكن على الأقل أفهم السر في علم الاجتماع وعلاقته بسيارات رينو ، والحكاية طويلة . وحدد يوم ألتقي فيه مع « رئيس إدارة العلاقات العامة » في الشركة وأتحدث معه . وتخيلت بيني وبين نفسي غنيا فاقد الشعور متفخا ، قياسا على نفس هذه الأصناف التي يعطيها مالها وأجهزتها الحق في أن تجلس معنا نحن المفكرين وتتحدث ، وأخذت أقول لنفسي : ماالذي لدى صاحب المصنع الأمي يقوله للعلماء ؟ لاشك أنها أحاديث عامة وإرشادات إدارية وعقد عمل وأجر وشروط ، وذهبت . ورأيت ذلك البرفسير الذي كنا نحن الطلبة نقرأ كتبه في علم الاجتماع الدعائي، وعلم النفس الخاص بالاذاعة والسينما والتلفزيون ، وكنا نمتحن فيها ، وكانوا يقولون أنه للأسف قد تقاعد منذ سنوات وترك الجامعة ، وكنت آمل في زيارة قبره إن كان قد مات ، أو إن كان حيا وساعد الحظ أذهب إلى خلوته العلمية وأقطف عنقودا من كرم علمه ، رأيته الآن قد توظف رئيساً لإدارة العلاقات العامة والشئون الاجتماعية في شركة رينو من أجل إرشادنا وتوظيفنا . (١)

ووضح استاذ الجامعة السابق وموظف الرأسمالية الحالي لـ « اللحوم الطرية للرأسمالية الغربية » ماهو موضع استخدام علم الاجتماع في النظام الليبرالي والديموقراطي .والعلمي والعالمية ومبدئية التقدم والحضارة وقرون التنوير والحرية والحقوق الفردية الإنسانية والواقعية وغيرها ، وكلها أطفال هذه

---

(١) هذه هي الإسكولاسية الجديدة في العلم ، كان العلم في القرون الوسطى في خدمة الكنيسة ، والآن أصبح في خدمة المصنع ، والبقية على نفس النسق من أجل « الاستعمار الجديد »وهو البنية التحتية للاستعمار الجديد .

البورجوازية الداعرة والنسوة اللاتى تنفق عليهن : بسط خريطة العالم أمامنا لونت عليها دول العالم بقدرمعدل بيع سيارات رينو المختلفة فيها [1] ، ثم سأل عن جنسياتنا ، واكتشف دولنا من « لون رينو » الخاص بها على الخريطة ، وأدركنا أن عملنا كعلماء اجتماع ، ليس هو معرفة الإنسان ، بل بيع سيارات رينو وهذا فى المجتمع الذى نعتبره علميا ، وأن عملنا هو اكتشاف السبب الاجتماعى العلمى فى عدم إقبال الناس على منتجات هذا المصنع . هذا الأمر الذى يبدو بسيطا فى ظاهره ذو اتصال وثيق فى الحقيقة بأسباب تاريخية وتقليدية ودينية وثقافية وفنية وجمالية ، ومرتبط بشكل الحياة الفردية والاجتماعية والمعمار وبناء المدن وأيضا بأمور سياسية واقتصادية ، وبعد هذه المكاشفة العلمية التى تحدث على أساس العلمنة ومبدأ « العلم من أجل العلم » ندخل فى المنزل الثانوى والجبرى لهذا السير والسلوك العلمى وهو « القضاء على الموانع وإيجاد جو موافق » فى المجتمع ، أى تغيير الذوق العام وترويج « الموضة الجديدة » ، وهذا يستلزم أعمالا علمية وفنية فى كافة المجالات التى سبق ذكرها .

وكمثال ، وكواحد من الخطوات الموفقة فى هذا السبيل ، نعرض خطة ومشروعا قدمهما واحد من نفس فصيلة عالمنا سالف الذكر . فقد أشار الى دولة أفريقية لم تكن وجد فيها سيارة من أى نوع حتى سنة (١٩٥٠) اللهم إلا فى العاصمة وتخص عددا من المستعمرين السياسيين والاقتصاديين الفرنسيين وعددا من الأجانب المقيمين فى العاصمة ، وفى سنة (١٩٦١) أى بعد أحد عشر عاما،كانت نفس هذه الدولة الوليدة التى كان الاستعمار أخيرا قد منحها الاستقلال والنظام الجمهورى الديموقراطى التقدمى،والعلم والنشيد القومى وغيرها لاتزال تدل على أنه دولة جبلية مغطاة بالغابات تعيش فيها بضع قبائل بدائية مبعثرة ، ولم يكن فيها بعد مدينة أو شبكة طرق معبدة أو محطة بنزين ، وفى نقطة من هذه المنطقة النائية،وفى سفح جبل كان الباحث يشير إلى قرية تحتوى على عدد من البيوت الريفية حولها بعض الخيام المسكونة ووسطها منزل أو منزلان متميزان لشيوخ القبيلة . و « النقطة الداخلية » فى هذا الفيلم

---

(١) نموذج للرؤية الكونية عند البورجوازية الصناعية ، والعين التى ينظرون بها إلى الدنيا وأهل الدنيا .

التسجيلى ، الذى كان قد أعد بإخراج عالم الاجتماع ، أن شيخى هذه القبيلة فى تلك الأرض النائية ، قاما على سبيل التفاخر وابداء الرفاهية ، وبدلا من الكلاب والخيل ، بـ « ربط » سيارة رينو فاخرة آخر موديل بأطراف ذهبية وفرش داخلى خيالى بباب المنزل .

ومعجزة عالم الاجتماع المرتبط بالمصنع أن جعل من هذين السيدين الأميين البدائيين صاحبى القطعان اللذين كانا بالأمس يتمتعان بجمال جواديهما وسرعتهما وذكاء كلبيهما ، جعل هذين السيدين القبليين اللذين كانا يتنافسان حول جواديهما وعظم قطيعيهما واتساع أراضيهما وعمران مزرعتيهما وبطولة أجدادهما ، وكانا يتفاخران بها ، صيرهما اليوم « عصريين » بحيث يتلذذان من طراز السيارة الرينو ، ويتنافسان حول موديلها ، ووجدا ذوقا فرنسيا وجماليات فرنسية ، أليس هذا فى حد ذاته دليلا على التقدم والحضارة والخروج من عبادة القديم وحالة التصف بدائية ؟ لاشك أن هذا السيد نفسه راض تماما عن نفسه وإقباله وتقدم أوضاع ولايته وأحوالها .

إن السيد الشيخ « مدقق » كثر الله فى أمثاله ومتع المسلمين بطول بقائه وهو من أجلة أهل المنبر ، كان يخطب فينا ذات يوم فى مشهد قائلا : « أيها الناس ، قدروا حياتكم حق قدرها ، وقوموا بهذه النعمة التى حباكم بها الله تعالى بحق شكرها ، فقد أعزكم ببركة دينكم وإيمانكم من بين كل الأمم ، وجعلكم أمة مرحومة ، وأخذ الأوربيين بذنب شركهم ونكبة كفرهم فسخرهم سبحانه وتعالى فى العمل فى أعماق ابار النفط ومناجم الفحم والنحاس والحديد والرصاص وغيره ، وجعل عملهم هذا قرينا للموت الأسود» والموت تحت الأنقاض والتراب» أو العمل فى المصانع بين الزيوت والدخان والشقاء ليكدحوا ويصنعوا السيارات ويلفونها فى الأوراق ويرسلونها إلى هنا ، فنأخذها ببركة الدين والأئمة الأطهار وندفع ثمنها ونسترخى فيها» دون أدنى تعب ونستفيد من كدحهم ونحن مستريحون
ودعوت من قلبى : إلهى ، اجعل لنا أيضاً يوما نؤخذ فيها بذنب كفرنا ، ويذوقوا هم قليلا من طعم بركة دين مولانا المدقق وإيمانه .

ينبغى إذن أن يصير هذا اللغز مفهوما وهو : كيف يقوم الاستعمار بتحويل صيده - أى أولئك الذين يريد أن يجعلهم مستهلكين مستأنسين متقبلين لأوامره

كيف يقوم بتحويلهم إلى متشبهين، لقد قدم جان بول سارتر معادلة هذه التركيبة في المقدمة التي كتبها لكتاب فرانز فانون « الملعونين في الأرض » ، وفي المحاضرة التي ألقاها بدعوة من جمعية طلاب شمال أفريقيا المسلمين في قاعة مطعم المسلمين في شارع سان ميشيل في باريس .[1]

الاستعمار والمتشبهون :

إن من يسمون في المصطلح الأوربي Assimele وفي تعبير الرسول ﷺ وآله وسلم « بالمتشبهين » على نمطين : أحدهما النمط العامي والآخر النمط الخاص . وأقصد بالنمط العامي أمثال الحاج « مم تبوز » الذي كان بالأمس يعمل في « حجرة » [2] في دار أدنى السويقة ، حجرة رطبة حال لونها وتساقط دهانها ذات منضدة مخلخلة يجلس إليها ، وهو ذو مظاهر وعلامات تدل على الايمان والشعور مثل : الرأس الحليقة ، والسترة المكرمشة من النوع الأصفهاني المعروف بالترمة ، ولبادة طويلة يلبسها الفصول الأربعة ، وفناء داخلي وفناء خارجي ، وتكة سروال مدلاة دائما ، وزوج من الأحذية أو الأحذية القماشية دون جورب ، ومسبحة ذات مائة حبة بين أصابعه المحناة ، ولحية كثة مصبوغة بمختلف الألوان ، واستسلام تام لأحد « الملات » المعروفين كمرجع للفتيا ومنشد للروضة في المنزل ومعارف شاملة وعميقة إسلامية بشأن الطهارة والنجاسة وأنواع الثواب المتعلقة بأنواع « الرياض » والدعاء وتعزية آل البيت والأحكام المتعلقة بالشكيات والسهويات ، والأحكام الفقهية المتعلقة بنظام تبديل الربا إلى « شرط بيع شرعي » أي تحويل الربح والسحت إلى معاملة دينية وتطبيقها على المعايير الإسلامية ، والمعارف الدينية الأخرى من قبيل « إبراء الذمة الشكلي » و « المصالحة » وماإليها ، ومن علاماته أيضا : مرتب ستين تومانا تعطى لكاتب معين كل شهر وهو في خدمة « الحاج » منذ ثلاثين عاما ، وآلاف التومانات من أجل « ترميم مسجد الحي » أو « المسجد العروف في المدينة » الذي يبنى بهمة « السيد الشيخ الأكبر » والوليمة الفخمة في ليلة من

---

(١) المترجم : أورد الناشر مقتطفات من أقوال سارتر في هذا الموضوع ، ووردت بشكل موسع في « المفكر ومسئوليته في المجتمع » لشريعتي والذي ترجمته إلى العربية .

(٢) المترجم : المقصود بالحجرة المكتب الذي كان التجار والقدماء يديرون منه أعمالهم

ليالى رمضان لأهل العلم وليلة أخرى لأهل الإدارة وليلة ثالثة لأهل السوق ، والرحلة عاما إلى كربلاء وعاما إلى مكة ، ثم زوجته الملقبة بـ « الحاجة الهانم » بملاءتها ذات الإطارين ، وجوربها الذى يظهر البدن المنخر للتغيير مع الجورب الأسود والجلاجل والأقراط والكردان والعقد والأساور المتنوعة ، واجتماع إنشاد الروضة الأسبوعى ، وسفرة (ابو الفضل)[1] ، والمجالس الدينية الخاصة بالاغتياب والدعاء والنذور والسحر والشبشبة وقراءة الكف والطالع وفك العكوس والأعمال والعقد ... ثم ابنته أيضا ... ماذا أقول ؟ كلكم تعلمون ..

أنتم تعرفون هذه الأسرة التى كانت تسكن فى حارة خلف الحمام، وفى منزل أجدادها - ذلك المنزل الملىء بالبضائع التى يأتون بها كل عام من الحج وعدة مجلدات من الأوراق (٢) ومصحف قرآن وسبعة أنواع من كتاب مفاتيح الجنان، وديوان حافظ وثلاث نسخ من الرسالة العملية. نفس هذا السيد الحاج المحترم المتدين الذى تظن أن روحه معلقة بإبريق الطهارة والذى ظل عشرين سنة بالتمام والكمال فى « الفورمة » ، تراه اليوم قد باع منزله وبنى فيلا فخمة فوق تلال شميران ، وأثناء رحلته الأخيرة إلى أمريكا اعجب بحوض الماء الدافىء الذى رآه فى قصر أحد الفنانين أو ملوك النفط أو المطاط أو الفولاذ بحيث بحث عن المهندس الذى صممه، ووجده وقاوله على بناء مثله تحت عمارته ، وجهز قاعة الاستقبال عنده بأفخر الأثاث من طراز لويس السادس عشر وستائر من الطراز الإيطالى وديكور على الطراز الفرنسى ، وغير نفسه من قمة الرأس إلى أخمص القدم وذهب لعدة شهور إلى فصول جمعية إيران وأمريكا ، وسافر عدة مرات إلى الخارج ، وبدلا من الآيات التى كان ينطقها مكسرة والروايات والأدعية والأمثال ، يستعمل الآن المصطلحات والتعبيرات الأجنبية كيفما اتفق وبلكنة أمريكية مضحكة ، وصار هو نفسه كما صار منزله معرضا دوليا لبضائع عالم اليوم وحركاته . وزوجته أيضا تلك التى نسيت المفاتيح

---

(١) نوع من الأطعمة النذرية الشعبية يطبخ فى مناسبات معينة وبطرق معينة ويوزع بطقوس معينة . المترجم . (٢) المترجم : المقصود هنا الكتب التقليدية للمذهب الشيعى، والتى كتبت فى العصر الصفوى ، أما الرسائل العملية أو العملية فهى رسائل فقهية حول أمور الطهارة والعبادات .

وكتب الزيارة (١) وسفرة حضرة عباس ورحلة كربلاء . بينها وبين ابنتها منافسة غير معلنة لكنها صريحة فى الملبس والزينة العصرية . وبدلا من فقيه الحى ومنشد الروضة الخاص بالمنزل ، صار عبد الرحمن فرامرزى وكل الأعضاء الذكور والإناث من أسرة « مسعودى » (٢) وكواكب من أمثال مجيد دوامى ومنوجهر مطيعى وغيرهم « مراجع التقليد » واجبى الطاعة عندهم ، وأوقات الفراغ التى كانوا يقضونها بالأمس فى قراءة « الجوشن الكبير » أصبحوا الآن يقضونها فى حل جداول الكلمات المتقطعة « مع شخصيات مثلة موصى عليها » ، وبدلا من إنشاد مجالس الروضة فى ليالى الجمع ، أصبحوا الآن يتناولون الفيض من المجلس العميق والمؤثر « سهرة الجمعة » التى يقدمها السيد فريدون فرخزاد فى التلفزيون القومى ، وينتفعون من بياناته الخاصة وهو شاب ذو شارب جميل « ويموت من الضحك » وهو أيضا شقيق فروغ فرخزاد (٣) وقضى عدة سنوات فى ألمانيا ، وحركاته وسكناته فيها « سكسية » ومن هنا فهو مجال انتفاع الرجال والنساء العصريين اليوم . وخلافا لعهد جاهليتهم حيث كانوا يقضون ثلاث ساعات الى جوار سوق « سبزه ميدان » ويقومون بنزهة جماعية أصبحوا الآن عندما أدركوا روح الحضارة ونجحوا فى تكييف أنفسهم مع « حتمية العصر » ، أصبح هو والهانم والكريمة وبعد بضع ساعات من الصراع مع آلات الزينة عند الكوافير وفى المنزل يقضونها استعدادا ، يهرعون إلى مطار مهر آباد، ومنذ الثالثة قبل منتصف الليل وحتى الثالثة بعد منتصف الليل يقفون بين جماعة صنعها صناع الإنسان المرتبطون بأدوات الإنتاج ، ومع كل أزيز طائرة يطلقون صرخات الشوق من أكبارهم صرخات تدل على عشقهم الشديد للفن انتظاراً لمجيء المومس فلانه زوجة أحد أعضاء الفريق المعروف « ساتولد » إذ آن مجلات « روشنفكر » و « رن روز » أو « زن شب : امرأة الليل » و « اطلاعات مخصوص براى بانوان مخصوص » قد نشرت منذ عدة شهور أن الشخصية المذكورة عاليه التى سوف

(١) المقصود مفاتيح الجنان وهو مجموعة من الأدعية ، وكتب الزيارة هى الكتيبات التى توزع على زوار المزارات المقدسة فى إيران وتحتوى على بعض الأدعية . المترجم .

(٢) يقصد مسعودى مؤسس دار اطلاعات . المترجم .

(٣) المترجم : شاعرة إيرانية مجيدة يتميز شعرها بالجرأة الشديدة فى تناول كافة الموضوعات ولها شعر اجتماعى وسياسى . توفيت فى حادثة سيارة سنة ١٩٦٦ .

تساهر من نلمك نى المشرق الأقصى سوف تتوقف تصف سنعة فى طريقها فى طهران ، وهيأت الأرصية لتكريم الفن والفلتين[١] وأرسلت هؤلاء «افسح نرعاع » للاستعمر الجديد إلى هذا المكان كالخراف . تماما مثلما كان المهاجمون بالأمس يرسمون هؤلاء أنفسهم إلى « بيت الأحزان » ، وهناك يبتزونهم أو يأخذون أموالهم بالخداع ، هذا باسم تجليل الشعائر الدينية (٢) وذاك باسم المفاخر الفنية

وكما ذكرت أن وجود هؤلاء « المتشبهين الاستهلاكيين » مأساة ، لكنها مضحكة أكثر مما هي مؤلمة . هم يستهلكون فقط ، شبه بشر ليست لديهم القدرة على التمييز والحسم والاختيار وتحليل الأمور . إنهم مقلدون فحسب ، بالأمس مقلدو آية الله ، واليوم مقلدو الفنان أو النجم ، تحدد أنماطهم النفسية والاجتماعية والإنسانية مجلة « ماجو » وتحدد « رسالة علمية » (٣) مسير حياتهم . هؤلاء هم الذين كانوا بالأمس يدقون الصدور من أجل دين لم يكونوا يعرفونه ، واليوم يفعلون نفس الشيء من أجل حضارة لايعرفون ماذا تعني . على كل حال : إذا فرضنا أن المجتمع شخصية واعية أو إنسان أعلى فهؤلاء هم أعضاء جسده ، ميتة المجتمع ، رؤيتهم الكونية ومسرح صراعاتهم الاجتماعية والفكرية حول الحجاب أو « الميني جوب » وحول موضة السيارة

---

(١) المترجم : صناعة النجوم المزيفة التي لأخطر منها باب كبير من أبواب « نزع التسييس » من الجماهير وصرف أنظارها عما يجري في الخفاء على أيدي الاستعمار والاستحمار والديكتاتورية ، ولهذا الباب من أبواب الاستحمار خبراء وعلماء وقائمون بالأمر ومن مظاهره : إحلال الصحفيين أنصاف المتعلمين والجهلة محل مفكري الأمس وعزل الجامعة واحتقار أساتذتها وشغلهم دائما بلقمة العيش ، ونشر الهوس الرياضي والتعصب لكرة القدم ملأ لأي وقت يمكن أن يفكر المرء فيه في أحواله أو في السيامة ، وترويج البغايا والقوادين والراقصات ونشر الانحلال الجنسي باسم تشجيع الفن وهؤلاء لهم المال والشهرة ، وفي حالة المرض العلاج في الخارج على حساب الدولة ، وفي الحقل شبه الثقافي : افتعال « المعارك الثقافية » حول موضوعات مجردة وذهنية ولاتتصل بالجماهير ، ثم عمليات الاحتواء لأشباه المثقفين وإغرائهم بالمناصب والنجومية و « صفحة في جريدة » ، والتغاضي عن الأمية المستشرية ، ورفع سعر الكتاب ، والاحتكار الإعلامي ، وقصر وسائل الإعلام على الترويج للفرد ، وخلق أصنام من البشر ... وهلم جرا مما يضيق المجال عن ذكره فهو في حاجة إلى مجلد خاص

(٢) اشارة الى بعض مايجرى في الاحتفالات الدينية . المترجم .

(٣) المترجم : المقصود – سخرية – بعض الرسائل الشعبية التي كانت تكتب في الفقه الشيعي .

وحوت ديكورات المنزل وأثاثه ، وطراز العمارة ، وموديل الملابس ، والزينة والحركات والأطوار المقلدة المتجددة فى كيفية الأكل أو النزهة أو الهوايات الرائجة أو العادات والتقاليد السطحية البلهاء . نوع من الحرب بين المنحرف وخليع العذار كما نراها وكما نقرأ عنها ، وتتم طريقة تبديل الأنماط القديمة إلى جديدة بسرعة البرق وظاهريا ، وعلى مستوى الاستهلاك والزينة وشكل الحياة اليومية ، بتوجيه من مجلة « زن روز » يأخذون امرأة ما إلى مؤسسة كريستيان ديور ، وبعد بضع ساعات يخرجونها امرأة أوربية من قمة الرأس الى أخمص القدم ، على أى موديل أو طراز يوصون به : إيطالى أو فرنسى أو إنجليزى أو مخلوط ، هذا التحديث السريع والرقى المدهش لايريد أكثر من شرطين : أولهما عدم وجود شعور وشخصية ، وثانيهما : وجود المال والإمكانيات .

ويمكن بنفس هذه السرعة ونفس هذا الأسلوب القيام بتحديث دولة ، أى الانتقال بها من الحالة الكلاسية إلى الحالة العصرية ، فالعصرية سلعة تصدر بالنسبة لدولة كانت منذ عشر سنوات تستخدم الهودج والجمل والعربات التى تجرها الخيول والتى كانت تحتوى على مدن من طراز العصور الوسطى ومنازل قديمة ... يكفى أن تفتح الأبواب ، وبعد عشر سنوات ترى ناطحات السحاب والقصور الفخمة والعمائر والمطاعم والمقاهى والمحلات الفخمة والبشر الأكثر فخامة ... ونرى المدينة مخزنا دوليا للسيارات ومعرضا عالميا للسيارات من آخر موديل وأجهزة الراديو والتليفزيون والبلاجات ومؤسسات الزينة الحديثة والنوادى الفنية وصالات الرقص على المستوى العالمى والتى ليس لها نظير « فى الشرق الأوسط كله » .

هذا التحديث وهذه العصرية هى التى قدموها لنا نحن البشر البسطاء المظلومين باسم الحضارة ، أى أنهم نقلوا عقولنا إلى عيوننا . فى حين أن الحضارة مرحلة سامية من النضج الثقافى والمعنوى فى المجتمع وتربية الروح الفردية الإنسانية وتهذيبها والتسامى بها . ومن أجل تحويل نصف بدائى إلى عصرى تماما يكفى كما قلت عدة ساعات حسب الخطة وإنفاق الأموال دون بخل ، أما من أجل تحويله إلى « متحضر » فهذا يحتاج الى أيديولوجية وخطط ومشروعات وعمل

وتضحية وتحمل وصبر وألم ورياضة ، وتغيير فى الأصول والمبادىء الاجتماعية ، وثورة فكرية وعقائدية ، وتغيير للقيم والمبادىء والوصول إلى رؤية كونية منفتحة ومتطورة ، أو فى كلمة واحدة تحتاج إلى : ثورة أيديولوجية .

أعراب الحيرة وهم متشبهو إيران المتحضرة ، وأعراب غسان وهم متشبهو الروم الشرقية بالرغم من أنهم كانوا يقلدون متحضرى ذلك العصر فى الملبس والطعام والحياة والعمارة والرسوم ، بل وأقاموا قصرى الخورنق والسدير تقليدا للبلاطات الساسانية المشهورة ، لم يصيروا متحضرين قط ، فى حين أنهم كانوا بلا شك عربا متجددين راقين ، وكانوا على نصيب من التقدم المذهل فى حياة ذلك العصر بالنسبة لأعراب البادية بل وقريش ومكة وثقيف والطائف والأوس والخزرج فى المدينة وقبائل هوازن وغفار الذين كانوا يشربون لبن الإبل ويأكلون الضب . لكن الحضارة مقولة أخرى ولايمكن أن توجد فى الاستهلاك والمظهر والكماليات بل توجد فى الرؤية والفكر والرؤية الكونية،ودرجة التهذيب،وعمق الاحساس والعلاقات الانسانية والأخلاقية و « نظام القيم »،وقوة الثقافة وغناها والدين والفن والاستعداد للخلق والتحليل والاختيار والاقتباس . إن العصرية عن طريق التقليد تتحقق بسرعة ، لكن الحضارة على عكسها تماما ، نوع من « الفوران الداخلى » والتحرر من التقليد والوصول إلى حدود « الخلاقية » والتميز المستقل . فالعربى فى الحيرة والعربى فى غسان لاهوبدوى ولا هو عربى متحضر ، هو متشبه ، عصرى ، ذاك مقلد لكسرى وهذا مقلد لقيصر . لكننا فى الحركة الفكرية والأيديولوجية الإسلامية نرى عربيا نصف بدائى وبدويا يسمى جندب بن جنادة من قبيلة من البدو الرحل قاطعة للطريق ، كانت كل دنياه عبارة عن صنمه ونفسه والقبائل المحيطة به ، كانت كل بيئته عبارة عن عدة مراعٍ تحيط به تتصل من كل نواحيها بالأفق الذى يمثل نهاية عالم الوجود ، وكانت الحياة بالنسبة له عبارة عن حرب وإغارة وانتقام من القبائل المجاورة الضعيفة ، نرى هذا العربى بعد قليل قد تحول إلى أبى ذر الغفارى ، وهو بالرغم من كل الطريق الذى قطعه بين كونه جندب وكونه أبا ذر الغفارى ، لايزال بعيره كما هو وملبسه وطعامه وزينته كما هى . لم يصر عصريا ولم يتغير استهلاكه ، لم يجعل نفسه شبيها بأحد . إن التحضر يعنى ثورة فى الفكر ووعيا

وتميزا ورؤية كونية وتحليلا للحياة والمجتمع والدنيا وتقييما لها ، وتتضح من السلوك الاجتماعى والتكتل السياسى والحياة الفردية فى المجتمع .

ماذا حدث لعربى بدوى أمى رحالة فى القرن السابع الميلادى فى شبه الجزيرة المجهولة التابعة لبلاد العرب ، بحيث أصبح عندما يتحدث تحسبه برودين أو ديستيوفسكى ، وتظنه مفكرا مستنيرا ثوريا عالما فى الاجتماع والاقتصاد وعلم الإنسان ترك ثورة فرنسا الكبرى وراء ظهره ، وعلم قضايا الاستغلال والبورجوازية ونهب فائض القيمة والتفرقة العنصرية ، وعرف المفكرين البورجوازيين والقادة الثوريين ، وخبر ثقافة غنية اشتراكية ، وحضر النضال السياسى والأيديولوجى الطبقى منذ القرن الثامن عشر ثم منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن ، ويعلم قضية الفرد والمسئولية العامة الاجتماعية كما يعرفها ديستيوفسكى ويحللها ، تحسبه كل ذلك عندما تسمع قوله :

« عجبت لمن لم يجد قوتا فى بيته كيف لايخرج على الناس شاهرا سيفه » الحضارة ثورة تدريجية فى الإنسان ، لاهى سلعة ولامجموعة من السلع المستوردة ، ليست شكلا خاصا أو لونا خاصا ، إنها جوهر وحقيقة متسامية . وأولئك الذين يريدون إقامة حضارة فى دولهم عن طريق استيراد مواد الحضارة الأوربية مثل الكهرباء والأسفالت والسيارة والمأكل والعمارة ، لاشك أنهم سوف يصلون فى ظرف عدة سنوات إلى نجاح ملفت للنظر ، لكنه ملفت « للنظر » فحسب ، لقد فعلوا تماما مافعله نواطير مهرة لكنهم حمقى ، إذ يشترون أشجارا خضراء مثمرة « من الخارج » ويغرسونها « كما هى » فى أراضيهم البور التى لا استعداد فيها ، وكلهم نظر الهذه القفزة الخارقة للعادة والمعجزة للتقدم والنجاح فى دهشة ، ولسان حالهم يقول : انظروا إلى تلك الأرض التى كانت بورا كيف صارت خلال عدة أيام حديقة نضرة بل ومثمرة ، إنها أكثر جمالا من حدائق أوربا ، لانظير لها فى الشرق الأوسط وبعد أربعة أيام تجف الشجرة التى لاجذور لها ولا ماء ولاتربة . لايهم ، هناك مندوب يشترى أشجارا أخرى ، نشترى ونغرس ، ويكون عندنا على الدوام أشجار جديدة ومثمرة ، أجل ، لكن ينبغى أن نشترى الأشجار منهم دائما .

الحضارة تعنى حراثة الأرض وتسميدها ومدها بالمياه ثم بذر البذور ورعايتها وتطعيم النبات ومقاومة الآفات ... ثم يأتى النمو . لاجدال أن الشجرة التى تنمو على هذا المنوال تستغرق ثلاث سنوات أو أربع ، وتحتاج إلى كدح وعمل متواصل وصبر وإرادة وذكاء واستعداد ، لكن السبيل الوحيد هو هذا ، إن طريقة السيد مدقق سابق الذكر أى الحضارة المستوردة الاستهلاكية ، ليست حضارة ، لكنها سوق .

إن مايجعل الأرض فى رأيى صالحة للانبات هو : الأيديولوجية . رؤية كونية متحركة وأهداف مشتركة أو مايعبر عنه بكلمة واحدة بالإيمان ، وهو مايوجد حركة وقدر ووسائل ووحدة فى المجتمع ، فثقافة الهند الروحية العميقة والمسيحية والحضارة الإسلامية والحضارة والأوربية الحديثة ، كل واحدة منها كانت وليدة حركة فكرية وقومية ودينية . لماذا ينضج النبوغ الفلسفى والعلمى والفنى فى إيران بعد الإسلام وفى خلال قرنين أو ثلاثة بالرغم من أنها مرحلة هزيمة سياسية وعسكرية وقومية ، وتدون دوائر معارف من لدن شخصيات إيرانية عظيمة فى كل فروع الفكر والإحساس والآداب والفنون والصناعات البشرية ، ويسيطر الفكر الإيرانى فى الثقافة والعلوم الإسلامية على كل الأمم المتحضرة فى عالم ذلك العصر من أسبانيا حتى الصين وحتى أوربا العصور الوسطى وعصر النهضة ... ولم يحدث ذلك فى إيران الساسانية أو الأشكانية ؟ لقد ظن البعض أن الفلسفة والثقافة والعلوم والتقنية والآداب والفنون هى التى تصنع الحضارة . وهؤلاء فى غفلة ذهنية عجيبة . لقد وضعوا المعلول مكان العلة ، فكل هذه الأمور هى النتيجة الحتمية للحضارة الحقيقية ومواد هذا البناء الإنسانى العظيم . والمعماريون الحقيقيون فى التاريخ هم قادة الحركات ، لم يكونوا علماء فلسفة أو علماء أو خبراء فى الفنون أو أدباء بل كانوا أميين ، وربما لأنهم كانوا أميين ، ومثل هذا التفسير للحضارة وتعريفها من الظاهرة السطحية والمزيفة فى الغالب والمنحرفة المسماة بالعصرية ، يعتبر قضية علمية جديدة يختص بها علم الاجتماع وعلم الحضارة ، ليس هذا فحسب ، لكنها تؤدى إلى بروز رسالة علمية واجتماعية خطيرة جدا فى احساس المفكرين الحقيقيين فى المجتمعات غير الأوربية والتى هى فى سبيلها إلى الأخذ بالحضارة الأوربية . قلت : مفكرى المجتمعات غير الأوربية . لكن واأسفاه . إن الأمر كما ذكرت

آنفا : « إن وجود هؤلاء المتشبهين الاستهلاكيين أى العوام العصريين مأساة لكنها أكثر مدعاة للضحك منها للألم ، لكن جعل الخواص متشبهين أى جعل صفوتنا المثقفة المتعلقة متشبهين مأساة أكثر مدعاة للألم منها إلى الضحك ، فالنوع الأول يعد ميتة المجتمع ، أما النوع الثانى فهو مخه ، ودفع المخ إلى الأغتراب يؤدى إلى الموت والمسخ .

إن لعبة العصرية عند العوام هى أيضا من سيئات المتفكرين المتشبهين ، الذين يعتبرون ذرية الشؤم لميرزا ملكم خان المعروف صاحب اللوتريه ، صناع حضارة من طراز حضارة السيد المدقق ، ونواطير تلك « الحديقة المسحورة » والطلائع والتراجمة والأدلاء وفاتحو الطرق للاستعمار بكل وجوهه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وخاصة وجوهه الثقافية .

هؤلاء أيضا صنفان : صنف يمثل الأكثرية ، نسخ من « هوشنك هناويد » الذى عرفه الدكتور شادمان « كسطحى جدا فى الإلمام بالحضارة الأوربية لكنه صادق » ومن هم ؟ أشباه المثقفين ، الأطباء والمهندسون وأساتذة الجامعات والمحامون والقضاة والصحفيون والمترجمون والشعراء والكتاب والمشتغلون بالثقافة والإداريون والمتخصصون فى الفروع الأخرى ، أى أولئك الذين يزاولون أعمالا عقلية ، يسمون فى أوربا « المثقفين » لكنى هنا أسميهم « حملة الشهادات » ، على كل هم أولئك الذين يزاولون أعمالا بعد فترة من الدراسة .
والمتشبهون العوام صيد سهل فى يد هذا الصياد الأوربى ، صيد مقيد اليد والقدم ومستأنس ، إنهم من صنع يد الصناعة العظيمة ، صناعة العصرى فى الغرب ، لكن هؤلاء أى خواص المتشبهين هم الذين يقومون بصنعه ، هم عملاء الظلمة وبعضهم محترفون وواعون ، وبعضهم هواة وغير واعين ، هم الذين صدقوا القضية وعندما يقترح رينيه لابوم مقاومة الماضى والإسلام والتعصب الدينى فى الدول الإسلامية ينهمك هؤلاء فى العمل على الفور ، ويقلدون هنا ديدرو وفولتير وأرنست رينان وكلودبرنار ، وبأى حماس ووجد وجلبة وكبرياء وفخر أجوف ، وبأية فلسفة ، وبالمجان بل وينفقون من جيوبهم ، على سبيل أنه ينبغى التضحية فى سبيل العلم ومن أجل مقاومة التعصب والخرافات والدين والرجعية ، كل منهم يريد أن يكون بطلا فى عالم الفكر ، وكأنه يقول بلسان حاله : انظروا أية مشاق تحملها جليليو وكوبرنيكس ، أنا أيضا مثلهما .

وعندما ينبغى أن يتحول مجتمع تقليدى إلى مجتمع عصرى وأن تتحول دولة كلاسية إلى سوق لعرض البضائع الأوربية وبيعها ، تظهر مئات من الأعمال والتخصصات والوظائف والمسئوليات والتكنيكات الجديدة تحتاج إلى بشر « صنعوا من أجل هذا العمل » وهم أشباه المثقفين حملة الشهادات . هذا فحسب .

والصنف الثانى من المفكرين وهم أقلية : هم حملة الشهادات المفكرين ، والمفكر هنا بمعناه الخاص ، أى ذلك الذى يملك وعيا سياسيا واجتماعيا ، ويحس بارتباطه بمصير المجتمع ويميز القضايا الاجتماعية ، ويحلل الظواهر ، ويعرف مسيرة المجتمع ووضع التاريخ ومساره ، ولابد أن يحس فى نفسه بمسئولية اجتماعية ، وسواء رضى أو أبى فإنه ينضم الى جبهة فكرية ومدرسية أو طبقية وسياسية خاصة ، هم فى كلمة واحدة « ذوو وعى بالعصر » .
وعندما يقول رسول الإسلام ﷺ « مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء » ويقول « علماء أمتى خير من أنبياء بنى إسرائيل » فهو يقصد هذا الصنف من المفكرين المسئولين وذلك لأن المداد والقلم والكتاب الذى يقسم به الله تعالى متعلق بهم . عملهم هو الذى يسير مسيرة رسالة الأنبياء ، ومداد هؤلاء العلماء هو الذى يشبه دماء الشهداء وهو الذى يقاس بها .

الخدمة والإصلاح :

قمت ببحث فى أحد دروسى عن الفصل بين مفهومين : مفهوم « الخدمة » ومفهوم « الإصلاح » وبالتالى بين « خادم البشرية » وبين « المصلح » وهما يستعملان عادة فى مجال واحد فى حين أنهما مختلفان ، وفى ظل ظروف معينة متناقضان ، أى أن هناك خدمة لاتقدم إصلاحا،ليس هذا فحسب بل تفسد وتخون . إن الإفراج عن سجين خدمة بالنسبة له لكنها من الممكن أن تؤدى إلى الخيانة ليس بالنسبة للآخرين فحسب بل بالنسبة له أيضا ، ورئيس مدينة جيد تعد دائرة عمله محدودة بالخدمة،وباستور خادم فقط وكذلك إديسون وكوخ وبقية العلماء والمخترعين والمكتشفين . لكن هناك فرقا بين عمل بوذا وعمل أ .سطو وعمل على وأبى على بن سينا ، وعمل المسيح مع عمل بطلميوس ، وعمل روبسبير مع عمل لافوازيه وعمل بيكون مع عمل نيوتن

وعمل كاتب مع عمل طبيب وعمل فيلسوف مع عمل مهندس ، وفى علاقاتك الفردية تقوم أحيانا عن طريق جهدك الفكرى بتغيير ما فى أسلوب تفكير أحد أو فى طريقة حياته بحيث تحافظ عليه من الانحراف وتصونه من السقوط وتهديه إلى النضج والاستقامة ، وأحيانا تؤدى عنه دينه أو تهدى إليه سيارة أو تحل احدى مشكلات حياته بإنفاق الوقت أو المال أو الجهد ، وهذان الأمران مختلفان ومن هنا نصل إلى قاعدة بالرغم من أنها بسيطة إلا أنها مهمة جدا وحيوية ، وغالبا مانغفل عنها وهى «إن كل مصلح خادم لكن ليس كل خادم مصلحا» .

وهذا التقسيم يصدق فى ميدان العلوم تماما ، بل إن أعظم مصداق له هو العلوم ، فالعلوم الخادمة هى التى تتناول الإنسان كما هو موجود ، أما العلوم المصلحة فتتناول الإنسان كما ينبغى أن يكون . الأولى تتعامل مع واقع الإنسان والثانية تتعامل مع حقيقته ، الأولى تفكر فى الإنسان وقوته وسعادته وراحته والثانية تفكر فى تساميه وتطوره وعظمته وحركته ، الأولى تحت إمرة الإنسان مرشدة له . عمل الأولى الخدمة وعمل الثانية النبوة ، وفى هذا الموضع يكمن الخلاف بين رسالة الأنبياء ودور العلماء فى تاريخ الأمم . وهذا الخلاف نراه الآن بشكل آخر بين المفكرين : فالقادة الفكريون وبناة الحركات التحررية المضادة للاستعمار والمطالبة بالاستقلال والمضادة للطبقية شىء ، وعلماء الفلسفة والعلماء والأدباء والمتخصصون والمكتشفون والمخترعون شىء آخر .

وفى العصر الحديث يعتبر ماقام به سيد جمال الدين وميرزا حسن الشيرازى وغاندى من النوع الأول ، وخدمات فون براون مصمم السفينة أبولو من النوع الثانى . وانطلاقا من هذا البحث يمكن أن أوضح إحدى مشكلاتى الكلامية ، وهى عدم وجود مفهوم بين مصطلحات من قبيل « المثقف : انتلكتويل » والمفكر « روشنفكر » التى راجت فى لغتنا كثيرا لكنها فى الغالب مبهمة ومختلطة بل وغالبا تستخدم خطأ . فالمثقف « انتلكتويل » (١) مفهومه من يقوم بعمل عقلى ، وقد ترجمته إلى الفارسية « تحصيلكرده : المتعلم » فلا يوجد اليوم مثقف ليس متعلما lettré ، لكننا نستعمل المصطلح خطأ بمعنى المفكر وليس

---

(١) أظن أنهم خلطوا المصطلحين المعروفين Libre penseur أى متحرر الفكر و Clairoyant أى مستنير ، وعرجوا من ذلك بمصطلح روشنفكر أى المفكر واستعملوه مقابل Intellectuel مثقف .

هذا صحيحا قطعيا ، لأنه لاتوجد علاقة تساوى وترادف بين المثقف والمفكر ، لكن هناك - بمصطلح المناطقة - علاقة عامة بينهما لكنها خاصة من وجه وهى : إن بعض المتعلمين مفكرون وبعض المفكرين متعلمون ، ومن هنا فعكس القضية صحيح أيضا أى أن بعض المتعلمين ليسوا مفكرين وبعض المفكرين ليسوا متعلمين « مثل ستارخان والشيخ على مسيو » ومن هنا ينبغى أن نقدم تعريفا آخر للمفكرين ، وهم فئة ممتازة . ولسنا هنا بصدد إعداد تعريف جامع مانع منطقى ، لكن من المسلم به أن المفكر المستنير هو مفكر قد بلغ « الوعى » وبالتالى فهو ذو رؤية شاملة منفتحة ومتطورة وقدرة على إدراك أوضاع العنصر والمجتمع الذى يعيش فيه وتحليلها منطقيا ، وذو إحساس بالارتباط التاريخى والطبقى والقومى والبشرى ورؤية واتجاه اجتماعى محدد ، ولابد له أيضا من إحساس بالمسئولية وهى وليدة نفس ذلك الوعى الإنسانى الخاص ، الوعى بالذات والوعى بالعالم والوعى بالمجتمع ، وهذا الوعى هو أسمى ميزة فى النوع الإنسانى وهو أكثر تجليا فيمن نضجوا من أفراد . هذا الوعى ليس فلسفة أو علوما طبيعية وانسانية أو فنونا وصناعات وآدابا أو بقية الفروع والتخصصات الأخرى . هو نوع من الوعى الأيديولوجى أو بتعبير القدماء نوع من الاستعداد للهداية وشعور بالنبوة وحاسة القيادة ، نفس الطريق الخاص الذى كان موجودا عند الأنبياء ، هو العلم الذى عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: « نور يقذفه الله فى قلب من يشاء » هو نفسه الوعى . والحكمة فى القرآن وغالبا ماتذكر مع « الكتاب » عطية من الله يبلغها الأنبياء للبشر . هى أيضا نفس هذا الشيء . والنار التى سرقها بروميثيوس من سماء الآلهة وأتى بها إلى الأرض ووهبها الإنسان الذى يعانى من النار والبرد هى نفس هذا النور . وال « سوفيا » التى كان سقراط يتحدث عنها كل هذا الحديث والتى قال فيثاغورث: إننا لانملكها ولكننا نحبها « أى فلاسفة » هى نفس هذا الوعى الميتافيزيقى ، ودائما ماكانت كل الأمم البشرية تبحث عنها ، هى الويدا أو الحكمة المقدسة عند الهنود ، وهى من أصل لغوى واحد مع « بينش » أى رؤية فى الفارسية و voir فى كل اللغات الهندو أوربية ، والبده « بودى » الشجرة الخاصة وبوذا تعنى من يملك تلك الشجرة أى تلك الرؤية » وهى فى اللغة بمعنى البصيرة والعقل والمقصود نفس هذه البصيرة ، و « سبندمن » وهى من صفات زردشت بمعنى

العقل المقدس أو الأبيض ، هى نفس هذا العقل الأسمى الطاهر المستنير « فى مقابل العقل المحتال الباحث عن المصلحة الناظر إلى الصغائر دنى الفهم » ، والعرفان عندنا يعنى نفس هذه المعرفة التى هى فوق كل المعارف والعلوم ، ولاشك أن العلوم تستطيع أن تساعد فى نضجها وثرائها وقوتها ، لكنها لا تتأتى بالقطع عن طريقها ، هناك أميون مشاهير كانوا يملكون هذا الوعى بطريقة مدهشة ، فأبوذر يملكه لكن أبا على بن سينا محروم منه ، وموسى الراعى يملكه لكن فيلون الفيلسوف يفتقده . هذا الوعى الماوراء علمى هو الذى يحدث « الحركة » والحركة هى التى تصنع المجتمع الجديد ، مجتمعا حيا ومتحركا كجسد وصاحب هدف . وهنا فحسب تكون الحضارة قد ظهرت وأفراد البشر الذين بلغوا هذه المرحلة هم متحضرون بالمعنى الحقيقى للكلمة ، مهما لم يكن بينهم عالم طبيعى أو طبيب أو مهندس أو معمار ، ومهما كان الشكل الظاهرى للمدن والمنازل والملابس والزينة لم يتغير بعد ، فالأرضية مهيأة لنضج كل آثار الحضارة المتقدمة والثقافة الفياضة ومظاهرهما ، إنها تحتاج إلى زمان فحسب ، ولن يكون زمنا طويلا .

وأولئك الذين لايعرفون التاريخ ولايعرفون شيئا عن تكون الحضارات العظيمة الماضية يستطيعون النظر إلى الدول المتأخرة الجامدة أو المبتلاة بالاستعمار فى العصر الحديث ويدركوا أنه نتيجة لأيديولوجية قومية أو طبقية أو اجتماعية أقامت بعثا فى هذه الدنيا ، وفى ظرف مالايقل عن نصف قرن بلغت مرحلة مزدهرة جدا من التقدم والقوة والمدنية . ان الوعى الأيديولوجى مثل روح قوية تنفخ فى جسد ميت لعرق ما أو أمة أو مجتمع ما منحط ومستعبد ، وفجأة تثور القبور الفردية ، وتقيم قيامة من الحياة والحركة والتطور والخلق والنبوغ والثقافة والعلم والفلسفة . وهكذا تخلق حضارة جديدة وتفور من داخل أمة ما .

هذا الوعى الخاص بالإنسان : أى أناس ينبغى عليهم أن يمنحوه للناس ، وهذه الروح أى إسرافيل ينبغى عليه أن ينفخها فى الجبانة الساكنة الحزينة لأمة ما لاشك فى أنه المفكر . وفى الإسلام أفهم « الخاتمية » على أساس أن الرسالة التى تعهد الأنبياء بها بين أقوامهم حتى الآن ، على المفكرين أن يواصلوها من الآن فصاعدا . لكن ليس هذا الصنف من المفكرين الذى يملك معلومات فى أحد فروع العلوم بل هذا الصنف من المفكرين الذى يتمتع بشعور النبوة ،

الشعور الذى دفع المهاجرين المنحطين الوثنيين المتفرقين فى منطقة بين النهرين إلى طريق وضع أساس أعظم حضارة وثقافة مادية ومعنوية قديمة ، وهو الشعور الذى نجى قوما أذلاء جبلوا على العبودية والخضوع لفرعون والعبودية لأمة غريبة وجعلهم صناعا جديرين بالثقافة العظيمة الفياضة فى فلسطين ، وهو الشعور الذى نفخ روحا لطيفة وهادئة وإنسانية فى مسارح القتل والقسوة فى المجتمع الرومانى وميادين المصارعين المخزية ، وقصور قيصر السوداء المظلمة الظالمة محترفة الجريمة ، وسمت بمواطن القسوة والدم والسلاح إلى مستوى العاطفة والإيمان والروحانيات ، وفى النهاية هو الشعور الذى جعل من بدو غلاظ ومغمورين وبدائيين فى صحراء مابناة لأعظم حركة عالمية وأعظم حضارة وثقافة فى التاريخ الإنسانى .

هذا الشعور الانسانى الخاص وما فوق العلمى هو « محول الإنسان والمجتمع » ، وعلاوة على منبعه الميتافيزيقى ، يمكن كوعى ذاتى خلاق ومسئول أن يواصل كذلك حياته وحركته ودوره فى خلق الإنسان وبناء المجتمع ، والمقصود به المفكرون الذين يتعهدون بمثل هذه الرسالة الصعبة والخطيرة وينبغى عليهم أن يمسكوا بزمام تاريخ الغد فى أيديهم .ولايلزم البحث عن هؤلاء المفكرين بين العلماء ، فليس معيار « التفكير » هو « التعليم » أو « الشهادة » ليس المعلومات العلمية أو الفنية ، بل : هو الوعى الاجتماعى وحاسة إيجاد المثل والبحث عن الطريق والاستعداد الخاص للرؤية والهدى ومعرفة الحقيقة ، وهذه الحقائق ليست مجهولات فلسفية وعلمية وصناعية وفنية ، بل هى إدراك للواقع الاجتماعى والعصر والصعوبات وطريق الحركة والنجاة والكمال هذا وعى خاص ماوراء الأمور العقلية والفنية ، وفى نفس الوقت بناء للمجتمع وخالق للحضارة ، ومسبب للحركة والبعث الاجتماعى والفكرى عند أمة ما ، ويمكن الآن الوصول إليه بقدر أو بآخر .

وتمييز الوعى العلمى عن الوعى ماوراء العلمى أى الوعى الاجتماعى والسياسى وبتعبير آخر للوعى الأيديولوجى أو الخلاقية العلمية والقيادية ، يعد من الأمور السهلة فى عصرنا الحاضر ، وكل واحد منا يستطيع اكتشاف الشخصيات المعاصرة بهذا المقياس فهناك باستور وكوخ ووات وماركونى ومارس ونيوتن وداروين وآينشتين فى ناحية ، وفى ناحية أخرى : سيد جمال الدين ومحمد

عبده والكواكبى وإقبال وغاندى ونيريرى وايما سيزار وفانون وتشى جيفارا وعمر مولود ... الخ .

هذا الوعى والرؤية الخلاقة صانعة المثل المتحركة التى يمكن أن نطلق عليها بوجه عام : الأيديولوجية والوعى الذاتى الإنسانى والوعى الاجتماعى والوعى بالتاريخ ، وعلم التكامل والقيادة ، والإحساس الثورى المغير ، والإدراك المدرسى والمسلكى وحاسة الهداية أو إدراك المبادئ والبعث الاجتماعى ، هى معرفة خاصة بما هو فوق العلوم والفنون ، تتجه لا إلى الإنسان كما هو كائن بل إلى الإنسان فى حالة تكونه ، ومن هنا اعتبرها من قبيل الحكمة والعقل المقدس والبصيرة النبوية ، ومن هنا قدسيتها ماوراء العلمية ، وأحب من أجل أن أيسرها أن أسميها اقتداء بتعبير افلاطون « الوعى السياسى » .

يقول أفلاطون : الإنسان حيوان سياسى . وهذا قول عميق جدا ، والمفسرون الذين يعتبرون أنفسهم أكثر فهما من صاحب النص ، فسروه على تصورهم بأنها تعنى أن الإنسان حيوان اجتماعى اعتبارا من أن السياسة أمر عادى بل وقبيح وسيئ ، فالسياسة هى الخداع والظلم وطلب السيطرة على الناس وطلب القوة والحكم وإيذاء الخلق أو هى فى خلاصة الأمر الاشتغال بالأمور المادية اليومية ، ومن هنا لايمكن أن تكون من « فعل الإنسان » والصفة التى تميزه عن الحيوان ، فجاءوا وعدلوا فى سوء تعبير الأستاذ وضعف تفكيره وضعوا كلمة « اجتماعى » محل كلمة « سياسى » فى حين أن اجتماعى وسياسى كلمتان مستقلتان فى اللغة اليونانية ولاتزالان تستعملان حتى اليوم فى اللغات الأوربية . هذا فضلا عن أن « الاجتماعية » ليست من الصفات المميزة للإنسان ، فنحل العسل والنمل وكثير جدا من الحيوانات تتميز بصفة الاجتماعية بل إن نحل العسل أكثر اجتماعية من الإنسان ، أما السمة « السياسية » فهى الخاصة بهذا النوع . والسياسية غير الحيل القبيحة والخدع والخطط اللا أخلاقية من أجل هزيمة الخصم أو بلوغ المقام ، بل هى غير الحكم والسيطرة على الخلق فالسياسة تعنى الإحساس بالارتباط بمجتمع ما ، والوعى بالنسبة لوضع الجماعة ومصيرها ، والإحساس بالمسئولية الفردية فى مواجهتها ، والتميز بضمير اجتماعى أو جماعى ، والاشتراك فى حياة مسيرة المجتمع الذى يعيش فيه الفرد ويشترك معه فى المصير والإحساس ويشاركه حركته وكدحه وعمله وعلى حد

قول هايدجر : إن الإنسان الذى يعلم أنه موجود هو فحسب الإنسان الواعى بوجوده فى العالم والذى يحس أنه موجود ، ومن هنا فالإنسان وحده هو الموجود بالمعنى الوجودى لكلمة وجود . ويمكن تطبيق هذا القول أيضا إذا وضعنا كلمة المجتمع محل كلمة الوجود ، فالإنسان مثل كثير من الحيوان « اجتماعى » أى يعيش فى المجتمع لكن الإنسان هو وحده الذى يعرف أنه يعيش فى المجتمع ، أى على علم بوجوده بين الآخرين وبوجود المجتمع الذى يعتبر هو أحد خلاياه يحيا به ويستمد منه معنى وجوده ، وفى رأيى أن هذا الوعى هو الذى يسمى بالسياسة ، ومن هنا إذا أردنا أن نترجم قول أفلاطون ترجمة ذات معنى علينا أن نقول:« الإنسان حيوان ذو وعى اجتماعى » بدلا من أن نقول:«الإنسان حيوان اجتماعى ، ومن هنا نستمد عونا جديدا فى تعريف المفكر تعريفا دقيقا .

والمفكر الذى هو على كل حال أكثر المفكرين وعيا « فى مقابل المفكرين غير الواعين » هو المفكر السياسى . وإدخال كلمة « روشن : مستنير » فى الصفة نابع من هذا المعنى [1] أى أنه الإنسان الذى يدرى أين هو ، وهو على معرفة واضحة بوعيه . ومن هنا لو أننا وضعنا المفاهيم السابقة للمصطلحات التى اعتادت عليها عقولنا جانبا ، نستطيع أن نقول أنه بالفصل بين مفهومى الخدمة والإصلاح ، أو بالمصطلح الخاص بعلم الاجتماع الفائدة والقيمة ، فإن العلوم المفيدة الخادمة تجاهد فى منح الإنسان « كما هو موجود » المتعة والسيطرة على الطبيعة والرفاهية أو فى كلمة واحدة « السعادة » وأولئك الذين يقومون بهذه المهمة هم المثقفون على وجه العموم أو المتعلمون ، ووراءهم يوجد نوع من « الوعى الذاتى الاجتماعى » الخاص يسمى بالوعى السياسى يتجلى فى صورة إيمان وأيديولوجية ومدرسة فكرية اجتماعية ومسلك لطالب المبادئ انسانى وقومى وطبقى ، يجاهد فى أن يدفع الإنسان « الفرد والمجتمع » مما « هو موجود عليه » إلى « ماينبغى أن يكونه » وهدفه المباشر ليس الراحة والسعادة أو المتعة والسيطرة على الطبيعة بل هدفه المباشر : الثورة والحركة والكمال والقوة الروحية للإنسان وسيطرته على نفسه . والعلوم هى التى تجعل الإنسان مقتدرا بحيث يستأنس الطبيعة كما يريد ، والأيديولوجية

---

(١) المترجم : روشنفكر تعنى بالفارسية المفكر وتعنى حرفيا مستنير الفكر .

تجاهد فى أن تجعله قويا وناضجا بالنسبة لقدرة الإرادة والاختيار والإيمان والوعى الذاتى حتى يصنع نفسه كما يريد .

والإنسان هو الذى يخلص حريته ومصيره من السجون الثلاثة : الطبيعة والتاريخ والمجتمع ، ويستطيع بمعجزة الإيمان والوعى الذاتى أن يخلص نفسه من أصعب سجونه أى سجن النفس (١) حتى يصير خالقا لنفسه ومجتمعه وتاريخه وعالمه ، أى تسمو هذه المعجزة بذلك الإنسان المثالى أو الواقعى إلى إنسان حقيقى شبيه بالله ، وأولئك الذين يحملون على عواتقهم مثل هذه الرسالة الإلهية والنبوية فى المجتمع الإنسانى وفى تيار التاريخ كانوا الأنبياء فى الماضى وبعد خاتمية عصر الوحى صاروا هم المفكرين .
ففى عصر الوحى كان هناك الرسل ، وبعد ختم الوحى بدأ عصر الفكر أى عصر المفكرين ، وهذا بناء على مايلى :

المفكر والمثقف :

إن المفكرين – خلافا للمثقفين – ليسوا جماعة متميزة ذات قاعدة اجتماعية مميزة ، فهم من الوجهة الطبقية الاجتماعية لايقفون فى مقابل الجماهير **Masse** أو الشعب **Peuple** أو عوام الناس **plébe** أو بإزائهم . لأن الفكر المستنير صفة معنوية بارزة فى الإنسان وليست شكلا اجتماعيا متميزا ، وليس من اللازم أن يكون المفكرون متعلمين وعلماء ، وبين المفكر والمثقف توجد علاقة ثنائية عامة « وخاصة من وجه » ، فوظيفة المثقف والعالم هى إدارة الحياة ودفع المجتمع إلى القوة والتقدم والمنفعة والرفاهية وتحسن أوضاع الإنسان ، ورسالة المفكر هى حركة الحياة ، وهداية المجتمع وتغيير الإنسان وإنضاجه أو تحسن حاله . ويستطيع العالم ألا يكون سياسيا ، وأن يكون فاقدا للوعى الاجتماعى وفهم العصر ، لأنه مشغول بعمله فى ركن من أركان هذه القافلة البشرية العظيمة يقوم بمهامه التخصصية ، ويستطيع جراح القافلة أو طبيبها أو فنيها أو سائسها القيام بعمله دون أن يعلم إلى أى مكان تتجه القافة أو ينبغى أن تتجه ، لكن

---

(١) المترجم : لشريعتى رسالة بعنوان « جهارزندان إنسان : السجون الأربعة للإنسان » تناول فيه هذا الموضوع بالتفصيل .

المفكر هو الآخذ بزمام القافلة ، والمهمة الملقاة على عاتقه هى معرفة الطريق والمخاطر وتعبئة الناس والتناسق المعنوى فى القافلة . وهذا هو ماتعنيه السياسة

ووجود الحقائق من قبيل الفقر والظلم والتناقض الطبقى والاستعمار والاستغلال والخيانة أو الانحطاط فى قلب مجتمع ما ، ليست هى عوامل الحركة والثورة ، لكن الإحساس بالفقر والظلم والاستغلال .... الخ هو الذى يحدث الحركة والثورة ، ومالم يحدث الوعى العام بالنسبة للحقائق المرة والحلوة والسوداء والبيضاء فى الحياة الاجتماعية فى ضمير المجتمع ، يستطيع المجتمع بإخفاء كل هذه العقد والأمراض كلية أن يواصل حياته الباردة المغلقة لعدة قرون كما رأينا مجتمعات كثيرة فى التاريخ وحتى فى الحاضر قد وقفت فى مرحلة تاريخية ما ، وتوقفت فيها حتمية التاريخ والزمن الاجتماعى آلاف السنين . وهناك مجتمعات بدائية لاتزال موجودة فى أفريقيا وآسيا واستراليا ولاتزال تعيش فى عصر ماقبل التاريخ . ومن هنا يستطيع المفكر فى مجتمع ما أن يكون ملتزما ويكون التزامه واضحا وهو « إدخال هذه الحقائق فى وعى الناس فى المجتمع وإحساسهم » أو بعبارة أخرى « جعل المجتمع على وعى ذاتى » .

وبالتقليد الصرف أو مطالعة الكتب أو معرفة العلماء والفلاسفة والفنانين لايمكن أن يصير المرء عالما أو فنانا أو فيلسوفا ، أما تحول المرء إلى مفكر فهو ليس منفصلا للوهلة الأولى عن الفوران الداخلى والخلاقية والقدرة على التمييز والاستنباط والرأى الشخصى فى مواجهة الحقائق . يستطيع المثقف أن يكون غريبا عن المجتمع الذى يعيش فيه ، لايعلم أين هو ولافى أى زمان يعيش ومع من يعيش ، لكن السمة البارزة للمفكر هى معرفة مجتمعه معرفة حقيقية ومباشرة ، والتفاهم مع قومه ومعرفة عصره والإحساس بآلام العصر وحاجاته ومثله . المفكر هو من ينبغى عليه قبل أى شىء أن يحدد فى أى مرحلة من التاريخ يعيش مجتمعه أو بعبارة أخرى ماهو زمانه الاجتماعى ؟ (١)

---

(١) ان فقدان هذا الادراك للزمان الاجتماعى واحد من الأسباب الرئيسية لهزيمة حركات العالم الثالث التى وضعت قيادتها فى أيدى المثقفين .

وعالم الاجتماع والمؤرخ كلاهما من المثقفين ،إنهما يعرفان مجتمعهما كأرضية علمية وأرضية عقلية ، لكن كيفية معرفة المفكر لتاريخه ومجتمعه تختلف عن كيفية معرفتهما ، فعالم الاجتماع هو الذى يضع عشرات التعريفات للطبقات الاجتماعية ، وقد درس تاريخ التطورات الطبقية وقرأ علم النفس الطبقى على أساس نظريات علماء الاجتماع المعروفين فى العالم ، لكن المفكر هو الذى يحس بطبقته الاجتماعية ولديه معرفة عينية ومباشرة وتجريبية بها ، لم يقرأ عن الحرب الطبقية فى الكتب الاشتراكية والمصادر المعتمدة فى علم الاجتماع ، بل يجدها فى داخله يحس بها فوق بشرته وفى لحمه . وبالنسبة لعلماء الاجتماع فإن الجماهير عبارة عن ترجمة لكلمة Masse والآراء التى بينها ماركس وإنجلز وبليخانوف ولو كاتش وغيرهم فى شأنها ، لكن المفكر هو من يعرف هذه الحقائق من سحن الناس الذين يراهم ويعرفهم ومصدره العلمى الحارة والسوق والمصنع والمزرعة والريف والأحداث والعادات والتقاليد واللغة ووضع الحياة الخاصة بالناس ، ومعرفته بالتاريخ ليست واحدة مع معرفة المؤرخ فالمؤرخ يعرف كل شخصيات التاريخ وأحداثه ويعرف كل وثائقه ومصادره، والتاريخ بالنسبة له « ماض » حدثت فيه حوادث عظيمة ودخله أبطال عظام ثم مضوا . أما بالنسبة للمفكر فالتاريخ « حاضر » حى وجار يحسه فى قلب مجتمعه وسلوك قومه وأفكارهم وأقوالهم وعواطفهم وحساسياتهم وكل عاداتهم وتقاليدهم ، ويحسه فى أعماق روحه . ليس التاريخ بالنسبة له ذهنية ما أو تذكارا لوقائع ذهبت ودفنت فى القرون الخالية ، بل ذو عينية وفعل وحقيقة حية ومتحركة ، وهو نفسه مثل قلب مجتمعه البكر تجسم عينى للتاريخ ليس التاريخ بالنسبة له أحداثا وتسلسل مراحل زمنية وكرونولوجية بل هو نهر ينبع من عمق فطرته وماهية عرقه وقوميته ودينه ومعنوياته ، ويمر بتوالى الأجيال ويجرى فى داخله وفى داخل مجتمعه .
ويستطيع المثقف أن يكون متشبها بالأجنبى ، وعلى سبيل المثال نجد فى مجتمعنا أن العصرى والرجعى المتجمد كلاهما صب فى قوالب تقليدية وموروثة ومحصورة فى رؤية منغلقة ومظلمة ، لكن المفكر لايمكن أن يستوعب فى واحد من هذين القالبين المتعارضين ، فالعصرية والسلفية قالبان مفروضان يستوعب فيهما المتعلم والعامى عن غير وعى فى ظروف خارجة عن إرادته وعلى أيدى عوامل وراثية أو مستوردة . لكن المفكر وبسبب وعيه يختار لنفسه ، ولأنه يعرف شخصيته والعناصر التى تصنع شخصيته لايستوعب ولا يتقولب بقالب ما عن غير وعى ،

ولأنه يعرف العصر وضرورياته ووضعه لايبقى فى الأطر المتحجرة التقليدية . والمفكر لايقلد ولا يقتبس ،وهو عندما يعود إلى قواعده التقليدية القديمة يعود عن وعى ،لبلوغ هدف ما فى حين أن العصرى قد عجز فى إدراك هذه القواعد بسبب عدم وعيه . فغاندى الذى كان يلبس « البشكير » ويضع فى قدمه حذاء من الخشب ويغزل على المغزل ليس هو ذلك الهندى البدائى المنحط ، إنه أكثر رقيا وحضارة من ذلك الهندى المتجلنز الجنتلمان المتعلم الذى يقرأ شكسبير . وقوامى نكروما الذى كان عند اشتراكه فى جلسة من جلسات الأمم المتحدة يذهب إلى نيويورك بعمامته الضخمة وملابسه الشيت المنقوشة ورفاقه متقلنسون بالقلانس الحمراء وأنواع الزينة البدائية نصف الوحشية الأفريقية ، وعندمايخطب باللغة الغانية ، ليس ذلك بسبب أنه لايستطيع أن يلبس سترة وسروالا ويعقد البابيون ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ،وليس لأنه لا يعرف الطريقة التى يمكن بها اليوم المشاركة فى المحافل الدولية أو يحسن التصرف فى نيويورك حتى لايقول الأوربيون والأمريكان وأشباههم:إنهم ليسوا متحضرين و لم يقرءوا آداب السلوك وفن الحياة عند ديل كارنجى . هذا النوع من السلوك لاتفهمه العقول التى تشبه عقول القردة لمتشبهى أفريقيا وآسيا ، ولا يفهمون أن هذا الأوربى والأمريكى الذى يراه يحسن أنه بإزاء حادثة جديدة ، يرى إنسانا جاء من أفريقيا فى قمة الشخصية والأصالة والوعى واستنارة الفكر والإدراك التقدمى للعصر والحضارة والثقافة ، ليس من صنع يديه ، ليس قردا يحسن تقليد الاستعمار القرداتى ، إنه هو نفسه ، إنسان آخر .

يقال أنه عندما كان نهرو أو رادا كريشنان وهما من الشخصيات الاجتماعية . والفلسفية البارزة فى هذا العصر يأتيان إلى أوروبامرتدين السروال الأبيض واللبادة الهندية كانا يريدان إخبار الثقافة الأوربية والحضارة الأوربية اللتين تدعيان أنهما الثقافة والحضارة الفريدتان عند البشر ،وأنه لامناص للبشرية من تقبل شكلهما ومحتواهما ، وكانا يريدان إخبار الاستعمار الثقافى للغرب الذى يدعى أنه حضر آسيا وأفريقيا نصف الوحشيتين ، إن فى الهند أمة ليست نسخة بديلة مخلوطة ومحرفة وكاذبة ومضحكة وتثير شفقتكم ، إنها فى حدذاتها أثر إنسانى مستقل ذو قيم ومبادئ وفضائل سامية بشرية وكيفية رؤية وتفسير خاص بها عن الدنيا والحياة ،

وأن فى الهند ثقافة فياضة فى حالة فوران من الفكر والإحساس والجمال . ومن هنا فعندما كان كريشنان يلقى محاضرة فى أوربا ، لم يكن يرد ثانية إلى الأوربيين ما هضموه - وهو يثير الغثيان بالنسبة للأوربى - لكنه عندما كان يتحدث ، كان إنسانا عظيما ومفكرا ومستقلا - وهذا الشيء بالنسبة للأوربى محترم جدا وجالب للخضوع - إذا إنه على الرغم من السيطرة الشاملة لأوربا القوية المدعية المعتدية فى فكر هذا المفكر الشرقى وإحساسه ، لايرون - وهذا على خلاف المعتاد - غديرا متعفنا على شاطىء النهر الذى يجرى من اليونان القديمة إلى أوربا المعاصرة ، لكنه ينظر الى نهر فياض وجياش وزلال قد نبع مما قبل اليونان الذهبية بمئات القرون وعبر مواطن التاريخ النائية وأخذ يصب فى هذا المحيط العظيم العميق للثقافة الهندية ، وأن ظنهم بأن الثقافة البشرية قد نبعت من جبال البرناس والأوليمب وأخذت تصب فى الغرب بعد عصر النهضة ليس ادعاء جاهلا مغرورا فحسب ، بل إن اليونان نفسها فرع من دجلة والفرات أخذت قوة كثير من الأنهار التى كانت جياشة وجارية دائما فى هذا الشرق الخصب الغنى ، وأن تصدير ثقافة الغرب وفلسفته وحضارته إلى الشرق مضحك ولا معنى له يشبه تماما إرسال « الضوابط الأخلاقية » لأوربا البورجوازية ودينها التجارى عابد المال إلى شرق لاوتسى وكنفشيوس ومها بيرا وويدا وبوذا وزردشت وإبراهيم ويحيى وهود ونوح وموسى ومحمد وعلى ، أى إلى الأرض التى تعد البنية التحتية فيها هى الأخلاق وروح حضارتها المادية وعلومها الدنيوية قائمة على الروحانيات ، وإلى القوم الذين صاروا ضحايا لأخلاقهم ووفائهم للروح والمعنى فى التسلط العالمى للقوة والصناعة وعبادة المال وقاعدة القوة .



استعمار آسيا وأفريقيا عند الرأسماليين والاشتراكيين :

إن أعظم الأحداث التى شهدها القرن التاسع عشر فى العالم هى استعمار آسيا وأفريقيا . وللأسف بقينا نحن غافلين عن هذا الموضوع لأننا نأخذ معرفتنا للعالم بل ولأنفسنا من الأوربى ، بل إن آداب القرن التاسع عشر وآثار الاشتراكيين لم تتأثر بهذه المأساة التى تعد أبشع مأساة فى تاريخ البشرية . وماذا يمكن أن ننتظر من الرومانسيين المبتذلين أمثال لامارتين الذى كان يرى كل الوجود البشرى فى مقعد « المدام » الخالى منها ؟ ولكن الذى يثير الدهشة أن مفكرين من أمثال سان سيمون وبرودين وماركس وإنجلز وبليخانوف وجان جورس الذين كانوا قد حددوا اتجاههم الأصلى وحددوا المجتمع والحياة الإنسانية كلها بأنها النضال ضد الظلم والتفرقة والاستغلال والتناقض الطبقى والقضاء التام على الرأسمالية واستغلال الإنسان للإنسان وتحرير طبقات العمال والزراع وإقامة الحكومة العمالية ، وكانوا مصونين من مرض عبادة الغرور الغربى والتنفحات الجاهلية العرقية واصطناع الفلسفات الغيبية الوهمية وأنواع الجنوح إلى الخيال العلمى والأدبى والفنى وكلها من العادات الثانوية للبورجوازية ، ورغم كل ذلك اهتموا بمحاولة قيام عمال فرنسا بإضراب فى سنة ... كذا أكثر من اهتمامهم بعمليات القضاء التام على شعوب أفريقيا وآسيا فى الحملات المغولية الوحشية للاستعمار الأوربى المتحضر فى القرن التاسع عشر .

وبالرغم من أننى أعتبر الاشتراكية واحدة من أهم كشوف الإنسان المعاصر ، لكنى لاأستطيع أن أنسى أبدا أنه فى نفس العصر الذى كتب فيه « رأس المال » و « مقدمة فى الاقتصاد السياسى » و « آنتى دورينج » ، قتل الفرنسيون فى يوم واحد(٤٥)الف نسمة فى مدغشقر ، وأن جيش فرنسا قام — بعد إعلان رسمى ودعوة للإشراف والشخصيات البارزة جدا المتحضرة جدا الفرنسية إلى مشاهدة المنظر عن كثب — بقذف الجزيرة عاصمة الجزائر بالقنابل ، ثم احتلها واستعبد أمة ، ثم قام بإلغاء وجودها وتاريخها ولغتها وعرقها وأعلن على لسان البورجوازية الثورية والديمقراطية فى فرنسا أن « البحر المتوسط يشق فرنسا كما يشق السين باريس» وهذا الادعاء القذر المجرم لاستعمار الطبقة الحاكمة والرأسمالية

الفرنسية قبله الشيوعيون الفرنسيون أيضا بدليل أنهم اعتبروا الحزب الشيوعى الجزائرى شعبة من الحزب الشيوعى الفرنسى أى أن الجزائر جزء من فرنسا ، ناهيك عن الحزب الاشتراكى الفرنسى وهو أكثر قذارة وأكثر يمينية من الديجوليين ، هو الحزب الذى تعاون مع الاستعمار الإنجليزى ومع إسرائيل فى الهجوم رسميا على مصر سنة(١٩٥٦)ليحول بالاحتلال العسكرى وقوة السلاح الاشتراكى الأوربى دون تأميم قناة السويس وإخراج الجيش الإنجليزى . كلهم فى ذلك المجال طينة واحدة جى موليه الاشتراكى هو نفس إيدن المستعمر ونفس بن جوريون المعتدى وأليست إسرائيل هى الابنة غير الشرعية للزنا الذى حدث بين الرأسمالية والشيوعية فى الحرب الثانية ؟

كنت فى السنوات مابين(٥٨ و٦١)شاهدا عن كثب أنه بينما كان الشباب الفرنسى الواعى والمستنير يمتنع عن الذهاب إلى الحرب فى الجزائر عن طريق حقن نفسه بميكروب السل أو إصابة أحد أطراف الجسد بالشلل ، امتنع الحزب الشيوعى الفرنسى الذى يضم ستة ملايين عضوا عن إدانة هذه الحرب المجرمة الاستعمارية ، بل إن الشيوعيين الجزائريين أدانوا فى بيان رسمى ثورة الوطنيين والمسلمين فى الجزائر الذين حملوا الأسلحة فى أول نوفمبر سنة(٥٤)وألقوا بالقنابل الأولى فى المدن كإعلان للثورة والكفاح المسلح ، وحرم اشتراك الماركسيين الثوريين جدا فى هذا الجهاد المضاد للاستعمار ، وشتموا صراحة مجاهدى جبهة التحرير الجزائرية وجيش التحرير الجزائرى بنفس مصطلحاتهم الدورية النمطية التى تثير الغثيان ، واتهموهم بأنهم بضعة من الإرهابيين الرجعيين الدينيين وعملاء للأجنحة اللاثورية والإقطاع العربى.وموريس توريز أيضا كما ذكرت كرر الادعاء القذر المعتدى لهيئة العسكريين الرسميين والرأسمالية الاستعمارية بطريقة أكثر علمية ولهجة ماركسية وصرح بأنه لايوجد فى الأصل شعب باسم الشعب الجزائرى سواء فى التاريخ أو فى الحاضر ، لكنه شعب فى سبيله للتكوين (مرسى) وقام منظرو الماركسية والاشتراكية العلمية والحتمية التاريخية والجدلية وحرس الثورة البروليتارية وغيرهم رسميا بتقديم هذا التحليل : (إن الشعب الجزائرى وغيره من الشعوب المبتلاة بالاستعمار والمستعبدة من قبل الرأسمالية والعسكرية الأوربية ينبغى عليها أن تصبر بالفعل حتى تقوم طبقة البروليتاريا فى أوربا بالثورة ، وتسيطر على الحكم بعد القضاء

التام على الرأسمالية والبورجوازية ، وآنذاك نقوم بحل القضية وديا لأن الاستعمار يكون قد انتهى وتلقائيا تنالون استقلالكم) إن شاء الله ، أو كما يقول سكان قريتنا مزينان «كى در آب دور و كربه برى: أى عندما يصل فصل حصاد الماء وتساقد القطط أو كما نعبر عنه فى العامية المصرية أما يرقد الكلب فى المية أو فى المشمش » (هذا النوع من التفسير أيضا) ليس بعيدا ، إذ نرى أنه بذكاء رأسمالى وبرجوازى عالم بالاجتماع وحتمية التاريخ وروح المسالمة والتعايش ، والنشاط السياسى والبرلمانى والنقابى والأحزاب الماركسية فى أوربا ، نرى كيف تصالحت الأطروحة مع عكس الأطروحة وصارتا معا يدا واحدة وفكرا واحدا ومتعاطفتين ، ولاخبر هناك عن الثورة العمالية فى أمريكا وأوربا الشمالية والغربية والوسطى اللهم إلا فى الكتابات الماركسية القديمة وبعض « الشفاهيات الملقائية » و « الأناشيد الحماسية الخاصة بمواسم الانتخابات » ، الذئب والحمل يشربان من نبع واحد ، والشيوعية والرأسمالية كلتاهما تضع فمها فى مخلاة البورجوازية ، النبع والمخلاة المليئان العامران من خراب الشرق ونهب آسيا وأفريقيا . فهذا المالك أو صاحب المصنع عندما يرغم فلاحيه وعماله على الرضا بهذا النصيب المفروض القليل أو الأجر العادى ، يتعرض لتهديدهم وتزداد بينهم فرص التمرد والعصيان والمجازفات الثورية ، لكن عددا من اللصوص المسلحين قطاع الطرق ، وعصابة من حملة المسدسات الأقوياء ودخلهم فى إطار العمل والإنتاج والعلاقة العادية بين الرأسمالية والكسب ليس محدودا ، ومع كل غزوة ليلية يستولون على قرية أو بنك أو مخزن ، وهم غرقى من قمة الرأس إلى أخمص القدم فى المال والسلطة والمتعة ، تقوم بالإنعام عى صبيانها وسماسرتها والحاضرين لخدمتها ومرءوسيها وعمالها وكل من حولها وملئهم وإشباعهم بحيث يضحون برءوسهم وأيديهم من أجل سلامة « السيد » واستقرار « الوضع الطيب الموجود » ومن السذاجة بمكان أن نشبه العلاقة بين العامل وصاحب العمل فى مثل هذه الحالة بالعلاقة الموجودة بين العامل وصاحب العمل فى نظام عادى ومشروع للملكية الخاصة وليس من قبيل المصادفة أنه فى الماضى قام كل عمال إنجلترا عن طريق توقيع منشورات طويلة والقيام بمظاهرات واسعة بالاعتراض عى حكومة انجلترا التى كانت قد انتوت استدعاء جيشها فى أفريقيا وآسيا ، لأنه إن تم فسوف تتهدد أجورهم وأوضاع حياتهم .

وماتعجز الرؤية الغربية الماركسية عن تحليله هو أن الاستعمار فى حد ذاته ذو روابط جدلية خاصة ليست مما يصدق على حتمية التاريخ والروابط الطبقية والنظام الرأسمالى العادى ، إذ قام الاستعمار بوضع العلاقة الطبقية والجدلية بين العامل والرأسمالى فى الدول الاستعمارية فى معرض التغيير ، كما قام بتغيير النظام الاجتماعى والطبقى فى الدول المستعمرة . كنت أرى بعينى رأسى أن استعمار أفريقيا وإلحاق الجزائر بفرنسا قضية سياسية وضرورة حيوية بالنسبة للعامل الفرنسى والطبقة المستغلة المحرومة فى فرنسا فالخمر بالمجان وكيلو جرام العنب بخمسة عشر قرشا والبطاطس بثلاثة قروش والطماطم بثلاثين قرشا والموز بثمانية قروش ، والغاز مجانى والنفط مجانى ، لكن إذا صارت أفريقيا أفريقية والجزائر جزائرية فلن يستطيع بعد أن يشرب النبيذ أرخص من الماء وأن يشترى الفاكهة فى باريس أغلى عواصم العالم أرخص من سعرها فى قرية محمد آباد فى سبزوار ، وإذا ضاع ذلك المحيط العظيم من النفط وتلك الغابات المترامية من المطاط والبن وقصب السكر وإذا ضاع ماس تنزانيا الذى لارقيب عليه من يد الرأسمالية الأوربية ، فان البروليتاريا الأوربية لن تتحول بعدها إلى بورجوازية وموسع عليها .

إن مالم يعلمه ماركس عندما كان يظن أن « فائض القيمة » هو الذى جعل الرأسمالية أكثر غنى وحرم العامل من خيرها ، وأن فائض القيمة هذا هو وليد العمل المتشعب والتخصص وتقسيم العمل والآلة ، إن هذه الأمور لم تكن هى التى أدت إلى ظهور الرأسمالية ، بل الذى أدى إلى ظهورها هو نهب كل مصادر الثروة والوجود عند الأصفر والأسود والمسلم والهندى ، هو الذى كان يجعل هذه الدودة السوداء أكثر شرها للدماء وأكثر سمنة ، كان ماركس وإنجلز قد ظنا أن هذه الثروة التى تكدست فى أوربا نتيجة لكدح البروليتاريا الأوربية و وأجهزة الإنتاج الغربية . كان نهبا ليس إنتاجا ، كان استعمار آسيا واوربا لاستغلال العامل الأوربى ، كان نفط آسيا وأمريكا اللاتينية ومطاط الهند الصينية وماس تنزانيا ، كان بن البرازيل وتيل مصر وكتانها وقطنها ، كان المنابع المجانية للنحاس والرصاص والحديد .

إن هذا يشبه أن يأتى اشتراكى إنسانى عالم بالاقتصاد إلى الشركة الإنجليزية التى كانت تستخرج النفط وإلى المساهمين فيها قائلا : إن هذا الذىتحصلون

عليه هو نتيجة عمل عمال هذا الجهاز وموظفيه وليس من نتاج رءوس أموالكم ، ثم يردونهم محتجين : لا ، ليس من فعل العامل وحده ، وليس من فعل صاحب رأس المال ، لكن هذا الكسب المعجز نتيجة عمل جماعى،سيدى : لماذا لايعترف أحد بينه وبين نفسه بأصل الموضوع ؟ صاحب النفط .

إن الصراع بين الاشتراكى والرأسمالى فى أوربا تدور حول لحاف ملانصر الدين « حول أمر غير رئيسى وغير هام » فالاشتراكى يقول : ينبغى أن توضع رءوس الأموال وأجهزة الإنتاج الصناعية فى يد الدولة حتى تقوم هى بالإنتاج وأن يكون التوزيع والبيع فى يدها ، ويقول الرأسمالى : لا ، ينبغى أن تكون فى يد القطاع الخاص أوبل وفورد ورروكفلر . لكن : ماهو مصير نفطنا ومطاطنا وماسنا ونحاسنا ورصاصنا وقطننا وقصبنا وبننا والأورانيوم الخاص بنا ؟ لم تطرح هذه القضية أبدا ، فى حرب الاشتراكية والرأسمالية الأوربية لم تكن القضية حول المكلية الأصلية لمصادر الإنتاج والمواد الخام ، كانت حول أن يكون الإنتاج فى يد الدولة أو فى أيدى السادة أوبل أو فورد أو غيرهما . لكن : أى نصيب لنا نحن الجياع المنهوبين المستضعفين فى آسيا وأفريقيا من هذه الغنيمة ؟ لاشىء .

عندما تحكم الاشتراكية فى أوربا ، بدلا من السيد دارسى ، سوف يأتى رئيس الشئون الخارجية التجارية للدولة الاشتراكية ويأخذ فى النهب فما الفرق ؟ الفرق أنه فى النظام الرأسمالى كان الرأسماليون الأوربيون يخصون أنفسهم بأغلب الغنيمة ثم يأتى الاشتراكيون ويخصون العمال – أى المجتمع بأغلبها ، ومن ثم فالحرب بين الاشراكية والرأسمالية تدور حول اختلاف الاستيلاء بين الفرد والمجتمع ، إذن فهل سنظل نحن الأفريقيين والآسيويين منهوبين كالعادة ؟ لا ... عندما يحكم العامل سوف يكون أحسن سلوكا معكم .

إن مالم تفهمه الاشتراكية والماركسية فى الغرب هو أن استعمار آسيا وأفريقيا هو الذى كون الرأسمالية العظمى فى أوربا وليس استغلال البروليتاريا الأوربية ، وكان أن حصرت نفسها فى العلاقة بين صاحب العمل والعامل الأوربى ، وكان ينبغى أن تطرح العلاقة بين المستعمر « بكسر العين » والمستعمر « بفتحها » ، وهى قضية إنسانية وفوق طبقية وشديدة الإجرام . لكن : لما كانت قد حصرت نضالها فى تأمين حقوق العامل الأوربى فى مواجهة

البورجوازية الأوربية ، وقامت بإذكاء عدم الرضا العام ورفع مستوى الطمع عند العامل حتى تدفعه إلى الثورة على البورجوازية ، كانت البورجوازية بدورها على علم بعلم الاجتماع ومعلومات الماركسية وتحليلاتها وتنبؤاتها ، واستطاعت من هذه المائدة الحافلة لآسيا وأفريقيا والتى لاصاحب لها لكنها ثرية والتى كان الاستعمار قد وضع طوفانها الذهبى فى يدها ، استطاعت أن تعطى العامل الهبات باستمرار ، وأن ترفع أجوره ، وأن تقدم له التأمين والضمان الاجتماعى وأن تقلل من ساعات العمل وتحسن من ظروفه ، وتضع الإمكانيات الاجتماعية والعملية والترفيهية المتزايدة فى متناول يده ويد أسرته ، وتمنحه البلاج والسينما والنادى وصالات الرقص والنوادى الليلية والكرنفال والحزب والنقابة وحق الإضراب والثلاجة والراديو والسيارة والقدرة الشرائية الكاذبة والإحساس الكاذب بالتمتع والرفاهية والحريات والحقوق السياسية والاجتماعية الكاذبة ، أو تقوم اصطلاحا بتحويل العامل إلى بورجوازى ، حتى تجعله ينزل عن حمار الشيطان « يترك العناد » ، وتنفذ رائحة الرفاهية واللذة والمتعة إلى خياشيمه فتخرج منها رائحة العصيان ، وقد خرجت .

وشتان مابين بروليتاريا اليوم فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وبين البروليتاريا الغاضبة المحرومة المريضة الكادحة الخطرة فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، مرحلة سان سيمون وبرودين وماركس وجان جورس ، كان لينين يقول : إن البروليتارى ثورى بطبعه لأنه لايملك شيئا يفقده فى الثورة « حقا ماقاله »، لكن الرأسمالية اليوم أعطته بغير حدود ، وزادت فى تدليلها له ، بحيث أن العامل الآن لايجازف لكيلا يفقد أشياء كثيرة ، ويقول الجميع : نعم ، إن الرأسمالية قد تعقلت ، أى أنها مثل ماركس تتنبأ وتحلل القضايا الطبقية ، بينما كانت فى الماضى بخيلة « لايخر الماء من يدها » للعمال ، أصبحت الآن يصدق عليها قول الشاعر :

اذا كان القلب بحرا وكانت اليد منجما

فهما قلب مولانا ويده

لكن : من أين كل هذا الكرم الحاتمى ؟ من أين له كل هذا ومن أين حصل عليه بحيث يستطيع أن يجعل من عامله بورجوازيا ، و « يحبح » عليه بحيث ينصرف عن احتراف الثورة ، ومن أجل الحصول على أهدافه الأصيلة وهى القضاء التام على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ونقل رأس المال إلى المجتمع والاستيلاء على الحكم ، أصبح يقنع بالإضراب والنقابة والنشاط الحزبى وإدخال مرشحى اليسار إلى البرلمان وهذا بدلا من « الثورة » التى تحتوى على الخوف على الحياة »[1] ! عجبا ! عجبا !! إنه حتى اليوم لايريد الماركسيون أنفسهم أن يفهموا أن « تعقل الرأسمالية ووعيها » وأن « تحويل العامل إلى بورجوازى » ليس نتيجة وعى أو حصيلة نضال « بل معجزة الاستعمار»، هذه الكنوز التى أتت بها الريح التى يقسمونها هكذا بينهم بتراضى الطرفين ، وبطريقة لايحترق معها السفود أو الكباب،إن نبوءة ماركس الذى كان يعتبر الثورة فى أوربا فورية بينما رأينا أن حرارتها السابقة قد خمدت ، والأمر أيضا بالنظرة العلمية الدقيقة قابل للتحليل الصحيح والعلمى والواقعى ، فلو أن الوضع كان قد جرى على ماكان عليه فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولو أن صاحب العمل الذى كان كسبه لايزال شرعيا وقانونيا « على أساس الشرع والقانون الرأسماليين والعلاقة بين رأس المال والعمل والكسب » قد استمر ، لكانت تلك النبوءة قد صحت قطعيا ، فإن الرأسمالى بهذا الكسب المشروع لم تكن لتتيسر له قدرة « تحويل العامل إلى بورجوازى » وكل هذا الكرم الحاتمى غير العادى ، وكان لابد للأطرحة وعكس الأطروحة من طى مسيرتهما الحتمية الجدلية ،لكن ماركس كان فى بداية الاستعمار الثقافى الاقتصادى للشرق ومن ثم وضعه على الهامش، وتدخل الاستعمار فى مسار الحتمية التاريخية والحركة الطبيعية للجدلية الطبقية ، وبدلا من أن تترك البورجوازية تلك الجرثومة المضادة لها أى البروليتاريا لتنمو فى باطنها وتتوغل يوما بعد يوم وتفجرها من الداخل بهزة ثورية ، أخذت من تل الموائد الأرضية الجديدة التى تتخطفها من موائد آسيا وافريقيا ، وصبت فى حلقوم هذا المضاد لها ، وصبت وتصب وسوف تصب ، بحيث بدلت التناقض إلى تشابه والتضاد إلى تعايش بين الأطروحة وعكس الأطروحة ، ورأينا أنها وقفت ، وعلى حد قول شوارتز « لم يعد أكثر الماركسيين تفاؤلا ينتظر على الأقل فى المائة سنة القادمة حركة ثورية فى البروليتاريا الأمريكية » .

(١) المترجم : شطرة من بيت لحافظ الشيرازى .

كان شوارتز يتحدث فى قاعة مامدعوا من حزب P. S. U. « حزب الاشتراكيين المتحدين » ، وهو نفسه من قادته الفكريين العظام علاوة على مقامه العلمى البارز فى عالم العلوم الرياضية » ، وكان موضوع المحاضرة « تجديد الفكر الماركسى » ، ولأنى كنت من المعجبين بشخصيته الفكرية أو بشخصيته السياسية أكثر متعطشا لأفكاره باحثا عن أعماله حضرت ، وعندما وصل إلى هذه النقطة قمت وسألته :
أى سبب فى رأيك قدم هذا الوضع وأشبع العامل قبل أن يقوم بالثورة أو لكيلا يقوم بالثورة ؟ وكان الجواب معلوما : هو نفس وعى الرأسمالية وتعقلها ، وقيامها بالبحبحة على العامل والبروليتاريا ورتبت أمورها ونظمتها وحولتها إلى شبه بورجوازية .

ولو أننى كنت أسمع هذه الكلمات على لسان أحد الماركسيين الرسميين ، أى واحد من « قساوسة مذهب الإلحاد » وعملهم الأساسى الآن حفظ النص والسنة والرواية وعلم الحديث أو تبريره أو تأويله لصالح الخلافة والبدع الانحرافية وإحياء السنن الجاهلية لكان الأمر محتملا ، لكن هذا هو شوارتز ، المفكر الثورى الذى لايعترف بالماركسية كمذهب حكومى ولايعتبر المانفيستو أصلا للعقائد منزلا من السماء ، وألقى بعيدا منذ سنوات بدعوى الجدلية ومبدأ التغيير فى كل شيء ونسبية كل شيء وهذا نظريا ، أما عمليا : فترك مبدأ تنزيه ماركس عن الخطأ واعتبار الماركسية متونا كلاسية مخلدة ومؤيدة واعتبار تجديد النظر بعد مائة وعشرين سنة كفرا ، فهو إذن ماركسى معتزلى واعٍ مخلص ، والآن أسمع منه نفس هذه التحليلات النمطية ، نفس هذا الشيء الذى كنت قد سمعته عدة مرات فى قاعات المحاضرات فى السوربون ، وأيضا قرأته فى الكتابات والأقوال الوتيرية النمطية المملاة والمستملاة عند الحزب المسمى اصطلاحا بالشيوعى : حزب موريس توريز ، وخرجت عن طورى ونهضت . وكمظلوم بين جماعة من الظلمة وقفت فى مواجهة الظالم الأكبر وصرخت : ماذا تقول ؟ سيدى : ليس سخاء الرأسمالية هو الذى منح البروليتاريا الرفاهية والنعمة . إنه الاستعمار ، هو الذى جعل البورجوازى الغربى رأسماليا والبروليتارى الغربى بورجوازيا ، جردونا تماما حتى صنعوا بروليتاريا موسعا عليه ، بينما صار العامل والفلاح الشرقى فى طبقة مادون البروليتاريا ، ومحى

التاجر الشرقى والمالك الصغير الشرقى من الوجود ، أما الخان الشرقى فلم يبق له من كل ماكان يملك من ينابيع وأملاك ومخازن وقطعان غنم وبقر وخيل إلا « حساب الدكان » وقرض البنك حتى صار البروليتارى الغربى بورجوازيا صغيرا والبورجوازى الصغير رأسماليا والرأسمالى ممولا كبيرا ومؤسسا لاتحادات الشركات ، والخلاصة أننا سلبنا كل مانملك وبقينا جياعا حتى شبع العامل وصاحب العمل عندكم وامتلآ . على أساس نهب الشرق كل ماصنعوه . وكالعادة ، أراد أن يستخدم التحليلات الجدلية والماركسية والمتعلقة لعلم الاجتماع(اياها)، الا أنه قال وكأن يدا أمسكت بحلقومه فجأة : ليس عندى ما أقوله ، هذه هى الحقيقة العارية بهذه البساطة . وعدم فهم رابطة العلية المستقيمة بين هاتين الحقيقتين الاجتماعيتين المتناقضتين واللتين تحيطان بطرفى هذا العالم ، يعنى عدم فهم أى شىء قط ، يعنى الضياع فى متاهات البحوث الكلامية والجدلية والنظرية والعمى والابتعاد ، وهذه هى أبرز الروابط الجدلية وأقواها وأعظمها بين قطبى المجتمع فى الحياة البشرية المعاصرة ، وليست العلاقة بين طبقتين فى حدود مجتمع مجرد ومنفصل عن العوامل الخارجية المحددة والروابط العميقة البناءة الاستعمارية يسمى بالمجتمع الفرنسى أو الأمريكى أو الإنجليزى .... الخ .

ولو أننا نملك الرؤية الطبقية الواقعية ، لأدركنا أنه ليس هناك قطبان متناقضان أى بروليتاريا وبروجوازية فى واحد من المجتمعات الأوربية المحروسة . وعندما تكون القضية نحاسنا وإناءنا فهما متعاونان متفاهمان ، فتفاهمهما وجدلهما هو فقط من أجل تقسيم نحاسنا وإنائنا بل وحينما يأتى الاستعمار لايقسمنا إلى طبقات : من يملك ومن لايملك ، زارع وأجير ، عامل وصاحب عمل ، بل يقوم بنهب الجميع ، ينهب الدولة كلها . لنضرب صفحا عن تلك الأقلية التى لاتذكر والتى تحجل حوله للسمسرة والوساطة والخدمة والتبعية . فهؤلاء لا يشكلون طبقة بل جماعة ، جماعة عندما تقع عيون أنصاف مفكرينا وشبه ماركسيينا العوام السذج على هيئتها وشكلها وتشكيلاتها يظنون أنهم قاموا بكشف ماركسى ويعلنون : أيها الناس : البشرى ، لقد ظهرت البورجوازية ، العصرية ، الرقى ، الرفاهية ، نمو الرؤية الثورية ، غدا تقوم الثورة الفرنسية

الكبرى ، وكل من يعارض هؤلاء السماسرة « الصبيان » فهو رجعي ومتعفن ومناصر لنظم القرون الوسطى والإقطاع والسلطة الدينية ، وكل من يعتبر أن ظهور هذه الجماعة الجديدة من البشر الـ « دى لوكس » والـ « كذا درجة سوبر » وكلاء البيع للشركات الأجنبية زوائد فاضحة ومقلدة جديدة للحياة فى المدينة وليست نضجا للبورجوازية بل يعتبرها بقعا وبرصا وجرحا تنز من تأثير الاستعمار الجديد ، فهو إنسان قديم عابد للماضى ومعارض للدولة وتقدمها[1] بحيث إنه لايعلم هذه القاعدة العلمية الغامضة والتى فسرها علم الاجتماع وتقول أن ركوب النفاثة أفضل من ركوب البغال والهوادج القديمة وأن السيارة الكريزلر ذات الثمانى سيلندرات أسرع من الحمار الصغير النشيط والمسافر فيها أكثر راحة ، وأنها أفضل فى الأصل لأن :

١ – السيارة الكريزلر مصنوعة من المعدن والحمار الصغير النشيط من الجلد واللحم والعظم .

٢ – السيارة الكريزلر تعادل قوة كذا حصان فى حين أن الحمار الصغير النشيط حمار فحسب .

٣ – أن من يجلس فى السيارة الكريزلر يجلس على كرسى وثير ذى « سست » فى حين أن الذى يركب الحمار تتعرض الأجزاء الحساسة فى جسده للأذى من غطائه الخشن ، وفى بعض الأحيان يتطور الأمر إلى جراح مؤذيه .

٤ – أن من يركب السيارة الكريزلر فى أمان من الرياح والمطر ، فى حين أن الذى يركب الحمار يتحرك فى الهواء الطلق وبلا غطاء أو سا تر ... وهذه

المترجم : كأن شريعتى العظيم كان ينظر إلى مكان ما فى هذا العالم الثانى فتح عينيه فجأة وأدرك أن كل مصائبه وهزائمه نتجت من معاداة الغرب والانغلاق على الذات ، وقرر فجأة أن يربط عجلة اقتصاده العرجاء بعجلة اقتصاد الغرب الصاروخية ، وفى يوم وليلة أغرقت بضائع الغرب الاستهلاكية الأسواق ، وأسرعت السيارات الفارهة فى الطرقات ، وارتفعت العمارات فى الشوارع والفيلات على الشواطىء ، وامتلأت الصحف بحوادث ضياع عقد أو معطف فرو أو سرقة مجوهرات من منزل واحد بمئات الآلاف من الجنيهات ، ثم ينظر الناظر ويعرك يديه فرحا وهو يقول : ماهذا الرخاء ، ان عجلة الحياة تسير . ويبيت ويحلم بأنه يوما ماسوف يملك كل هذه الأشياء وسوف يشتريها دون أن يعلم أنها لن تكون له أبدا ، فالسلع التى تغرق السوق لايمكن أن يشتريها بدخله الذى يقيم أوده بالكاد ، والسيارات لن تترك له مكانا فى الشارع ، والعمارات لتمليك من يملكون بالفعل وفيلات الشواطىء تغلق البحر فى وجهه واحتكار الماء ومنعه من مجرد السير على الشاطىء وأن هذه ليست البورجوازية إياها التى ينتظرها بل بورجوازية عميلة تابعة لاقيمة عندها إلا التكاثر والاحتكار .

القاعدة فى حد ذاتها تتفرع منها تسعة فروع أخرى وتتشعب .
٥ – ان من يركب السيارة الكريزلر يقطع المسافة بين طهران ومشهد فى عشرين ساعة ، لكن أسرع الحمر الساحلية يقطعها فى مايقرب من شهرين .
٦ – أن من يصل إلى هدفه أسرع يقوم بأعماله أسرع وأفضل فى حين أن من يصل متأخرا يقوم بأعماله فى وقت أطول وبشكل أسوأ .
٧ – أن من لايضيع وقته فى الطريق تكون فرصته أكثر فى القيام بأعمال إنتاجية وأنشطة اجتماعية وسياسية وثقافية ونضال ضد الاستعمار وضد الطبقية والذى يسافر بالحمار يهدر هذه الفرصة فى طى المنازل وسط الطريق ونتيجة لذلك .... الخ .. الخ ... وهكذا فخذ عندك وامض حتى ثلاث عشرة مادة فى تفضيل السيارة ذات الثمانى سليندرات على الحمار الصغير النشيط وأفضلية النفاثة البوينج ٧٠٧ على الهودج الذى كان موجودا منذ سبعمائة سنة .

قام أحد أشباه المفكرين المفككين بدحض آرائى منتصرا للبورجوازية « وكان يقصد بالبورجوازية هذه الحفنة من سماسرة بيع البضائع الأجنبية ، وبعينه المصابة بالحول كان قد رأى هؤلاء المتشبهين الذين منحنا الاستعمار إياهم نحن الدول التى فى حال ... فى حال ماذا ؟ على أنهم نفس البورجوازية التقدمية فى أوربا القرن الثامن عشر » ، وصرخ فى صاحبنا قائلا : ياسيد فلان ... أيها الناكر للجميل ، هذه الحلة الجميلة التى لبستها وهذه السيارة التى ركبتها ، وشعرك هذا الذى صففته جيدا ، وهذا الأسفلت الذى تمشى عليه من المنزل إلى الجامعة ، وقلمك وكراسك و كتابك ومنزلك ، والكهرباء والماء والشوارع التى تشق فى مدينتك كلها من كرامات الرأسمالية ثم تسميها نظاما ظالما قد استعبد العامل عبودية أشق وأقسى من العبودية السابقة ! هل تأكل الملح وتكسر المملاحة ؟

وأنا الذى خجلت جدا من هذا التحليل الماركس الإيرانى ازدادت دهشتى وقلت : عجبا ، أنا غريق إنعام « النظام التقدمى » الرأسمالى البورجوازى وحنانه ومع ذلك أكفر بالنعمة ؟ هذه السيارة التى أركبها ! هذه الخصلات التى أمشطها كل يوم بالمجفف « السشوار » الكهربى ! وفجأة غلبنى الضحك ... رأيت

سيارتى مسكوفيتش ورأسى صلعاء ... على الأقل لست مدينا للرأسمالية من هاتين الناحيتين ». [1]

الماركسية والبنية التحتية :

والقضية الأخرى التى لاتقبل التحليل بالقواعد والقوانين الماركسية ، بل إن هذه القوانين مضللة بالنسبة لها هى قضية « البنية التحتية » فى المجتمعات المبتلاة بالاستعمار ، ولأن الماركسية كانت قد فسرت الاستعمار كحادثة أو كعلاقة عرضية مثل الحرب العالمية ، فإنها لم تستطع أن تضع لها مكانا فى قلب علم الاجتماع أو الاقتصاد و تتحدث عنه كعامل محدد ومميز ونتيجة لهذا افترضت المجتمع بشكل مطلق ، واعتبرت المجتمع المبتلى بالاستعمار مشابها للمجتمع الطبيعى ومتجانسا معه ، وجعلتهمامعا وبطريقة متساوية مصداقا لعلم الاجتماع عندها ، وهذا الخطأ الفادح ، بكل ما تعنيه كلمة خطأ ، استوجب سلسلة من التحليلات المفككة البعيدة وبالتالى أحكاما واهية ومتوهمة ، ونتيجة لذلك خطوط سير سياسية واجتماعية هى خطأ فى الأصل وبالتالى فإن الطريق الذى سلكوه كان يفضى إلى سراب وإلى تركستان[2] ، وهناك إلى جانب التجربة الواقعية التى شاهدناها عندنا ، كررت التجربة ذاتها فى كل الدول العربية والإسلامية .

---

(١) إشارة الى مقالات السيد على أكبر أكبرى وكتاب « بحث فى عدد من القضايا الاجتماعية » وكان مما ورد فيه : « إنك تريد بهذه الكلمات أن تقف فى وجه نضج الصناعة والعلوم فى إيران ، ومهما كان الأمر فلابد أنك تميل إلى وضع العراقيل فى وجه تصنيع إيران ، وبأقصى ماتستطيع تريد أن تجر عجلة حركة المجتمع إلى الوراء ... والسيد شريعتى بسبب ميله إلى الماضى وأفكاره الرجعية يسعى فى تصوير المجتمع الرأسمالى أقسى وأقبح وأكثر وحشية ورعبا مماهو عليه آلاف المرات ... ولو أردت أن أذكر الميزات العظيمة التى قامت بها الرأسمالية وأوفى الموضوع حقه للزمن أن أكتب كتابا مستقلا . يكفى ياسيد شريعتى أن تلقى نظرة عابرة حولك من المنزل إلى الكلية حتى ترى أن كل ماتملك هو من نتاج الرأسمالية : ملابسك الظريفة الأنيقة ، سيارتك ، صحتك ، استحمامك كل يوم أو كل أسبوع ، مدينتك وشارعك المعبد المرصوف من منزلك إلى كليتك ، الزبد واللبن المبستر وغذاؤك وعشاؤك المجهز على الغاز ، الأثاث والكرسى الذى تجلس عليه ، والكهرباء التى تنتفع بها والراديو والتلفزيون والقلم والقلم الجاف الخاص بك كلها من نتاج الرأسمالية » على أكبر أكبرى : فصل من كتاب « تئوريها وعقايد دكتر شريعتى » كما وردت فى كتابه « بررسى چند مسألة اجتماعى » فاعتبروا ياأولو الابصار .

(٢) المترجم : التعبير مأخوذ من سعدى الشيرازى : إننى أخاف ألاتصل إلى الكعبة أيها الأعرابى ، فإن الطريق الذى سلكته يفضى بك إلى تركستان .

ومما يؤيد هذا الرأى أن الماركسيين لم يستطيعوا القيام بعمل ما فى أية دولة من الدول المستعمرة فى العالم الثالث « آسيا وأفريقيا اللاتينية » وفى الحرب المضادة للاستعمار الأجنبى وهو خط النضال الأول فى هذه الدول ولافى الحرب الطبقية التى كانت محتدمة أيضا داخل المجتمع ، وحتى إذا كانت الأجنحة الماركسية قد قامت بدور ما فى هذه المجتمعات فهى أولا : أجنحة انفصالية كانت قد حررت نفسها من نير القيادة المتحجرة التقليدية أو التى « تأخذ الأوامر » من الحزب الرسمى .

وثانيا : أنها لم تكن قط فى الصف الأول للنضال ضد الاستعمار ، ونحن نرى ونعلم « وهذا الأمر ليس مستنبطا من التاريخ بل هو واقع حى وجار » أن الاشتراكية فى المجتمعات المستعمرة تقدمت الماركسية سواء فى ابتكار العمل أو فى قيادة الحركة . سوف تقولون : وكوبا ؟ نعم حين ننظر من على البعد ، هكذا يبدو ، لكنا لوعرفنا عهد « باتيستا » ودور الشيوعيين والقادة الرسميين للحزب الشيوعى الكوبى وعرفنا أبطال أول انتفاضة ضد باتيستا ، ولو عرفنا خاصة المسير الفكرى لفيدل كاسترو فى مراحل الحركة المختلفة خاصة فى بداية العمل وتملك زمام القيادة ، فإن ذلك التصور الكلى والغامض والقياسى الذى لدينا عن طريق أخبار الأذاعة والصحف عن حركة كاسترو سوف يصحح .

إنهم غالبا لايعرفون أن السكرتير العام للحزب الشيوعى الكوبى فى نظام باتيستا كان يشغل منصبا اقتصاديا حساسا فى الدولة « وحدث ولاتسل عن التداعيات التى تشبهها فى أماكن أخرى وفى مكان آخر [1] » . ومحاكمة فيدل كاسترو فى عهد باتيستا توضح الأمر تماما إذ لم يتهم قط بأنه ذو أفكار ماركسية ، فقد حوكم هو ورفاقه كدعاة شغب وشباب متحمس ومتعصب وقومى متطرف جاهل أداة فى يد السياسة الخارجية وإرهابى بلا مبدأ ولا أصل ... إلى آخره من الشتائم النمطية الحكومية من هذا النوع . وأثناء ذلك لم يقم الحزب الشيوعى الكوبى بأقل رد فعل أمام القبض عليهم ومحاكمتهم ، لأنه « لم يكن يعلم » .

---

(١) المترجم : يشير إلى تعاون الشيوعيين مع نظام الشاه فى مرحلته الأخيرة لبث أيديولوجية مشوشة للقضاء على انتشار الاتجاه الإسلامى . والشواهد هنا كثيرة جدا على تعاون الشيوعيين مع نظم عديدة فى مصر وغيرها للفتك بالأجنحة الثورية الأخرى .

لم يكن يعلم ؟إنعم . بعد سنة من استيلاء كاسترو على السلطة والانتصار التام للثورة ، قال كاسترو هذا فى واحدة من أهم خطبه وأطولها :

« عندما نزلنا فى ميناء هافانا للمرة الأولى ، انتشر خبر هجومنا على العاصمة فى كل أنحاء البلاد ، وبلغ مسامع قادة الحزب الشيوعى ، وسألوا الهجوم على هافانا ؟ من هؤلاء ؟ ...

وعندما هاجمنا مقر أركان الحرب واستشهد كاميولا بطلنا العظيم على أعتابه ، انتشر الخبر أن كاميولا أحد قادة حرب العصابات قتل فى مركز أركان الحرب ، وبلغ الخبر رئيس الحزب الشيوعى وهو جالس إلى مكتبه ، وسأل بدهشة شديدة : هجوم على أركان حرب الجيش ؟

الفدائيون ؟ كاميولا ؟ إلى أين ينتسب هؤلاء الفدائيون ؟ أى عمل لكاميولا هذا ؟ وعندما قالوا : تشى جيفارا ... سمعوا بالخبر من الإذاعة وهم فى فراشهم ، وبسحنة غير مصدقة : تشى جيفارا ؟ تشى جيفارا من ؟ أى تشى جيفارا ؟ أهو نفسه ... ؟ وعندما كتبوا فى الصحف فيدل كاسترو ... سمعواهم الخبر من الناس فى الشوارع ، وسألوا أنفسهم بدهشة تامة : كاسترو ؟ من يكون هذا أيضا ؟

الخلاصة أن هؤلاء لم يكونوا يعرفون شخصية واحدة من الشخصيات الثورية ، الخلاصة أنه لم يكن لديهم أى خبر عن بداية الثورة فى تلك الأيام ، الخلاصة أنهم فى تقييماتهم الماركسية،وعلى أساس تجاربهم ومعارفهم الثورية،وجدليتهم الطبقية وحتميتهم التاريخية كانوا قد توصلوا إلى نتيجة تقول:إن الظروف الواقعية للثورة فى المجتمع الكوبى ليست مهيأة ، وأن مجتمع كوبا لم يصل بعد إلى مرحلة الانفجار ، وليس بعد ... وليس بعد ... وليس بعد ... أجل : إنهم لم يصدقوا أن الثورة قد قامت ، حتى قامت ، حتى عندما وقفت على أقدامها أمام منازلهم حتى عندما أخذ الرصاص يهز زجاج نوافذ حجراتهم ، لم يصدقوا . كانوا يسخرون منها ، كانوا يحرفون حقيقتها ، كانوا يحللونها تحليلا غير صحيح وغير نافع ، كانوا لايعرفون أحدا قط من الأبطال الأوائل للثورة ، ولاوجها واحدا من الوجوه البسيطة المخلصة للمجاهدين ، فهؤلاء المجاهدون

لم يكونوا قد خرجوا من المراكز العلمية السياسية ولا من الجماعات التعليمية المنظرة فى الحزب ، كانوا قد خرجوا من بين الجماهير وأمسكوا السلاح ، وهم فى رأى العلم الثورى الماركسى يعتبرون طبقة متحجرة ومحافظة وغير ثورية ، ليس لديها وعى ثورى ولاتحريك ثورى ولامجازفة ثورية ، وهم على حد زعمهم أتباع يدخلون المسرح دائما فى المرحلة التالية . وهم من المخلوقات الجاهلة التى التصقت بالأرض والتصقت بالسماء ، إنهم زراع ، ليسوا من البروليتاريا ، وفى الثورة لايصيص من أمل بالنسبة لهذه السحن الفردية المنزوية المتربة عابدة الأرض المتدينة المتوكلة ، وكل منهم فى مزرعة واسعة أى فى عرض الصحراء ، ارتبط جسده بأرضه المقدسة ، وعلاقته بالله أو بأرض الأجداد أو بسيده أوثق من علاقته بزارع آخر ، ليس لديه وعى طبقى ، لأن الوعى الطبقى وليد الكثافة والزحام ، أما الفلاحون فهم يعملون وحداء بلا شريك ومبعثرين . البروليتاريا هى التى تعمل وهى متكاثفة والزارع فى عمله يقوم فقط بعشر العمل والتسعة أعشار الباقية يقوم بها الماء والهواء والمطر والموسم والأرض والسماء ، إنه يحرث الأرض وحده ، ويبذر البذور منفردا ، ويجلس معتمدا على الله وعناية الرسل الأطهار والأرواح الطيبة ، فإذا كانت السماء راضية عنه ترسل المطر ويصل إلى مراده وجزاء عمله ، وإذا كانت غاضبة ينزل البلاء ويضيع سعيه سدى من البرد أو الطل أو الجفاف أو السيل أو الإعصار أو المرض أو الصاعقة . حتى عندما يتكوم المحصول فهو ليس صاحب محصوله ، فالصاعقة له بالمرصاد ، ومن هنا فهو لايعتبر نفسه سببا فى العمل وسببا فى الإنتاج ، منه الحركة ومن الله البركة ، وعندما ينظر إلى المحصول يرى نفسه عاملا ثانويا ، إن الله هو الذى منحه هذا المحصول وهو الرزاق ، ولايعتبر نفسه سببا فى كسب هذا الرزق ، إنها إرادة الله . وينبغى أن يحصل هو فحسب على استحقاق هذه العطية ، الرزق فى مائدة كرم الغيب وعلى بابه قفل ومفتاح هذا القفل هو العمل ، بل إنه لايعطى كل من عمل مفتاح باب الرزق وخزانته ، ينبغى أن يظفر المرء برضا الله ، برضا الرازق .

ومن هنا فإن الزراع ليس منطقيا ، إنه عاطفى ، لايستند على عوامل عقلية بل على عوامل غيبية ، لايعتمد على شخصيته وعمله وابتكاره لأن العوامل الطبيعية

ذات سيطرة قهارة عليه وعلى عمله . ومن هنا : لما كان الزارع يعمل وحده ، فإنه لايكتسب إحساسا طبقيا وبالتالى فانه لايحصل على وعى طبقى ، ولما كانت العوامل الطبيعية الخارجة عن محيط قدرته تتدخل فى مسير عمله ونتيجة كدحه أكثر مما يتدخل عمله ، فإن الأمر ينتج عابدا للوهم مؤمنا بالخرافة ومتشبثا بالدين ومتوكلا ، ولما كان يقدس أرضه ، فإنه يكتسب علاقة عاطفية واجتماعية وأخلاقية ودينية بها ، ولما كان يملك شيئا على كل حال فهو محافظ . البروليتاريا فقط هم الثوريون . إنهم على العكس يعملون معا ويتكاتفون ، وكل يوم يزداد تكاتفهم ويغلظ ، عدة آلاف من البشر فى مصنع فى مسكن عمالى واحد ... ولما كانوا يعملون بالآلة ، فهم العامل التام والعلة الكاملة فى المحصول وليست لأداة العمل أية قدسية عليهم ، فهم لايرتبطون بها عاطفيا ، ليس هذا فحسب بل يضيقون بها ، ولما كانوا لايملكون شيئا يفقدونه فهم خفاف الأحمال فى الثورة ونتيجة لذلك فهم خفاف الأرواح ، والمحافظ هو الذى عنده شيء يحافظ عليه ، ومن هنا فالبروليتاريا ذات تكثف طبقى ومن ثم ذات وعى طبقى ، وكل يوم يستغلون أكثر من اليوم الذى قبله « فائض القيمة » وهم ذوو رؤية عقلية منطقية تقيم حساباتها ، ولما كانوا يعملون مع الآلة فهم لاينتظرون التأييدات الإلهية الغيبية ، يعتمدون على أنفسهم وعلى عملهم ، وبدلا من التوكل والتضرع يفكرون ويحسبون حتى يصلوا إلى أهدافهم ، ليسوا مرتبطين بالآلة ، وطبقة البروليتاريا تزداد يوما بعد يوم وتزداد تكثفا وتزداد كل يوم وعيا وتكاتفا ، وهى كل يوم أكثر طمعا وأكثر غضبا ، كما أن استغلال الآلة لهم يزداد يوما بعد يوم .

إذن : يجب علينا نحن الماركسيين الجدليين العلماء بالمجتمع الذين نؤمن بالاشتراكية العلمية أن نقوم بواجبنا أيا كانت الدولة التى نعيش فيها وهو أن نصبر حتى تأتى البورجوازية وتقضى على الإقطاع ، ثم تنضج هى نفسها وتتملك الآلة ، ثم ترقى إلى رأسمالية تنافسية وتربى داخلها جرثومة موتها أى الطبقة البروليتارية ، ويقوى هذا الجنين يوما بعد يوم ، حتى ينفجر بطن أمه فجأة ، وعندما يصل عمره إلى تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع ساعات وتسع دقائق ، نأتى نحن المفكرين الواعين إلى الميدان ونرفع أيدينا ، ونلبس القفازات والموادع ولوازم حضانة الثورة ، ثم نتعهد بتربية الوليد وحفظه من بلايا الأعداء ...

... لكن الآن والأمور تتغير ، فإن بيغاوات الماركسية أولاء لاتزال عندهم الفصاحة اللازمة ، الآن وقد هدأت العاصفة دخلوا الميدان ، وبالتدريج أزاحوا المناضلين الأوائل واحتلوا كل المناصب المؤسساتية والاجتماعية والسياسية . وفى رحلاتى الأخيرة كنت حيثما مررت بأحد الأقاليم أو القرى أبحث عن المجاهدين القدماء شركاء النضال فى الثورة ، وكنت أسألهم : ماذا تفعلون ؟ ماذا تشغلون من مناصب ؟ ، وكان جواب الجميع واحدا : لاشىء ، لانقوم بعمل ، لقد أزاحنا الشيوعيون إلى الوراء ، انهم يقولون : ليس لديكم الوعى الاجتماعى اللازم ، أنتم تفتقرون إلى استعداد التشكل الثورى ، ليس لديكم تعليم حزبى وتنظيم تشكيلى ، إنكم لم تعرفوا التعاليم الأيديولوجية ولم تخوضوا تجربة استراتيجية والآن مرحلة البناء ، وترشيد الثورة وبناء الاشتراكية فى مجتمع منحط ، لقد انتهت مرحلتكم ، اتركوا بنادقكم واذهبوا إلى اعمالكم ، ازرعوا قصب السكر ، أما حزب حراس الثورة فهم قيادة البروليتاريا ومعمار الاشتراكية . لقد أزاحوا كل رفاقنا الأصدقاء إلى الوراء بخسة . وأمسك ببغاوات الماركسية بالأمور فى قبضاتهم ، أولئك الذين كانوا فى عهد باتيستا يقضون الأيام يعملون خلف مكاتبهم فى الإدارات والمؤسسات الحكومية ، والليالى إلى مناضد المقاهى يشربون البيرة ويصطنعون نظرية الثورة »

الماركسية والاشتراكية والقومية :

لقد صبت الاشتراكية فى منتصف القرن العشرين على رأس ماركس نفس البلاء الذى كان قد صبه هو على رأس هيجل فى منتصف القرن التاسع عشر عندما خرج بجدليته . فقامت الاشتراكية بجدليتها ووضعت المخروط الماركسى من طرفه على الأرض ، وحولت طريق حافلة الماركسية التى كانت تنطلق بسرعة نحو الغرب حتى تمر بمنازل البورجوازية والرأسمالية فالرأسمالية الصناعية التنافسية لتنفجر فجأة فى أوربا الغربية على أيدى البروليتاريا الصناعية حولت مسار هذه الحافلة إلى الناحية المضادة فانفجرت قبل أن تصل الى البورجوازية فى أوربا الشرقية وآسيا وفى أفريقيا الصامتة المنسية ، بل وعلى أيدى الفلاحين المتحجرين المتدينين المحافظين عباد التقاليد . ومن هم ؟ السود البدائيون

القبليون والصفر الصوفية الشعراء ، ذلك الصيني الهادئ الذى كان ينعس إلى جوار عنزته النحيلة من نشوى الأفيون الذى كان الإنجليز يجلبونه له من مينائى موريس وجوها نسبرج ، وذلك الفيتنامى الصامت الذى كان وحيدا فى مزرعة الأرز والمطاط غارقا فى النيرفانا البوذية ، قد لجأ إلى عالم الانجذاب والخلسة فى داخله ، حتى المجتمع الروسى ، كان فلاحوه قد خرجوا من مرحلة العبودية لتوهم .

إذن ماذا حدث فى الغرب ؟ الجميع يعلم ، تماما بدلا من الشيوعية وفى الوعد المضروب لها وفى أوج نضوج الرأسمالية الصناعية التنافسية ، ظهرت الفاشية وعبادة العرق والتعصب القومى القذر والحرب ، لا ... هى حرب العامل والرأسمالى الألمانى والإيطالى واليابانى فى طرف ، والإمبريالية الإنجليزية والرأسمالية الأمريكية والشيوعية والسوفيتية فى الطرف المقابل . كل شىء « تلخبط » عجبا : ماذا ترى ؟ ستالين وزوزفلت وتشرشل وماوتسى تونج وتشانج كاى تشيك يشد بعضهم على أيدى البعض ويشربون الأنخاب ضد اليابان وضد هتلر وموسولينى .

أين طبقة البورليتاريا ؟ أين طبقة الرأسمالية ؟ أين اليسار ؟ أين اليمين ؟ لقد تداخلت الجهات الأربع و « تلخبطت » صارت الأراضى ستة والسموات ثمانية[1] ... وكان صوت الحرب الحقيقية يصك المسامع فى ذلك الطرف من الأرض و « من حيث لايحتسب » فالسود والصفر والمسلمون والعرب والبربر والزراع والرقيق والعبيد قد هبوا . الإقطاع يتفتت على يد الاشتراكية ... لكن من هؤلاء ؟ هذه هى الرأسمالية الغربية تمر فوق جثثنا حتى توصل الأسلحة إلى العالم الشيوعى ، إلى نظام ديكتاتورية البروليتاريا ، وفيه يذهب آيزنهاور وجوكوف كتفا الى كتف لاستعراض الجيوش :

من القضاء زاد مخلوط الخل بالعسل حدة الصفراء وزيت اللوز كان يزيد فى اليبوسة [2]

---

(١) المترجم : مثل فارسى يضرب كناية عن اختلال الأمور وشدة الهول .

(٢) المترجم : بيت لجلال الرومى ويضرب مثلا عندما يؤدى العلاج إلى عكس ما يراد منه .

أما الجدلية وحتمية التاريخ وعلم الاجتماع والاشتراكية العلمية وأسلوب كشف التاريخ و ... الخ فقد أصبحت كلها غير صالحة للعمل ، والماركسيون الذين كانوا قد وصلوا فى علم الإنسان إلى اليقين وحق اليقين بل وعين اليقين ، وكان كل شيء قد حل بالنسبة لهم فقد وقفوا مبهوتين ، لقد قامت القيامة ، صارت السماء أرضا والأرض سماء ، لم يعودوا يعرفون أيديهم اليمنى من أيديهم اليسرى ، وقام « علماء السوء » و «وعاظ السلاطين » عندهم طبقا لمصالح « الخلافة » و « السنة الجماعة » و « المذهب الحق » و « حفظ بيضة الماركسية الحكومية » بإلصاق عدد من النظريات بشارب الخليفة أمير المؤمنين حضرة ستالين « المعلم العاقل للبشرية » ، ووصلوها ب « أصول الدين » وراج سوق « كتابة الحاشية على المتن » والتأويل والتبرير الذى لايتفق والنص و .... الخ .

لكن جماعة من الذين لم يكونوا يعتبرون أنفسهم « دعاة » و « مدافعين بلا قيد ولاشرط » عن الإسكولاسية الجديدة أحسوا بضرورة أنه ينبغى أن يجدد النظر فى تلك المبادئ الأولية ، إذ لايمكن بتلك المعايير الكلاسية تقييم ماظهر فى هذا العصر ، فكل الحسابات والنبوءات والتوقعات بل وخط السير الطبيعى للأحداث السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية والطبقية قد تغيرت . ففى البداية نجد « الرأسمالية التنافسية » السابقة التى كان يعرفها ماركس وطرح علم الاجتماع السياسى الاقتصادى عنده على أساسها ومستندا على خصوصياتها آخذة فى الزوال وتعطى مكانها بهدوء لـ « رأسمالية تعاونية متفاهمة » ، والمسألة الحساسة جدا والتى تحدد الأمر وهى « المنافسة » أخذت تمّحى قليلا داخل اتحادات الشركات وتعاون رأس المال والأسواق المشتركة الخفية والمعلنة وأعطت مكانها لاللمصالحة فحسب ، بل وللتعاون والتفاهم ، فالرأسماليون يتجمعون معا ويعقدون الروابط ويصنعون نسيجا سرطانيا عالميا يضغط جسد العالم بقسوة داخلة .

لقد تغير وجه العالم كلية ، وتبدو ماركسية القرن التاسع عشر غير ملائمة لهذا الجسد الذى تغير بطريقة لم تتنبأبها ، تبدو ضيقة وقصيرة وممزقة وغير مناسبة ، إذا جذبتها من ناحية تمزقت أكثر من ناحية أخرى ، تغطيها هنا ،

فتعرى هناك إذن : ينبغى تجديد النظر فيها ، وجددوا النظر ، كلهم حتى الحكومات التقليدية الماركسية ، أى نفس أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تجديد النظر كسبة يتهمون أعداءهم بها ، تجديد النظر ؟ أجل أى البدعة فى الدين ، البدعة ؟ أجل ، إدخال ماليس فى الدين فى الدين ، وماذا يعنى التعايش السلمى والوفاق ؟ يعنى « تأسيس شركة مساهمة للكفر والدين » تفاهم المدافعين عن عبادة الواحد مع المدافعين عن عبادة الأصنام ، ضد من ؟ ضد من لاإله لهم ، الأمم التى لاصاحب لها .

وماذا تعنى ثورة الفلاحين ؟ تعنى ، لا ، فى تلك الأمم يقوم الفلاح بالثورة ، أما جماعات العمال الصناعيين فى الدول الجديدة فهى محافظة وراضية عن أحوالها وشاكرة ، هؤلاء ينبغى أن يصلوا بعد ذلك ، الاشتراكية غير الشيوعية ، أما الدولة فلا ينبغى أن تختفى ، ليس هذا فحسب بل يجب أن تكون أقوى وأكثر مسئولية . والثورة العالمية خيال ، والمسرح الحقيقى للثورة هو القومية ينبغى صنعها فى الداخل وتصديرها إلى الخارج ، تأميم رءوس الأموال الصغيرة المبعثرة والملكيات الصغيرة التى لاحصر لها .

على كل حال ، الفرق بين القطبين : القطب « العابد للسنة » و « الوفى للأصول الكلاسية الماركسية » الذى يجيز « تقليد الميت » إلى أبد الآباد ، وبين القطب الذى يعلن على الملأ لزوم تجديد النظر و « البدعة » ، الفرق موجود فحسب في « الإعلان » و « التقية » والا فان حتمية العصر ، وتغير الروابط الطبقية والأسس الاقتصادية والتكتلات السياسية وحدوث أمور لم تتوقع ، قد دعت القطبين إلى تجديد النظر فى الماركسية الكلاسية ، بطريقة دفعت فيدل كاسترو إلى أن يقول بصراحة عندما كان يعلن الماركسية اللينينية كنظام لبلده رسميا : « أنا لاأفهم الماركسية بدون تجديد نظر » .

ومن هنا فإن كاسترو قومى قبل أن يكون ماركسيا ، وكان قوميا قبل أن يصير ماركسيا . ومن أجل أن تتضح قاعدته الاجتماعية أكثر يمكن القيام بمقارنته بالشخصيات المضادة للاستعمار من أمثال سوكارنو وبن بيلا ونكروما ولومومبا ونيريرى وسياسيين من أمثال موريس توريز وتوجياتى وبليشت وجومولكا وكادار .

ويستطيع مفكرون من أمثال سارتر فهم كاسترو أفضل من المنظرين الرسميين من أمثال سوسلوف ، وقد فهمه أبطال الحركة المضادة للاستعمار أسرع ، واعتبروه واحدا منهم أكثر من الجدليين حملة « الماركة المسجلة » ورعاة (الاشتراكية العلمية) الذين أخذوا « الطغرا » من دار الخلافة « بغداد » .

أعلم أن الذى يجعلكم مترددين فى قبول هذا الرأى القائل بأنه قومى ، وهذه القاعدة القائلة بأن القومية قد فاقت الماركسية بعد الحرب الثانية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وكان لها الدور التقدمى والطليعى ، هو أنكم تفهمون القومية بنفس معناها المعهود القديم ، ولكم الحق فى ألا تقبلوا الأمر ببساطة ، فكيف يمكن لإحساس وعاطفة قومية وعرقية وتعصب للتراب والدم أن يكون أكثر ثورية من الاشتراكية العلمية الثورية ومن أيديولوجية طبقية مبنية على الجدلية ؟ لكن ، امسحوا هذا المفهوم القديم للقومية من أذهانكم ، ليس لأننى لن أستخدم هذا المصطلح بذلك المعنى هنا ، بل لأنه لم يعد اليوم بهذا المعنى فعلا ، ليست أسس القومية اليوم هى مبدئية التراب والدم والعصبية القومية وعبادة العرق والمفاخرة بالأجداد والتساميات القومية ، إن القومية فى عصرنا ذات

مفهوم طرحي وعكسي أكثر ، هي « استجابة » وليست قاعدة مطبقة عليا ومفضلة ، هي « تضاد حتمي جدلي وضروري » وعلى حد قول شاندل : « إن القومية لاتتحقق عندما تولد الأمة ، لكنها تتحقق عندما تهدد الأمة بالفناء » .

في أواخر العصر الساساني لم يكن للقومية الإيرانية وجود ، ومنذ أن بدأت الخلافة العربية الأموية والعباسية في الهجوم عليها والسعي للقضاء على وجودها ظهرت . ومن هنا خلافا لما هو متصور في الظاهر نجد القومية الإيرانية لا في عصر الاستقلال الإيراني أو حكم العرق الإيراني بل نجدها في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وليس من قبيل المصادفة أن تدون الشاهنامة في تلك الفترة ، ويكون الأبطال القوميون العظام والحركات ذات الجذور القومية العسكرية والشعبية والثقافية والأدبية في هذه الفترة .

ويمكن أن نجد القومية العربية في عهد الخلافة الأموية والعباسية بدخول عناصر غريبة إلى المجتمع الإسلامي هددتها بالزوال ، وتعرضت للهجوم بسلاح المساواة الإسلامية ، وقامت الحركة الشعوبية العامة التي سلحت بمنطق الإسلام وطرحت كباطل .

يقول هايدجر : « الأنا ... أي وجودي الحقيقي معدومة في الحياة الاجتماعية وهذا في كل أحوال الإنسان المختلفة ، في علاقته بالأفراد والأشياء والأمور الأخرى ، وعندما توضع في مواجهة واقعين فحسب يتحقق الوجود الحقيقي أي الأنا ، هذان الواقعان هما : الموت والعشق » لماذا ؟ لأن الموت يقضي على الأنا ، عندما يتجه الموت إليّ بالهجوم توجد الأنا، العشق أيضا عنده نفس الهدف ، فالعشق يقطع كل التعلقات ،أي كل علاقات الفرد وروابطه مع غيره ، ولما كان الوجود المجازي للفرد وهو وجوده الارتباطي حجابا لوجوده الحقيقي فإن العشق بتمزيقه لهذا الحجاب يرفع النقاب عن وجوده الحقيقي ، ويعطي الوجود للأنا : أنت نفسك حجاب نفسك فتنح ياحافظ عن وجودك بيننا[1] .

---

(١) البيت كما هو واضح لحافظ الشيرازي ويضرب مثلا عندما يكون وجود الشخص بينه وبين آرائه مسببا لضلاله . المترجم .

ومن هنا فالقومية الجديدة ليست واقعا مجردا قائما بذاته ، بل هى رد فعل منطقى ، اعتراض يتحقق فى علاقة تنازعية جدلية ، فالاستعمار فى سحنته الإمبريالية السياسية الاقتصادية الثقافية السوداء المميتة يهجم على مجتمع ما ذى تاريخ وثقافة وشخصية معنوية ومادية تسمى « الأمة » ، فيقوم بنفى خصائصها الوجودية الماهوية ومحو وجودها القومى ويغير على ثروتها ويقتل تاريخها ويحتقر ثقافتها ويسخر من صفاتها وعاداتها ومعنوياتها ودينها ، ويمرغ فى الطين كل أبعادها وملامحها الاجتماعية والإنسانية التى تشكل أصالتها واستقلالها حتى تجد نفسها فاقدة لكل محتوى إنسانى وشخصية وغنى معنوى ، ومن ثم تستسلم للذلة والتبعية والتلون وتقليد القردة ، وتظهر فى الأمة آنذاك « عكس للأطروحة » وحركة حتمية ورد فعل فى مواجهة هجوم الموت تسترد الروح وتجسد الحياة والحركة حتى تدافع عن نفسها وحتى تطرد هجوم الموت والزوال الاستعمارى عن حريم وجودها . أما القومية القديمة فكانت عبارة عن تصلب رأس مغرور ومتكبر وعنقه يلتوى بعنجهية وتنفج وادعاء أمام الآخرين ومظاهر جاهلية أرستقراطية وابتلاء بعبادة الملك ، لكن القومية الجديدة مثلها أن يقيم رجل حر وذكى رأسه وعنقه فى مقابل شيطان أسود استولى على رأسه وعنقه وقيدهما بأنشوطة عبوديته ، وابتلاه - هو الذى كان « شخصية وأسرة وغنى ونظاما وهيلمانا - بالفقر والجهل والتقليد ، وأصبح يسميه نصف بدائى ومتأخر وفى حالة تقدم » ، ويسميه جائعا مستحقا للعون وشحاذا من أجل البقاء حيا ، ومتكئا على عصا من أجل أن يستطيع السير .

هذان النوعان من القومية يتشابهان فى الظاهر وعن بعد ، لكن فى الباطن وحقيقة الأمر لاوجه للتشابه بينهما أبدا . أحدهما تمرد على العبودية وسحب للعنق من القيد وكفاح من أجل النجاة والاستقلال السياسى والثقافى والمعنوى والقيادى ، والنوع الآخر جاهلية مغرورة قبيحة جدا ، ومن السذاجة ألا نعرف التمييز بين الحرية والكرامة وبين التنفجات القومية والقبلية ، وماذا يوجد من شبه بين النازية الألمانية والفاشية الإيطالية من ناحية وبين حركة المقاومة فى باريس وصمود ستالينجراد فى الحرب الثانية من ناحية أخرى ؟ ومن هنا فإن ما أسميه هنا القومية وأقارنه بالماركسية أعنى به الحركة التحررية المضادة للإمبريالية عند الأمم المستعمرة فى العالم الثانى « الثالث سابقا » ، وما أسميه

بالماركسية أعنى به الأحزاب التى اختارت الماركسية رسميا كأيديولوجية وتدعى قيادة الشعوب وتعتبر أنفسها أكثر الأجنحة التقدمية طليعة فى الجناح الثورى والمدافع الوحيد الصالح عن الجماهير ، والذى تتبلور فيه مبادئ العمال والفلاحين ، ومنجى الناس وصانع الاشتراكية والصاحب الوحيد لمدرسة علمية اشتراكية مسلحة بالجدلية ومجهزة بفلسفة الحتمية العلمية للتاريخ وغيره ، وتعتبر القوميين فاقدين لهذه المزايا ، وتتهمهم بالميول البورجوازية والإقطاعية والرجعية والميول التفاهمية الاستسلامية والخلو من الرؤية العلمية الطبقية والاستراتيجية الصحيحة الثورية الواعية والانطلاق من عواطف وفورات قومية ودينية ، لكننا إذا تركنا حرب المصطلحات والألفاظ وجمال المصطلحات الرائعة الرنانة ، وقمنا من خلف مناضد البحث ، وأغلقنا كتب الدرس ، وعدنا إلى مسرح الواقعات العينية والمصدقات الخارجية الحساسة الملموسة ، وعلى أساس أسلوب علمى جديد بينه ديكارت بقوله « لنضع أيدينا على كل الأوراق والكتب والمصادر والمنابع التى نستخدمها فى البحث والتنقيب والموجودة على المنضدة ولنمحها ، ولنترك الجدل الكلامى والأبحاث النظرية والقياسات السوفوسطائية والمناظرات الأسكولاسية ولنقم بدلا منها بالمشاهدة العينية والمقارنة ، وعلينا ألا نخطو خطوة واحدة خارج دائرة الحقائق الحية والعينيات الخارجية ، ولنمح من أذهاننا الأحكام المسبقة ، والأفكار السابقة على الحقائق ، فاذا ماأراه على العكس تماما مما كنت أفكر فيه ، وكنا نستنبطه ونستنتجه وآمنا به » .

فى كل أنحاء أمريكا اللاتينية نرى أحزابا شيوعية ذات تاريخ فى مقابل حركة كاسترو ، ولم يسمع مفكر مستنير قارىء عارف بالسياسة اسما واحد لأحد الشخصيات البارزة فى هذه الأحزاب ، أو يذكر عملا من أعمالهم ، وهذا هو اسم تشى جيفارا وكاسترو يهز قارة أمريكا .

وفى شمال أفريقيا : قارنوا الحزب الشيوعى الجزائرى « شعبة فرنسا » بجبهة التحرير الجزائرية وجيش التحرير الجزائرى واتحاد الطلاب المسلمين الجزائرى التى قامت بأكثر الأدوار حساسية فكريا وعمليا فى الحرب المسلحة ضد الاستعمار الفرنسى ، بمنظمة الشباب المرتبطة بالحزب الشيوعى التى – فى ماعدا لافتتها – لم تسمع لها أذن صوتا ولم يشم أنف لها رائحة ، وانظروا إلى

الجماعة العلماء التى قامت باعلان الجهاد الفكرى والاجتماعى والثقافى والعسكرى وصارت سدا فى كل طريق فى مواجهة الاستعمار الفرنسى ونفوذه الشامل ، وأضرمت أول شرارة للحرية فى قلوب الناس ، وانظروا إلى الشخصيات القومية لهذه الحركة من أمثال : عبد القادر رئيس القبيلة الذى حارب ثلاثين سنة ، وبن بيلا وبن خده وكريم بلقاسم وآيت أحمد ومحمد حيدر وهوارى بومدين وعمر مولود[1] وكتاب ومفكرين من أمثال : فرانز فانون وكاتب ياسين وزهرة رديف وجميلة بوباشا . عجبا : كم هى مثمرة هذه الثورة ومربية للمواهب وكم تصنع من البشر !!

أنظروا إلى الإسلام ، في العشرين سنة الأولى من عمره تظهر فيه شخصيات عظيمة مهما طوفت فى الألف سنة الموجودة من عمر إيران القديمة لن تجد واحدا منها ، وفى آخرها فى عهد أنوشيروان نصادف بعض أسماء الأطباء والحكماء ، لكن ماأسرع مايصاب المرء بالإحباط ، إنها أسماء أجنبية بختشيوع و .... الخ ، أجل : هؤلاء هم علماء الروم الشرقية الذين غادروها خوفا من اعتناق جستنيان المسيحية وجاءوا هنا وأسسوا جامعة جنديسابور ، لاجئون سياسيون ، إذن فأول جامعاتنا فى العصر الذهبى القديم أقامها اليونانيون ؟ !! إذن : فلماذا صارت هذه الأمة اليائسة العاقر هكذا مدهشة مؤسسة للجامعات والمدارس والمكتبات التى لانظير لها فى العالم « حتى اليوم » بعد الإسلام ؟ كيف صارت صاحبة كل هذه الكشوف والكرامات فى عالم البشر وبسطت ظل سلطان مواهبها العلمية والفكرية والسياسية من الصين حتى شمال أفريقيا وجنوب أوربا ، وانسحب تأثيرها حتى قلب أوربا فى القرون الوسطى وعصر النهضة وأوربا الحديثة ؟ السبب : الثورة ، الثورة الفكرية والإيمان الحار الجديد الذى يغير الروح والعرق والرؤية وكل شيء ، الأيديولوجية ، مايخلق الفوران الداخلى والخلاقية والخصوبة والثقافة والحضارة الحقيقية عند الناس ويالها من صداقة الدبة ، صداقة دعاة الإيرانية ، أجل .... أولئك الذين – نتيجة للعداوة للإسلام

---

(١) أديب ومفكر عظيم له نصيب كبير فى تكوين الشخصية الأدبية لكامو ، وهو واحد من أقطاب الأدب والثقافة الفرنسية اليوم بلا منازع ومرجع لنقاد فرنسا المعاصرة وكتابها وشعرائها . وأخيرا كان قد رأس طائفة من العلماء الجزائريين كلفوا من قبل الجبهة بوضع أساس الثورة الثقافية والإحياء المعنوى وتنظيم نظام التعليم فى الجزائر . ودخل حملة الرشاشات فى الجيش السرى الفرنسى فجأة مكان الاجتماع وقتلوهم جميعا .

التى أصبحت موضة – يشطبون كل هذه الثروات العظيمة والمفاخر الغالية التى تصنع الشخصية بعد الإسلام ، والجنس الإيرانى لم يزدهر هكذا أبدا ، ولايملك دليلا كهذا يعترف به العالم على قدرة نبوغه وخلافيته وجدارته الذاتية ، وعندما يقوم بالسخرية من هذه الثقافة العالمية أو كتمانها ، يسرعون فى البحث عن دليل عن القومية والمفاخر القديمة ، وعندما لايظفرون بشىء ذى قيمة يصطنعونه ، أجل ، لا ، كانت موجودة ، كانت أيضا كثيرة ، لكن هؤلاء العرب قضوا عليها ، أجل ، كانت ، بل كانت كثيرة ، لكن الإسكندر الملعون حملها وأخذها معه ، وكان مما أخذه أن خرج كل هؤلاء الفلاسفة والفنانين والعلماء والأدباء وصارت اليونان هى اليونان . حسنا : بأى دليل ؟ بدليل العقل ، يعنى هل من الممكن أن أمة عظيمة وقوية وشهيرة ومتحضرة مثل إيران فى العصر الأكمينى والأشكانى والساسانى لايكون لديها شىء محترم ؟ لايكون لديها فيلسوف أو شاعر أو مفكر وعالم وكاتب ؟ لا ، إذن كان لديها ، نعم ، حسنا ، أخذوهم ، بلا جدال ، هذا الإسكندر أو العرب أخذوهم ، الملعونون ؟ حتى أسماء فلاسفتنا وشعرائنا ونوابغنا العظام سرقها أولئك الأنذال ... حسنا ، والآن : ماذا علينا أن نفعل ؟ لاشىء ، نشتم العرب والإسكندر ، ونربى أطفالنا منذ الصغر على بغضهم وكراهيتهم ، لكى يعلموا فى الغد عندما يكبرون من الذى ألقى بهم فى هذا اليوم الأسود وحتى لايخدعهم ثانية الإسكندر وعمر ويزيد بن المهلب ، ويعيشون « بالفكر الطيب والقول الطيب والعمل الطيب » وهى كل ماتبقى لنا من ثقافتنا القديمة العظيمة ، أحسنت لكن : فى مقابل الشخصيات القومية العظيمة فى حركة التحرير الجزائرية نجد فى الحزب الشيوعى الجزائرى : بن عليشير فحسب والسلام واسمه بسبب مقامه كرئيس للحزب وليس بسبب عمله . وكان هناك أيضا أربعة محترمون مثل عمر اوزجان وهنرى آلج وبعد بداية حرب التحرير هربوا من الحزب وانضموا إلى الجبهة ، وبقى فيه فقط أولئك الطليميون الجدليون جدا جدا مشغولين بالتحليل الماركسى للقضايا الطبقية والحتمية التاريخية وكل الفروع الكلامية فى هذه الأسكولاسية الماركسية الجديدة .

وفى الدول العربية واحدة واحدة ، يعتبر وضع الجناحين معلوما وكان معلوما (والعراق وحدها فيها ثلاثة أنواع من الأحزاب الماركسية) ، وفى مراكش : بن

بركة ، وفى الهند : روفى ، وفى أندونيسيا : سوكارنو ، وفى دول أفريقيا السوداء واحدة واحدة ، فى تنزانيا : نيريرى وفى كينيا : جومو كينياتا ، وفى غانا : قوامى نكروما وفى الكونجو : لومومبا .

سوف تسألون : إذن لماذا الحال فى الشرق الأقصى غير هذا ؟ صحيح ليس هكذا ، لكن استثناء الشرق الأقصى لاينقض هذه الحقائق ، لكنه يدفعنا إلى التفكير : لماذا هو هكذا ؟ لأندريه مارتينيه أحد الخبراء المشهورين فى دول العالم الثالث رأى بشأن الدول الإسلامية يمكن تعميمه على كل الدول غير الإسلامية التى تشابه أوضاعها أوضاع الدول الإسلامية ، ويمكن اعتباره إجابة على هذا السؤال :

[إن الماركسيين فى العالم الإسلامى قد فشلو جميعا وبالرغم من كل الظروف الاقتصادية والسياسية المواتية والموجودة فى أيديهم ، لم يستطيعوا إحراز أى نجاح ، وذلك لأنهم غفلوا عن البحث الدقيق والصحيح فى الواقع الاجتماعى لمجتمعاتهم وروحها وتاريخها ومعرفة نوعها ، ودون أن ينتبهوا إلى أنه ينبغى عليهم أن يعرفوا الأرضية التى يريدون العمل فيها ، بدءوا بتطبيق القواعد الجافة الكلية للنظريات الماركسية كما كانوا قد تعلموها فى أوربا ، وعندما عجزوا عن تطبيق هذه النظريات على الواقع الحى والروح الاجتماعية والخصائص العينية لشعوبهم وظروف مجتمعاتهم ، انتهت كل جهودهم إلى الفشل .]

ماهو التصور الموجود فى أذهان الناس عن شخصية أحد الماركسيين ؟ هذا هو : شاب مرتب ونظيف ومتفرنج وعصرى جدا ومتقعر فى كلامه تماما وكثير الادعاء ، ومتعصب ضد الدين والأخلاق والروحانيات والتاريخ والأدب ، يعرف الكثير من « الأشياء » ، وبالنسبة له حلت جميع مشكلات العالم والإنسان ، وهو أيضا مكفهر جدا [(١)] مثل شعرائنا القدامى الذين تعلموا اسم زهرة الأرجوان

---

(١) فى الكلية كان أحد تلاميذى الكسالى ماركسيا كل مالديه من كل المبادئ العلمية والاجتماعية للماركسية زوج من الشوارب فحسب وكان كلما يلتقى بى ينظر إلى شذرا وكأننى قتلت أباه ؟ ويتعمد أن يبدى لى أنه لايحبنى ، وظننت أنه ربما كان مختل الأعصاب فلست على خلاف مالى أو عائلى أو قانونى مع أحد ، ولما سئل عن السبب تفضل وقال: إن أحد تلاميذ فلان صديقى وهو يقول : إن فلانا ويعنينى لايحلل القضايا التاريخية بأسلوب جدلى ، ورؤيته الطبقية قاصرة .

من ديوانى سعدى وحافظ ، وأخذوا فى الأشعار التى « يرتكبونها » يقومون باستخدامها باحساسات رقيقة وتشبيهات واستعارات ومجازات لطيفة وشاعرية ، لكن نفس هذه الزهرة التى من فرط عشقهم لها ولجمالها يشبهون لون محبوبتهم ووجهها ورائحتها بها ، لوأنها ظهرت أمام عيونهم فى الحديقة ماعرفوها ، ولو أن البستانى عرفها لهم ، ربما لاستساءوا ، هؤلاء يعشقون كلمات الشعب والجماهير عن طريق الآداب الاشتراكية والأعمال التقدمية والديموقراطية والشعبية والأجنبية ، ويستخدمون هذه الكلمات بوجد وإحساس ، إلا أنه عندما تسقط أعينهم عليهم فى الحارة والسوق والقطار والمصنع والقرية والمقهى والتكية والمسجد ، يسدون أنوفهم من رائحة عرقهم ، ويضيقون جدا « بقلة تربية هؤلاء الحمقى أهل الطبقة الدنيا وقذارتهم وانعدام إحساسهم » ويقول : « هذه الأنماط الشعبية تعيش كالحيوانات ، تتمرغ فى القذارة والشقاء ، لقد صممت حتى أقنعت بابا وماما ببيع المنزل والانتقال إلى هذه الأحياء الشمالية والنظيفة فى المدينة ، إن سكان أحياء الجنوب لايحتملون ، أما هنا فالناس بشر محترمون حقيقة ومتحضرون . »

والقضية تشبه قضية ذلك الأستاذ العالم الذى كان أول من يقوم معارضا للحجاب ، وكان يلقى المحاضرات ويكتب المقالات العلمية والاستدلالية الكثيرة عن حرية المرأة ومساواتها بالرجل ، ثم يقول عندما يريد الحديث عن زوجته « أخت السيد حسن متوعكة » .

كان أحد هؤلاء المفكرين الشعبيين جدا عباد الشعب يتلو فوق رأسى دائما طبقا لنصوص « ماهو الأدب » الأوربية : « سيدى ، ينبغى أن تنزل من أبراجنا العاجية ، ينبغى أن ننزل إلى الحارات ، مالم ينطلق المفكر من الناس ، ومالم يعرف الجماهير فهو سجين فى عالم ذهنيانه ومجرداته . يقول ماو : إن المفكر ينبغى أن يختلط بالجماهير . تماما مثل السمكة فى الماء ، ويقول المخرج الروسى المعروف الذى أخرج عندما تطير طيور اللقلق ومصير إنسان : ينبغى أن تجلس عدة ليال مع فلاح روسى وأن تشرب معه مائة زجاجة من الفودكا حتى تستطيع أن تفهم نمطه جيدا . أجل فالمفكر أيضا مخرج ، وعلينا أن نعرف الفلاح والعامل أكثر حتى نوقظه ونعطيه الوعى الطبقى » ، وكنت أعلم أن هذا السيد يتحدث حديثا مترجما لأستفيد فحسب من آرائه العلمية ، لأن من كل كلامه هذا معقوله ومنقوله

والذى كان يتفضل بقوله بكل هذا التفصيل والتفصيص : كان يعمل فقط بمسألة شرب الفودكا ، ليس مع الفلاح بلا شك بل مع الرفاق الواعين المتعاطفين الذين كانوا يحسون بأنفسهم ملتزمين فى كافتيريا هوتيل بالاس .

وذات يوم أخذ نفس هذا السيد « الشعبى الديموقراطى اليسارى وغيره » ينصحنى أنا الذى رؤيته الطبقية ليست بالقدر الكافى قائلا : « لاأريد أن أقول إنه ينبغى أن نحصر أنفسنا ونتكبر ، لكن المرء لاينبغى أن ينزل بقدره ، ويهش لهؤلاء الطلاب بحيث يظنون أنهم أمام إخوتهم ، إنك ان قللت من قدرك فهم يقللون منه ثم لن تستطيع إيقافهم ويبلغ بهم الحد إلى الوقوف أمامك والتدخين أمام وجهك ، ويضيع احترام الأستاذية وكرامتها ، وبعدها لايعطون أية قيمة لدروسك وأبحاثك ، إنه يقال : إنك حتى تسير معهم وتذهب معهم إلى الكافتيريا وتثرثر معهم ، أعلم بلاشك أنها أقوال مختلقة ، لكن مايلاحظ وهنا أيضا أنك عندما تنتهى من محاضراتك يلتفون حولك – ينبغى أن تحفظ الحدود والفواصل . إذا فقد الإنسان الاحترام لايبقى له بعده شىء ، فضلا عن أننى سمعت أنك قمت بإلقاء محاضرات فى مؤسسات غير جامعية ، حقيقة أن هناك أساتذة محترمين وجامعيين مشهورين مثل الدكتور نصر والدكتور زرياب خوئى والأستاذ محيط طباطبائى ألقوا محاضرات فى نفس المكان لكنها على كل حال مؤسسات غير جامعية ، كل أنواع البشر يتجمعون فيها ، سوقة وتجار وأنماط عامية ... وهذا يحط بشخصيتك العلمية ، إن طالبا واحدا لايستطيع الضحك أمامى حتى إذا تفكهت أنا نفسى ، يسلمون بخوف وخشية ، يفض فم الطالب عندما يقف ليقاطع كلامى ويناقشنى أو يدخل معى فى جدل ، لست مستعدا حتى ولو أعطونى مليون تومان أن ألقى محاضرة أمام أنماط غير جامعية أو فى محافل غير رسمية ، إن المرء لينزل بمستواه ، ينبغى أن تنتبه من نفسك جيدا من أجلنا على الأقل ، فنحن زملاء وحيثيتنا الاجتماعية واحدة خاصة فى مجتمعنا ومع هؤلاء الناس الذين لاقيمة لهم ولايعرفون حدودهم .. بغفلة بسيطة تتحطم شخصية المرء ..... »

وعندما كنت أسمع آداب المعاشرة الكونفشيوسية هذه ، والأخلاق والعادات التى تفوح منها رائحة الأرستقراطية العفنة ، وهذا التراث « الكورتوازى » لمجتمع إقطاعى وملكى وكله من فم هذا المتشبه بالاشتراكيين ، ماذا كنت أستطيع أن أقول إلا « ... أخى العزيز ... هل الشخصية قطعة من الزجاج تكسر

بضربة واحدة ، الشخصية صفة ذاتية وأصالة وتسامى معنوى وأخلاقى فى الـ « أنا » الخاصة بى ، ليست وهما أوتصورا فى نظرات الآخرين ، ليست الشخصية وضوءا يبطل بغفلة صغيرة ... وإن كانت هكذا ، أبطلها بغفلة كبيرة . ولنمض » .

تفسيرى للدين والعلموية :

ينبغى أن أوضح فى البداية أى تفسير لدى للدين ؟ ثم أوضح كيف أدعى أن الاسلام بسبب روحه السياسية والثورية الخاصة وبسبب أنه هو الذى يصنع تاريخ أمتنا وثقافتها وروحها ووجدانها وروابطها الاجتماعية ، وسبب أنه ذوحياة وحركة يستطيع أن يتعهد برسالتين اجتماعيتين حيويتين وفوريتين فى عهدنا الحاضر ، تعدان أكثر احتياجاتنا فورية وهما :

١ - ايجاد الرباط الثقافى المباشر للذات ، فإن الفجوة التى ظهرت بين « عوام الناس » و « خواص المفكرين » فى ثقافتنا المعاصرة [1] ليست فحسب مأساة اجتماعية وثقافية كالمرض ، بل ومقبرة هائلة ومهولة لكل جهود العلماء الواعين ومدفناً لكل آمال الجماهير المحتاجة الأسيرة .

هذه الفجوة سوف تملأ بهذه المادة المعنوية المولدة للقوة .

٢ - ينبغى فى الخطوة الأولى أن نعترف - مهما كانت عقيدتنا الشخصية والفكرية - بأن مجتمعنا مجتمع دينى . وللأسف خلط مفكرونا ومتعلمونا الجدد مقولتين منفصلتين تماما بالنسبة للقضايا الاجتماعية فى أذهانهم : احداهما « الحقيقة » والأخرى « الواقع » وأقصد بالحقيقة مانعتقد فى صحته أو «ماينبغى أن يكون» ، وأقصد بالواقع مانعترف بوجوده ونعتقد أنه موجود ، أما

---

(١) الميزة الموجودة فى ثقافتنا القديمة أن الذين كانوا يتعلمون فى المراكز العلمية حتى فى أعلى مستوياتها العلمية ، لم يكونوا محبوسين قط فيما يسمى بالتعبير الأوربى بالبرج العاجى للفردية الفكرية والروحية ، وكما هو محسوس الآن لايقطعون صلاتهم وتفاهمهم بالجماهير ومعها ، وأى مجتهد دينى يكون فى متناول أيدى الناس ببساطة . فهو المرجع الحر للجميع . مثل هذه الصلة « مع ملاحظة أن العلوم القديمة لم تكن ذات جانب عام » بين العلماء والعوام ليست بسبب سمات العالم الدينية ، لكن عاملا اجتماعيا طبقيا مهما جدا له دخل فى وجوده سوف أذكره ، كما أننى ذكرته فى كتابى « كوير » .

مسألة خيره وشره أو قبحه وجماله أو حقه أو بطلانه فهى مرحلة لاحقة هى مرحلة الحكم الذهنى . وفى بعض الأحيان تنطبق الحقيقة مع الواقع . وفى عبارة أخرى : إن الواقع أمر مطلق وخارجى والحقيقة أمر نسبى ونظرى وقد يعترف شخصان بواقع أمر ما ويختلفان فى حقه أو بطلانه ، وعند الأوربيين مصطلحان دقيقان يفصلان هذين المفهومين كلا عن الآخر ، أولهما الحكم بشأن الأمر الواقع **juge ment de fait** (كيفية الشيء) والآخر الحكم بشأن قيمته **juge ment de valeur** (هل هو حسن أو سيء) .

فى المرحلة الأولى أقرأ المثنوى ، وأجاهد حتى أفهم كل ألفاظه ومصطلحاته وكل الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة والإشارات والكنايات التاريخية والأسطورية والدينية والأدبية فيه ، وكل أنواع الصنعة اللفظية والمعنوية والدقائق النحوية والفنون الشعرية التى يحتوى عليها ، ونبحث صياغة الشعر فيه وأسلوب البيان والعقائد والأفكار والميول الفلسفية والمذهبية والعرفانية والذوقية حتى نعرفها تماما وبدقة ، ونتناول التصوف والعلوم الإسلامية والثقافة والروح الاجتماعية والخصائص التى كانت موجودة فى عصر مولانا جلال الدين وإيران فى العصر المغولى ، وكل الشخصيات التى أثرت فى تشكيل شخصية مولانا جلال الدين والأبعاد المتعددة لروح مولانا : والده ، شمس الدين التبريزى وضياء الحق ومحمد زركر وسنائى والعطار .... الخ .

هنا أكون قد وصلت إلى آخر المرحلة الأولى للعمل أى الحكم على واقع المثنوى ، وفى كلمة واحدة أكون قد عرفته . فى هذه المرحلة أقوم فحسب بدور الباحث . وليس لى أى دخل فى موضوع بحثى ، فآرائى وعواطفى وذوقى أمور ساكتة ومعطلة تماما وأقل ظهور لهذه العوامل يعمينى ، وفى هذا المجال ينبغى أن أكون بتعبير بيكون « عينين جافتين علميتين » بصيرة حادة وذكية ولاشيء آخر ، هنا أستطيع أيضا أن أتعاون مع آخر قام من أجل معرفة المثنوى بتنحية نفسه جانبا ، وحمل فحسب نظرته الحادة ذات الأبعاد والفهم المدرك والمعارف والتجارب اللازمة الموجودة لديه ليستخدمها فى إدراك الواقع مجال الدراسة وكشفه وتوضيحه وتعليله ، أتعاون معه واستمد منه وأعتمد على نظرياته مهما كنت صوفيا مسلما بينما هو مادى أبيقورى .

وعندما نصل الى نهاية هذه الجولة والرحلة ونجد هذا الاستشراف الشامل على موضوع البحث فلنا الحق آنذاك - أو فى رأيى أنا من مسئوليتنا - أن نجلس وتصبر أنفسنا ونقوم بتقييمه .[1]

والتقييم ، يعنى الحكم على قيمة العمل وليس « بحث خصائصه » أى الأمر الذى ينبغى أن نكون قد قمنا به فى المرحلة السابقة ، ومن هنا ينبغى أن تجر قدم آراء المرء الفلسفية والدينية أو اللادينية وميوله الذوقية والأدبية إلى الميدان ، وينبغى أن تجر ، ولابد لها أن تجر ، ونتيجة علمه ورسالته فى الأصل كامنة فى هذه النقطة ، أى أن يقيم ويحدد الطيب والسيء والحق والباطل والجميل والقبيح ، وإلا فان العلم إذا ظل فى المرحلة الأولى - كما يظن العلمانيون والقائلون بمبدأ العلم للعلم وحياد العالم - فسوف يبقى عقيما ، واذا لم يقم العالم بتعيين القيمة وإذا لم يتخذ موقفا بالنسبة لما يعلم ، وإذا لم يعلن حقانيته من بطلانه ونفعه من ضرره ، من الذى إذن ينبغى عليه أن يقوم بهذا العمل ؟ هل هم السياسيون والعوام والمتعصبون العميان الجهلاء ؟

وعلى هذا النسق سوف ترون أن النزاع الذى لاطائل من ورائه والذى احتدم بين الجناحين المعروفين والذى هو نتيجة سوء العرض والخلط فى موضوع البحث ينتفى موضوعيا وذلك لأن العلم ينبغى أن يكون محصورا فى إطار التحليل ومعرفة الواقع ، وإذا أراد أحد أن يقيمه أو يأخذ جانب القبول أو الرفض منه أو يقوم بتأييده وإنكاره يمسخ ويصير أداة فى يد آراء شخصية أو ميول دينية وسياسية واجتماعية خاصة سبق تحديدها ، ولامفر من أنه بدلا من أن يواصل طريق الموضوعية والصراط المستقيم لبلوغ الواقعية ويصل إلى المنازل أو النتائج التى يصل إليها بنفسه ، يصير مثل فلسفة العصور الوسطى وفنونها ،

(١) لاتوجد للأسف حدود وفواصل دقيقة للمصطلحات العلمية حتى فى لغة مفكرينا ومتعلمينا ، ولما كنا نستعملها على سبيل الإجمال والإبهام ومختلطة معا ، ولانعرف روح المصطلحات واختلافها الدقيق المترادف أوحتى مفاهيمها ومعانيها الدقيقة المحددة ، فقد صار عمل نقل المعانى والبيان الدقيق للأفكار العلمية والفلسفية والأدبية بالنسبة لنا صعبا ومليئا بسوء الفهم والتعبير ، كما وقرفى أذهان الجميع هذا الظن المتوهم القائل بأن اللغة الفارسية ليس لديها الاستعداد الفنى الكافى لتحمل المعانى العميقة الجديدة وعاجزة عن بيان دقائقها وخصائصها ، وقد قمت فى عدد من النماذج ببيان أن هذه الفكرة خاطئة ، ليس هذا فحسب بل إنه يمكن باللغة الفارسية العادية لابتخريجات بعضهم المضحكة نقل أعمق المفاهيم العقلية والعاطفية وأكثرها مغلقات بحيث تبدو الترجمة أجمل من النص .

مطية تسحبها ميول الأفراد أو الجماعات وآراؤهم المسبقة التى تأخذ فى حسبانها أهدافاً حددت سلفا إلى ناحية أخرى وتوصلها إلى منازل أخرى ، وعلى حد قول دى لاكروا « لاتوجد آفة أكثر قتلا للعلم وأكثر تحريفا له من أن تملى عليه نتائج مطلوبة من قبل ، كل نوع من الالتزام يلزمه التقيد والمسئولية تعنى إلغاء الحرية ، ولايوجد فى العالم ماهو محتاج إلى الحرية احتياج العقل والعلم لها » .

هناك ملايين البشر فى العالم أسارى حرب الجهل والانحطاط الاجتماعى والفقر المادى والمعنوى وليست مشكلات حياتهم هذه المجهولات الفلسفية والعلمية وقضايا الوجود والعرض والمادة والطاقة ، لكنهم يريدون معرفة كيف يقضون على أنواع الصدأ والأمراض والتحجرات الاجتماعية التى تصيبهم ، وكيف ينفثون الروح فى الجسد الميت لأممهم ويهبونها الحياة والحركة ؟ كيف يصنعون حياتهم ، وكيف يتخلصون من أنواع التأخر ؟ أية أهداف يحددونها وأى طرق يسيرون فيها ؟ كيف يعرفون حيل العصر واستغلاله واستعماره وأنواع صناعة الرقيق وتربية السفلة وكيف يقاومونها ؟

على كل حال البشرية فى حاجة الى الرفاهية المادية والحرية والنضج والثقافة والمعنويات ، وجماهير العالم الثانى والطبقة الثانية فى العالمين تحتاج إلى هذه الأشياء حاجة فورية وحيوية ، وإذا كان العلم يريد فى هذا الموقف - وثلثا البشرية ومصير الإنسان وغد الإنسان أمور مرتبطة به أن يتنحى ويصير محايدا وموضوعيا وأن يمنع نفسه عن إيجاد الحلول للقضايا والتنبؤ بها وتقييمها فبأى شيء ينفع ؟ هذه التقوى تقوى مشئومة . لايوجد فى هذا العالم ماهو أكثر مسئولية من العلم . عندما كنت طالبا فى الجامعة قدم لى أستاذى العظيم الدكتور فياض الذى كان رئيسا للجامعة أحد الأمريكيين وقال : إنه سوف يبقى فى مشهد عدة أيام ليقوم بدراسة آثارها التاريخية وأحوال الثقافة والدين والأدب فيها وعادات سكانها فكن رفيقا له . كان متخرجا من جامعة هارفارد العريقة كما نال الدكتوراه فى علم الإنسان الثقافى فى الشرق الاسلامى الإيرانى وتعلم الفارسية والأدب والتصوف الفارسيين وهما البنية التحتية لعلم الإنسان الثقافى فى إيران . ولكنه لم يستسغ مولانا جلال الدين وسألت عن السبب فقال :

لقد كان منحرفا جنسيا وتعجبت وقلت فى نفسى : لابد أن مولانا له رأى سىء فيك وإلا فان أشد الناس خبثا وأكثرهم تعقيدا مهماكانوا أقذار لا تدخل رءوسهم الضيقة الملوثة أية علاقة إنسانية أخرى بين بشرين إلا العلاقة الجنسية لم يجوزوا هذا الاتهام بالنسبة لمولانا .. وكأن أخانا هذا كان أمريكيا جدا جدا .

ثم تحدث عن عمله ، لقد قضى فترة طويلة فى شيراز مشغولا بعلم الإنسان الثقافى وكانت رسالة الدكتوراه الخاصة به عن « الدين عند سكان شيراز فى المائة سنة الأخيرة » ، كان قد مسح مساجد شيراز مسجدا مسجدا وأحصى أعمدتها ووصف أقطار المآذ ن وأطوالها وأشكالها وأنواعها وألوانها وزخارفها وبحث بدقة أوقاف المساجد ، وذكر أئمة الصلاة والمقابر وصلوات الجماعة ، ومعدل تردد الناس على كل مسجد ومجموعهم ، والبرامج الدينية فى المساجد والتكايا ومجالس قراءة الروضة والتعزية والوعظ والفتيا والهيئات الدينية وعدد الملات والطلبة الدينيين وأهل المنبر ومئات المعلومات الأخرى بحثها بدقة وقدم لها الإحصائيات كوم متراكم من المعلومات بحيث كان الأمر مهما جدا بالنسبة لى أنا المسلم الإيرانى ، قلت : لابد أن نظريات مثل هذا العالم المطلع الذى يتناول تخصصه علم الإنسان الثقافى والدينى عندنا سوف تكون مهمة وقيمة جدا ، وتداعت عشرات الأسئلة الحساسة التى تعد الإجابة عليها بالنسبة لى وبالنسبة لكل المتعلمين والمفكرين خاصة بل والناس أنفسهم قيمة جدا ، وكنت فى انتظار الفرصة لأعرضها عليه واحدا واحدا ليتفضل بالجواب عليها : فى النصف الأخير من هذا القرن أى تطور حدث فى هذه البيئة ؟ هل التحديث الذى دخل على الدين التقليدى تقدم به خطوة أو انحرف به ؟ هل للدين فى الظروف الحالية لهذا المجتمع دور إيجابى أو دور سلبى ؟ تحريكى أو تخديرى ؟ ... وكان جواب كل هذا واحدا ، مصحوبا بلا شك بابتسامة فلسفية جدا ناتجة عن الطمأنينة الكاملة والعلم اليقينى وتعنى أن كل هذه الأشياء قديمة جدا ففى العالم اليوم وبالنسبة للرؤية والروح العلمية فى القرن العشرين حلت القضية : « إن العلم لايحكم اليوم ، هذا عمل الفلسفة والدين والسياسة وميدان العمل عند العلم هو تحليل الوقائع وتفسيرها وكشف الروابط والظواهر » وبعدها تركته ويئست ، رأيته وكأنه من سلسلة متعلمينا المفككين الذين سمعوا كلمات متقطعة وممزقة وبعيدة عن الموضوع وأخذوا يرطنون بنفس الطريقة ،

وكما تقتضى طبيعة الأمية وانعدام الإحساس يتفضلون بتفسير أى موضوع بحسم وتعصب وكبرياء شديدة وأن « كل شيء بالنسبة لهم واضح » ، وعند إبداء الرأى لايستخدمون أبدا عبارات من قبيل : « لاأدرى وأظن ، ربما ، أغلب الظن ، المظنون ... وغيره ».

يقول أناتول فرانس « العالم هو من يعلم الفرق بين أنا أعلم وأنا أظن » وهذا هو أبو حنيفة : من ضمن خمس مسائل تسأله فيها امرأة عامية يجيب عن ثلاثة بـ : لاأدرى ، وتندهش المرأة التى ترى أنه كلما سألت نصف فقيه حيها عن مسألة دينية أو علمية أو تاريخية أو فقهية أو فلسفية وطبيعية وطبية وخصوصية ، فالجواب في جيبه يخرجه على الفور ولم يقل طوال عمره : لاأدرى ، وتقول : ياشيخ هل تأخذ أموالا من بيت المال لكى تجلس فى المسجد وتقول : لاأعلم ؟ ويجيب الشيخ : لايا أمة الله ، ان مايعطونه لى من أموال من بيت المال من أجل ماأعلم ، ولو أنهم أرادوا على حدقوللك أن يعطونى مالا على مالا أعلم لما كفت أموال الدنيا .

وتذكرت أحد الذين دأبوا على نقدى ومصدر معلوماته فى علم الاجتماع « ميدان علم الاجتماع » ترجمة السيد أربان بور وأحاديث الأصدقاء . كنت أقول فى محاضرة : كان الأستاذ جوروفيتش أعظم أساتذة علم الاجتماع فى فرنسا الآن يقول : اكتشف عالم من علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر ١٩٨ قانونا فى علم الاجتماع ، أما اليوم فلا يدعى علم الاجتماع الجديد اكتشاف قانون واحد كلى مسلم به ... وكلما تقدم العلم تواضع ، وعلم الاجتماع فى القرن العشرين أكثر تواضعا من كل العلوم الأخرى . وعلى سبيل المثال إبداء رأى علمى بشأن وجود محمد صلى الله عليه وآله وسلم وظهور الإسلام فى مثل تلك البيئة مسألة معقدة من مسائل علم الاجتماع ، فضلا عن أنه علم الاجتماع المختفى فى التاريخ وأيضا مع معلوماتنا القليلة الناقصة عن كلا العلمين ، وهو أمر ليس بالسهل بالنسبة لى على الأقل بالرغم من أن دراستى وأبحاثى ودروسى وحياتى المعنوية والاجتماعية فى هذه الميادين الثلاثة التاريخ وعلم الاجتماع والإسلام .

ورأيت الناقد المذكور يتفضل قائلا بعصبية ولهجة « هذا ولاسواه » :

لاياسيدى ، علم الاجتماع اليوم مثل الرياضة ٢ زائد ٢ يساوى ٤ ، علم الاجتماع صار علما له تكنيك ، وكل القضايا الاجتماعية قد حلت ، وعلى سبيل المثال محمد والإسلام كانا نتيجة حتمية للظروف المادية والاقتصادية فى البيئة ، أى أنه لما كانت مكة واقعة فى ملتقى طرق القوافل تغيرت البنية التحتية الاقتصادية للمجتمع ولابد أن تتغير البنية الفوقية الثقافية والأيديولوجية ، ومن هنا تكون محمد فى هذه الظروف وظهر الإسلام ، فالبطل أو القائد مثل شجرة تنمو فى أرض عامرة وخصبة وجو مساعد يولد فى مجتمع متقدم ومتطور ، نتيجة لتغير الوضع الاقتصادى صارت مكة مجتمعا متقدما ، وإلا فلماذا لم يظهر فى المدينة مثلا وغيرها من بلاد العرب ؟

وبعدها أحسست بالادانة وذهبت إلى منزلى ، وفى المنزل أصبت بالاكتئاب من غبائى هذا ، إذ ظللت أفكر فى هذه المشكلة خمس عشرة سنة ، وقلبت العصر الجاهلى عند العرب ظهرا لبطن ، وبحثت حول قبائل العرب واحدة واحدة وحول مشاهير مكة والمدينة فردا فردا ورؤساء العشائر وكل أسر قريش وكل الشعراء والتجار والشيوخ والقصص والعادات والتقاليد والرسوم والطقوس والعرق وجغرافية الجزيرة وكل العالم فى عصر البعثة وحياة الرسول يوما بعد يوم وأسرته فردا فردا وصحابته واحدا واحدا وأعدائه وكل حركاته وسكناته وخطبه وتاريخ الإسلام ومدرسة الإسلام ، وكتبت وترجمت وحاضرت فى هذه الموضوعات مايملأ آلاف الصفحات ، وتعليمى وبحثى وتدريس وكل عمرى الحقيقى فى الأصل وكل حياتى المعنوية مضت وتمضى فى هذه الفروع الثلاثة من علم الاجتماع وفلسفة التاريخ والإسلام ، وفى هذا المجال تتلمذت على علماء عظام فى الإسلاميات ، وقضيت فى الخارج بضع سنوات تلميذا على جورفيتش وآرون عالمى الاجتماع والبورفسير ماسينيون وجاك برك وبرنشويج وهنرى ماسيه علماء الإسلاميات ، وقرأت دروسهم طالبا ، وكل فكرى وذكرى وأوقات عملى وفراغى قضيته وأقضيه فى هذه القضايا ، وبعد كل هذا لم أفهم كيف صار محمد محمدا فى مثل تلك البيئة وكيف صار الإسلام إسلاما فى ظل تلك الظروف ، وسيادته بالحصول فقط على معلومة بسيطة غامضة وردت فى كتب المدارس الثانوية أن « مكة كانت مدينة على طريق التجارة » قام بحل معادلة مجهولة غامضة لاتحل وذلك عند الوداع على باب منزله دفعة واحدة ،

وتفضل بالجواب ، ومضى .

(مارأيه هو بأن الإسلام ظهر أصلا فى المدينة وليس فى مكة)

والآن هيا وامض واقرأ الكتب واسهر الليالى حتى الصباح واقتل النوم ، وهيا من هذا التاريخ إلى ذاك التاريخ ومن هذه النظرية إلى تلك الفرضية ، ومن هذه الوثيقة إلى تلك الوثيقة وهيا افترض ورد على فرضيتك ، وهيا تحير ، وهيا قل :

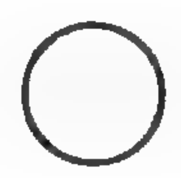
إذا كانت مكة بيئة صالحة ومحتاجة للحركة والأيديولوجية الثورية ، وأن الإسلام ومحمد نتيجة لظروفها الاجتماعية ، إذن : لماذا كانت هذه البيئة مثل الحجر الصلد فى مواجهة هذه البعثة ، مقاومة وغير قابلة للتأثير ، وظل نضال ثلاث عشرة سنة على الدوام دون تأثير وكان نتيجة مائة شخص أغلبهم « من المتفرقين ومن الموالى والعبيد والرقيق » فضلا عن أن هؤلاء هاجروا إلى الحبشة والمدينة ، وبدأ الاسلام من الهجرة أى بعد أن ترك مجتمع مكة ؟ وإذا كانت البيئة المتحركة والمتطورة التجارية قابلة للجديد وراغبة فى التطور فلماذا كانت المدينة المتحجرة المغلقة التى كانت قائمة على الزراعة وعلى بنية بدوية قبليه أرضية قبول وتنمية لمثل هذه الثورة العالمية العظيمة وتغيير اجتماعى وثقافى ودينى فجائى وجذرى ؟ وإذا كان وجود مكة فى ملتقى طرق تجارة عاملا لظهور نوابغ مثل محمد وعلى لماذا فى بداية هذا الطريق وهدفه الأصلى أى إيران واليمن والروم الشرقية التى كانت قمة الحضارة والتقدم والسلطة والقدرة الاجتماعية والثقافية لم يظهر نبوغ الإسابورذو الأكتاف وهرقل ؟ وإذا كان الوجود فى طريق القوافل يخلق مثل هذه المعجزات والكرامات ، ينبغى إذن أن يوجد أعظم نوابغ الدنيا ومصلحى العالم داخل « مقهى زيدر » ، وإذا كانت البيئة المتقدمة المتحضرة تخلق بشرا عظماء ، والعلاقة بين النبوغ الإنسانى والمجتمع هى علاقة الأرض بالشجرة المثمرة ومن هنا نما محمد وصحابته الثوريون فى مكة لافى مكان آخر ، قياسا على هذا كان ينبغى فى نفس الوقت أن يظهر « الله » فى المدائن والقسطنطينية والعياذ بالله . ورأينا أنه حتى « حمار الله » لم يظهر فيهما . وأيضا استنادا على نفس هذا الأصل العلمى الجديد ، كان ينبغى أن يخرج النوابغ الذين غيروا وجه التاريخ لا من الصحراء القاحلة والمواطن المتأخرة وبين بدو ، بل فى القلب النابض القوى لأكثر الحضارات والمجتمعات تقدما : فيكون موسى الراعى لابس الأسمال الذى يرعى خراف شعيب من

واشنطن ، وعيسى الصياد الشاب الوحيد لامن سواحل البحر الأحمر الساكنة ومن بين شعب فقير مستعبد بل من لندن ، ومحمد اليتيم الذى كان يرعى غنم أهل مكة فى قراريط ، لامن الصحراء المميتة ومن بين قبائل بدوية بل من جامعة السوربون والكوليج دى فرانس فى باريس ، أما فى عصورهم لخرجوا من الروم وهليوبليس وهكمتانه « همدان » ونيسابور وبلخ والقسطنطينية ، ومن بين أناس راقين وحضارات إيران والروم العظمى .

كل هذه التساؤلات لاطائل من ورائها ، ودليل عدم فهم علم الاجتماع ، وعدم وجود جدلية ورؤية مادية طبقية ، اللهم إلا إذا كانت تحل مثل الرياضة ، ٢ زائد ٢ تساوى ٤ ، فالقافلة تمر من هناك ، ثم يتغير البناء الاجتماعى ، ومن داخله يقفز جبرا محمد وعلى عمر وأبو بكر وأبو ذر وبلال وكتاب مثل القرآن وكلام كنهج البلاغة وثورة شاملة عالمية تنمى الثقافة وتخلق الحضارة وتصنع التاريخ ، ودفعة واحدة فى ظرف عشر سنوات أو عشرين سنة .

بهذه البساطة ؟ نعم بهذه البساطة . فعلم الاجتماع اليوم علم الأشياء التى توضع فى آلة تامة الأتوماتيكية اسمها « الديالكتيك » ، وأى مجهول من المظنون فعلا أنه لايحل تضعه بسهولة تامة داخل البنية السفلية ، وبطرف إصبعك الأصغر تدق فيقفز الجواب خارجا من البنية الفوقية ويسقط داخل جيبك فتخرجه وتعطيه لمن يسألك ، فهذا هو الجواب حتى لو كنت أنت نفسك لاتفهم ماذا تم ، ألست ترى أن كل هذه الأجوبة قد تأطرت وتقولبت و « تكلشهت » و « فبركت » وصارت على وتيرة واحدة ؟ التكنيك الألكترونى كامل الأوتوماتيكية للمادية الديالكتية !!!

أهذه هى الماركسية ؟ أجل ماركسية الورد والبلبل .



علم الاجتماع والالتزام :

المصيبة العظمى هي أن علم الاجتماع في القرن العشرين قد سجن في الجامعات ومؤسسات البحوث العليا ، وأنه حصر في قلعة العلمانيه وابتلي بالمرض العضال الموضوعية والانزواء العلمي ... وفي المستشفيات الأكاديمية ، وضعوه على الفراش ، وشغل الأساتذة المتخصصون بتمريضه ، ومنعوا الناس من الزيارة .

عندما كان البروفسير جوروفيتش أعظم نوابغ علم الاجتماع المعاصرين في فرنسا يقول في قاعة ديكارت وبلهجة قاطعة غاضبة : لاينبغي استخدام علم الاجتماع كأداة للوصول إلى أهداف سياسية . لاينبغي أن يتحول علم الاجتماع إلى تكنيك ، كل ميل أيدلوجي يمسخ علم الاجتماع ، لاينبغي أن تستغل الحقيقة العلمية لصالح المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ينبغي أن يكون علم الاجتماع مبرأ من أي التزام ، وينبغي أن يكون على حذر من التنبؤ والحكم وتقييم القضايا أي تحديد الصالح والطالح ، والإرشاد والاقتراح وتقديم الخطط وإبداء خطوط السير واتخاذ المواقف ، الخلاصة ينبغي أن يحذر من إبداء الرأي والدفاع والدعاية لمسلك ما ومن باب أولى التخطيط وتحديد الأهداف السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وإذا أردنا أن نحدد رسالة لعلم الاجتماع اليوم فإن رسالته هي عدم الالتزام بأي نوع من الرسالات . والقيد الوحيد على العلم ينبغي أن يكون الحرية من أي قيد ، لسنا في القرن التاسع عشر حتى يقوم علم الاجتماع المغرور الساذج بتكوين المدارس الأيديولوجية وخطوط السير الاجتماعية والسياسية ذات اللون الديني ويصير خادما للسياسة والأحزاب والطبقات الاجتماعية والعواطف القومية » .

وعندما كنت أسمع هذا النوع من الاحتجاجات العلمية الموضوعية في علم الاجتماع على لسان واحد من أبدال علم الاجتماع المعاصر وأعلامه العظماء ، كانت الرعدة تتملكني وكان صراع بين العلم والعقيدة قد نهض في داخلي وكان يمزق روحي إربا في شك وحيرة عظيمين ، فلو كنت مضطرا ألا أرى نفسي ، ولو كنت لاأحس بالمسئولية لواصلت بمقتضى ذوقي الشخص وميلي الباطني الفلسفة وعلم الدين والنقد الأدبي والفن ، بحيث يروى ظمأ روحي ،

ولواصلت الكتابة وهى عندى نوع من « مزاولة الحياة » وأعظم أنواعها ... بل والنوع الوحيد الذى يمكن من أجله تحمل ثقل هذه الدنيا وغثائها وأهلها . لكننى لم أكن فردا حراً .

فمن ناحية كانت جذورى الطبقية قد جعلتنى مسئولا ، فمن بين ملايين الاستعدادات التي سجنتها الثقافة الجديدة والتحديث الجديد - الذى فرض على بلدى - فى الأرياف المغلقة الراكدة ، وطريق الخروج ودخول الجامعات من أبوابها الأرستقراطية ومن باب أولى الخروج من البوابات الخاصة للبعثات الى الخارج للدراسات العليا مسدود أمامهم،واحد فحسب قد استطاع « بفضل الله » و « مساعدة الحظ » و « فى غفلة من الزمن الأعوج » أن يفر من هذه القلعة المغلقة ، ومن بين فجوة فى جدار الجامعة يقفز إلى داخلها بل وفجأة يجد نفسه فى قافلة تحمل أولاد الأشراف ومدللى المملكة وزبدة البورجوازية الجديدة فى المدينة وأحيانا أولاد خانات الإقطاع الذين أصبحوا عصريين إلى مراكز الحضارة والثقافة والقوة والثروة والصناعة واللهو والقصف فى العالم .

مثل هذا الشخص الذى وجد نفسه فجأة وعلى سبيل الخطأ مثل عملة ملغاة فى صندوق العملات الرائجة ، لايملك ضميرا حرا وإرادة خالية ليختار مايريد . إنه مسئول خاصة وأن الناس هم الذين يتكفلون بنفقاته . أنا الإيرانى القروى فى مثل هذه الأوضاع آخذ نقود هذا الفلاح الذى يعتبر « أكل خبز القمح » النشيد الحماسى الذى يبعث الفخر فيه ووجود مايكفى طعامه من الغلة لمدة سنة أكثر مثل حياته ، وآتى من بين أناس أصبحوا بعد كل هذه الحضارات العظيمة والثقافات الغنية - يشتهرون الآن فى العالم بالأمية والجوع والتأخر وانعدام الحضارة ، لاحق لى أن أذهب ثم أعود بعد سنوات وأنفخ أوداجى وأنا أعنى أن هناك مسافة واسعة أصبحت تفصل فيما بينى وبين هؤلاء الناس ، وأتساءل : أى تفاهم يمكن أن يكون بينى وبين هؤلاء الناس المتدينين المتحفظين المغلقين الذين يعيشون فى القرون الوسطى ؟ لقد درست الفيزياء الذرية وجراحة البلاستيك والفلسفة الوجودية المعاصرة وعلم الاجتماع عند دوركهيم والأوبرا والباليه والسيمفونيات الكلاسية ومسرح العبث وفلسفة اللامعقول عند كامو والتشاؤم العميق عند كافكا والعصيان والتمرد الهيبى

والسيريالية التقدمية فى الأفلام الإيطالية وموسيقى الجاز والعالمية والقومية الحديثة العرقية والكنسر فاتوار و .... الخ ، أما هؤلاء الناس فهم لا يزالون سجناء فى الزنزانات المظلمة لتاريخهم ودينهم وتقاليدهم التى ترجع إلى العصور الوسطى ويعجبون بأشعار حافظ ، وينتشون من مقامات « شور »« وأبو العطا » ، وبدلا من « زرير » يعشقون الحسين بن على وبدلا من رستم يمجدون عليا بن أبى طالب ، والخلاصة أن آدم وإبراهيم واسماعيل والقرآن ومحمد وسلمان وأبا ذر ونهج البلاغة والروح القدس فى مأثورنا الشعبى حلت محل الأوستا والزند والبازند والدينكرد وارزنك اردا ويراف نامه والشابور كان وزردشت ومانى ومزدك وكسيو وكسودرز وكيومرث وكاو «البقرة» «وفره ايزدى» المجد الإلهى[1] ، كنت أعلم أية حيل وفنون صنعة تصلح عند العودة إلى إيران من أجل أن يتحول المرء إلى مفكر وناقد وفيلسوف وفنان ومفكر مستنير و«صنم» للمفكرين .

أولا : هناك أسلوب لكى يصير الإنسان علامة فاضلا وعالما كاملا على المستوى العالمى علمنيه الأستاذ جمالزاده[2] ومن علمنى حرفا فقد صيرنى عبدا ، وهو فعلا من الأمور التى تجعل من الإنسان عبدا ، عبد العبيد وفى نفس الوقت أستاذ الأساتيذ ، قال لى : « أنت ياسيد بهذه المادة العلمية الإسلامية التى لديك ، وربما أنك أيضا رجل بحث وتنقيب ومن حملة القلم ، سوف أدلك على طريق فيه الدنيا والآخرة ، فلا ينبغى دون خميرة أو عجين أن توقد التنور خاليا وأن تسقط داخل سوق الأشاعات والشهرة الكاذبة والسخرية من العرب والعجم وأنت خالى الوفاض ، ولا ينبغى أن تدفن عمرك تحت جبل من الكتب فى الدراسة والبحث والعناء والتعب وتنفقه هدراً ينبغى على المرء أن يحسب حساب العمل

(١) الزند والبازند : من كتب زردشت ، وارزن كتاب منسوب لمانى ، ارداويراف نامه : رحلة إلى العالم الآخر قام بها الكاهن الزردشتى ارداويراف ، وارشابوركان: كتاب قدمه مانى لشابور الأول وزردشت ومانى : متنبيان إيرانيان ظهرا فى إيران قبل الإسلام ، ومزدك : صاحب حركة اصلاحية انقلبت إلى شيوعية فى النساء والمال ، و ودرز وكيومرث و يو من ملوك إيران الأسطوريين وكاو البقرة التى أرضعت افريدون وهو من ملوك إيران الأسطوريين ، والمجد الإلهى النور الذى يسكن المؤمنين فى ديانة زردشت وأغلبه للملوك . المترجم .

(٢) المترجم : محمد على جمالزاده : رائد من رواد الأدب الفارسى المعاصر ، ولد فى أواخر القرن الماضى ولايزال يعيش فى جنيف . قضى معظم حياته خارج إيران . له عدة مجموعات قصصية وروايات وعدة دراسات ومقالات عديدة من الأدبين الفارسى والعالمى .

العلمى الذى يقوم به ، وأن يختار عملا علميا له جمهور وله مؤيدون ، وليس اليوم يوم الذهاب وكتابة الحواشى على الأسفار[1] أو تفسير القرآن ، اترك هذه الأمور لنفس المشايخ الذين يقومون بها ، ففيها أخراهم وأولاهم[2] إننى لا أريد أن أقيدك بلا شك ، وأقول على سبيل المثال - والسبب فى أننى اخترت هذا المثال سبب شخصى - لأننى كنت أفكر فيه منذ سنوات لكن المشاغل لم تسمح ، وكثيرا ما فكرت فى أن أقوم فيه بنفسى أو أطلب من أحد المعدودين أصحاب الوزن الثقافى وأهل هذا النوع من الدراسات أن يقوم به ، وهو خدمة للتاريخ والأدب ، وله صلة خاصة بقضايا علم الاجتماع وعلم الأديان وعلم النفس فى مجتمعنا ، إلى جوار أن الموضوع تاريخيا فى مرحلة حساسة جدا ومهمة فى تاريخ إيران ولاتزال حية ، وعصرنا الحالى استمرار مباشر لها . . . . فى المكتبة الوطنية فى باريس وفى القسم الشرقى مخطوطات عربية وفارسية تعد وثائق هامة جدا وقيمة جدا وعلمية عن ميرزا على محمد الباب وميرزا يحيى صبح الأزل وميرزا حسين على بهاء والشخصيات الأخرى البارزة فى البابية والبهائية من قبيل الرسائل والخطابات والنظم والأدعية والتفسيرات والأقوال والاحتجاجات والألواح ، ولو استطعت - خاصة فيما يتعلق بالباب أن تجد فى جمع النسخ وتدوينها وتصحيحها والمقارنة بين نسخها وتحشيتها وتوضيحها والقيام بترجمة مختصرة أو كاملة لها إلى الفرنسية ، ويمكن أن تقدم هذا العمل كرسالة للدكتوراه ، وإذا أردت سوف أقدمك إلى أستاذ مهتم بهذا الموضوع جدا ، وفى نفس الوقت تكون قد قمت ببحث صعب فى تاريخ إيران وفى ثقافتها فى العصور الحديثة عظيم القيمة سواء بين مستشرقى العالم أو علماء إيران فوق ما تتصور ، الخلاصة ياسيدى العزيز أنك بخطوة واحدة سوف تصبح علامة وباحثا مشهورا ومحترما وأثبتت التجارب المرة فيما بعد أن ذلك الحكيم كان صادق الحديث :

وما يراه الشاب فى المرآة   يراه الشيخ فى قطعة من اللبن .

ورأيت أن رفاقى المطيعين العقلاء الذين كانوا محترمين ومنصتين وفى أيديهم

---

(١) المقصود الأسفار الأربعة أشهر كتب ملاصدرا الفيلسوف الإيرانى المتوفى ١٠٥٠ هـ المترجم .

(٢) المترجم : النص الفارسى : هم حدا وهم خرما : الله والبلح معا وهو مثل يضرب للجمع بين الدين والدنيا أو الرغبة فى نيل رضا الله ورضا الناس معا .

أصل الموضوع وجعلوا نصيحة « الشيخ المجوسي كالدر معلقة فى آذانهم » و« صبغوا السجادة بالخمر »[١] ووصلوا إلى الالأف والألوف ، وقرعوا باب الدنيا والآخرة معا ، وعلى حد قول أخوان (اميد) شاعر عصرنا الواعى[٢] « دون تعب الإياب والذهاب فجأة وبخطوة واحدة ساروا قدما » أما أنا القروى المتعصب المثالى ، والرجل النظرى العاطفى الغريب عن « الواقعية »و « الموضوعانية » و« حتمية التاريخ » و « اقتضاء الزمان » و « ضرورة العصر » ، قمت خلافا « للنصائح المشفقة » و « التعاطفات العاقلة » و « التفكير فى المصلحة » الصادرة من كبار القوم وعقلائهم ، والناس « الناضجين » و « المجربين » و « المحنكين » « الذين » يمسكون نبض الزمان فى أيديهم ، وكانوا ينشدون فى أذنى بإخلاص : « امضى فى طريق مضى فيه السالكون » ، وخلافا للمثل العامى الذى يعد عصارة تجارب عديدة مكثفة فى تاريخ هذا الوطن ومجتمعه وحيلته « إذا أردت ألا تفتضح فكن فى لون الجماعة »وحزنت وتعلقت بقول عيسى « امضوا فى طريق السالكون فيه قلائل واستمعت » إلى الأمر المثالى «خالف ما تعرف به العامة» ، وبدلا من هذه الأعمال العميقة جدا والصعبة والمحترمة والعلمية ، جئت وترجمت « سلمان باك » ، وسرعان ما أدركت أن هذا الكتاب الذى هو ثمرة سبع وعشرين سنة من بحث رجل مثل لويس ماسينيون أعظم عالم فى الإسلاميات وعلم الاجتماع الإسلامى فى العالم المعاصر ليس عملا علميا أو تحقيقيا أو صعبا أو محترما ، أما المفكرون فقد فهموا كل شى من قراءة ما هو مكتوب على الجلد وصاحوا : « هه ، سيرة سلمان الفارسى ، كتاب دينى ، عمل رجل رجعى متعفن ، لابد أنه مراثى ونواح ومايشبهها » ، أما العلماء الأعلام وحجج الإسلام العظام فشأنهم أجل من أن يقرأوا كتاب إفرنجى مسيحى أرمنى ملحد أجنبى لايعرف أصول طهارته ونجاسته بشأن سلمان صحابى رسول الله ، أما الفضلاء وقراء الكتب وأهل المنابر فالأكثرية التى كان لديها حسن نيه وحسن ظن بى فقد سكتوا

---

(١) التعبيرات بين الأقواس من شعر حافظ الشيرازى . المترجم .

(٢) مهدى أخوان ثالث (م . اميد) شاعر إيرانى معاصر من المدرسة الحديثة . ولد سنة ١٩٢٨ ، من أشهر دواوينه « آخر الشاهنامه » و « من هذه الأبستاق » و « ارغنون » و « خريف فى السجن » . المترجم .

لأنه « ليس من المفهوم فى الأصل ماذا يريد أن يقول » ، أما الأقلية المترصدة جداً « لئلا تصاب بيضة الإسلام بلطمة من طرف الأجانب والشباب المتفرنج الذين لايرتدون زى أهل العلم ويتدخلون فى الأمور الدينية دون اكتساب إجازة نقل الحديث أو نيل إجازة الاجتهاد ، وقد سمعوا من مخبر صادق أنه يوجد فى مقدمة الكتاب نصف عبارة من المترجم فيها إشكال كثير ، وليس من المصلحة أبدا أن ينشر هذا الكتاب »!

هذا جاء بالماء وذاك بالتراب ورموا صاحبنا بزنبيل من الطين

وذلك « المخبر الصادق » كان رجلا كتبيا ينشر الكتب الدينية ورجلا « موضوعيا » و « متدينا » و « طيبا » ، وكنت للمرة الأولى بعد سنة من إتمام ترجمة سلمان ، وبضمير مستريح لأننى فضلت « سلمان باك » على « ميرزا علي محمد الباب » ، حملت نسخة من الترجمة إلى دكان السيد المخبر الصادق المتدين ، فأخذها مني وتفحصها ظهرا وبطنا ، ثم رأيته قام وذهب خلف الدكان ولم يمض كثير حتى عاد وقد أمسك بعدد من وحدات الوزن وضعها فى كفة الميزان ووضع « سلمان باك » والبروفسير ماسينيون ووضعنى أيضا فى الكفة الأخرى ، وبعد الوزن تفضل وأعلن قائلا : « لا ، لا يساوى خمسة أو ستة تومانات ، أجل ، لا » وجلست ، وبغربة وضعت رأسى بين يدى ومن خلال دخان سيجارتى ، رأيت سحنة الأستاذ العجوز جمالزاده منتصرة ، وقد شرق الدمع فى عينيه من شدة الضحك .

ثانيا : تكنيك تحويل المرء إلى « مفكر » مشهور فى الميادين التى ظهرت حديثا من قبيل النقد الأدبى والشعر الجديد والماركسية وعلم الاجتماع اليسارى والأدب الجديد والفن الحديث . وتكنيك هذا العمل من طراز تقليدى موروث ومجرب . فطلاب العلوم الدينية الذين لايستطيعون – لعدم استعدادهم أو وجود مشاكل عائلية – إكمال تعليمهم والوصول إلى درجة الحكيم أو المحدث أو الأصولى أو المتكلم أو المفسر أو الأديب أو النحوى أو يصيرون شيئا فى المعقول والمنقول ، لايجدون محيصا من الإمساك بخيط المنبر [1] ومادامو

(١) المترجم : المقصود هنا : القيام بالوعظ واحتراف إنشاد الروضة أو سيرة آل البيت فى المجالس ندبية أو الحلقات فى المساجد التى تعقد للفتوى .

قد عجزوا عن دراسة العلوم الإسلامية عليهم أن يقوموا بالدعوة والتبليغ .[1]

لاتظنوا أنى أبالغ ، هل سمعتم مرة واحدة أن أحد العلماء أو المجتهدين أو الفقهاء أو مراجع التقليد قد ذهب إلى المنبر وتحدث إلى الناس ؟ إن المنبر دون مستواهم ، إن مكانهم هو المحراب ، المنبر هو مكان الرسول ومنشدى الروضة والنائحين لاحجج الإسلام والآيات العظام ... الخلاصة أنه من بين طلاب العلوم الدينية ، أولئك الذين لديهم الاستعداد والقدرة على مواصلة العمل والتعب الشديد ويصلون إلى درجة الدكتوراه « الاجتهاد » ينفصلون عن الناس ويختفون فى « حفرة » انفرادية تسمى المحراب ، وعلاقتهم مع الجماعة منحصرة فى أداء صلاة الجماعة والقيام بالاستخارة والفتوى وحساب الخمس والزكاة وسهم الإمام والبيوع وختم مجالس العزاء وقراءة صيغة عقد الزواج لعدد من الأفراد المحدودين فى العائلات الفخمة والأرستقراطية والمحترمة ... الخ[2]

---

(١) هذه هى إحدى علل انحطاط الإسلام وضعفه والرؤية الدينية المنحطة والمبتذلة عند قومنا ، إذ يلزمهم تعلم الدين على أيدى أناس أرادوا أن يتعلموا الدين ولم يستطيعوا ، إذا أرادت وزارة الثقافة والعلوم عندنا غدا توظيف معلمى العلوم الجديدة وأساتذتها من بين الراسبين فقط ، فماذا يكون الوضع ؟

(٢) المترجم : يالها من سخرية يثيرها توارد الأفكار ، مناظر شيوخنا العظام وعلمائنا الأجلاء منشورة فى الصحف بين المدعوين لحفلات الزفاف الفخمة ، فى الفنادق الفخمة ، بين النساء الفخمات والرجال أشد فخامة ، بحيث يبدو منظر العمامة (الفخمة) نشازا فى الصورة ، ثم نقرأ فى الصحيفة أن الذى تلى صيغة العقد هو فضيلة ... الأكبر أو وزير .... أو فلان عضو هيئة كبار العلماء (العلماء بماذا ؟) وحين يحدث سيل أو حريق أو حادثة مروعة يذهب ضحاياها بالعشرات لانجد منظر عمامة واحدة لشيخ خف لمواساة المكلومين هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تجمعهم حول ولى الأمر والمتعهد الوحيد بالرتق والفتق يسقطون الكلمة من « فيه » العظيم وعلى الفور « يفصلون » لها « اللباس » الشرعى المطلوب ، وإذا اعتلى أحدهم المنبر تعسف الدين تعسفا شديدا ليوافق بينه وبين « الدولة » ، حتى إذا رأوا حرمة الدين تذهب ويفصل مابينه وبين الحياة بجرة قلم لايتحركون ، ومن فوق المنبر حين يتحدثون تحس أن المسافة بين المنبر وباحة المسجد قد انقلبت إلى مسافة مابين المشرقين ، وإذا استضيفوا فى التلفزيون فأحاديث مكررة معادة عن الخطبة والنكاح والزواج والطلاق والعتاق وكأن عقولهم توقفت عند القرن الأول ، أما دور الإسلام فى التوعية فهم لايعلمون عنه شيئا ، وفلسفة الإسلام السياسية والاقتصادية فيعانون خلوا شديدا ، والدور القيادى الذى يبادر الإسلام إلى الإمساك به عن جدارة واستحقاق فهم فى غفلة وتحت غطاء ، وثورة إيران ؟ ماذا أقول ؟ كل قارىء يعلم الآراء العظيمة والفتاوى النارية التى انطلق يصدرها عمال الظلمة ووعاظ السلاطين ، ولايدرى المرء علام يضحك أعلى جهلها الشديد وخلطها بين المذاهب وإثارتها الأحقاد أم لصيغها شديدة العفن ؟

والآن فان هذا الطالب الراسب « الذى طرد من المدرسة » ، ترك الدراسة ، وينبغى عليه مضطرا أن يختار المنبر بدلا من المحراب ، ويعلم الناس مالم يستطع هو تعلمه ، وفى أول خطوة تطرح أمامه قضية « إيجاد السوق » ، وينبغى على مقيمى المجالس والحجاج المحترمين وأصحاب الهيلمان والمشرفين على الأوقاف والمساجد والتكايا ورؤساء الهيئات والحاجات المحترمات المقيمات لأنواع الروضات الوراثية والأسبوعية والشهرية والموسمية والحفلات الدينية ، على هؤلاء وأشباههم ونظائرهم أن ينتبهوا لوجود « السيد » ، وعليهم أن يشكلوا رسميا هيئة لعرض مزايا البضاعة الجديدة من قبيل جرس الصوت وطبقته وفخامته وعذوبة اللهجة وأصل النغمة ونورانية البشرة وملاحة البيان وطمأنينة الحركات وصحة المخارج وصنعة النحنحة والسعال وفن الدخول إلى الموضوعات وبراعة الاستهلال والختم والدعاء وآلاف النقاط الأخرى الموجودة فى هذه الحرفة حرفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى أدق من الشعرة . والقضية هى قضية إيجاد السوق أو بالمصطلح الأوربى « جعل السيد مشهورا » بين الناس ...

حَتَّىٰ ، إنهم لايستطيعون الإعلان فى الإذاعة والتلفزيون والأفلام الكرتون وإعلان الصوت والصورة ، كأن يقولوا مثلا « هذا العام عام السيد الشيخ مراد منشد الروضة » أو « دموع حـارة ، ألم ذو ضجيج ، بكاء زائد فقط بمراثى الواعظ المحترم جناب السيد خير الذاكرين المؤثرة » أو « قبل أن يحبس صوته ويغلق قلبه على كنوزه أسرعوا لدعوته » و « بالنقد والتقسيط ، من أجل الذين يقيمون عشر مجالس ، تخفيض كامل » .

هذه الأمور لاتليق بهم ودون مستواهم ، لكل شىء طريق يتناسب مع هذا الشئ :

أولا : تتناول بعض الأوراق البيضاء ، وتسجل عددا من « المنابر المحترمة » من منابر الوعاظ المعروفين ذوى الجاذبية المعروفة ، والذين شابت شعورهم فى هذا الأمر ، ودراسة الكتب المختلفة من قبيل روضة الشهداء والمجلد العاشر من بحار الأنوار للمجلسى رضوان الله عليه ومجالس المؤمنين للشوشترى وجنات الخلود وكشف الغمة وطوفان البكاء واللهوف للسيد طاوس ... وابن شهر آشوب المازندارانى قدس سره ومنتخب التواريخ للمرحوم الحاج

ملاهاشم ... وتقوم بصنع هيكل عام لعدد من الروضات ، وتختار خطبة محترمة من بين خطب أهل المنبر وتضعها فوقها ، وتطوف بدواوين محتشم الكاشانى وآية الله التبريزى وتحفظ عددا من الأبيات المؤثرة والنواح المفتت للقلب ، وتضعها فى مواضع مناسبة وعلى رأس كل موضوع « ودفعا للملل » (وهذا تنبؤفى موضعه) جهز عددا من الملح الأخلاقية والدينية من هنا وهناك وضعها فى مواضعها المناسبة ، ومن أجل تغيير حال المجلس عليك أن تحفظ عددا من الحكايات كلا على حدة ، لتكون فى متناول اليد كفواتح للشهية أو « كباب إضافى » ، وعليك أن تجمع اثنتى عشرة رواية مناسبة مؤثرة ذوات نتائج أخلاقية حسنة عن عدم قيمة الدنيا وعدم الاهتمام بالمال والثروة وتحقير العمل والكدح من أجل الحياة والتخويف من الموت وإنكار الحياة وذكر القبر والحث على القناعة والصبر والتحمل والحكمة والفقر والمرض ، وعليك أن تجمع بعض العبارات الخطابية التى تتناول هذه الموضوعات ، وتوضع كلها فى فجوات النص وشقوقه وفُرَجه ، وكل هذه الحقائق والآيات والروايات والأشعار والأمثال والخطب عليك أن تربطها ببعضها بحيث تستطيع فى الوقت المناسب أن تصل إلى أكثر الفصول حساسية وهو نقطة الأوج فى التحريك ، وفى قمته يحدث الانفجار ثم تبدأ بالطبقة الدنيا من الصوت بالتنهدات الدينية وهى فى الواقع « أصل المصيبة » فالوضع مناسب لأن تحول المجلس إلى « كربلاء » ، وتظفر من الحاضرين ببكاء شديد ، وعندما تنتهى من ذكر المصيبة المقصودة عليك ألا تفعل كما يفعل المبتدئون فتخفض من لهجتك قليلا قليلا ثم تصمت بالتدريج ، لا ، فى نفس أوج الغليان والفوران والبكاء والصياح والإغماء والضجيج والضعف والصدام والنصال والسيوف والدروع تعمل فى الرءوس والرقاب

عليك أن تحتفظ بالسيف وفجأة تقطع ، أى أن الجملة آخر جملة وأكثر الجمل تأثيرا ينبغى أن تكون : لا ، لايستطيع لسانى الكلام بعد ، أى عليكم أن تكملوا فى أذهانكم ، جسدوها فى أرواحكم . هذا هو مافهمه الفنانون الأوربيون أخيرا من أنه لاينبغى أن يتم الفنان عمله تماما ويترك القارىء أو السامع فى حالة انفعالية إيجابية أو سلبية أو حالة إيجابية ، بل عليه بعدم اتمام عمله ، أن يترك للقارىء أو السامع بنفسه مسعولا ومشاركا فى العمل الفنى الموجود أمامه ، لأنه على قول سانت بيف الناقد الفرنسى الشهير : « إن الأثر

الفنى الجيد مثل قطعة من الحديد المحماة تتشكل تحت مطرقة الفنان وسندان القارىء أو السامع » .
وبهذه الطريقة فإن نص العمل قد دون ، ويتبغى إعداد عدد من الروضات من أجل الأيام الخاصة : روضة الإمام الحسين ، روضة الأمير على الأكبر ، روضة الأمير على الأصغر[1] (بالنسبة للرسول والإمام الصادق لاتوجد روضة لأن موتهما لايصلح للمجالس ، ومن هنا فبالنسبة للرسول أو الإمام الحسن لايذكرون اسما للرسول ، ومن جهة ما فالحق معهم) .
المرحلة الثانية : بعد إعداد النص وتأليفه وإعادته ، يأتى دور ارتداء الملابس الرسمية وإغلاق الحجرة ووضع عدد من المساند فوق بعضها والجلوس أمام المرآة ، وبعد قراءة متأنية شديدة الوقار وبطيئة للخطبة ، تدخل فى المتن ومخاطبة الناس : أيها الناس ، أيتها الأخت ، أيها المشتغل فى السوق ، أيها التاجر ، أيها الفاجر ، الكاسب حبيب الله ... وعليك بالدقة والانتباه الذى يصل إلى حد الوسوسة والانتباه الى حركات اليد لكى تناسب الموضوع وجعل الأصابع على هيئة مخروط تشير بطرفه إلى براعم القلوب بإشارة قريبة ثم فتح المخروط على الفور ، وتدخل باليد الأخرى فى المعركة ، وتلاحظ الخطط المعينة لحركات الرأس والحاجب والرقبة والكتف وغيره ...... شعر لاداعى له :

إننى أدعى تماما أنى لست كوعاظ المدينة
لاأقوم بالدلال والغنج من فوق المنبر

وفى كل هذه المراحل إياك أن تحيد عن النموذج إياه للواعظ المعروف والمحبوب فى المدينة أو الدولة .
المرحلة الثالثة : بعد إتمام الإعادة ، تصبح المرحلة الأساسية هى الميزانسين :

(١) طالما فكرت لماذا لقب « الأمير » ؟ إذا كان الأب فى الحساب فلماذا لايطلق اللقب على الآخرين ؟ لماذا لايقولون شاهزاده حسن أو شاهزاده حسين أو شاهزاده جواد ، ثم فهمت .. لان الأم هى التى فى الحساب ، فأمهما هى شهر بانوابنة يزد جرد الساسانى ملك إيران ، ومن هنا فحيار الذاكرين والدعاة والمتحدثين عن ثورة الحسين بن على ، فى اختيارهم لنسب وصفوة لأولاد الحسين بن على ، فضلوا شهربانو على الحسين ويزدجر على الإمام وابنة الملك الساسانى على ابن على بن أبى طالب . ورأيت أن الأمر عجيب فإن الأحساسيس القومية عند أهل المنبر جديرة حقا بالتقدير ، ومهما بحثت لم أكتشف من أين ظفروا بقصة شهربانو هذه ، لأننى لم أجد لها مصدرا تاريخيا .

العرض ، الآن ، كل شيء تمام ، أعظم روضة ، أعظم إخراج ، لكن من أين يفهم الناس ؟

المصطاد ، مكان الصيد ، متعهد المجلس ، العلماء ، هذا هو المجلس الوحيد على سطح الكرة الأرضية جغرافيا ، وعلى مدى التاريخ زمانا الذى ليس له حساب أو كتاب أو قيد ، حرية ، لقد جاء الناس زرافات من كل الجهات وكل الطبقات ، لرؤية السيد ونيل ثواب الحضور فى منزل السيد والاشتراك فى مجلس الروضة عند السيد ، أما من الذى يصعد إلى المنبر وماذا يقول فلايهم ، إنهم يأتون إلى مجلس عالم المدينة لا من أجل العلم بل من أجل نيل الثواب ، ومنشد الروضة الذى لامجلس له أمامه « بحبوحة » أى مجلس عند أى عالم فى الأيام الخاصة « لازدحام طبقات الشعب » ، عليه أن يطير ويهبط فوق المنبر ، فيكون قد قطع الدرجات الأولى للرقى والشهرة والخبز والدين والدنيا ، ومن هذا المجلس إلى ذاك المجلس الذى أقامه عالم آخر ، ومنه إلى مجلس الروضة العام فى منزل سيد آخر ، ويلقى بضعة من المجالس الرئيسية المحرقة ، وسوف نرى أنه فى نفس شهر رمضان أو فى نفس العشر الأول من محرم ، صار السيد بخطوة واحدة واعظا مشهورا ، أدخل رأسه بين الرءوس ، وقليلا قليلا تظهر رأس متعهد المجلس والدعوة .... إلى آخره ، وقليلا قليلا سوف يصل المحترمون من الأقاليم القريبة ليقوموا بتقديم «السيد» ودعوته ، وإذا لم يأت أحد فمازندازان موجودة ، هى الموطن الذى اكتشف السادة أخيرا ، وهو آخر كشف جغرافى بعد اكتشاف استراليا على يد « كوك » . هذا هو آخر أسلوب مجرب من أجل الشهرة .

أما أهل المنابر الجدد ، وعاظنا العصريون الذين حلوا محلهم فينبغى عليهم أيضا أن يقتدوا بسنة أسلافهم ، إعداد بعض الأوراق البيضاء وتدوين عدد من مجالس الروضة التى تناسب العصر . لاشك بدلا من ملا محمد تقى المجلس وملا هاشم القزوينى عليهم اليوم أن يسرعوا صوب جان بول سارتر والبير كامو وصمويل بيكيت وبرتولد بريخت .... الخ ويكفى ترجمة ريبورتاج صحفى أو مقالة واحدة أو مسرحية قصيرة مكونة من عشرة أو عشرين اسما خاصا وثلاثين أو أربعين كلمة فى الحوار ، نقد كتاب أو شرحه ، سيرة ذاتية ، قطعة من الشعر الغلط الفاقد لكل شيء والحائز على جائزة أولى لأكثر الأعمال خلوا

من المعنى ، على كل حال يكفى أن يكون الاسم الطنان « موضة » و « الغرض هو مايتبقى منه من أثر » ، أما كون هذه الترجمات بلا معنى ، فهذا شيء لن يقلل من قيمته وتأثيره غير المعتاد فى القراء الأعزاء ، عندما يكون اسم بريخت أو بيكيت فوقه ، فمن الذى يجرؤ على القول بأنه لايفهم ؟

بدلا من ذلك سوف تسمع صيحات الاستحسان ، وكم من « لذيذ » و « عميق » و « فلسفى » سوف يصيحون بها ، والبعض سوف يرددون تعبيرات وعبارات بعينها أحسسوا أنها لابد تحمل معانى عظيمة جدا ، ثم الاستنادات والتفسيرات والتبريرات التى لاتقال ، فى الواقع تحملها قاتل وسماعها مفل للروح ، كل ذنوبك سوف تختفى . الخلاصة أن هؤلاء القراء شركاء المترجم فى الجريمة ، فالمترجم عندما يترجم نصا لايفهمه يكون هدفه هو نفس هدف القارىء من قراءته ، ومن هنا فإن أحدا لايذهب إلى المباحث ليوقع به ويمضى إلى حال سبيله !!

حَسَنٌ ، أين يكون مجلس الروضة العام لهؤلاء السادة ؟ المجلات ، لاتلك المجلات المنزلية والنسائية والعامية ، هذه تكايا وهيئات وموائد تذرية وروضات موسمية ، إن المجلس هو مجلة السادة العلماء ، انشر ترجمة لمقالة أحد الأعلام المشهورين الخصوصيين الأوربيين فى إحدى هذه المجلات العلمية التى ظهرت حديثا (لايحتاج الأمر إلى جهد : واسطة ، وسيلة ، تليفون لهذا ، بطاقة من ذاك ، لقاء مع ذياك ، ان شاء الله سوف تنجح ، هذا هو طريقها) .

سوف تصير العالم الثالث . (١) كيف يصير معلوما ؟ الدليل أنك سوف ترى أنهم دقوا بابك ودخلوا وجلسوا ، وفى البداية يلتقطون لك بعض الصور المعبرة بالمنامة والروب دى شامبر متمددا فوق « كنبة » أو متخذا وضعا إلى جوار المكتبة أو واقفا إلى جوار الحديقة (وهذا يعنى أن سيادته يقضى أوقات فراغه فى المنزل ومع الورود والطيور).

(١) المترجم : يشير شريعتى الى ظاهرة « النجومية » أى صناعة « نجوم الفكر » على غرار « نجوم السينما » . يكفى أن تنجح قصة أو مقالة أو مسرحية أو حتى قصيدة واحدة لزيد من الناس حتى يضمن بها الخبز والصيت إلى آخر العمر فالخطوة التالية مباشرة مكتب دائم فى إحدى الصحف ، ومنه الانطلاقة

واذا كنت تريد أن تكون وجوديا فينبغي أن يكون هناك قط أسود – فهو أيضا له دخل فى الموضوع جدا ويجذب اهتمام القراء الذين يريدون أن يعرفوا الحياة الخاصة لكاتبهم المحبوب ونمطه ، وبعد أن تتم هذه الأمور يبدأ الريبورتاج : نريد أن نعلم منك ككاتب واع فى عصرنا ، كيف تحلل قضية مسئولية الفنان أو الشاعر والتزامهما فى العالم الثالث ؟

هل يكون لشاعر مسئول « فمما لاشك فيه أن الشاعر غير المسئول ليس شاعرا » الحق أنه إذا حدث قحط فى نيجيريا أن يسقط فى الذهنية وهى ملمح من ملامح الثقافة البورجوازية أو المثالية وهى إحدى سمات الإقطاع ؟ كما تعلمون أن « مبدئية الشكل » فى الفن حيلة بورجوازية[1] .

إن الرؤية البورجوازية غير قادرة على طرح القضايا بصورة كلية ، والبورجوازى يملك فى الأصل رؤية تجريدية ودينية ولاجدلية ، وبهذه المعايير هل للأدب الجديد فى إيران شخصية .... هل « الجو الشعرى » عند نيما ..... الخ [2]

تمام ، دقيقك نخل ، وغربالك علق ، وخبزك غمس فى الأدم ، وتحولت إلى واحد من شخصيات الفكر فى زماننا ، ولو أنك تملك الاستعداد الذى كان

الكبرى . أصبح السيد مفكرا كبيرا ومن حقه فى أن يتحدث فى كل ما يعن من أمور ، ويشرح مايحدث فى أركان العالم الأربعة ، ويفسر ويبرر ماوراء الأحداث وماراء القرارات . أصبح له الحق كل الحق فى أن يتحدث فى الأدب بينما يصمت أساتذة الأدب وفى العلم بينما ينزوى العلماء فى معاملهم وفى الطب وفى الفن .. الخ ، يصير منظرا وعالما أيديولوجيا فى كل الثورات ، يفسر خلفية الحرب الطائفية فى إيرلنده كما يفسر الأسس الخفية لثورة إيران كما يفسر ظاهرة عبادة المطرب فى أمريكا هو ملح كل طعام وهو الروائى والمسرحى والقصاص والشاعر الناقد رواياته المملسلة تصبح على الفور كتبا ، ثم تمثل فى الأذاعة والتلفزيون والسينما ، والسيد نفسه مشغول صباحا فى جريدته وعصرا فى الإذاعة ومساء فى التلفزيون ، وهو لايمل أبدا ولايفرغ دكانه ، ويا ويلنا لو كان يعلم لغة أو لغتين إذن لصار الفيلسوف الأوحد وباعث النهضة ومجدد الحضارة .... الخ ، وهو يعتمد على ضعف الذاكرة عند الجماهير وانشغالها بلقمة العيش لكى يجدد جلده دائما فهو بالأمس فيلسوف الاشتراكية ومترجم بريخت ، واليوم مروج الانفتاح وصديق اليهود ...

(١) بورجوازى أى شرير ، والشر هو كل مالايعجب به معكروبا اليوم ، أى أنه ليس موضة بالفعل أو كان موضة وانتهى زمنه .

(٢) المترجم : نيما يوشيج رائد مدرسة الشعر الحرفى إيران توفى سنة ١٩٦٢ .

عند أسلافك فالذين كانوا يحفظون عدة أمثال عربية وعددا من الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة وعددا من المصطلحات الفقهية والكلامية والأصولية واستعمالها فى محلها أو فى غير محلها على المنبر وحسب المناسبة قد صاروا فى خطوة واحدة فضلاء تحملوا المشاق وأكلوا دخان المصباح « أى سهروا الليالى » و « الموازين فى أيديهم » ، تعلم أنت أيضا بعض أسماء الأعلام المعروضة بقدر معتنى به ، عليك أن تحفظ بعض عناوين الكتب مثل « الطاعون » و « الأحمر والأسود » و « الإنسان هو الانسان » و « سجناء الطونا » و « الأم شجاعة » ، وعليك أن تكون حاضر الذهن وتحفظ مصطلحات أهل الفن بالقدر الكافى وياحبذا لو كان ذلك بلغاتها الأصيلة – ليس المطلوب كلها بلا شك ، فما هو صعب لاضرورة له – مثل الاستركشر والترياد والديالكتيك وال « ايماج » وجو الشعر والمسئولية والالتزام والبروليتاريا والسربلو والانتلكتويل ... وعليك أن تفسر وبقول الدكتور هزارخانى « تتلاعب بها بهذه الطريقة فى قول أو قولين » ، وإذا استطعت أن تحفظ عدة عبارات أو جمل قصيرة من هذه الكتب وهؤلاء الكتاب وتستخدمها فى بياناتك فـ « نور على نور » .

قواعد ثلاثة :

هذا هو مايجرى فى زماننا ، وهذه هى سير أولئك الذين يعتبرون العيون التى تمد مجتمعنا بالغذاء المعنوى ويأخذ قومنا إيمانهم معرفتهم عنهم ، وكما نرى كلهم صورة طبق الأصل : السلفى والعصرى ، الدينى والعلمانى ، اليسارى واليمينى ، مستنير الفكر ومتجمد الفكر ، حيثما نعيش كلهم واحد ومن نوع واحد وأسلوب إعدادهم واحد ومجال استعمالهم واحد .

القاعدة الأولى : كل من كان من أهل العلم والأدب والفن والقلم ، وله على كل حال نشاط فى هذه الميادين ، هو مجبر على أن يلجأ إلى مظلة ما ويستند على قاعدة ما وإلا فسوف يبقى وحيدا غريبا فى هذه الصحراء القاحلة المحرقة الخالية مضمورا شريدا وسوف يموت . هذه هى « سنه الأولين » فى تاريخنا ، والسيرة القديمة لثقافتنا وأدبنا وفننا ، إن السلاطين المشجعين للشعراء

والعظماء وأرباب البيوتات كانوا كما يقول البيهقى [1] يجذبون إليهم فنانا مغمورا ليرفع أسماءهم إلى أعلى عليين ، وسيرة الأنورى [2] تحتوى على مصير مزدوج لأهل العلم والفن عليهم أن يختاروا واحدا منها .

وإذا «رفعت رأسك هناك فتنة» ، ينبغى أن تفعل كما فعل الفردوسى [3] فتكون شريدا هلعا ، فى خفية من أعين « الجواسيس » و « عمال الحكومة » تأكل حساء الأكارع ولحم الرأس وبعد ثلاثين سنة من المجهود المستمر ، تشكو جزاء رجولتك وشهامتك ونبوغك وشرفك من قحط السنين والجوع:

عيناى وأذناى أمسكت بهما الآفة وضيق ذات اليد وقحط السنين سلبا القوة

لاكنت شيخا وتعانى هذين فمن المصيبة الشيخوخة والمسغبة [4]

وهكذا تموت ، ويأتى عالم الدين الفقيه الأعظم ومفتى الشرع الشيخ أبو القاسم الجرجانى ويصدر فتواه قائلا (بالرغم من أنه كان رجلا عالما ومتدينا ، فقد ترك الصراط المستقيم وأنفق عمره فى الحديث عن المجوس والملحدين) ثم يمتنع عن القيام بصلاة الجنازة عليك [5] .

ياله من مسرح مثير للغثيان تاريخنا السياسى هذا ، حتى فى أوج مجدنا وقوتنا وتقدمنا وحضارتنا ، تبقى ابنة الرجل العظيم فى أمتنا بلا صداق ، ورجل نتن مثل « اياز » [6] يوافق بزينته وبشرته الصافية ودلاله وغنجه واستعداداته الأخرى مزاج حضرة السلطان الغازى ، مجاهد الإسلام ورافع لواء التوحيد وفاتح معبد سومنات ، من له شجاعة رستم وحكمة سقراط [7] ، فيصير

---

(١) المترجم : أبو الفضل البيهقى . مؤرخ من العصر الغزنوى (القرن الخامس الهجرى) صاحب التاريخ المسعودى المشهور بتاريخ البيهقى . انظر الترجمة العربية لصادق نشأت.

(٢) المترجم : المقصود أوحد الدين الأنورى شاعر المدح فى عصر السلاجقة .

(٣) المترجم : أبو القاسم الفردوسى شاعر ايران العظيم فى القرنين الرابع والخامس وناظم الشاهنامه فى ثلاثين عاما من الجهد المتواصل دون أن ينال أى تقدير من السلطة التى كان يهمها شعر المديح فحسب .

(٤) المترجم : البيتان من شاهنامه الفردوسى .

(٥) الناشر : المكان الذى يحتوى على أقوال الشيخ الجرجانى خال فى النص ومابين القوسين نقل بتصرف من دولتشاه السمرقندى . المترجم : هناك رواية أخرى أن الفقيه كان كراميا لم يحدد اسمه « . فعز دفن الفردوسى فى مقابر المسلمين لأنه كان شيعيا » انظر المقالات الأربع لنظامى ترجمة عبد الوهاب عزام » .

(٦) المترجم : يار مملوك للسلطان محمود الغزنوى . انظر معلومات أكثر فى المقالات الأربع .

(٧) المترجم : يسخر شريعتى من الصفات التى كان شعراء محمود يسبغونها عليه .

مقربا للخان والخاقان ومحبوبا للخواص والعوام وممدوحا للشعراء والكتاب .

لكن أمثال الأنورى الآن أمامهم ثلاثة ملاجىء وثلاثة من أماكن التنشئة « وفى الأغلب ثلاثة من محال الميلاد ».

القاعدة الثانية : هى الدين ، وأقصد به « مايسمى بالدين » مخروط رأسه المحراب وقاعدته السوق وحواشيه الأرياف وفى داخله : المدرسة والمسجد والمحراب والمنبر والتكية وهيئات العزاء الدينى واللغة العربية والطبقة البورجوازية الكلاسية والثقافة الموروثة والرؤية التقليدية والنمط المتعصب .

القاعدة الثالثة : الانتلجنزيا ، جماعات المفكرين ، وأقصد بالـ « فكر » والانتلجنزيا من يسمون بهذا الاسم ، مخروط رأسه غير واضحة وتحته الجامعة ، وجوانبه أى حواشيه دواوين الوزارات وبداخله : المجلات والمسرح والتلفزيون والأحاديث الصحفية والمقهى والبيرة وأماكن التجمع واللغة الأجنبية والطبقة البورجوازية الجديدة الخاصة (١) والثقافة المستوردة والرؤية التقليدية والنمط المتعصب .

على كل حال ، هناك ثلاثة طرق أمامك ، مكتوب فى أول كل منها على حجر حديث إن لم تقرأه على واحد فاقرأه على الآخر والأول والثانى والثالث طريقالعسل والراحة والسرور هو قرين العار ، لكنه يفضى إلى المدينة والرياض والعمران ، والرابع طريق من يمضى فيه لايرجع ، لاصريخ فيه ، إن رفعت رأسك ففتنة ، واذا صمت تماما فأنت مستريح ومغمور .

(١) ذلك أنه خلافا لما يظنه مفكرونا الصادقون وعلماء الاجتماع عندنا - تقليدا لعلم الاجتماع الأوربى : إن البورجوازية الجديدة هنا ليست بنيتها التحتية الرأسمال الوطنى والإنتاج والصناعى ، من هنا لاتصدق عليها قواعد علم النفس البورجوازى لهذه الطبقة . لكنها وليدة عاملين أولهما الوساطة وثانيهما الشهادة وأقصد بالوساطة القيام بالوساطة بين المنتج الأجنبى والمستهلك المحلى ، فهم ممثلو دخول السلع الإنتاجية للرأسمالة الصناعية الغربية وبيعها لجماعة المستهلكين أى مجتمعنا . وأقصد بالشهادة المتعلمين فى الداخل والخارج الذين يشكلون فى أوربا طبقة المثقفين المميزة لكنهم فى الدول التقليدية التى دخلت فجأة مرحلة =

كل من كان شابا باحثا عن الشهرة والرزق ، ينبغى عليه عند أول خطوة يخطوها فى عمله أن «يحدد قاعدته الاجتماعية» (المصطلحات هنا ذات معانى خاصة) ... الأنورى الآن ليس أمامه طريقان إذا لم يرغب فى أحدهما فليدفن فى قطعة الأرض التى تعد من أملاكه الخاصة ، الطريق الأول وقد سبق ذكره

التحديث الأوربى ، وعلى أساس ذلك هناك مئات الأعمال الجديدة والحاجات الفنية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية تخلق وكلها تدور حول المحور الأصلى وهو العصرية فى الاستهلاك والشكل وبالطبع تصير الحاجة ماسة بشدة إلى التخصصات والخبرات المناسبة التى لم يكن لها وجود سابق ، وحملة الشهادات هؤلاء هم الذين ينبغى عليهم أن يسدوها . ومن هنا ففى مثل هذه المجتمعات يتمتعون بأوضاع اجتماعية ممتازة جدا . ففرصة شغل المناصب الحساسة والسرعة الخارقة للعادة فى التقدم والصعود إلى المراتب العليا والرفاهية والدخول المرتفعة أكثر كثيرا بين جماعة « حملة الشهادات الجدد » خاصة « الشهادات الأكثر تناسبا » وحتى عن الطبقة المشابهة فى الدول الغربية -وما يمكن أن يجعلكم تترددون فى قبول هذا الرأى أنكم تقارنون بين جماعتين متشابهتين فى مجتمع متقدم وفى مجتمع نام بطريقة مباشرة ، فى حين أنه لاينبغى أن تفصل جماعة أو طبقة أو ظاهرة اجتماعية عن إطارها العام أى قوام المجتمع ، ولاينبغى أن نبحث الأمر بصورة مجردة ، لكن الطريقة العلمية هى أن تأخذ فى الحسبان نسبة دخول حملة الشهادات فى مجتمعاتنا مع الدخل العام للناس أو دخول جماعات أو طبقات من قبيل العمال والفلاحين والملاك الصغار والحرفيين وأهل السوق ثم نقارن هذه النسبة مع نسبها المتشابهة فى المجتمع الإنجليزى مثلا أو الفرنسى ونستنبط النتائج . ومن هنا أقول إن حملة الشهادات على المستوى الراقى أو النوع التخصصى فى الدول التقليدية الآخذة بالتحديث أصيبوا بجنون السرعة ، وأنا أعتبر البورجوازية الجديدة وهذا صحيح من وجهة نظر علم الاجتماع من ضمن المقولة الخاصة : وساطات الاستهلاك ، والعصرية فى الأصل هى إيجاد وجوه استهلاك جديدة ، والعاملون عليها وساطات « كمبرادور » ووجوه الاستهلاك الجديدة تخلق مشاغل وتخصصات جديدة والعمال هم حملة الشهادات . وبناء على هذا كما أن مبادىء علم الاجتماع والمقولات الاجتماعية للبورجوازية فى هذه المجتمعات ليست واحدة مع ماللبورجوازية الغربية . والدور الاجتماعى والطبقى لهؤلاء المثقفين لايشبه بحال من الأحوال ماللمثقفين الغربيين .

المترجم : لعل وضع حملة الشهادات ضمن البورجوازية الجديدة خاص بوضع إيران فى عهد البترول ، وهناك دول أخرى تدهور حملة الشهادات والمثقفون فيها أيا كانت شهادتهم وخبراتهم إلى مستوى معيشى مادون طبقة البروليتاريا ، وصعد أصحاب الحرف والتجار فعلا إلى تكوين بورجوازية جديدة ، وقد ساعد على ذلك البنية الاقتصادية الطفيلية لمجتمعاتهم وعدم وجود دخل عام والاعتماد على الاستيراد ومصالح أخرى .

(١) أما الطريق الثاني فهو أن يمحو من شاهنامته تلك الأبيات الوقحة التي تصرخ بالرفض (٢) والبدعة ، وأن يقوم بعمل تعديلات في الجزء الخاص بين إيران والعرب ومتن خطاب رستم (٣) بحيث لايجرح الإحساس الديني العام ولايكون سببا في تزلزل عقائد الشباب ، وعليه قبل أن ينشر « شاهنامته » أن يحملها إلى حضرة السيد الشيخ أبي القاسم الجرجاني (فهذا من قبيل الاحترام للسيد .... وأيضا .. حَسَنٌ من قبيل المصلحة ، فمن ناحية ... نحن الآن نتحدث بصراحة ... هذا عمل لازم ، فسيادته فقيه ، سهر الليالي ستين عاما وحضر على أستاذ ، ودرس في الخارج ، يعرف الاسلام أكثر منك أنت أبو القاسم الفردوسي الفلاح من قرية باج ومعلوماتك عبارة عن معرفة محدودة باللغة البهلوية وهي لغة المجوس ودراساتك عبارة عن شاهنامة أبي منصور والأساطير الجاهلية وتاريخ الإيرانيين الزردشتيين المجوس عبدة الشمس وسير كسيو وكسودرز ورستم وتهمينه واسفنديار وسهراب والعنقاء والشيطان الأبيض في مازنداران) .

أجل احمل الشاهنامه إلى السيد ، اترك الشباب والطيش ، وليعطها السيد بدوره إلى أحد المحترمين في السوق أو فضلاء المركز الديني أو أئمة الجماعة الأبرار ليلقوا عليها نظرة ، فإما أنهم سوف يرون أنها صالحة للنشر ونتيجة له سوف يشطبون على مدح علي واللمز في عمر والفحش في العرب والكلام الذي تفوح منه رائحة ما بالنسبة للعباسيين أسرة الرسول وخلفاء المسلمين ، وهذه التهورات الخطرة الركيكة بالنسبة للسلطان محمود الغازي ، وبدلا منها سوف يقولون : هيا انظم مائتي أو ثلاثمائة بيت في مدح صحابة الرسول الكبار وبالأخص الشيخين وفي ذم الإيرانيين القدماء والغض من شأن القومية وثقافة زردشت وهذا النوع من النقاط الفرعية . وإما أنهم سوف يقولون : هذا الكتاب من « الكتب الضالة الفاسدة المفسدة » وسوف يلقون به بعيدا ، وبدلا منه سوف يوصونك : مادام لديك هذا الذوق والقلم والطبع السلس والاستعداد الطيب عليك أن تذهب وبدلا من الشاهنامه انظم « عمر نامه » أو « أبو بكر نامه » حتى تظفر بالدنيا والآخرة ، الدنيا مزرعة الآخرة ، من لامعاش له لامعاد له .

(١) المترجم : طريق الأنوري أن يسلك الطريق الشائع ومورد قبول الناس .

(٢) المقصود التشيع .

(٣) المقصود ماورد على لسان رستم من سب العرب . المترجم .

أمام الأنورى طريق ثالث ، طريق محترم ، يستطيع به أن يصل إلى اسم ورسم وينمو ، ويرفع عنقه بالصمود والحرية ، « ويدل على الفلك ويفخر على النجم » ، ويحك رأسه بالسماء رفعة ، ويمنن على العالم وآدم والبشر والقومية والجيل الحالى والقادم وبل على الفكر والإحساس والعلوم والفنون والآداب ، وهو : « إذا كان الانورى لم يرد أو لم يردوا له » أن يمضى فى واحد من هذين الطريقين المعهودين ويصل إلى الدين والدنيا ، فإنه يستطيع أن يأتى إلى طهران ، وبلطائف الحيل يجد طريقه إلى واحد من أماكن التجمع الفكرية ، ويعمد ، ويشرف « بالمذهب الرسمي الحق » و « يحدد اتجاهه » ويتعلم لسانه وماهو متعلق به من حركات وسكنات ، وبعدها خبزه مغموس ومخبوز وسوقه رائجة .

الخلاصة أن الطريقة هى طريقة كرامات بابا طاهر العريان[1] « أمسيت كرديا وأصبحت عربيا » ، بنفس القدر الذى يفهمون به أن « سرجك مائل » سوف يهوونك ، كل كلام فارغ سوف تتفضل بقوله سيستمعون إليه ، حتى ولو كانت معرفتك بهذا الدين والمذهب بقدر معرفة « كل مندلى درويش » عن التصوف أو الأستاذ حسين القصاب عن التشيع ، أحيانا إذا كان التعالم الذى تقوم به أحيانا والتجشؤات التى لامحل لها وتطلقها أحيانا تختلف عن أكثر قواعد هذا المذهب بديهية وتناقضها ، لامانع ، لن ينتبه أحد ، ليست القضية هى قضية المدرسة والاشتراك فى الأفكار ، القاعدة هى الاشتراك فى الحدود والثغور ، فالموضوعات العلمية والفكرية والأيديولوجية هى قضايا البنية الفوقية ، أما بالنسبة للبنية التحتية فهى موضوعات الأحاسيس والعواطف والسمات والمصالح والمزايا والنجاح النقابى والجماعى و « الشللى » . القاعدة هى أنهم « يفهمون بعضهم البعض » ويحبون بعضهم البعض ، اليوم يقوم أحدهم بنقد الآخر فى « مجلتهم » وفى اليوم التالى لابد أن يقوم برد جميل النقد ، ولما كانوا جميعا يؤمنون بأن الفنان فى عصرنا خاصة فى العالم الثالث لابد وأن يكون ملتزما ، فكل واحد قد التزم ألا يكون ملتزما بشى اللهم إلا أن يخل بوعده أو بعهده

---

(١) المترجم : بابا طاهر العريان أو الهمدانى من صوفية القرن الرابع والخامس وصاحب رباعيات شهيرة . يسخر شريعتى من قوله المذكور فى المتن ، إذ كيف يصبح الإنسان شيئا ويمسى شيئا آخر ؟

للجماعة . لاحداث هذه مستوى أعرف وأكثر رومنسية تجرى فى الأمور لكى عفة الكلام تمتع قونها ، وينبغى أن يمر عليها خمسون سنة حتى يمكن الخوض فيها طبقا للقوانين الدولية . إذن ... ماذا يفعل الأنورى ؟ لقد فعل ماضى . وأمثال الأنورى لم يبتلوا أبدا بمشكلة « ماذا أفعل ؟ » ولايبتلون وربما لن يبتلوا أبدا . إذن قل : ماذا يفعل الفردوسى ، ماذا يفعل ناصر خسرو[1] ، حتى الآن لاأجد حلا بالنسبة لهذين ، وفى مستوى العمل العلمى أو الأدبى أو الفنى لـ « سقا زاده » و « فردين » ، يمكن دون أن تستغل هذه الواجهات الزجاجية الثلاثة الملفتة الجذابة « أن يستند إلى قاعدة ما ، لأن جماهير الشعب فى هذه المستويات ، دون توصية وتأييد وخلفيات مصنوعة أهل تمييز ، لكن ماذا عن المستويات العالية ؟

أما أن يأتى واحد مثل « تقى زاده » فيأخذ بيد أحد الذين سافروا حديثا ويسحبه ويجعل منه علامة فاضلا ومفضالا وأديبا أريبا ، لأنك قمت بمقابلة النسخ والتصحيح والتحشية وتوضيح الواضحات ، عندما يطبع عملك ، وقبل أن يخرج كتابك إلى السوق يكون كتاب العام وتصير أنت نفسك باحث العام وأجرك أجر العام وجيبك جيب العام ويشترى مصنع اللبن المبستر والزبادى ألف نسخة من كتابك دفعة واحدة من أجل المكتبة التى فى منظوره أن يؤسسها للعمال والموظفين ، والألف نسخة الأخرى تشتريها وزارة الثقافة والتربية والعلوم ولاتترك رجلا كاتبا بحالة ليغتم لعدم نفاد كتابه ، وقبل أن تباع نسخة واحدة منه تقوم بتوقيع عقد الطبعة الثانية مع المؤسسة .

وإذا لم تكن من أهل الدنيا وكنت من أهل الألم وتعانى من ألم الدين ، اجعل قلمك وقفا على نشر الدين المبين والدعوة للمذهب الحق الجعفرى ، وخذكم شهادة بخط حضرات الآيات المباركات فحواها أنك « فعلت كذا وكذا وكيت وكيت » وينبغى أن تتضمن ألقابا تفضى إلى الخبز والماء قد أنعموا بها عليك من قبيل « حجة الإسلام وثقة الإسلام » وصورها ، وصبها فى السوق وأماكن ازدحام المؤمنين، وقدم بعضها الى الوعاظ المحترمين موصيا إياهم بأن

(١) المترجم : ناصر خسر القباديانى المروزى شاعر ومفكر وفيلسوف إيرانى اسماعيلى ، كان مطاردا من السلطة ومات فى المنفى لسوء علاقته مع السلطة ، ولد ٣٨٤ هـ. وتوفى ٤٧٠ هـ. انظر المقدمة العربية لترجمة جامع الحكمتين للمترجم .

يذكروا بعض الروايات والنقاط من هذا الكتاب فوق المنبر ، واجعل أنت نفسك « منبرين » فى تاسوعاء وعاشوراء وقفا على بيعه ، ومادمت قد هيأت الأرضية قل للرفاق أن يوزعوه وسوف توزع ألف نسخة فى جلسة واحدة . الخلاصة أنك تكون قد صرت داعية فاضلا ومحدثا خبيرا وخطيبا مقتدرا وكاتبا عالما ، بل ويستخدمونك عند السفر إلى الأعتاب العالية لمزارات الأئمة وزيارة الحرمين الشريفين ، وهناك سوف يدعوك أهل العلم وتدعوك الجمعيات والمراكز الدينية والمؤسسات دعوات لم تكن أنت نفسك تنتظرها .

وإذا أراد أحد أن يسير فى طريق « السالكون فيه قلائل » فماذا سيفعل ؟ إذا كان عمله لن يضر « أكل عيش » أحد مثل « سبك شناسى » أو تصحيح تاريخ سيستان لبهار [1] فانه على حد قول المرحوم بهار سوف يشمل بـ « مؤامرة الصمت » ، كأن لم يكن . أما إذا كان له شأن بأمر الزمان أو أبناء الزمان ، سوف تنهمر عليه السهام من القواعد الثلاثة ، وسوف يلقى من كل صوب إلى الصوب الآخر ، وبين الجميع سوف يتهم بثلاث تهم متناقضة وإذا كانت شخصيته واضحة تماما وضد « الضرب والكسر » ، وإذا كان من معدن سئ فلا هولديه ميل فى جبلته إلى الباطل ، ولاهو ينجذب إلى مغناطيس المناصب ، ولاعقدة خمول الذكر تجذبه إلى الشهرة والصيت ، وقضى عمرا فى الجهاد والصبر ومواجهة القوة والظلم بحيث لم يعد الاتهام يؤثر على بدنه ، وتجاهل المصالح العديدة فى سبيل الحقيقة ، بحيث إن لطمة « التكفير » لم تكن تجعله يجثو على ركبتيه ، وأن مادته العلمية والثقافية والفكرية قد قومت منه ، بحيث لايستسلم لركلات « النقاد المخصوصين » أو أنظار المشرفين على العلوم القديمة والجديدة ، فإن أسلوب علاجه الوحيد والفريد آنذاك هو النذالة .
ماذا يمكن عمله مع السيد جمال الدين ؟ لاهو يمسك بمكتب أو بمحراب ، ليس محتاجا لاإلى الاسم ولا إلى الخبز ، لارأسه تدخل فى أنشوطة القوة ولاقلبه معلق برباط الذهب ، ولايمكن اتهام الرجل الذى وهب حياته للإيمان ولم يترك

---

(١) المترجم : محمد تقى بهار (١٣٠٤ هـ ق - ١٣٧٠ هـ ق) شاعر وصحفى ومحقق وأستاذ ومجاهد إيرانى . له عدد من الكتب والأبحاث والدواوين .

خناق الاستعمار ، الاستبداد لحظة واحدة[1] ، ولا يمكن أيضا بالنسبة للرجل الذى يعترف محمد عبده المفتى الأعظم فى العالم الإسلامى بالتلمذة على يديه ويمدحه ارنست رينان المفكر الأوربى المشهوربالنبوغ الخارق للعادة بدهشة ، لايمكن على يد من الفضلاء فى المركز الدينى أو حملة الشهادات شبه الأوربيين الذين ذهبوا إلى أوربا أن يزيحه من الميدان أو يقول عنه : لا ، ليس لديه شىء ، انه نمط سياسى موهوب وجاذبيته نتيجة أنه يتحدث بما يعجب الشباب ويطرح قضايا جديدة أو قضايا قديمة بأسلوب جديد ، وإلا فلا عمق لديه ، ولامادة علمية تذكر ولا موازين فى يده ، ولم يدخل مركزا دينيا ... ولا علم له تماما بالروح العلمية للعصر فى العالم والأحداث الفكرية للعصر .... إذن ماذا نفعل به ؟ عجبا ، لقد صار أس المتاعب . السبيل الوحيد هو ماذكرت ، التمريغ فى الطين ، هو السيد الفقير تماما الشريد ، لامنير له ولامحراب ولاجماعة ولامنصب ولامقهى ولا مجلة ولاجريدة ولا أى شىء ، هو ومضغة من اللسان فى فمه وقلم بخمسة قروش فى يده والسلام . على « ظاهرى الصلاح » هؤلاء و « أشباه الملات » الذين : إما أنهم يحقدون عليه حقدا شخصيا لأن ظهور شخصيته آذى مركب النقص عندهم وأثار حقدهم بحيث أوشكوا على الاختناق ، عليهم إذن أن يوعزوا إلى أعوانهم وأنصارهم الذين يشبهونهم وليقولوا لهم أن يندسوا بين الناس وبين المؤمنين فى السوق ويقولوا : هيه ... معلوم بالطبع ياسيد ، إذا كان صادقا فى كلامه فلماذا لم يقتلوه حتى الآن ؟ لماذا لايقاومونه ؟ هناك أفراد مطلعون كانوا مقربين منه فيما سبق يقولون أنه «لم يختتن» ، اذا كان كذبا ، فلماذا لايكذبه رسيمـا ؟ لماذا لايرد على المدعين عليه ؟ لماذا لايبدى علنا أن هذا الأمر لاحقيقة له وبلا أساس ؟

وفى ذلك العصر ، فى السنوات مابين ١٢٩٠ و ١٢٩٧ هجرية لم تكن هناك أفلام فارسية أو تليفزيون أو مجلات « اطلاعات بانوان » و « زن روز » و « روشنفكر » بحيث تحل لهم هذا الإشكال وحتى يستطيع السيد بطريقة من الطرق وبشكل وثائقى وبالوسائل السمعية والبصرية أن يرد على أعدائه ردا مفحما وفاضحاً ، وهل كان السيد جمال الدين الأسدآبادى منذ مائة سنة أن

(١) فى تلك الأزمنة لم يكن التكنيك المعاصر موجودا بحيث يمكن مونتاج الصور أو اصطناع الوثائق التاريخية بالحيلة .

يأتي إلى « سبزه ميدان » ويقوم بعملية « استربتيز » حتى يطمئن الناس إلى أن المسألة ليست صحيحة وأن أعداءه الذين عجزوا عن أى نوع من المجادلة وجها لوجه اختلقوا هذه الفرية من أجل القضاء عليه ؟ والناس أيضا ، أولئك الذين يأخذون آراءهم من الشائعات والأفواه ... من منهم بعد سماع هذه التهمة ، يركب عربة على الفور ويذهب الى منزل السيد ويعاين الأمر شخصيا ، ناهيك عن أن آراء العوام دائما ماهى إلاّ مختلطة ومشوشة وبلا نظام أو ترتيب ، إلا أحد هناك ليقول : سيدى هب أن هذا الأمر صحيح ، لكن ماهى علاقة « الاختتان » بالآراء السياسية أو النضال الاجتماعى أو القضايا الأيديولوجية الثورية والمضادة للاستعمار ؟ ، فى رأى العوام المتعلمين أو غير المتعلمين الذى يستطيع أن يكون مناضلا ضد الاستعمار هو الذى يكون قد اختتن فحسب .

بناء على ماسبق ، ليس أمام مفكر أو كاتب أو فنان جاد ومتسامى أكثر من خيارين : إما الانتساب والاعتماد على واحد من هذه الأقطاب الثلاثة القوية ومصيره النجاح المخلوق لساعته والخارق للعادة ، الخليق به أو غير الخليق ، وفى كلتا الحالتين أكثر مما يستحق ، أو الانتساب إلى الناس والاعتماد على نفسه ، ومصيره الفشل المتوالى ، والحرمان وخمول الذكر والموت اختناقا فى مؤامرة الصمت أو فى شعب الصياح ، أو التحطم والسقوط تحت الأقدام أو أن يلوث بالطين .

ينبغى فى البداية أن يدرك الناس قيمة الفكر وعمق الفن وخلاقية النبوغ وأن يحددوا قيمته بالتالى . والناس إما عوام كالأنعام واما متدينون وإما عصريون ، والصنف الأول تسيره الأوضاع والأحوال ، والجماعتان الأخريان لكل منهما مراجع تقليد وأئمة جماعة ومفتون رسميون وقادة معينون ، يصدرون لأتباعهم أصول العقائد والفتوى ، ومن هنا فإن هذا « الديك الذى يؤذن فى غير أوان » سوف يتعرض للسهام من اليمين واليسار ، وهو جدير بفتوى التكفير ومصداق للآية « خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » والنظام الموجود هو نظام قبائل العرب ، وكل من يريد أن يعيش فى مكة ، يلزمه إما أن يكون عضوا فى احدى العائلات القرشية الكبيرة ، أو إذا كان قد جاء من البادية أو من قبيلة أو من ديار بعيدة وغريبة ، لابد له أن يكون حليفا « لإحدى الطوائف الشريفة ، أو

مولى لواحد من الشيوخ ، أو يعلن أحد سادة بنى عبد مناف قائلا : هذا الغريب فى حماى ، أو يكون رسميا عبدا ، ويكون وضعه واضحا أمام نفسه وأمام الناس ، لكن إذا جاء أحد وقال : أنا انسان حر وأريد أن أعيش بجوار بيت ابراهيم محطم الأصنام ، ولن أدخل تحت حماية الملأ والمترفين أبى سفيان وأبى جهل وأمية بن خلف ، ولن ألصق نفسى بحاجب معبد الأصنام أوسادنه أو ساقيه ، ولن أقلد أيضا أولئك الذين مشوا خلف إبل القوافل أربعة أيام ووقعت أعينهم على مدينتين فى حدود الشام أو الحيرة أو غسان أو إيران ، وعاشروا فترة من الزمن بضعة من السماسرة والصبيان عند الايرانيين ، أو أعراب على الحدود شبه أجانب ، والآن جاءوا يتنفجون فى مكة ويرطنون بكلمات متقطعة غير مفهومة سمعوها هنا وهناك ، واستغلالا لجهل العرب ، يتفوهون بالكلمات الإيرانية أو الرومية الضخمة بلا مناسبة ، ولاذلك الأحمق الذى تعلم أساطير رستم واسفنديار من مقاهى إيران ثم يأتى كل يوم إلى جوار الكعبة وداخل المسجد الحرام ويقصها بالتفصيل للعرب الذين لايفهمونها ولايتمتعون بها ، أريد أن أكون أنا نفسى ، لامقلداً ولا أسيراً مرتبطاً ولامنجذباً ولا راهباً . لا ، لن تستطيع ، هنا مكة قريش ، كلها حول معبد الأصنام ، لكل أسرة شرفها الذاتى يمثل حيثيتها الاجتماعية وأنت رجل بلا صنم ، وإذا لم تقم بالارتباط بواحدة من هذه القواعد فى المجتمع الجاهلى عن طريق حليفك ، لن تستطيع أن تقف على قدميك ، فكل رقيع طويل الجدائل شقى ومنكوب وتافه يعد الاستمناء أكثر أعمال حياته أهمية ، سوف يسمح لنفسه أن يصب كأسه فوق وجهك وأن ينفث عن كل العقد الموجودة فى لاشعوره فوق رأسك مستريحا ولأول مرة فى حياته يظهر نفسه ، ويثبت وجوده ، وأيضا سوف يقوم السادة العطوفون برعاياهم العارفون بقدرهم المشجعون للسفلة بالربت على رأسه وأذنه والإنعام عليه[1] ... أطال الله عرقول ذلك الحيوان حسن الرعى .

---

(١) كان السوقة والأوباش قد أحاطوا بأحد المناضلين الصامدين وأخذوا يقذفونه بالحجارة وباسم الشعب أخذوا يهتفون ليمت فلان ، فاستدار إليهم وقال ببرود ولهجته المحلية « احتفوا بحياتى لأنى لو لم أكن حيا لما اعتبروكم بشرا ولما أعطوكم مالا لتأتوا وتسبونى وتقذفونى بالحجارة فادعوا لى بطول العمر . المترجم : الرواية وردت فى شأن سيد حسن مدرس . أحد المناضلين الأحرار فى مرحلة رضا شاه .

كل هذا صحيح ، أما الفنان أو المفكر الذى يريد أن يكون حليفا لواحدة من هذه الطوائف الثلاثة فى قريش ، يكون قد نظر إلى المجتمع بنفس العين التى نظر إليه بها الأنورى والفرخى[1] وأبو على . لكن هؤلاء لم يعرفوا طبقة غير محسوسة لكنها ذات ذات جذور ومقتدرة ومخلصة أو كانوا فاقدين للاستعداد والجدارة للنفاذ فى هذه الطبقة والرسوخ فيها وعقد العلاقات معها . ترى : ما هى هذه الطائفة ؟ إنها : الناس .

لاتظنوا أنى أعانى من عواطف ديموقراطية وورومانسية ثورية . ومفكرونا يستخدمون هذه الكلمة بتفصيل ولوعة وحرقة وذوبان . لكنهم فى هذا مقلدون ومترجمون ويقلدون الاشتراكيين واليساريين السياسيين فى أوربا . ويعرفون الناس من الأشعار والأناشيد والأعمال الأدبية والشعبية . فالجماهير والشعب فى لغتهم وأحاسيسهم كلمة ترادف الكلمات الأوربية Demoو Masse People أى أن ماصدقتها نفس هذه المصطلحات الموضة والمحبوبة لدى مفكرى أوربا . تماما كما يقوم شاعر مرتبط بالقديم ومقلد عندنا اليوم بمزاولة « العشق » عن طريق مصطلحات « الساقى » و « القلب » و « العشق » والسبب فى هذا تعلقه ولذته بتقليد حافظ ومولانا وسنائى والوقوع تحت تأثير المثنوى والحديقة وديوان حافظ ، لا لأن قلبه فى الواقع قد أخذته أنوار إشراق ذلك العشق وتلاطمه بقلبه أو لأنه فهم المعنى العميق والباطنى للقلب والساقى . هذه المفاهيم السامية اللانهائية لاتستوعبها دائرة إدراكه وأحاسيسه الصفيحية .

وأشباه المفكرين عندنا الذين يتحدثون كل لحظة عن « الناس » و « الجماهير » يعانون هذا الوهم النفسى التقليدى ، وإلا فالحقيقة أنهم لايأبهون بالمصدقات العينية لهذه الألفاظ فى الحوارى والأسواق وأماكن العمل والمزارع والمدن والقرى ، فإذا التقى أحدهم بهم عبس بوجهه ، وبالآف من أنواع اللمز والهمز وحركات العين أخذ يسخر منهم وبآلاف من أنواع الاشمئزاز والتأفف والقرف يطوى طرف سترته ويبتعد .

عندما أقول « الشعب » فلست مضطرا الى اكتشاف ماصدقه العينى والواقعى عن طريق الآداب الاشتراكية والمفاهيم الديموقراطية والثورة الفرنسية الكبرى والأيديولوجيات الشعبية وكأنه مجهول علمى أو قانون من قوانين علم

(١) المترجم : شاعر من شعراء المدح فى العصر الغزنوى .

الاجتماع ، والعلم بالشعب ليس علما حصوليا ، بل علم حضورى ، هو علمى بذاتى ، ولكل جماعة ضمير جماعى وروح جماعية ، واحساس بـ « نحن » . هذه الـ « نحن » الموجودة فى الـ « أنا » الخاصة بى هى الشعب . ويظن بعضهم أن الآداب الملتزمة تطلق على ذلك النوع من الكتب الذى يكون فى خدمة الشعب ، ولابد أن تكون سياسية ، ولابد أن تكون موجهة ضد الوضع الطبقى والنضال ضد الرأسمالية والاستغلال ، وتتحدث فقط عن القضايا الحادة المعاصرة والأحداث اليومية والصدامات العينية والواقعية للطبقة المحكومة ، أجل ، هكذا هى . لأن الآداب الملتزمة تعنى القرار الذى اتخذه مؤقتا الكتاب والفنانون المرفهون الشبعون أولاد السادة بأن يساعدوا الشعب لكى يخلصوه من هذه العبودية الاجتماعية . برافو ، هو قرار عظيم ومؤثر ومفيد ليس بلا شك لأنه ضرورة حيوية وحاجة شخصية أو جماعية ، فأولئك الذين اتخذوه لايعانون هذا الوضع ، إنهم متمتعون ومستريحون ولايتألمون ، فالقرار إذن على أساس إلزام أخلاقى ، عمل من أعمال الخير الإنسانى ، النفس اللوامة .

إذا رأيت أن هناك أعمى وبئر من الذنب أن تجلس صامتا لكنى لست ذلك المفكر البورجوازى أو الأرستقراطى الموجود فى الطبقة الحاكمة بحيث ألقى نظرة من نافذة قصرى على هذا الشعب المسكين الذى يدب على الأرض كقطيع من النمل ويعيش فى هذه الثقوب السوداء المسماة بالعشش والأكواخ والمنازل الطينية البسيطة ووجهه فى غاية الشحوب ، ثم يرق قلبى ، ثم أفكر وأقول « هؤلاء أيضا بشر » مرسى ، ولايصح فى هذا الموقف الذى يعانى فيه أبناء جنسى من المشقة والجوع والعبودية معاناة مباشرة ، أن أتمدد هنا إلى جوار التدفئة المركزية على الحشايا والوسائد المحشوة بريش النعام وإلى جوار مجموعة من المشروبات الأوربية ، وفى عالم السكر والتعب الناتج عن الحفلات المستمرة والملل من الرفاهية والفراغ والشبع والامتلاء والوصول إلى آخر الخط فى كل اللذات والنعم والامتلاك ، وأصل إلى عدم الانتظار « ثم أفكر فى اليأس الفلسفى والخواء والعبث واللامعقول ، وأتساءل : هل الوجود يسبق الماهية أو أن الماهية تسبق الوجود وهل الإنسان مسير أو مخير ؟ ، أو أعانى من أحساسيس رومانسية مؤلمة ومشئومة ، وأنشد الشعر « لظلى » من أجل تلك

« النافورات الذهبية » أو طائر الكنارى البرىء ،[1] كونى إنسانا يحتم على أن أذهب إلى الناس ، وأن أضع نفسى فى صفهم وأن أجاهد حتى أفهمهم ، أن أتعرف على آمالهم وآلامهم ومعنوياتهم ، وأساعدهم عن طريق فنى فى الوصول إلى أهدافهم .

لست خلف نافذة الطبقة الثالثة أو فوق سطح ذلكِ القصر ، أنا واحد من نفس هذا الشعب الذى يتحرك على طوارى الشارع ثم يهبط إلى هذه الأغوار السوداء ثم يخرج منها ويحيا مع أحزانه وهمومة وأنواع عشقه وآلامه وعقائده الخاصة . لست ملتزما بأن أعاهد الناس بأن أوجه لهم فنى وإحساسى ، ليس لهذا معنى بالنسبة لى فأنا الشعب ذاته أتبع أسلوبا واقعيا له ماصدق خارجى وعينى فى نظرتى وفى أسلوب عمله الفنى . عندما أفتش فى داخلى وأتناول إحساساتى وآمالى واحتياجاتى الفردية أكون واقعيا أيضا لأن من يكون هو نفسه من الشعب ، فإن كل تجليات روحه وحركات فكره تتلون بلون الشعب حتى عشقه ودينه ورؤيته الكونية الفلسفية وحياته الخاصة ، إن أغانينا الريفية بالنسبة للمضمون ليست من الآداب الملتزمة ، لكن من الذى لايفهم من أول شطرة أن هذا ريفى يحب أو ريفى يشكو أو ريفى يغنى ؟ كل أبعاد حياته وأوضاعها العينية والمحلية والطبقية متجلية فى هذه الأمواج والمظاهر للروح الفردية والأمانى الشخصية .

عندما أقول الشعب فأنا غير ذلك المتعلم البورجوازى يتحدث تحت تأثير الرومانسية الاشتراكية عن طبقة يوتوبائية وميثولوجية ، إننى أتحدث عن طائفتى ، طائفة عينية وواقعية ولها وجود خارجى مثل وجودى تماما بل أكثر وأقوى من وجودى ، إن درجة وجودها ليست أشرف وأقوى من درجة وجودى فحسب ، بل إننى وبشكل مستمر أستمد الصيرورة الوجودية[2] لذاتى من هذه الطائفة ، طائفة الشعب ، وإذا أردنا أن نتحدث بلغة القرآن ينبغى أن نقول « طائفة الناس »

---

(١) المترجم : يسخر من رواية البومة العمياء لصادق هدايت ومن أشعار فروغ فرخزاد .

(٢) يعنى أن أنبه إلى أن كلمة « أنا » هنا ليست ضمير متكلم بالمصطلح النحوى ، وليست إشارة الى كاتب هذه السطور . « أنا » هنا ضمير متكلم فلسفى واجتماعى ، يعنى فردا من الناس ، جزءا من الكل [illegible]

في مقابل الطوائف الأخرى ، طوائف « الملأ » و « المترفين » ، طوائف فرعون وقارون وبلعام ابن باعوراء .[1]

ومع كل هذا فلست أقصد بالناس الرعوس والنفوس . العوام كالأنعام أشباه البشر ذوى القيم بالقوة لا بالفعل ، ، لأن قيمهم مرتبطة بالجهة التي يقبلونها من بين الصفوف الأربعة المحددة ، وهم فى الأحوال العادية فاقدون للقيم . سوف تقولون : لاإنهم يكدحون وينتجون ، هذه فائدتهم لاقيمتهم ، والقيمة Valeur غير الفائدة .

على كل حال : الشعب بالنسبة للسياسى غير الشعب بالنسبة للفنان أو الكاتب ، وبالرغم من أننى أرى أن قولهم بأنه يجب على الفنان أن يلصق نفسه بواحد من تلك الأجهزة الثلاثة وأن يصير حليفا لواحدة من تلك القبائل الشريفة والا فمصيره موت خمول الذكر والعبث ناشىء من العجز والغربة عن الناس ، فإننى أعتبر أن الحديث عن الشعب بلهجة سياسية ديموقراطية وهم عاطفى وخيالى والناس فى رأيى هم أولئك الذين يستطيعون أن يكونوا تكئة فنان أو كاتب حر متمرد « تلك الجماعة من أفراد مجتمع ماوصلوا إلى الوعى والتمييز ، وأيضا لم يتشكلوا فى واحد من تلك القوالب المفروضة الرائجة المحددة سواء كانت سياسية أو فكرية أو دينية » .

وكل أملى فى مستقبل هذه الأمة مرهون بهؤلاء ، نفس هؤلاء الأحرار الواعون الذين لم يتقولبوا والظمأى إلى إيمان جديد وصحيح . أولئك الذين نفد صبرهم بالنسبة للوضع الراهن لا اولئك الذين يشبعهم دينهم أو يهبهم السكينة واليقين ، ولا أولئك الذين يعطيهم إلحادهم الغرور العلمى والتنفجات الحديثة والمتقدمة الـ « آخر صيحة » ، بل أولئك الذين لم يفقدوا بعد القدرة على الاختيار ، وهذا أعظم ثروة لديهم هؤلاء هم المفكرون الذين لاقالب لهم ولم « يحددوا » ولم يتنبأ بهم ، لا الذهب والقوة أسرار شخصيتهم المعنوية والفكرية وحريتهم ولاهم تجمدوا فى قوالب تقليدية موروثة كالدين ، ولاصنعوا واستخدموا على أساس نماذج مستوردة مقلدة ومترجمة . هؤلاء فحسب هم الذين يملكون الجرأة على التمييز والقدرة عليه وإمكان القيام به .

(١) فى علم الاجتماع القرآنى وهو علم اجتماع طبقى صريح ، يعد المجتمع طبقة دائمة ، وهناك ثلاث طبقات تشكل الطبقة الحاكمة ، أشير إليها فى ثلاثة رموز : فرعون : القوة السياسية

عندما يطرح « كلام جديد » فى المجتمع أو إنسان جديد ، فان هذين النمطين المصطنعين لن يستطيعا التعرف عليه أو تحديد قيمته الحقيقية سلبا أو إيجابا أو نسبية . فذلك الذى بقراءة « صرف مير » حطم مائة قفل وجنزير ، ودرس جامع عباسى للشيخ بهائى ويستطيع أن يصرف « اشترتن » فى كل صيغها كالماء الجارى ودرس العلوم الدينية وجاوز السطح والقشور وطوى المعقول والمنقول ، لايحتاج إلى قراءة هذا الكتاب أو رؤية هذا الإنسان اللهم الا من أجل أن يكتب عليه « رسالة ردية » لقد حكم عليه حكما مسبقا ، أما الفئة الثانية فطبقا للمعايير التى يظنونها لاتتغير وعلمية جدلية مائة فى المائة فسوف يديتون الكتاب من جلده أو الرجل من على البعد ويستخرجون جذوره الإجتماعية والتاريخية بإعجاز أسلوب الجدل ومبدئية الاقتصاد ، ولن يدفعه شىء إلى بحث هذا الرأى أو الفكر الجديد اللهم إلاكتابة النقد .

لم ينظر أحد من أهل هذين القالبين الى كتابى « معرفة الإسلام » ومن جلده أصدروا الفتوى والحكم القاطع . فالأول بمجرد أن رآه قال : ماذا ؟ هل يترك المرء بحار الأنوار « للمجلسى » والكافى « للكلينى » وكحل البصر للمرحوم الحاج الشيخ عباس ثم يأتى ويقرأ السيد الدكتور فلان المتفرنج ؟ والثانى بمجرد أن رآه قال : نعم ، دينى ، الدين أفيون الشعوب ، الدين اخترعه الأغنياء فيما مضى حتى لايصبح العمال والفلاحون واعين ، وحتى يتحملوا استغلالهم وسيطرتهم .. ليس فيه مايقرأ .

هذا الثالث فحسب ، هذا المفكر الذى ليس مخرفا ومغلقا إلى حد أن يقنع بالبحار وكحل البصر ، وليس محدودا أو ساذجا أو متظاهرا بحيث « يشبع » بمصطلحات أربعة ومقالين مترجمين ، إنه لم يتوقف فى شكل ثابت قط ، إنه لايزال يتحرك ويبحث ويفكر ويحلل ، إنه هو الذى يتناول كتابى مثل أى كتاب آخر قد يكون ردا على كتابى ثم يفتحه ، وهو الوحيد الذى يقرأ بعد القراءة

ـ الحاكمة ، وقارون : القوة المسيطرة الاقتصادية ، وبلعم بن باعوراء : القدرة الحاكمة الدينية والفكرية (رجال الدين الرسميون والعلماء والكتاب ومثقفوا السوء) والطبقة المحكومة هى الناس (وتساوى الجماهير وعيال الله والرسل من هذه الطبقة فى مقابل الطوائف الثلاثة الأخرى) هؤلاء الأشخاص الثلاثة فرعون وقارون وبلعام هم نفس ممثلى مدينة كورف كورنيث الذين جاءوا إلى سيزيف فى مسرحية روبيرموريل المسماة سيزيف والموت .

والفهم ، هو الوحيد الذى يحكم بنفسه ولايستعير الأحكام الموضوعة والمصنوعة للاستعمال من المنتجين ذوى العلامات التجارية . هؤلاء هم الناس . ولاجدال أن الناس هم الذين يخاطبهم الفنان أو الكاتب أو الذى عنده مايقال . لقد جربت ، إنهم هؤلاء ، وهم أذكياء وواعون وصادقون ومخلصون . لهم حاسه شم حادة ويميزون رائحة الإنسان من بين نتن الروائح العفنة الكثيرة ، رأيت الفنانين الغربيين الذين لم يكونوا أبدا حلفاء أى قبيلة . وكان مجرد ذكر أسمائهم أو نشر خبر عنهم أو صور لهم أو إشارة إليهم وإلى أعمالهم من الأمور الممنوعة ، كانوا شخصيات « تهرب » إلى المجتمع ، يتكتم ماحولهم فى كل مكان دائما ، وفى مقابل هذا فإن « الأقنعة » كانوا دائما وأبدا فوق صوارى الأعلام ، لكن هؤلاء الناس كانوا يفهمون بالرائحة بتلك الحاسة الخاصة التى تعلم القريب والحس الفطرى لتمييز الخطر ومعرفة العدو وهو ماأسميه بالإشراق الاجتماعى ، إنهم يجدون من يقف الى جانبهم .

هكذا كانت أمتنا دائما ، انظروا إلى التاريخ ، تصوروا العصر والزمان ، منذ ألف عام أو يزيد ، كان هناك أمة لغتها البهلوية ، غريبة عن العرب وكل مايجرى فى بلاد العرب ، ذات دين وأدب وروح وتاريخ وثقافة وعرق آخر ، وفجأة يتقاطر عليها جند خالد بن الوليد والمثنى ومسعود ويزيد بن المهلب داعين : هيا اسلموا . الله والقرآن ومحمد وأبو بكر وعمر وعثمان . أرسل عمر الجيش الفاتح ومن بعده عثمان ، ثم وقعت الخلافة الرسمية فى أيدى بنى أمية لمدة مائة سنة ، ثم فى أيدى بنى العباس ستمائة سنة ، كانت المنابر والمحاريب والمساجد والحكام والقادة والقضاء والفقهاء والكتاب والعلماء كلهم يقولون نفس الكلام ، منذ البداية كانوا يقومون بالدعاية لنفس هذا الكلام . لكن هذا الشعب وبنفس هذا الذكاء الغامض ، نفس الرؤية لما هو خفى ، و « التكتل فى الظهر » ونفس « إشراق الاتجاه » فهموا أن : لا ، ماهو موجود فى الظاهر له صورة فى الباطن ، وفهم مايجرى وراء الستار ، وسمع الأصوات المؤقتة التى سرعان ماصمتت فى بلاد العرب وسجون الخلفاء من بين تلك الضجة والعربدة لمهرجى الحكومة . ووراء هذا الجيش الإسلامى الفاتح وهذه العمائم واللحى والمآذن ، عرف فى بلخ وطوس وماوراء النهر ذلك الرجل الوحيد الغريب الذى بقى مجهولا ومدانا فى مدينته وبين رهطه وقبيلته وعرقه وإخوانه

فى الدين ، وهرب من المدينة وفى ظلام ليالى التخيل حول المدينة وضع رأسه فى بئر وأخذ يشكو آلامه العظيمة للبئر ، وعلم أن الحق معه :

لو كان محمداً إماماً لى لتركت   الدين القديم إلى الدين الجديد
لكن عمل هذا الأحدب كان ملتوياً   إذ كان يريد الأمر منا بفظاظة

كيف فهمت الدعوة إلى العودة إلى الذات :

حدث منذ عام أن نشرت : « من أين ننطلق ؟» وطرحت قضية « العودة إلى الذات » وازدادت ضجة الفكرين العصريين على وتضاعفت بحيث أوشكوا على تقديمى « كرجعى عابد للتقاليد » و « كعنصر هارب من المستقبل وضد التقدم » و « عابد للتقليد » و « متحسر على الماضى » وأذكر أن بعضهم كان يظهر البحث وذاك كأكبر دليل على إدانتى الحتمية وسقوطى الحاسم وجريمتى الواضحة ، وبدون أن يدخلوا فى أصل الموضوع كانوا يعتبرون كتابتى لهذا البحث دليلا كافيا وكان عليهم فحسب أن يثبتوا أننى كتبت هذا الكتاب .

وللأفكار فى مجتمعنا أيضا مصير مثير للحزن والضحك فى نفس الوقت . فى البداية عندما يطرح كلام جديد ، يتكتلون بسرعة وشدة ضده ، ولايسمح أحد قط لنفسه فى أن يتردد فى الرد عليه ونقضه . فهذه هى أفضل وسيلة للتظاهر والتنفيس عن العقد وفرصة لأن يقول كل من يريد « أنا رجل » ، فإذا لم يكن لهذا الكلام جذور ، أو كان الذى قاله غير ثابت القدم تماما ، وكان يريد فحسب أن يسن بدعة من أجل التفنن العلمى والأدبى ، فأمره معلوم تماما ، يذهب هو وكلامه إلى حيث ألقت ملعونا ومطرودا أو على الأقل منسيا تماما . لكنه إذا كان عنيدا وليس ممن يؤكل لحمهم ولكلامه قاعدة قوية وثابتة ، وإذا كان على وجه الخصوص قد وجد سندا له واستطاع أن ينقل قولاً عن أسود أو أبيض أو أصفر أو أجنبى ليجعل لهذا الكلام يدا وقدما فإن كلامه يثبت ويتشكل ويفتح له مجالاً ويجد القبول العام ، النصر ، النجاح ، لكن هذا فى حد ذاته بداية المصيبة ، يصير الكلام « درجة » جديدة ، ومادام قد صار آخر صيحة جديدة فسوف يبتذل ويصير قبيحا وعاميا وصحفيا بحيث ينبغى على

صاحب الكلام أن يبادر ويعتزل .

هذه « العودة إلى الذات » الرجعية الدينية عابدة القديم المنحطة صارت آخر صيحة ، وترجمت مقالتان أو ثلاثة عن الكتاب السود . ووضع الفكر هنا مثل وضع الموضة ، تابع للمنبع والواضـــع والمدافع ، وانتشاره رهين واجهة عرضه . تماما كما لو قام خياط ومصمم أزياء إيرانى بعرض « الجيب الطويل » ، ومهما كان قد أبدى فيه من ذوق وابتكار وفن وجمال وإعجاز ، لم يكن لأحد أن يتردد فى القول : أجل هذا مخرف ورجعى ، لكن عندما يصممونها هم ، تسمى بالماكسى وتكون المنتصرة تماما على « المينى » .

وعندما فهم مفكرونا الذين يتبعون « الموضة » أن نيريرى وايما سيزار يعتقدان فى أنه ينبغى أن نعود إلى ذواتنا ، لم يشك أحد فى صحة القضية . هذه هى موضة خريف ١٩٦٧ فى ذلك الوقت بلغ الأمر حدا أن الرقعاء ذوى الجدائل والصبيان العابثين الذين تشكل رؤيتهم الكونية عددا من اسطوانات موسيقى الجاز و « الخنافس » والطواف حول مدارس البنات ، أخذوا يتحدثون وكأنهم يتحدثون عن آخر كشف فى عالم موضة الأفكار ، وعلى طوار كل شارع وخلف كل منضدة مقهى وأعمدة كل صحيفة ارتفع صوت اجترار هذه الكلمات : ينبغى أن نعرف أنفسنا ، إن الابتلاء بمرض التغرب تقليد للأوربيين ، الاستناد على ثقافة الذات ، الحضارة ، الأصالة ، احياء التقاليد ..... الخ [1] ثم دخل المفكرون وأهل القلم والفن إلى الطريق قائلين : ياألله ، فلنذهب ولنعرف ذواتنا ، ولنعد إلى ذواتنا التى تحمل روحنا الحقيقية وإلى ثقافتنا وفكرنا اللذين ابتعدنا عنهما وصرنا غرباء عنهما ، ومن أجل هذا ماذا نفعل ؟ ومن أين نبدأ ؟

أكثر مراحل القرار حساسية ، رأس منعطف التاريخ وتحديد المصير ، فلنجمع الرقصات الشعبية ولنبحث عن الأمثال العامية والقصص والأغانى

(١) قدماؤنا فقط من كلتا الطائفتين هم الأغراب عن الأحداث الفكرية التى تصل أولاً بأول منذ ثلاث سنوات عندما ألقيت محاضرة عن محو الثقافة والتفريغ من الذات فهم الأستاذ .. الذى كان حاضرا أننى أريد أن أقول إنه يجب علينا ونحن فى القرن العشرين وعصر السفينة أبولو أن نعود إلى عهد أردشير دراز دست « طويل اليد » وسابورذى الأكتاف وقورش ودارا بالرغم من أننى أدنت صراحة القومية وعبادة العرق .

والأناشيد العاطفية ولنحققها ولندونها ولننشرها ، ولنجمع كل عاداتنا وطقوسنا المحلية فى العرس والحداد والأعياد والألعاب والرياضات والأطعمة والألبسة وأدوات الزينة وطرز التزين . ولنبعث من جديد تمثيلية « الحر »[1] بتكنيك جديد مع حفظ نمطها ونصها الدراماتيكى ، ولنمثلها على المسرح فى « مهرجان الفنون » فى شيراز . ونستخرج من جديد « المسرح فوق الحوض » ولنستخدمه لأنه موشك على الانقراض ومن الممكن لاقدر الله أن تحرم منه البشرية إلى الأبد ، ويواصل مستقبل الثقافة والمدينة والفن النضج بدونه .

« وعراقة الحمار » التى صار جيلنا الجديد نظرا لابتلائه بالتغرب لايعرفها ، وقام هجوم آلية الرأسمالية الأوربية بجعل شريحة المثقفين الواعين عندنا عاجزين عن فهمها وهى ممثلة الروح ولوح التاريخ المنقوش عند جماهير أمتنا ، لنكشف عنها النقاب ولنضعها فى الواجهات الفاخرة لمحلات الزينة من أجل سيداتنا ربيبات اليوم ، ولـ « تدكور » بزينات خيالية مثيرة للدهشة والخيال تحت أنظار الجيل المبتلى بالرفاهية المفرط فيها الموجودة اليوم فى إيران ، وحتى ولاينسى هذا الجيل نفسه فى أوج الظهور المحير للعصرية الأوربية والآلية الجديدة ، ولنعلق « مخلاة الحمار » على جدران منازلنا للزينة ، ولنضع خرج ذلك الحيوان الأعجم الرمزى على جدران حجرات الضيوف وبجوار البار ، ولنضع تمثالا لأنثى الحيوان المذكور مصنوعا من الجلد والقطن إلى جوار شماعة الملابس ، ولنعلق صينية أكل من النحاس الأحمر وصينية ذات حواف وقدر وحاملة قدر بنقوش مصبوبة على أبواب شققنا وجدرانها مع زوج من الأحذية القماشية الفاخرة وهذا كله تعظيما للآثار الغالية للفن الإيرانى الأصيل ، كما ينبغى أن نعلق عقدا من الخرز الذى يعلق على الحمير « ثانية نفس هذا الحيوان الرمزى ... ماالعلاقة بين هذه الحركة لمعرفة الذات وإيجاد الذات وبين الحمار عند هؤلاء المفكرين ؟ » ... نعم عقد من خرز الحمير من تلك الخرزات الضخمة المعوجة العامية الزرقاء سيئة الشكل التى توضع تحت الحوض ، عليك أن تعلقه فى عنق مدام رقية كوكتى اللطيف « وهى قد صنعت من قمة رأسها الى أخمص قدميها حسب الموضة حتى نظرتها وابتسامتها وجلوسها ومشيتها وكلامها وهزة

(١) المترجم : الحربن يزيد الرياحى أحد الأبطال الذين انضموا إلى الحسين فى كربلاء وقتلوا معه .

رأسها ويديها وسحنتها وهى تدخن وتنفث الدخان كلها رسمت بمشقة بناء على رسالة علمية » (لاجدال فى أن هذه هى الحالة الطبيعية والحقيقية الوحيدة للعودة إلى الذات) ولنحضر برج قلعة أو مصراعى باب مزلاج ولنضعه أمام العمارة المتأمركة الحديثة (اولترا) ، ومن أجل جذب السياح الأمريكان والأوربيين لنفتح المطاعم والفنادق ، ثم لنشتر عددا من الخواتم الفضية بفصوص من العقيق والموجودة فى أصابع زوار كربلاء ذوى الشيلان واللِّحىَ المحناة ، وذلك بمقدار معتنى به ، ولنضعها فى أصابعنا ...

وأى مبتلى بالتغرب والتفرنج لايكون أكثر احتراما وأكثر معقولية وأكثر فائدة عن طريق هذا النوع من معرفة الذات والعودة الى الذات ؟

إذا كانت العودة إلى الذات وإحياء الثقافة المحلية والانطلاق من الأصالة التاريخية والمعنوية لمجتمعنا هى هذا ، فينبغى أن نرفع الشعار المغرض الذى رفعه المرحوم العلامة تقى زاده « إن الحل الوحيد هو أن نصير أوربيين من قمة الرأس الى أخمص القدم » ويجب استنادا على فتوى هذا المفتى للعصرية وصناعة المفكرين المحدثين فى مجتمعنا أيضا « أن تلقى قنبلة الاستسلام للأوربى ونفجرها »

هذا الشعار القائل بأنه « لاينبغى علينا أن نقبل كل مايفعله الأوربيون أو مايقولونه ينبغى أن نفكر بأنفسنا ، وينبغى أن يكون لدينا الاستقلال فى مواجهتهم » ، قد صار تعلة وحجة محترمة من أجل تبرير الأمية وانعدام الإحساس واصطناع الخزعبلات عند أولئك الذين لا يعرفون حوا من لو [1] ، فأخذوا يبدون أن إعلان الاستقلال الفكرى والامتناع عن تقليد الحياة الأوربية والثقافة الأوربية هو اعطاء صك الحرية لهم لفعل مايريدون ، وبدلا من الدراسة والبحث فى المدارس العلمية والنظريات وأسس العلوم الإنسانية وبخاصة علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم الإنسان الثقافى والفنون والآداب ، يكفى أن تذهب لرؤية فيلم إيرانى ، ويكفى عن طريق البحث العلمى من طراز أبحاث فردين وبرى غفارى وظهورى وبيك إيمانوردى أن تدرك عمق المجتمع وعلم النفس الاجتماعى الإيرانى ، وعلى سبيل المثال برؤية فيلم « آدم وحواء »

(١) المترجم : التعبير الفارسى هررا ازبر تشخيص نميدهند والهر صوت يستدعى به الرعاة خرافهم والبر صوت يذبونهم به . والتعبير العربى يستعمل أيضا لمن لايستطيع التفرقة أصلا .

وركيزته الأصلية اختلاس المراهقين العارفين بالفن النظر إلى أسافل أعضاء أمهم حواء أن تفهم الميثولوجيا الإيرانية والثقافة الدينية لشعبك ، وفى المقهى أو بارات بدرومات لاله زار تنفذ إلى الأعماق الخفية لروح « الجماهير الحقيقية » واحساساتها وشخصياتها ورؤاها ومثلها . هؤلاء التابعون للموضة والمضادون الجدد للغرب الجدد يبررون فحسب ابتعادهم عما يجرى فى العصر بعدم إيمانهم بأفكار الأوربين وآرائهم ، أو لإدانة أحد أصحاب الرأى فى هذا الموضوع دون أن يفهموا كلامه ، فيتوسلون بسلاح « الابتلاء بالتغرب » ويدلون بآرائهم بفلسفة قائلين : لاينبغى علينا أن نردد مايقوله الأوربيون ، وإلا فانهم إذا علموا عبارة أو صفحة من أى كتاب غير إيرانى لوضعوها على رءوسهم وطافوا بها منادين : الحلوى ، الحلوى وعندما يتفوه أحد بكلمة أو بكلمتين يناقضان هذه البضاعة يشهرون عليه ثانية نفس السلاح المضاد : الميل إلى القديم والميل إلى الماضى والدين و عبادتهما . أحد هؤلاء المفكرين أتباع الموضة الشغوفين ، بعد أن دلوه على عدد من الصفحات كتبها كاتب هذه السطور فحواها أنه لاينبغى أن نقع تحت تأثير مفكرى الغرب وكتابه وقبول كل مايكتبونه فى قضايا علم الاجتماع والقضايا الاقتصادية والثقافية والفنية ، هب فأعلن أن الهجوم على الآلية والبيروقراطية والتكنوقراطية والرأسمالية والعبودية الجديدة لطبقة العمال التى عرضتها مجرد حيلة سياسية استعمارية ، تحدثوا فيها عن عمد حتى ننصرف نحن الدول المتأخرة عن التقدم والتكنيك والآلة ونخاف منها ، وأخذ يحذرنى بحكمة قائلا : سيدى ، لاتوجد آلة فى زهدان وسجستان وبلوجستان ، ولابد أن توجد ، واستغلال رءوس الأموال فى إيران أمر حيوى جدا والنظام الرأسمالى نظام راقٍ جدا .

كل هذه التوصيات مستندة على أنه لاينبغى أن نقبل كلام الأوربيين ، حجة خبيثة لإخفاء جهله بالقضايا الحساسة والعميقة المطروحة فى عالم اليوم وعدم العلم بالفرق بين الآلة والآلية ، وعدم فهم هذه النقطة الواضحة الصريحة وهى أنى أتحدث عن الحضارة الجديدة ومشاكلها وانحرافاتها لاعن بلو جستان وسجستان ، وعدم العلم بأن الجماعات اليسارية والمفكرين المضادين للامبريالية والاستغلال والمناضلين الأحرار أنصار الشعوب فى العالم هم الذين

يقاومون الآلية والبيروقراطية والتكنوقراطية وهى الوجوه الجديدة للاستغلال والاستعمار وأن التكنوقراطية غير التكنيك والبيروقراطية غير الـ « بيرو : المكتب » ، وعدم العلم بأن العلموية عبادة العلم من أجل العلم « غير العلم »[1] كما أن المفكر الإنسانى الذى يعادى القومية ليس عدوا « للقوم » .

ولما كان هؤلاء غرباء تماما عن هذه المسائل فلا هم يفهمون معانيها العلمية ولا جذورها الاجتماعية ، ولا أولئك الذين وضعوا نظرياتها ، فإن أكثر الطرق احتراما ، وبدلا من أن يقول « لا أعلم » هو أن يقول : هذا من كلام الأوربيين ، ولا ينبغى قبول مايطرح فى أوربا ، ويظنون أن أوربا مدرسة فكرية ينبغى أن نتكتل ضدها فى جبهة محددة ذات هدف واحد ، ومع كل هذا ، فبعد بضع صفحات قمت طبقا لما تفضل بقوله بالشروع فى بيان رأى جديد ، فقفز من مكانه صائحا : اضبطوا .. هذه النظرية لا توافق ماجاء فى السطور كذا من صفحة كذا من كتاب كذا لفلان الأمريكى ، ثم دحضا لنظريتى توسل بقول آخر وجده فى كتاب « البيرماليه » القديم الذى كتبه للمدارس الثانوية .[2] وبهت ، لماذا ؟ لأن هذا القول كان يثبت رأيى بصراحة ، ويرد بوضوح نظرية « معرفة كل إنسان » التى كان الناقد يدافع عنها ، كيف لم يفهم هذا السيد المدرس حامل الليسانس كلاما بهذه البساطة والوضوح وتوسل ردا على بما كان ينبغى أن أستعمله فى الرد عليه ؟ ... ثم فهمت بعدها أنه نتيجة للسرور والفرح الذى طرأ على المذكور لمعرفة عبارة أجنبية ، ولأنه لم يكن يعرف أيها يلقى صدرها أم عجزها ، ولم يستطع منع نفسه من نقل عبارة عن أوربى وترك القراء جُهّالا بهذا الفضل .

هذا النوع من التناقض والتشتت فى الفكر والرؤية والشخصية ، ينشأ من أن القضايا الفلسفية والعلمية والاجتماعية والفنية تنتشر بين مفكرينا بنفس الأسلوب الذى تروج به تصميمات الأزياء والزينة وعادات الحياة أى بأسلوب

---

(١) كان قد ظن أنى بمخالفتى للعلموية ضد العلم . ولم يكن يعلم أن أقوى جناح يناضل ضدها هو الجناح الاشتراكى لأن العلموية تؤمن بمبدأية العلم واستقلاله عن أى نوع من الالتزام الاجتماعى والسياسى والطبقى ، وهم يؤمنون بمبدأ استخدام العلم للوصول الى أهدافهم الأيديولوجية وخدمة الناس .

(٢) حتى بالنسبة للفارسية صارقديما جدا ، وعلى ضفاف السين ومكتبات الشوارع فى باريس وضع فى المزاد ضمن الكتب التى أسقطت من الحساب ، واشتريته كاملا بأربعة فرنكات « حوالى خمسة أو ستة تومانات » .

الموضة وعبادة الموضة . عندما تطرح فكرة جديدة فى الخارج وتتسرب الى إيران ، تصير موضة ، وردا على الألسنة ، وبعد فترة تنتهى موضتها وتقدم وتترك مكانها لموضة جديدة .

هؤلاء لايعرفون أن قضايا مثل الميل إلى اليسار والاشتراكية والليبرالية والإلحاد والعرقية والواقعية ، وفى الأيام الأخيرة الاعتقاد بالأصالة الثقافية ومقاومة الابتلاء بالغرب والعودة إلى التاريخ والثقافة الشخصية القومية الأصيلة المعنوية ، والتحرر من قيد التقليد الأعمى المثير للغثيان للأوربيين ، قضايا ليست فى بساطة لى الشعر أورفع السروال أو توسيع رجله أو خط الحاجب أوطراز السيارة والموبليا والديكور فى المنزل أو نظارة أودرى هيبورن أو التزين على الطراز اليابانى ، يمكن تغييرها بترجمة البورده والتشاور لمدة نصف ساعة مع مستشار التجميل الخاص لمؤسسة مرجريت ستور أو رؤية فيلم خيالى أحيانا . ماذا أقول ؟ هذه القضايا حتى ليست من نوع القضايا العلمية فى فروع الفيزياء والكيمياء والطبيعيات والتكنيك الرياضى الذى يكفى « الاطلاع عليها » ، فإلى جوار جانبها الفكرى والعلمى يوجد جانب إنسانى وأخلاقى ليس مرتبطا بالتعليم والحفظ فحسب ، لكنه ذو ارتباط أيضا بالخصائص الروحية ونوع الرؤية والضمير والشخصية عند الفرد . من أجل أن يصحح جهلى وخطأ رأيى بشأن السبب فى مرض ما ، ومن أجل أن يبدل الجهل إلى علم ، يكفى أن أعرف وجود الميكروب ومايقوم به من عمل ، لكن من أجل أن يتحول المرء الى اشتراكى ، يعد معرفة النظرية القائلة بنقل ملكية الإنتاج من الفرد إلى المجتمع جانبا من الأمر أووجها منه ، ووجه الأمر فى الأصل هو مقدمته ، فالاشتراكى يكون حتى نظرته اشتراكيا . إنه ينظر إلى المجتمع والناس والطبقات والجماعات والأماكن وكل القيم ... وماذا أقول ؟ بل إلى الألوان والجماليات بطريقة أخرى ، بل يراها بصورة أخرى ، هو صاحب رؤية كونية مختلفة وسلوكه الاجتماعى متميز ، إنه يحلل كل القضايا الإنسانية والاجتماعية والتاريخية والفلسفية والعلمية والأدبية والفنية برؤية خاصة به . ليس عقله فحسب اشتراكيا بل وقلبه أيضا ، من المستحيل أن يحب مثل بورجوازى ، من الممكن أن يكون ماديا ، لكن ماديته تختلف عن مادية عابد للحياة أو عابد للمال ، فالاشتراكى المادى من الناحية الأخلاقية متدين حقيقى ، إنه يعتبر الاقتصاد أصلا ، وهو يعتبر الحياة المادية

العينية فى الدنيا هى الحقيقة الموجودة فحسب والجديرة بالاعتقاد والارتكاز لكن فى الفكر فحسب وبالنسبة للآخرين أى المجتمع . أما عمليا وأخلاقيا فهو من الناحية المضادة ينظر إلى اقتصاده وإلى حياته نفس النظرة التى ينظر بها زاهد عابد لله . إنه يضحى بروحه وماله ببساطة . فى مقابل ماذا ؟ أفى مقابل الجنة والجزاء الإلهى ؟ لا ... بل فى سبيل مثالياته ، إذن فهو مثالى ، مؤمن بمبدئية المعنويات وبعدم قيمة الماديات ، من الممكن لاشتراكى أن يكون متدينا ، لكن الله الذى يعبده والدين الذى يمدحه والرسول الذى يتبعه لايشبه أبدا مالاخوانه فى الدين غير الاشتراكيين. فبلال وعبد الرحمن بن عوف وأبوذر الغفارى وعثمان بن عفان فى عصر واحد ومن أتباع دين واحد ، لكن مفهوم الله والتوحيد ورسالة محمد فى روحيْ بلال وأبى ذر على شكل ما وفى فكريْ عثمان وعبد الرحمن بن عوف على شكل آخر . والمسافة الموجودة بين هذين المفهومين لله وهذين الإسلامين أكثر من المسافة الموجودة بين الله ويهوه أو بين الإسلام واليهودية .

وبالنسبة لقسيس كنيسة مادلين فى باريس أن المسيح جاء ليقيم « التعايش السلمى والحياة بالحب » بين كل الطبقات الحاكمة والمحكومة ، بين القيصر والناس والغنى والفقير والسيد والخادم ، لكن المسيح نفسه جاء ليحل المساواة والإخوة محل التفرقة والظلم وهذان المفهومان مختلفان . وأن يكون المرء يساريا يعنى أن يكون نوعا آخر من البشر ، أن يكون له ضمير خاص ، وليس بمعرفة هذه المعلومة القائلة إنه فى الثورة الفرنسية الكبرى كان ممثلو الجماهير يجلسون فى المجلس فى الناحية اليسرى ، وكان ممثلو الأشراف والأمراء والأثرياء يجلسون فى الناحية اليمنى ، أما المتغاضين والسطحيين والذين لايملكون القدرة على اتخاذ القرار أو الذين ينامون دائما فى وسط « اللحاف » فى الوسط ، ولا علم لهم بمن هم فى عالم اليسار اليوم ومن هم فى اليمين ومن هم بين الجسرين ، ولاحتى بقراءة كتبهم أو ترجمة كتاباتهم .



العلم والعمل :

في سنة ١٩٦١ كان الجيش السرى المعارض لاستقلال الجزائر قد تشكل تحت قيادة الجنرالات المفلسين الذين طردوا من الهند الصينية وأفريقيا ، ولم تكن قد بقى فى أيديهم من كل إمبراطورية فرنسا ومجدها وعظمتها إلا الجزائر ، كان الصبيان الفرنسيون من أولاد الأشراف بين سن الخامسة عشرة والعشرين ، وكانوا جميعا مصابين بعقد الافتراس والتوحش وسادية قتل البشر وأداء أدوار الممثلين فى الأفلام قد قويت عندهم وبلغت درجة الانفجار نتيجة للرفاهية وانعدام إشراف الأبوين قد انضموا إلى هذا الجيش ، كان هؤلاء معادين للنظام اليمينى الديجولى الذى كان من صنع أيديهم ، وحاولوا مرات اغتيال ديجول نفسه . وكان أفراد هذا الجيش يدسون القنابل فى مطاعم الطلاب المسلمين ، وفى إحدى مستشفيات الصدر التى كان شيوخ العرب يعالجون فيها منذ سنوات فتحوا مدافعهم الرشاشة على الجميع وأحدثوا مذبحة . وكان من بين نشاطهم تهديد المفكرين والشخصيات التحررية الفرنسية ، وفجروا القنابل مرتين أو ثلاث مرات فى شقة سارتر ، كما هددوا جورج جوروفيتش الذى كان أستاذا فى السوربون بالقتل . كان المتبع عندهم أن يرسلوا خطابا فى البداية كتحذير ثم خطابا ثانيا كإنذار ثم الإعدام ، وكان جوروفيتس العجوز الذى كان رفيقا للينين وتروتسكى الروسيين سنة ١٩١٧ ، ثم قضى سنوات هاربا مطاردا من الفاشية ، قد تلقى الإنذار . رجل عجوز غريب ، ليس معه من سلاح إلا الكلمة[١] وكان الضمير الإنسانى وعاطفة حب العلم وتعلق التلمذة والرابطة فى العمل والزمالة قد أثارت كل طلاب السوربون وأساتذتها من كل مذهب وعرق ومسلك سياسى ، فأضربوا جميعا يوما عن العمل اعتراضا على الجيش السرى وإعلانا للتضامن مع أستاذ كان فخر علم الاجتماع فى فرنسا ودفاعا عنه ، كان

---

(١) ذات يوم بعد تلقيه للخطاب الثانى جاء إلى قاعة الدرس . كانت هذه اللحظات أكثر لحظات حياته رعبا . كنا جميعا خائفين على حياته . دخل كالمعتاد ساكنا وقورا . وجلس إلى منصة الأستاذ ووضع حقيبة الجلدية السوداء الصغيرة التى كانت تبدو وكأنها تذكار من العصر القيصرى فوق المنضدة وأخرج تحت العصا القصيرة الغليظة السوداء ذات العقد ، وقال وهو يرفعها بيده المرتعدة العجوز مثل سيف : لقد اشتركت فى الثورة بهذه العصا ، وبنفس هذه العصا سوف أقاتلهم . الناشر : هذا القول لجوروفيتش لم يذكره شريعتى لكن رواه أحد الحاضرين فى نفس المحاضرة .

الجميع من طلاب وأساتذة قد تجمعوا فى فناء السوربون ومدخلها بوجوه مشتعلة غضبا وضمائر مهانة. حتى البوليس أعلن مشاركته . وفجأة سمعنا أن الأستاذ الوحيد الذى لم يتضامن ودخل قاعة الدرس هو ريمون آرون ، وأن شخصا واحدا حضر درسه ، ريمون آرون الرجل الذى كان بشهادة الجميع يعرف الماركسية أكثر من ماركس نفسه بمراحل . وعندما تكون المادة العلمية فى أوجها لاتستطيع أن تغير الروح ، فأى تأثير إذن يمكن أن يكون لقراءة بعض المقالات أو عدد من المسرحيات من هذا وذاك وغالبا ماتكون مترجمة على أيدى مترجمين يختارون السهل ؟

وهنا نرى نفس المبحث القديم الذى كان مطروحا فى ثقافتنا الإسلامية يطرح نفسه ، وهو مبحث الصلة بين العلم والعمل ، والعناية الشديدة التى أبداها علماؤنا العظام بأنه ينبغى على المتعلم قبل دخوله مرحلة الفلسفة والفكر العقلى الحر أن يراعى قواعد التقوى والأخلاق حتى لايصير ثرثارا سطحيا مصطنعا للدين لاأساس له ومتكبرا ، ووعيهم العميق بأن العلم غير الإيمان ، وتقسيم درجات المؤمن والفاسق والمنافق والعالم والحكيم والعالم الذى لايعمل بما علم ، وتعريف الإيمان بأنه « اعتقاد بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأعضاء »[1] والبحث فى المعرفة والوجدان والهداية والقلب والتوفيق والنور والفطرة ، وكلها أمور تقدم الدليل على أنه بتكرار الشعارات والأقوال والمصطلحات المشهورة وعناوين القضايا المتداولة بين الاشتراكيين أو الأحرار الثوريين أو المفكرين التقدميين لايمكن للمرء أن يتحول إلى اشتراكى أو ثورى أو مفكر ، النتيجة النهائية والحقيقية لهذا الأمر أن هذا الأسلوب سوف يخدع أحد اثنين : أولهما

---

(١) إن العمق الفلسفى والعلمى والاجتماعى الذى منحه علماء الأخلاق عندنا خاصة من الشيعة لمعنى العمل – وهذا هو الفرق بين الشيعة والسنة وبخاصة المرجئة الذين حصروا الدين فى القلب واعتبروا العمل خارج التعريف – يتضح أكثر عندما نعلم الأبحاث الجديدة لفلسفات العصر وبخاصة البراجماتية والوجودية – التى تعتبر العمل فحسب هو الخالق لماهية الإنسان ، وقضية الوجود الكامل أو المطلق فى فلسفة ماركس وعلم الاجتماع عنده . إننى أرى هذه العبارة لسارتر « إن الإنسان يخلق ماهيته وحقيقته فى العمل » تفسر الآية « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

فئة من عديمي المحتوى السذج المتعطشين للكلام والمحتاجين إلى سلوك طريق والانتماء إلى مدرسة فكرية وحاجتهم وتعطشهم مقرونان بعدم الوعى والخواء سوف يشبعان بصوت هذا الطبل الأجوف وهو أضخم رنينا من أى صوت آخر ، وسوف يمنحوا الإحساس الكاذب بانتفاء الحاجة ونيل اليقين ، أما الفئة الثانية التى سوف تخدع وربما كان الضحية الأولى ، فسوف يكون هو نفسه المتحدث ، فليست هناك آفة أكثر انحطاطا بمستوى تعقل الإنسان وتقدمه ووعيه من « اليقين الخادع » ، لأن اليقين فى كل أمر يستلزم الوقوف عنده ومن بلغه يتوقف عن البحث والتنقيب والاطلاع لأنه لايعطى الفرصة لاحتمال آخر ، ولما كان قد اعتقد أنه « هذا ولاسواه » ، فإنه يعتبر من البداية أن كل فكرة أخرى باطلة ، وكل رأى جديد يدينه سلفا ، ويستوجب ذلك أن يكون فكره محصورا فى هذا القالب ، ولما كان الفكر والعلم فى حالة حركة وتطور ونضج دائمة ، فإنه يزداد تأخرا كل يوم ، ويصير أكثر غربة عن الواقع وابتعادا عنه ، وثانيا : لما كان يقوم بالحكم على كل القضايا العلمية والإنسانية التى تجرى وعلى كل ما يحدث ولم يطرح قبلا بنفس معاييره ومحكاته الثابتة ، بدلا من أن يقوم بتناولها ببحث حر وتحليل اجتهادى وعلمى ومنطقى ويصل إلى نتائج جديدة ويكتشف مجهولات جديدة ، يشغل نفسه بتبرير الوقائع وتأويلها ، ويكون كل همه أن يطابقها بمعاييره ، وهو عندما يلجأ إلى البحث العلمى والاجتماعى فى الغالب لايكون ذلك من أجل كشف مجهول أو معرفة واقع ، بل يجاهد أكثر لإثبات معاييره ومقاييسه التى يؤمن بها ، ويبحث عن جمع القرائن والأدلة التى تثبت حقانية عقيدته المسبقة ونهائيتها ، ومن هنا يبتلى مثل هذا الشخص بالدوجماتية والجمود الفكرى .

كنت أرى كثيرا من الطلبة الشيوعيين ليست لديهم الرغبة فى قراءة صحيفة « الأومانتيه » اللسان الناطق لحزبهم ، وكلما عنت قضية سياسية أواجتماعية كانوا يتجهون إلى « لوموند » المحايدة « أو التى تبدو محايدة » وإلى الصحف المرتبطة بأهل الفكر التقدميين الأحرار ، وغالبا ماكان جوابهم عندما كنت أسألهم عن السبب مقرونا بابتسامة ذات معنى : نعم ... لا ... الخلاصة اتجاه الأومانتيه واستنتاجاتها ورأيها من الأمور المعلومة .

ومرة ثانية لكى أمنع أنواع سوء الفهم أو سوء التعبير ، ينبغى أن أوضح أننى لست ضد اليقين ، والإيمان والانتساب إلى مدرسة فكرية صريحة ومتميزة ، بل إن كل جهادى من أجل ذلك أى من أجل الانتساب إلى مدرسة صريحة ومتميزة فالانسان « حيوان متعصب » ، وكل مصائبنا حدثت من أن جيلنا القديم ابتلى بالتحجر ، وابتلى جيلنا الجديد بالعبث والخواء أى لا إلى الدين ولا إلى الإلحاد فهو جيل دون اتجاه دون ايديولوجية ودون مبدأ عقائدى ودون شخصية ودون تعصب ودون هدف ... لاشىء بالمرة ، وهذا دليل على التوفيق العظيم الذى بلغه « هؤلاء » فى برنامج « جعلنا خالين من أى شىء » .

لكن الفرق بين أن يكون المرء متحجرا وبين أن يكون متعصبا هو : إننى أستطيع أن أكون متدينا متعصبا وفى نفس الوقت تكون رؤيتى وإحساسى ومعرفتى عن الدين فى حالة تلطف ونضج دائمين ، وقول الرسول فى شأن سلمان وأبى ذر يدل على أن الدين ليس مجموعة من الأحكام والمفاهيم الثابتة الوتيرية الجامدة ، وكل إنسان يدرك درجة من هذه الحقيقة بمقدار عمق إدراكه وثرائه الثقافى ليست سواء وإدراك آخر بل تختلف عنها تماما وقول الرسول هو « لو علم أبو ذر ماهو فى قلب سلمان لقتله » وهنرى ليفير ماركسى ، لكى إيمانه بهذا المذهب لم يجعله أبدا أسيرا للتوقف والدوجماتية الفردية والعلمية . وحرية الفكر والخلاقية العقلية والرؤية المتطورة الكامنة غير فقدان العنان وعدم الإيمان والسطحية الدينية .

ومن هنا لما كان تحول المرء إلى اشتراكى ليس ممكنا بقراءة عدد من الكتب المترجمة بل على المرء أن يغير نفسه ، ينبغى عليه أن يصنع نفسه ، وإلى جوار العلم ، عليه أن ينمى فى نفسه وجدانها الخاص وروحها الخاصة ، ومن البديهى أن النضال ضد « الابتلاء بالتغرب » والإقلاع عن التقليد والاستغلال فى مواجهة ثقافة الغرب وأفكاره وخططه ومدارسه الفكرية والاجتماعية وصيغة حضارته ونوع ثقافتها مرحلة ينبغى أيضا لنيلها من سلوك طرق صعبة وعلى مراحل كثيرة .

والذى يستطيع حقا كمفكر أن يدين تقليد أوربا ، ويمحو عن نفسه داء التغرب ، ويكتسب الحق فى الحديث عن ثقافته وتاريخه هو الذى يكون قد

قطع مرحلتين تكامليتين إلى الواقع : الأولى المعرفة الصحيحة والعميقة بالثقافة والحضارة الأوربيتين ، والثانية : المعرفة الصحيحة والعميقة بتاريخه وعلم الاجتماع الخاص به وثقافته ودينه .

ومن أجل النضال ضد التغرب علينا أن نعرف الغرب ، فنحن في العادة نطلق على البنات أو الأولاد أو الرجال أو النساء الذين تدهورت شخصياتهم ، وبلغوا مرحلة الابتذال ويقومون بتصرفات مثيرة للغثيان سخيفة كتقليد القردة ، والدمى المزينة الخالية من كل محتوى ثقافى ومعنوى وليس لديها أى فن إلا فن الاستهلاك نطلق عليهم لقب « متفرنجين » أى يقلدون « الفرنجة أو الأوربيين » ، وهم أنفسهم ، نفس هؤلاء الضحايا الأشقياء للرأسمالية وصناعات الاستعمار الفاخرة، الاستعمار الجديد أو القديم يرون هذا فى أنفسهم . إن الاستعمار لايعرفنا بأنفسنا بصورة ممسوخة فحسب ، بل يبدى حقيقة حضارته وثقافته أيضا فى نظرنا ممسوخة وفارغة وكاذبة . لأن كيفية معارف الإنسان هى التى تصنعه .

وهناك قول لهايدجر نصه : « كل مانعرفه جزء من وجودنا » ومن هنا فطريق الخلاص من داء التغرب والعصرية المثير للغثيان الحاضرة هو المعرفة الحقيقية لسمات الغرب وروحه ، إن الترياق من لدغة العقرب يستخرج من نفس سم العقرب .

وهذا واقع جدلى عميق ومجرب : لماذا احتفظ المتعلمون والمفكرون والمفكرون والهنود والجزائريون والفيتناميون والأندونيسيون والأفارقة بشخصياتهم فى مواجهة الأوربى أكثر منا وقبلنا ؟ فالفتاة الهندية تلبس السارى بفخر وتضع الخال الأزرق على جبهتها وتدرس فى السوربون وكمبردج أو كونسرفتوار باريس الفيزياء النووية والموسيقى . ولما كانوا اختلطوا سنوات طويلة بالإنجليزى والفرنسى والبلجيكى والهولندى عن قرب ، فإنهم يتحدثون باللغات الأوربية بل ويفكرون بها ، يفكرون مثل الأوربيين ومن هنا فإن الخوف المتوهم وعقدة النقص التى تنشأ عن المعرفة الناقصة والبعيدة والوهمية لاتدفعهم إلى التقليد المبالغ فيه والطفولى ، بل يعلمون أن رؤية نمط مقلد ومتشبه ومثير للغثيان هو بالنسبة للأوربى مثير للغثيان ، أننا حين ندخل مجتمعا عشائريا أو ريفيا نعترف بشخصية وقيمة لرجل أو امرأة عشائرية أو ريفية أصيلة أكثر

من اعترافنا بها لذلك الصبى فى المقهى على جانب الطريق والذى أصبح نتيجة لاتصاله بالسائقين والمسافرين من سكان المدينة يشرب العرقى ويلعب الورق ويعلم الاسطوانات التى تذاع فى الإذاعة ويحجل حولك بحركات سخيفة ولهجة مصطنعة ونظارة غامقة وسروال ضيق ويجاهد عن طريق نبرة كلامه ونكاته وتعبيراته الحضرية وسب أهل قريته والسخرية منهم فى إفهامكم أنه لم يعد بعد منجنس هؤلاء الوحشيين الذين لايفهمون شيئا ولاخبر عندهم عن الدنيا ، بل ولايدور بأذهانهم شيء عما هو التلفزيون والرموش الصناعية والكاباريه والرقص ، نفس هذا القدر مثير للغثيان مثلما يقوم كريم فكور وبيزن والفنانون الآخرون الخياليون فى إذاعة طهران بصنع « أغانى شعبية » ثم يغنيها المغنون الخياليون فى إذاعة طهران بأسلوب ريفى ، نسأل الله أن يهب المستمعين المظلومين الصبر الجميل عليه .[1]



(١) المترجم : وحدث ولاتسل عما يذاع فى إذاعتنا المصرية على أنه يعبر عن الشعب ومشكلاته من أغان أو تمثيليات وعن مضامينها المضحكة ولهجاتها والمشكلات التى تدور حولها وهلم جرا .

سنوات القرار :

نحن الآن فى مرحلة من التطور التاريخى خاصة وأننا قد بلغنا وعيا اجتماعيا ذاتيا بالنظر إلى المراحل المشابهة فى الدول الأخرى يمكن أن نسميها بتعبير اشبنجلر « سنوات القرار » أى المرحلة التى يتكرر فيها سؤال وحيد فى « الداخل » و « الخارج » ، وكل مفكر يطرحه أمام نفسه وأمام الآخرين وهو : ما الذى ينبغى عمله ؟ ولم أرغب قط وحسب المعتاد فى أن أرفع من نفسى بخداع الآخرين وأعطى جوابا مثل الأجوبة التى تعطى فى امتحان وبيان عدد من الوصفات الحادة الحريفة الجذابة . هذا نوع من الخداع والتظاهر القبيح المضر . ليس للمفكر الحق أبدا فى أن يتحدث بلغة السياسيين فالسياسى نظرا لاستعداده الغنى يتحدث بأقواله بقوة وحسم وجاذبية مؤثرة يذوب الآخرون شوقا لقولها ، لكن ليس لديهم الاستعداد لقولها فى حين أنهم ينفعلون عند سماعها ، وهنا يكمن سر الاتجاه والشعبية المتحمسة والضجة وهى الأهداف النهائية للسياسى ، والهدف من كل هذه الأقوال ومن كل مايتحدث عنه .[1]

وفى علم الاجتماع الخبروى « الخاص بالمعرفة » ذكر هذا الاستعداد الخاص الذى يبدو واضحا وقويا عند بعض الأنماط تحت اسم الحاسة السياسية[2]. والمفكر الحقيقى لايفكر فى إقبال الناس عليه أو الشعبية أو مايقبله العصر .

(١) المترجم : ظاهرة الزعامة فى العالم الثالث من أهم ظواهره والتى أضاعت سنوات الكفاح عبثا ، انظروا إلى أشباه الملوك الذين قاموا فى البداية بانقلابات عسكرية خططتها وأيدتها وكالات المخابرات العالمية وسرعان ماأطلقوا عليها لقب الثورة ، وسرعان مافتك الزعيم ببقية الدمى ثم ادعى من بعدها الأبوة للشعب القاصر والقيمومة عليه ، وأصبح يرى نفسه صاحب الحق الوحيد فى الكلام والتخطيط ، فهو المفكر الوحيد والملهم والفنان والمفكر والمهندس والطبيب ، ثم يتحول على شعبه فيكون أكثر طغيانا وأشد نكرا من الملك المطرود أو الأجنبى المحتل ، إن ديكتاتورية الزعيم فى حد ذاتها جدلية معاصرة ، كيف سجن ويقوم بسجن أعدائه وكمم فوه ويقوم بتكميم أفواه شعب بأكمله ، وثار ضد الأجنبى ثم يفتح الباب للأجنبى بإرادته ؟

(٢) وهى غير الفكر السياسى وعلم السياسة والمدرسة السياسية وغيرها ، ترون فى جماعة ماشخصا أو شخصين يتقدمان تلقائيا ويسيطران على الآخرين وتدريجيا يصيران مرجعى الأمور وأهل الحل والعقد ، وعلى سبيل المثال يذهب فصل مدرسى إلى نزهة أو رحلة ، ولايمر وقت طويل حتى يبرز من بين الطلبة دون انتخاب من الآخرين بل ومع وعلى كره من بعضهم ولايلبث أن يجمع كل الأمور من قبيل الانفاق العام والميزانية والقيادة والابتكار والتخطيط ... وبالتدريج ترى الجميع حتى الأستاذ والمشرف الرسمى على الجماعة قد أسلموا لحاهم لصاحب العظمة ، إنه يستغل تردد الآخرين وخجلهم وانتظارهم وتحرجهم ويقيم ضجة ويثبت نفسه ، ثم يمتطى الأمر .

إنه قبل أن يفكر فى السيطرة على الآراء والأفكار يفكر فى تصحيحها ، حتى ولو ضحى بحيثيته الاجتماعية وهذه أعلى مراحل التضحية ونكران الذات عند مفكر صادق .

ان تحويل العوام إلى متشبهين بحيث يكونون فقط « مستهلكين » للمنتجات الأوربية مصيبة اجتماعية ، وتحويل المتعلمين أو حملة الشهادات أو أشباه المثقفين عندنا إلى متشبهين بحيث يتحولون إلى تراجمة وفاتحى طريق وسماسرة للأجهزة الصناعية والإدارية للاستعمار القديم والجديد فى بلد ما فى سبيلها ... « لاأدرى فى سبيلها إلى ماذا » مصيبة اجتماعية كبرى ، لكن نتيجة لما أسلفنا بعد تحويل المفكرين وهم مخلصو أممهم وأنبياؤها وأصحاب الرسائل فيها ويعتبرون عيون مجتمعاتهم ومصابيحها وقوة الوعى والتعقل وتحديد الاتجاه فيها مأساة تطرح فيها قضية موت الأمة أو حياتها ووجودها بكل ثرواتها المادية والمعنوية أو عدمها .

وكما قلت : ليست رسالة المفكرين هى الزعامة والحكم والقيادة السياسية والتنفيذية والثورية للشعب ، هذا أمر وقف على الناس أنفسهم ، ومالم يلقوا هم أنفسهم إلى الميدان ، لن يستطيع أحد أن يتعهد بالقيام بأعمالهم نيابة عنهم ، وأعظم الشخصيات الفكرية أثبتوا فى مرحلة انتصار ثورة ماأنهم لم يكونوا زعماء جياد . وفى القيادات التى كانت تبدو فيها وجوه المفكرين فحسب كانت غيبة الجماهير محسوسة تماما ، والمكان الخالى للسجن « الأمية » لايستطيع طبيب أو مهندس أو فيلسوف أو كاتب أو فنان أو شاعر ملأه . فعمل المفكر هو إيقاظ ضمير المجتمع ، ومنح العوام الوعى الذاتى وتقديم تفسير وتحليل إيدلوجيين وعمليين للظروف الاجتماعية الموجودة وبيان المثل وخطوط السير ونقل الواقعيات المتناسبة والمتناقضة فى الحياة الأخلاقية والثقافية والاجتماعية إلى احساس الناس ووعيهم واستخراج المنابع المدفونة والمواد الخام للطاقات المعنوية والفكرية فى تاريخ الأمة وثقافتها ، والخلاصة تعليم الجماهير وتربيتها سياسيا وأيديولوجيا . وأولئك الذين يقولون متعجبين ظانين : هذا فحسب ؟ لايعلمون ماذا يعنى هذا ، أجل : هذا وكفى : وأولئك الذين يطرحون كل هذه الطرق والمتاهات واحدة بعد الأخرى ويحللونها ويتحدثون عن كل منها بالتفصيل ، ويأخذون بالأيدى ويسيرون بها خطوة خطوة ، إنما يسببون المشاق

لأنفسهم والمتاعب للآخرين . والمعلم الذى يعدد كل مايراه من أشجار وجبال وبحار وصحارى ووديان وآبار ومنحدرات وسحب وسموات وشموس وأقمار وأنجم ويقوم بتعريفها ، إنما يقوم بأمر عقيم ، ينبغى على المعلم فحسب أن يمنح عينين ، يعلم « الرؤية » و « السير » فحسب ، ليس سلوك الطريق عمله وحده ، فهو عملهم أيضا إذ ينبغى عليهم سلوكه ورؤية مايستحق الرؤية فيه .

وهذا القول لروسو عميق جدا : « أشر للناس على الطريق ، لاتضع الخطط من أجلهم ، علمهم كيف يفهمون ، وهم أنفسهم سوف يجدون الطريق وسوف يضعون برامج لأعمالهم » ، هذا هو ماقام أمثال تولستوى فى روسيا قبل ثورة اكتوبر ومونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو فى فرنسا قبل الثورة الكبرى وسيد جمال الدين ومحمد عبده والكواكبى ونائينى [1] وطالبوف [2] وحسن البنا فى حركات اليقظة المضادة للاستعمار والاستبداد فى الدول الإسلامية وكاتب ياسين وبن ابراهيم وفرانز فانون وهنرى الج وعمر مولود وإيما سيزار فى بعث افريقيا ، لقد أيقظوا الثورة فى شعور عصرهم وضمائر أممهم وإدراكها ورؤية شعوبهم ووعيها ، هذه هى كل رسالتهم ، وكل ثورى لايكون على نصيب من « الثقافة الثورية القوية الفتية» يكون زبد غليان بلا محتوى وخواء قام فجأة وبنفخة همد .

وماذا يعنى تحويل المفكر إلى متشبه ؟ لتحليل هذه الظاهرة المنحرفة بعمق وتقص للجذور ، ينبغى علينا من وجهة نظر التاريخ وعلم الاجتماع أن نحلل كيفية التكوين الاجتماعى لهذه الطائفة ، ومعرفة عوامل تكوينها وظروفها السياسية والزمنية والثقافية .

---

(١) المترجم : الشيخ محمد حسن نائينى أحد مراجع الشيعة العظام فى العصر الحديث ١٢٦٥ - ١٣٥٥ هـ فى «صاحب » تنبيه الأمة وتنزيه الملة » وهو أحد المؤلفات العظيمة فى الفكر السياسى الشيعى المعاصر .

(٢) المترجم : عبد الرحيم طالبوف أو طالب زاده . أحد قادة التنوير فى إيران الحديثة (١٨٥٥ - ١٩١٠) . من أهم كتبه « مسالك المحسنين » و « كتاب أحمد » و « ماهى الحرية » ساهم بأعماله فى التمهيد الفكرى للحركة الدستورية والتنوير الفكرى والسياسى .

الأرضية الواقعية والمنطقية لخصائص المفكر الأوربى :

للمفكر فى الأصل مهما كانت مرحلة التطور الثقافى والاجتماعى فى مجتمعه ، ومهما كانت ميوله رؤية نقدية ، وأقصد بهذا التعبير أنه : أولا : معترض بالنسبة للوضع الموجود وفى نفس الوقت مجاهد لكى يضع بدلا منه الوضع المطلوب .(١)

فى أواخر القرون الوسطى قام نضج البورجوازية واتساع أفق الرؤية الكونية وتغيير خط سير العلم من التفكير فى الموت إلى التفكير فى الحياة وتدهور الإقطاع وقيام الحركة البروتستانتية داخل الكنيسة الكاثوليكية والعودة إلى العالمية والفكر العقلى والمنطقى الحر اليونانى وردود الأفعال فى مواجهة الاستبداد الفكرى والعلمى للكنيسة ، وكل هذه العوامل نتيجة للحروب الصليبية الطويلة والاتصال بالحضارة والثقافة المتحررة فى المجتمع الإسلامى الراقى فى القرون الوسطى ، كل هذه العوامل قامت تلقائيا بإحداث ثورة فكرية وعلمية مضادة للكنيسة ، وظهرت نجوم لامعة فى قمة المخروط الثقافى فى أواخر العصور الوسطى قامت بتيار علمى وأدبى وفنى مستقل خارج الكنيسة والاسكولاسيه الدينية الموجودة ، ونفس هذا التيار الثقافى أظهر جماعة متميزة من المفكرين والعلماء فى مواجهة جماعة العلماء الرسميين يسمون فى المصطلح المعاصر بالمثقفين . ومن الناحية التاريخية يمكن القول بأن القرن السابع عشر هو النهاية الحسمية للروح المتسلطة لمرحلة العصور الوسطى وبداية سيادة الروح العلمية غير الدينية . وسمات جماعة المثقفين الأوربيين كلها نتيجة منطقية وطبيعية للظروف العينية للمجتمع الأوربى . هم يعبرون عن ظاهرة كان ينبغى أن توجد وكان ينبغى أن توجد بهذه الخصائص . وهذه الجماعة ذات جذور طبقية وثقافية بورجوازية . فالبورجوازية ، بعد تحطم القلاع المغلقة فى أوربا فى العصور الوسطى والاتصال بالشرق ورواج التجارة الدولية ثم اكتشاف أمريكا واستراليا واستعمارهما وتأسيس شبكة بحرية عالمية ، وتوسع التجوال والرحلات والكشوف الجغرافية ، اتخذت سبيلها إلى النضج بسرعة ، وبدأت هذه الطبقة

---

(١) إذا ظل فى المرحلة الأولى أى مرحلة الاعتراض فحسب ، فهو عدمى وفوضوى ، والمفكر موضوى ، لكن إلى جوار شىء آخر .

فى نضال فكرى واجتماعى وتقدمى وثورى ضد الجبهتين المتحالفتين : الكنيسة والإقطاع والأرستقراطية ذات الجذور المتعفنة المرتبطة به ، والثورة الفرنسية الكبرى أحد التجليات الواضحة لهذه الحركة . ومن هنا يمكن اعتبار حركة المثقفين الأوربيين فى العصور الحديثة رد فعل فى مقابل هاتين القاعدتين القويتين المتسيدتين على المجتمع والروح الأوربية : الإقطاع والكنيسة الكاثوليكية . هذه الوضعية الاجتماعية والرسالة التاريخية الخاصة بها تفسر كل خصائصها الآتية وتبينها :

١ - الجنوح المضاد للكنيسة والرؤية اللادينية ، والجهاد من أجل طرد الدين من مسرح الحياة والمجتمع والعلم إلى جدران المعابد ، هذا جنوح حتمى ومعقول لأن البابا كان يعتبر نفسه نائب الله على الأرض ومالك الروح القدس ، ومن هنا فإن سيطرته على كل شئون الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية والعقلية والذوقية لكل الأمم المسيحية كانت قابلة للتبرير . ولما كانت أوربا تعتقد أن الحروب الصليبية ومانتج عنها من هزائم من فعل الكنيسة ، ومن ناحية أخرى كان رجال الدين يقومون بالقضاء على كل حرية للفكر بل والكشوف العلمية بغلظة ، وكانت محاكم التفتيش الدموية تقوم بالمحاكمات المتتالية للعلماء والمفكرين بل والمتدينين ورجال الدين متحررى الفكر ، وكانت الحروب المذهبية تؤدى الى المذابح الرهيبة فى أوربا.

(بحيث قتل فى برشلونه وحدها ثلاثمائة ألف شخص ، وفى فرنسا كان من نتائج المذابح العامة للبروتستانت أن قضى تماما عليهم قضاء تاما ، وفر الباقون ، وهبط تعداد السكان فى فرنسا وانهار الاقتصاد الفرنسى) ، وبلغ قتل البشر والإرهاب والاختناق حدا لم يبلغه فى قوم قط وفى نظام قط فظ ووحشى طوال التاريخ البشرى ، وطوعا أوكرها يجب أن يكون الاتجاه الذى اتجه إليه العقل والعلم وحرية الفكر اتجاها مضادا للكنيسة ، والرؤية والاحساس اللذان غلبا عليه يغلب عليهما سوء الظن بالدين . هذا الحكم الصريح الذى أصدره المستنيرون والمفكرون الواعون فى الغرب لم يكن غضبا وانتقاما ما فحسب من الوحشية التى كانت لدى جهاز الكنيسة ، بل كانت التجربة العينية والمنطقية تؤيده ، وذلك لأن الغرب طوال الألف عام السابقة على المسيحية كان ذا ثقافة وحضارة وقدرة اجتماعية وفكر متحرر شديد الازدهار ، كان العصر الذهبى للغربى ،

هذا العصر المستنير المفعم بالحركة والقوة ، بسيطرة المسيحية دخل فى مرحلة مظلمة وإرهاب وتوقف وضعف ظل طوال العصور الوسطى وطوال الألف عام التى حكم فيها الدين انطفأ مصباح الثقافة والنبوغ والحرية والتقدم والعلم والأدب والفلسفة ، وبعد ذلك ومع وجود النهضة وإحياء الروح العلمانية والحرية الفكرية فى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر تلك التى كانت ترفع يد المسيحية عن المجتمع وتصارعها ، استرد الغرب الروح وحدثت قفزة علمية وفكرية خارقة للعادة وتفتحت الحضارة الحديثة تفتحا مدهشا ومن المسلم به أن تقدم هاتان التجربتان هذا الحكم كمبدأ منطقى ومسلم به ولايقبل الإنكار :

أ – أنه توجد بين الحضارة والدين علاقة عكسية ، بمعنى أنه كلما سيطر الدين ماتت الحضارة وكلما تنحى استردت الحضارة الروح .

ب – أن الكنيسة فى العصور الوسطى هى الغطاء المعنوى والثقافى لنظام الاقطاع الاجتماعى ، ففى الحروب الصليبية كان البابا هو المفتى والإقطاع هو المحارب ، وكان هذا يبين الصلة المباشرة بينهما بوضوح ، وبخاصة وأن الغرب قبل المسيحية كان ذا حكومة قومية بل وامبراطورية ، وكان تحت سلطانه جزء كبير من العالم ، كما كانت أمم متنوعة قد انضمت إلى هذه الامبراطورية العظيمة وكانت تدار حول محور مركزى ، كما كانت اليونان قد قدمت للعالم أول تجربة للحكم الديموقراطى ، لكن بعد سيطرة المسيحية على أوربا انقسمت الحكومة المركزية والقومية إلى عدد من ملوك الطوائف المتفرقين المنفصلين ، وبعد الامبراطورية والديموقراطية كان ظهور الإقطاع يعد رجعة وتقهقرا تاما للغرب إلى مرحلة بدائية من التاريخ ، وتبدل المجتمع والرؤية الكونية المتحركة والمنفتحة إلى رؤية إقطاعية مغلقة وراكدة وضيقة ، وكان الدين هو السبب فى هذا التطور (؟) الاجتماعى والمدافع عنه ، لأن البابا كان يخشى دائما من أن تقوى القومية وأن تظهر على أساسها قوى سياسية فى أوربا يمكن أن تصير مصدر إزعاج لنظام حكومة الله على الأرض ، وكان يقاومها دائما ، ومن وجهة نظر علم الاجتماع يستند النظام الاجتماعى الإقطاعى على أساس التقليد والمفاخر القومية والسلفية والعلاقات الاجتماعية الموروثة وتقسيم المجتمع إلى أشراف وعبيد

وبعد الصلة بين الإنتاج والاستهلاك الثابت والمتوازن وبالتالى « انغلاق الاقتصاد » وتوقف البنية التحتية الاجتماعية وجمودها وبالتالى انغلاق الرؤية الكونية وتوقف الفكر والإحساس وجمودها . ومسيحية القرون الوسطى أيضا كانت السبب فى هذا الشكل ، ونتيجة له تجمدت فى مثل هذه الظروف الاجتماعية وصارت محدودة ، ونتيجة لذلك اتجهت أنظار كل حركة وكل فكر إلى الجسد الإقطاعى لمجتمع القرون الوسطى . وهذا الواقع أدى إلى هذا الحكم عند المفكرين وهو : إن الدين فى الأصل نتيجة للظروف الاجتماعية للمرحلة التاريخية الإقطاعية والإنسان فيها مرتبط بالأرض ومتصل بها ، والزارع فى هذه المرحلة إنسان دينى لأن طبقة الإقطاعيين تستند على الدين من أجل تبرير الوضع الراهن وتقديسه وإقناع الناس بالجبر الإلهى لمصيرهم وتأميلهم بتعويض فقرهم وكدهم وعبوديتهم فى هذه الحياة الدنيا بعد ذلك فى حياة الآخرة وهكذا كان الأمر .

وهذا الادعاء القائل بأن البابا هو نائب الله وحامل الروح القدس وخليفة بولس المقدس من ناحية ، وإعلان هذه الفلسفة التى تقول للبشر : إن الغرائز ولذات الحياة والعالم المادى والجهاد من أجل كسب المال ليست هدفا للإنسان ، بل إن هدفه هو تجديد الاتصال بالله من ناحية أخرى ، كانت تؤدى من طرف آخر إلى هذه النتيجة : من هنا فإن البشر قطيع ينبغى أن يسلم زمامه إلى يد الراعى . وهذا النوع من التفسير والتبرير للإنسان والدين كانت نتيجته غالية تماما على الحياة الدينية والروحية فى أوربا ، فاستبداد رجال الدين هو أفدح أنواع الاستبداد وأكثرها ضررا فى تاريخ البشر ، والآن : باسم المسيح الذى كان يقول : اعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله ، أقدم البابا وحرس الروح القدس ودعاة السلام والمحبة والعشق العام على إقامة البنية السياسية لنظامه على أساس النظام الامبراطورى الرومانى القديم . وفى مواجهة هذا النظام الدينى ، من الطبيعى أن يطرح المفكرون الأحرار شعار فصل الدين عن السياسة من أجل تحرير العلم والناس ، إذ كان « فصل الدين عن السياسة » يخلص دفعة واحدة المفكرين والأحرار والفلاسفة والعلماء والكتاب والفنانين وحتى جماهير الناس من السيطرة السياسية والاجتماعية لجهاز الكنيسة الفظ المتعصب الذى كان يتدخل فى أمور الحياة حتى فى الأذواق والجماليات والفنون وبُلى المجتمع

باختناق مميت ، ووضع مئات القيود على العقل والابتكار وكان أيضا يخلص الأقليات الدينية التى كانت محرومة من الحياة تحت سيطرة الحكومة الكاثوليكية ومعرضة على الدوام للمذابح والتعذيب ، ومن محاكم التفتيش التى كانت كل يوم تفتك بنابغة من نوابغ الفكر الحر ، وأهم من ذلك كله كان يسمح للأمم التى لم يكن لها الحق فى الاستقلال السياسى فى ظل نظام الكنيسة ليس هذا فحسب بل وكانت محرومة من حق الكتابة والكلام بلغاتها القومية بدلا من اللغة اللاتينية التى اعتبرت لغة للإنجيل (؟) ، كان يسمح لها بأن تتخلص من نير تسلط الكنيسة الرومانية وأن تتحول إلى حكومات قومية تحل محل الامبراطورية اللاتينية المقدسة .

كان المذهب الكاثوليكى يعتبر هذه الدنيادنسة والغرائز معادية لله والحياة المادية حقيرة والجمال والنعم الموجودة فى هذه الدنيا قبحا وفسادا ، وكان ميدان كفاحه الأصلى التضحية بالحياة فى سبيل الموت ، وفرض الميل إلى الزهد وطلب العزلة والتدين المنحرف الصوفى والانطواء المعنوى الذى فى ظله ينبغى أن ينحى الإنسان عن نفسه فى مواجهة الله . ومن الطبيعى أن يكون الاتجاه المنطقى والتقدمى للحركة الفكرية التى كانت تحس بالعواقب الوخيمة التى تؤدى إلى الضعف والانحطاط التى تفضى إليها الأخروية « الاتجاه إلى الآخرة » المنحرفة ، والتى كان الدين يدعو إليها فى المجتمع الأوربى الضعيف الفقير فى العصور الوسطى ، أن يكون تلقائيا اتجاها أرضيا ومضادا للسماء ، وإعطاء المبدئية للحياة الواقعية فى هذه الدنيا والتقدم والقوة المادية أو الجنوح الى الطبيعة فى مواجهة جنوح الكنيسة إلى ماوراء الطبيعة . إلى الواقعية فى مواجهة المثالية المفرطة الكاثوليكية .

والنظام السياسى عند البابا نسخة طبق الأصل من النظام الامبراطورى الرومانى القديم . والبابا هو القيصر نفسه ، يتوج أى يضع على رأسه وجسده رداء السلطة العالمية . ويجلس على عرش السلطة الرومانية ، ومثل القيصر الذى كان ينتخب من قبل مجلس الشيوخ الرومانى ، ينتخب هو من مجلس الكرادلة والكرادلة الكاثوليك هم شيوخ الرومان ، ومجلس القناصل هو هو مجلس الشيوخ ، والبابا عنده جيش ومحكمة وبلاط وجهاز إدارى واسع فى العالم ، وحتى عندما اضطر إلى تحمل الحكومات القومية والسياسية فى أوربا ، أقر هذا التقليد الذى يقضى بأن

على الملـوك أن يأتوا إلى روما وأن يضع هو بنفسه التاج على رءوسهم ، والآن أيضا يشرف بعض رؤساء الجمهوريات بتقبيل يد البابا بعد انتخابهم ، وبهذا يظهرون بأنهم يأخذون صك الحكم من يده باسم الله ملك السماء (لا من يد الأمة أو الناس) ، وهذا يعنى أن البابا لايزال يدعى نفسه راعيا لكل رعايا المسيح الباقين وملوك الشعب المسيحى ورؤساؤه حكام من قبلـه[1]

هذا النظام الذى كان نظريا وعمليا هو نفس النظام الامبريالى والاستبدادى للقيصر باسم المسيح واعتقادا بأن قوة الحكم تنفذ من « أعلى » الى « أسفل » حدد الاتجاه السياسى والاجتماعى للحركة الفكرية والأحرار الأوربيين ، فالديموقراطية (أى حكم الناس كمنبع أصلى للقدرة الحاكمة) والقومية : أى الحكم المستند على استقلال الأمة وأصالتها وحرية الشعب فى تحديد مصيره وكيفية حياته السياسية وشكله الاجتماعى ، وهذا فى مواجهة الامبريالية المسيحية والبابوية الكاثوليكية .

كانت القومية حركة تقدمية تحررية مضادة للامبريالية ، وكان شعارها هو الاستقلال السياسى والقومى والحرية الدينية فى مواجهة سيطرة الكنيسة الكاثوليكية ، وإحياء اللغة الأم فى التعليم والتربية والأعمال العلمية وحتى الدينية وترجمة الإنجيل إلى اللغات القومية فى مواجهة ادعاء الكنيسة أن اللغة اللاتينية هى لغة الله وأن الإنجيل هو كتاب الله[2] وذلك حتى يخرج الإنجيل من احتكار رجال الدين الرسميين الذين كانوا يستحمرون الناس لجهلهم باللاتينية لغة الانجيل الوحيدة ، ويكون فى متناول أيدى ذوى الأفكار الحرة وتأسيس

---

(١) المترجم : كانت مظاهر استقبال البابا فى رحلته الأخيرة إلى بولندا الشيوعية وإلى أوربا والى امريكا البروتستانتية تثير التساؤل كثيرا حول توقيتها « بعد انتصار ثورة إيران » وحول الطقوس التى قام بها الشيوعيون والبروتستانت عند استقبال البابا وسعى أولئك الذين نبذوا الدين فصعدوا إلى القمر ، وفضلا عن قداس عام يقام فى بولندا الشيوعية ، فإن هؤلاء العلمانيين فى أوربا وأمريكا كانوا يسارعون لتقبيل طرف ردائه أو الشرب من مياه اغتساله إلى غير ذلك من المظاهر الجاهلية الوثنية التى قام بها هؤلاء المتحضرون مما لو قام به جبلى لم ير المدينة أو ريفى المولد والمعيشة هنا لوصم الإسلام كله بعبادة الخرافة ... واعتبروا يأولى الأبصار .

(٢) بالرغم من أن الانجيل الأصلى كان باللغة العبرية ، ولم يكن عيسى يعلم اللاتينية ، وأعلنها رجال الدين لغة للمسيح وإله المسيح مثل كل الأصول السياسية والثقافية للإمبراطورية الرومانية القديمة . المترجم : كانت العبرية داخل المعابد ، وكان السيادة فى وقت ظهور عيسى للآرامية .

المدارس ونشر الكتب والدعاية للدين وحتى تعليم الأطفال ، ومن هنا كانت القومية فى ذلك العصر سلاحا ضد الامبريالية وضد الاستبداد وحركة تحررية تقدمية وثقافية .

لم يكن نشاط الكنيسة منحصرا فحسب فى الهدى الروحانى والأخلاقى للناس ، بل كانت تتدخل فى كل أمور الحياة حتى المشاكل العائلية والعاطفية واليومية تدخلا مباشرا وقسريا ، فى حكومة الكنيسة كان على كل شىء أن يكون دينيا ، وتمتع أى انسان بحقوقه الأولية فى الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية مشروط بأن يكون كاثوليكيا وبتبعيته للكنيسة الرسمية وقبوله لكل الأحكام والتعاليم وحتى الأوامر غير الدينية التى كانت تصدر عن هذا الجهاز الحاكم ، وحركة « علمانية » المجتمع والحياة الاجتماعية وهى سمات جماعة المفكرين الأحرار الأوربيين فى القرون الحديثة رد فعل إنسانى ومتحرر فى مواجهة القيود اللاأخلاقية واللاإنسانية . فالحكومة دينية ، والمؤسسات الاجتماعية والإدارية كلها دينية ، وأجهزة التعليم والتربية دينية ، والأبحاث الفلسفية والعلمية والفنية والإدارية كلها دينية ، بمعنى أنه ليس لغير الكاثوليكى الحق فى أن يتدخل فى السياسة أو يتبوأ منصبا سياسيا مهما كان صغيرا ، وليس لفيلسوف أو عالم الحق فى أن يخطو خطوة واحدة خارج القوالب الفلسفية والنظريات التى وضعها هذا الدين فى العلوم الطبيعية وعلوم النبات والهيئة والطب ، ومن المحتم على الرسام أن يرسم قصص التوراة أو صور عيسى ومريم والملائكة والقديسين ، وعلى المثال أن يلبس تماثيله الملابس المحددة تماما ، بل عليه فى الأصل أن ينحت تمثاله طبقا للنموذج والأساس الذى وضعه رجال الدين ، ولابد للكتاب باسم المسيح والإنجيل مراعاة الوحدات الثلاث عند أرسطو فى الفن والأدب بدقة ذات وسواس دينى ، ومن المحتم على المدارس تدريس تعاليم الكنيسة للتلاميذ باللغة اللاتينية ، وللتلميذ حق الدرس إذا كان كاثوليكيا فحسب [١] ، وأتباع المذاهب الأخرى محرومون من كل الحقوق الاجتماعية المحصورة فى الكنيسة . [٢] .

---

(١) حتى اليوم فى باريس لاتزال دور الرضاعة والحضانة التابعة للكنيسة ترفض قبول الأطفال غير الكاثوليك .

(٢) كانت الكنيسة ترفض بشدة طلب كل الدول الإسلامية بناء مسجد فى روما . وإذا علمنا أن أفخم

ومن هنا فان حركة علمانية الحكومة ونظامها والمؤسسات الادارية والتشكيلات والأصول الاجتماعية وكل وجوه الحياة المختلفة فى المجتمع ، تعنى تحويل الحياة الاجتماعية الى حياة انسانية ، أى أن تكون الانسانية شرطا من أجل الحياة فى المجتمع محل القيد الذى كان موجودا وهو كون الانسان كاثوليكيا ، ومن هنا فالمحتم والمنطقى أن المفكر المتحرر والمحب للانسان لايمكن الا أن يكون علمانيا .

وأوربا فى القرون الوسطى وهى الأرضية الاجتماعية لنضج الحركة الفكرية ونموها كما قلت ، كانت مجتمعا مستندا على قاعدتين اجتماعيتين ثقافيتين : الدين والاقطاع ، وكان المذهب الكاثوليكى عبارة عن « تحويل فلسفة ارسطو والثقافة اليونانية الرومانية القديمة الوثنية الى المسيحية » وحفظت التقاليد الغربية القديمة فى قلب الايمان الشرقى الجديد بل واشتدت وتحجرت بشكل أكثر وأشد ، بحيث أن كل تجديد وكل بدعة وكل ابتكار يفسر ككفر وعصيان ، وكل تغيير كان يستوجب الخوف ورد الفعل العنيف من الكنيسة . مثل هذه الروح التى ابتليت هى نفسها بالتجمد وعبادة التقليد الجاهلية الأرستقراطية والثقافية والفكرية حلت فى الجسد الاجتماعى للاقطاع وهو نفسه نظام راكد ومتحجر ومغلق وعابد للتقليد وضد التغيير والتقدم وعدو لكل تجديد وحركة .

فى مثل هذا المجتمع يكون رد الفكر عند المفكر متميزا : عبادة الجديد ، الحرص والحماس لكل تغيير وابداع ، وسوء الظن والنفور من الميل الى الماضى وعبادة التقليد وكلها علامات تشير الى ادانة الدين كحارس على القدم وعبادة الماضى وعداوة كل ابداع وكل حركة .

كان العلم خادما للكنيسة ، وكانت مهمته تفسير العقائد الجامدة التى كان رجال الدين ينشرونها باسم الدين والقيام بتأويلها ، ومن هنا كان هو نفسه متحجرا

الكنائس فى الدول الإسلامية بنيت فى أوج القوة العالمية للحكومات الإسلامية أو جددت ، وأن خلفاء الإسلام كانوا قد خصصوا ميزانية من بيت المال لترميم الكنائس والحفاظ عليها ومن أموال الزكاة وهى ضرائب دينية كانوا ينفقون على مراكز العبادة للأديان الأخرى سوف نفهم قول لويس جاردويه إن الحكومة الإسلامية ليست نظاما سياسيا مذهبيا بمعناه الأوروبى الكاثوليكى.

المترجم : وافقت إيطاليا أخيرا بضغط من دول النفط على بناء مسجد

ومتوقفا ، أبعدته الرؤية المذهبية الخاصة عن الحياة والطبيعية ، وجرته إلى البحوث والتدقيقات الكلامية والميتافيزيقية والكليات والقياسات الذهنية والمجردة ، كانت إحدى رسائل سان أوغسطين النابغة المعروف تتناول هذا القبيل من الموضوعات : كم عدد الملائكة الذى يمكن لهم أن يتجمعوا فى سن ابرة ؟ كيف تتحد الذات اللاهوتية بالذات الناسوتية ؟ كيف يمكن لثلاث ذوات مستقلة أن تكون فى نفس الوقت ذاتا واحدة بسيطة ؟

وقام المفكر بتخليص العلم من هذه العبودية فإن علم العصور الحديثة الذى كان سجينا مدانا وفر من سجن الدين بعد ألف سنة تلقائيا ، تكون طبيعة حكمه عليه والوضع الذى يتخذه بالنسبة له معروفين . خاصة وأنه بعد تحرره ، اتجه إلى التقدم طفرة وفجأة وبصورة ثورية ، وبعد ألف سنة من الظلمة الوتيرية الراكدة ، يسمى القرن السابع عشر قرن العقل ، والقرن الثامن عشر قرن التنوير والقرن التاسع عشر قرن الأيديولوجيات والقرن العشرين قرن التحليل ، وتفتحت مواهب فلسفية مدهشة وتحولت أوربا بعد سقوط الكنيسة إلى يونان ماقبل سلطة الكنيسة ، والعلم الذى كان أسيرا فى سجن الدين وفى زوايا المدارس منكبا على نسخ التوراة والإنجيل وأقوال بطرس وبولس والحواريين والقديسين ، أو فى الناحية الأخرى من السحب بحثا عن الحقائق الكلية للعالم والإنسان ووراء جدار العالم والإنسان ، هبط إلى الأرض وعاد إلى الطبيعة والمجتمع ، وهجر البحث عن الحقيقة الذى لاطائل من ورائه ، وقام بالبحث عن القوة ذات الثمار ، وعرف الدنيا وأظهر المجتمع والتكنيك وسيطر سيطرة متزايدة على الطبيعة والمجتمع والتاريخ ، وله فى كل يوم كشف وفى كل يوم اختراع ، وتغير كل شيء ، وصارت أوربا قوية متمتعة غنية ، واكتسبت الحياة طعما آخر ونغمة أخرى ، خرج العلم من القلعة المغلقة لرجال الدين وصار فى متناول أيدى الجميع .



العلموية :

وكل هذا الانتصار والقدرة الخارقة للعادة ، وكل هذه الكشوف والكرامات الواقعية التى أبداها العلم المحرر من الدين ، أدى إلى ظهور العلموية ، مبدئية العلم أو عبادة العلم ، وكانت العلموية نتيجة لثلاثة علل معقولة وطبيعية ومنطقية :

١ - الذكرى السيئة التى كان يحملها من « الالتزام » . التزام فى عهد خدمته وعبوديته المضادة للعلم طيلة ألف عام من عمره الدينى . ومن هنا كان « والحق معه » نفورا وخائفا من كل التزام ، فالالتزام عنده يعنى العبودية وفرض أهداف غير علمية على العلم ، وكأنه يريد أن يقول : لاينبغى لأية قوة قط أن تملى على الأهداف ، وأن تضع مبادىء لى ، أو تحدد خط سيرلى ، أو تقيدنى بقبول أى قدسية أو حقيقة أو مصلحة أو قاعدة مسلمة . الحقيقة هى تلك التى أصل إليها فى أبحاثى الحرة ، بقوة العقل وهداية المنطق والقاعدة العلمية والمشاهدة الحسية والبحث والمقارنة العينية والتجريبية فى ساحة الواقع فحسب ، لامايقولونه لى بأنه يجب أن أصل إليه ، العلم هو الذى يوجه كل شىء«العلم أساس ، العلم فقط من أجل العلم فحسب ، لايوجد شىء قط جدير بالحرية وفى حاجة إليها مثل العلم ، وحاجته إليها حيوية ، واصطناع الفلسفات والبحث فى المجردات والكليات وأسلوب القياس والمثل والاستحسان والإشراق الأسكولاسى تؤدى إلى غرق العلم فى الأوهام والذهنيات ، ولاتؤدى إلى الكشف عن مجهول إطلاقا ، كما لاتؤدى إلى أية معرفة دقيقة موثوق بها . والحقائق الكلية والأولية للوجود ، وجوهر الأشياء وعلة العلل فى الأمور والقضايا الغيبية والميتافيزيقية غير قابلة للمعرفة ، تكفى ألف عام من « محلك سر » والبقاء العقيم فى خدمة أرسطو .

٢ - ميدان عمل العلم هو الطبيعة والواقع ، وأسلوب عمله المشاهدة الحسية والاستقراء ، والبحث والمقارنة العينية والتجريبية وهدفه أيضا معرفة « المظاهر والظواهر » (لا الجوهر والكنه وحقيقة الماهية) ، وكشف الروابط بينها ، ثم استخدامها فى خدمة الحياة والتقدم والقدرة وسد الحاجات الواقعية والعينية للبشر (التكنيك) ، وهذه الروح الجديدة للعلم كانت رد فعل صحيح وحيوى عنده فى مواجهة الأسكولاسية .

٣ - وفى النهاية : الغرور . فإن كل هذه الانتصارات السريعة المدهشة والسيطرة المتعددة على الطبيعة ، والتنقيب فى الحياة المادية ومعرفتها واستخدامها ، والسيطرة على القوى التى كانت غالبة ومسيطرة وقاهرة دائما ، كلها جعلت العلم مغرورا . فاستقلاله واعتماده على نفسه وصحة تشخيصه وألوان النجاح العظيمة المعجزة الفجائية ، وفى مقابل هذا ضعف منافسيه أى العرفان والدين والفلسفة الأولى وعلم الكلام و ... عدم جدواها ، فلا هى اكتشفت مجهولا ولاهى وصلت إلى مدى ليس فحسب فى طريق الحياة المادية البشرية بل فى طريق سيرها وسلوكها أيضا ، هذا أدى إلى هذا الحكم تلقائيا وهو : إن العلم فقط هو ماله قدسية ، والعلم فحسب هو منبع وعى الإنسان وكل مالايعلمه العلم ولايستطيع أن يعلمه وهم ، وكلام العلم قاطع ، والحقيقة الواقعية مالم تكن علمية فهى ليست موجودة .

وليس للعلموية سوى هذه الأحكام الثلاثة ، وهى نتيجة منطقية وطبيعية للظروف العينية والواعية للمجتمع والعصر وروح العصر والثقافة التى ظهرت فيها : العلم من أجل العلم والجنوح إلى الواقع المجرد ، والامتياز للعلم . وهذه استجابات ثلاثة فى مواجهة الحكمة الأسكولاسية . فلما كانت الأسكولاسية قد قامت بإجبار العقل على البحث فيما وراء الطبيعة وعن الحقائق المطلقة والمجردات اللاهوتية (الميتافيزيقية) ، قام العلم فقال : ينبغى البحث فى نفس هذه الطبيعة والكشف عن الوقائع المحسوسة والظواهر المادية والقوانين الناسوتية (الفيزيائية) . وعندما كانت تقول : الأسلوب الوحيد هو الاتباع الجبرى للقياس الأرسطوى أو الكشف والشهود الذهنيين العرفانيين ، كان العلم يجيب : لا ، بل أسلوب المشاهدة والتجربة والاستقراء للمحسوسات والجنوح إلى الواقع ، ومن هنا يقول كلود برنارد « مالم ألمس الله تحت المبضع الذى أقوم به بالجراحة فلن أومن به » ، وعندما تعلن الكنيسة أن إلهام الروح القدس هو السبيل الوحيد لمعرفة الحقائق وتعتبر العقل أعمى والعلم فضولا ، يقول العلم : اعتبارا بمصيرك العقيم وإشراقياتك الدينية وبشهادة التاريخ ، فإن طريق المعرفة الوحيد والدقيق والصحيح هو المعرفة العقلانية ، وكلاهما فقط هو الموثوق فيه والمسلم به ، وعلى هذا النحو فإن المفكرين الجدد الذين نهضوا فى مواجهة العلماء الدينيين فى القرون الوسطى وفى مواجهة الأسكولاسية ابتلوا منطقيا وحتميا بالعلموية .

وتمتد الجذور الطبقية للمفكرين الأوربيين الجدد إلى الطبقة البورجوازية الجديدة الوليدة والثورية ، الطبقة التى أخذت فى النضج والتقدم بسرعة بعد الحروب الصليبية واكتشاف القارة الجديدة والاتصال بأفريقيا وآسيا واتساع الرحلات البحرية والبرية وبالتالى اتساع التجارة الدولية وتدفق الثروات التى لاحدود لها لكل منابع الثروة فى العالم على أوربا الوسطى والغربية والشمالية ، فالبورجوازى رجل مال وتجارة وتمركز فى المدينة وعمل صناعى ، وفى مقابل إنسان المرحلة الإقطاعية الزراعية وعمله محدود ومرتبط بالأرض وموسمى ، ودائرة حركته وابتكاره محدودة نجد أن البورجوازى إنسان متحرك وبالتالى متطور ومغرور ومتكبر وقابل للتغير وعابد للجديد وجنوح إلى المستقبل ومستزيد وذو رؤية كونية منفتحة وقليل التعصب ونفور من التقليد والكلاسية وضائق بالفضائل الأرستقراطية بل ومبادىء الأخلاق . فالمبدأ الأخلاقى الأساسى عند البوجوازى هو التقدم ، وفلسفة حياته التمتع المادى ومبدئية الاستهلاك ، وهذا فى مقابل أخلاق الإنسان القديم وأساسها « الفضيلة » وفلسفة حياته مبدئية « المعنى » [١] ومن هنا فبالرغم من أن البورجوازى متدهور أخلاقيا ، وينبغى اعتبار رواج الثقافة البورجوازية مرحلة سقوط للقيم الأخلاقية والأسس المعنوية الإنسانية [٢] لكنه من ناحية الإيمان والاستعداد للتقدم أفضل من الإنسان القديم (لأن التقدم فى حد ذاته فضيلة) ، ونفس هذا الاستعداد والإيمان هو الذى أوجد البروتستانتية الجانحة نحو الدنيا والمتقدمة فى قلب الكاثوليكية ، وقضت على الإقطاع ، وخلقت الحرية والديموقراطية والروح الثورية المضادة للرجعية ، والتحرك والإبداع ، والحياة الصناعية والمادية المتقدمة الجديدة فى أوربا .

---

(١) هنا تطرح قضية عميقة جدا وهى أن الأديان ربما لأنها ظهرت فى مرحلة سابقة على تكوين الحكومة بل وتشكيل الطبقة البورجوازية – قد قبلت الروح الأخلاقية الخاصة بمرحلتها التاريخية ، إما فى بدايتها وإما خلال تطورها التاريخى .

(٢) إننى هنا واقع بشدة تحت تأثير « مدرسة الاشتراكيين الأخلاقيين الألمانية » فى القرن التاسع عشر (وليس لإيمانى بها) ، تلك المدرسة التى قامت بنضال خاص ضد البورجوازية على أساس المثالية الهيجلية ، وهى ذات أهمية شديدة خاصة للاهتمام بالبعد المعنوى للإنسان والذى يزول فى البورجوازية ، ومؤسسها من تلاميذ هيجل ، وكان ماركس أحدهم قبل أن ينضم إلى الشيوعية .

وكان المثقف فى هذا العصر يعتبر عقل الطبقة البورجوازية المفكر فى أوربا ، وكان فى طليعتها يناضل ضد الدين والاقطاع والتجمد والخرافات الماضيـة . وكان يحمل كل خصائص الطبقة البورجوازية التى سيطرت حديثا والتى كانت تجاهد فى إقامة الجنة الموعودة على الأرض بالعلم والتكنيك فى مقابل الدين الذى كان يسعى فى خداع الناس وصرفهم عن الدنيـا ويعدهـم بالجنـة الموجـودة فـى العالم الآخر . ومن هنا كانت البورجوازية كطبقة اجتماعية تقدمية وثورية فى حد ذاتها ، ومن الناحية الفكرية طبقة منطقية ومستندة على العلم ومنفتحة ومتحركة ، ومن الناحية الروحية متحررة طبقيا ومضادة للأرستقراطية . وكان المثقف الأوربى وقاعدته الاجتماعية هذه الطبقة فى صراع فكرى وعلمى مع علماء الدين الذين كانوا يستندون على قاعدة اجتماعية هى الأرستقراطية الإقطاعية ، وبالتالى تعهد برسالة تاريخية خطيرة وليدة ضرورة ومقتضيات وواقع مجتمعه ، وكانت هذه العوامل هى التى دفعته إلى مسيره هذا وأوجدت فيه هذه الخصائص الفكرية عوامل منطقية . وهاأنتم ترون أننى فى هذا التحليل لااستندت على قضايا ميتافيزيقية ولاعلى أسلوب ذهنى وتجريدى ومثالى .

والآن بالنظر إلى هذه الحقيقة المجمع عليها وهى أن المثقفين بالمعنى الأخص أى المفكرين فى الدول غير الأوربية - التى دخلت فى القرن الأخير مرحلة التحديث أى تقليد الأشكال الأوربية فى الحياة الفردية والاجتماعية - هم نسخة بديلة للمثقفين الأوربيين الجدد ، إذأن المتعلمين و المفكرين عندنا أخذوا كل الخصائص الفكرية والمعنوية والأحكام والاتجاهات الفلسفية والعلمية والدينية للمتعلمين والمفكرين الأوربيين عن وعى أو غير وعى ، تدخل إلى هذا المبحث العلمى القائل بأن أحد خصائص الرؤية العامية : التفكير المطلق والرؤية المجردة . وكما يقول شاندل : « إن الفكر البشرى قطع مرحلة طويلة فى طريق نضجه حتى وصل إلى المرحلة التى يقول فيها : من هذه الناحية الرأى كذا ، ومن الناحية الأخرى الرأى كذلك ، بهذا الاعتبار كذا وبالاعتبار الآخر كيت » ، وإحدى خصائص اللغة العلمية أنها تستخدم الصفة التفصيلية أكثر من استخدامها للصفة التفضيلية ، لأن الانسان بعد أن تخلص من رؤاه العالمية النسبية ، تعرف لأول مرة وهو على عتبة دخوله « رؤيته العالمية المطلقة » على مفهوم النسبية . والرؤية المعتمدة على التفكير المطلق والرؤية المجردة - وهما

توأمان – سمة للحكم العامى ، لكن ليس بمعنى أن المتعلم ترك الرؤية غير العلمية بسبب العلم الذى حصله ولسنا بحاجة إلى اثبات هذه القضية القائلة بأن الرؤية غير المحصول العلمي ونبلي أنفسنا ببحوث منطقية وأدلة عقلية وذهنية ، فنحن كل يوم على اتصال بجيش العلماء العوام ، وكل إنسان يعرف علماء بارزين قضوا أعمارهم منكبين على الكتب وشاخوا فى المكتبات وقاعات الدروس والمطابع ويعلمون الكثير لكن الفهم الذى لديهم عن الدنيا والحياة فهم منحط وسطحى وعامى . وفى العالم والمجتمع وفى مواجهة الألوان والخطط والأصوات والمعانى المدهشة جدا يمتلكون عيونا عمياء وآذانا صماء وقلوبا وعقولا غبية ومظلمة ومتجمدة ، هذا النوع من العلماء العوام الذين يوصفون بتعبير السيد حاجى شيخ محمود الحلبى « بحار العلم التى لاسواحل لها لكن بمقدار عقلة أصبع من العمق » كثيرون بين الصفين الموجودين من العلماء عندنا : الصف القديم والصف الجديد ، والسبب فى ذلك هو التشابه الذاتى والخلقى بينهما . كلاهما مقلد وكلاهما متعصب وكلاهما غريب عن واقع عصره وبيئته ، ومن هنا يبتلون بـ « الدوجماء » ويضيعون فى ذهنياتهم الإملائية والإلقائية ، ومن هنا فإن عالمنا العصرى بمجرد أن يتعلم عددا من الدروس عن الفيزياء والكمياء أو علم الاجتماع أو علم النفس يحس بنفسه وكأنما كشفت أمامه كل أسرار الكائنات وكل المجهولات فى روح الإنسان وتاريخه ومجتمعه ومستقبله ، وتجد الكبرياء والهيمنة الفكرية والحسم والنهائية فى فكره وسلوكه وقوله بدرجة تخيف سادة نفس هذه العلوم من أمثال آينشتين وبلانج وداروين ونيوتن ووليم جيمس ، وعالمنا القديم بمجرد أن يتعلم بضع دروس من اللغة العربية والأدب العربى والفلسفة والمنطق اليونانى القديم الذى تحول إلى إسلامى والقضايا المتعلقة بالحقوق والآداب ، يظن نفسه حاملا لعلوم الأوائل والأواخر وجامعا للمعقول والمنقول » وحجة الإسلام وأعظم آيات الله وسند الإسلام ورجال الدين .[1]

---

(١) هذا النوع من الفهم تسرب مباشرة إلى المجتمع الإسلامى من الجهاز المسيحى وبخاصة مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية .

هذه السمة العامية أى التفكير المطلق والرؤية المجردة التى ابتلى بها علماؤنا لاتعد انحرافا معنويا فحسب ولايمكن تحديدها كقضية من قضايا علم النفس أو بحث من أبحاث المنهجية والفلسفة العلمية ، لأننا إذا علمنا أن تغير الرؤية والأسلوب الفكرى لأوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر هو الذى صنع حضارة اليوم وتحرك اليوم [١] نستطيع أن نفهم بوضوح أن رؤية علمائنا المتخصصين فى العلوم القديمة والجديدة التى ترجع إلى العصور الوسطى إلى أى مدى تتدخل فى تحجرنا وتوقفنا الاجتماعى والثقافى اليوم .



(١) ثانية : على أنصاف المفكرين الذين سمعوا عن قضية البنية التحتية والبنية الفوقية ألا يصرخوا قائلين : إن تغير الرؤية القصرية فى حد ذاته كان نتيجة للعوامل المتعلقة بالبنية التحتية فى المجتمع الأوربى ، وقد ذكرت لبضع صفحات خلت هذه العوامل وهذا الحكم لايغاير مبدأ علم الاجتماع بدليل أن واحدا من الماركسيين الأجانب يؤمن بنفس الرأى .

جغرافية الكلمة :

إن مفكرينا التقلديين إذا سمعوا فكرة يعرفونها بل ويؤمنون بها فى تعبير جديد غير معلوم يعجزون عن فهمها ، وإذا سمعوها من أحد ليس أجنبيا وليس فى صفهم المتميز يثورون بعنف ولما كانوا لم يفهموا مايجب عليهم القيام بدحضه ، فإنهم يسقطون فى تناقضات وآراء وتفسيرات بدائية ومضحكة . ألقيت محاضرة تحت عنوان « جغرافية الكلمة »[1] وأقصد بالكلمة المعنى الاصطلاحى لها فى لغة الحديث أى الفكرة أو النظر أو الرأى أو الأطروحة أو الرأى الجديد والكلام[2] بنفس ذلك المعنى الذى أورده شاندل ضمن جدله الطويل المؤثر مع دى لاشابل وهو براجماتى متعصب مؤمن بالعينية حين يقول « ... ثقافتنا من صنع أناس كان لديهم كلام للقول ».[3]

كان ماتناولته أنه ينبغى فصل الكلمات المطروحة فى الميادين الفلسفية والعلمية تماما عما يطرح فى الميادين الاجتماعية والسياسية . ففى ميدان الفلسفة والعلم ، تطرح حقيقة كلمة ما فيتلقونها بعينها ويزنونها بمعايير علمية ومنطقية وتجريبية ، ويطلقون الحكم بشأنها : حق أو باطل أو منطقية أو غير منطقية ذات قيمة أو غير ذات قيمة .... لكن فى المجتمع والسياسة ، ينبغى أن تتدخل جغرافيتها أيضا فى البحث والحكم تدخلا مباشرا ، وإغفال هذا الأمر يؤدى إلى عواقب وخيمة لاتعالج ، وهناك أحكام علمية أفدح وأشد ضررا من الجهل المطبق والأحكام الجاهلة ، وهذا بسبب أننا فى طرح قضية فكرية فى المجتمع نبحث فحسب فى أسلوبها العلمى الصرف بينما ننسى قرينتها الجغرافية أو الزمنية .

سئلت عدة مرات : ماذا ترى فى آراء « كسروى » ؟[4] وفى الغالب عندما

---

(١) اليوم لدى شك بالنسة لجمال هذا المصطلح وفصاحته لكنى لازلت أؤمن ببلاغته وتأثيره فى ذهن السامع أو القارىء .

(٢) بالمصادفة يتفق العرب والفرنسيون فى استخدام معادل هذا اللفظ بنفس المفهوم .

(٣) التضاد والتوافق بين الفكرة idieوالعمل actionبحث عميق ورائع جدا خرج اليوم من ميدان الأبحاث الكلامية والفلسفية وبعد ظهور المدرستين البراجماتية والوجودية اتسع وحمى وطيسه أكثر مما كان مطروحا فى فلسفة هيجل وبعدها عند ماركس .

(٤) المترجم : أحمد كسروى باحث إيرانى معاصر كان ينادى بالعودة إلى إيران القديمة .

تطرح هذه القضية يأخذ طرفا الدعوة : المؤيد لكسروى والمعارض له فى تناول نظرياته واحدة بعد واحدة ، ويقدمان أدلة علمية ومنطقية وتاريخية وفلسفية متعددة لإثباتها أو دحضها ، ويبحثون آراءه فى الدين والإسلام والأخلاق والله والتاريخ وعلم اللغة والتشيع والتصرف وحرق الكتب والبهائية والأدب الفارسى وحافظ وسعدى والخيام وماإليها ويصلون إلى نتائج وآراء منطقية وعلمية مختلفة وكأنها على سبيل المثال نظرية النسبية لآينشتين أو التكامل عند داروين أو سيادة الغريزة الجنسية عند فرويد أو أصول الاقتصاد السياسى عند آدم سميث . فى حين أن المجتمع موجود حى نشط وواعٍ وحساس وصاحب آلام واحتياجات وإيمان وآمال ومحدود فى زمان أى فى مرحلة من السنين وكأنه « فرد » أى شخصية انسانية ، له جسد مادى متشكل من أعضاء (وبتعبير أحد علماء النفس وهو تعبير مناسب فسيولوجيا اجتماعية)[1] وله أيضا روح حية وشاعرة وذات إرادة وضمير هى تقريباً مايسميه لويس برول الهدف الجماعى **L'ame collective** ويسميه دور كهيم الضمير الجماعى **Conscience Collective** . وفى الحقيقة فان هذا المجتمع هو الشخصية الحقيقية والواقعية الإنسانية وليس الفرد . فالفرد عبارة عن حيوان ، حيوان فى رأى الاجتماعيين يستمد كل شيء من المجتمع وهو رأى نرى أنه مبالغ فيه ، إذ ينبغى أن نقول إنه إما يأخذ كل شيء من المجتمع أو ينميه فى المجتمع .

على كل حال ، القضية هى أنه ليس فى المجتمع من واقعية لأثر قط مجردا عن كل المجتمع وعلماء الاجتماع أو المتخصصون الذين يختارون واحدا من الأسس الاجتماعية[2] أو إحدى الظواهر فى المجتمع أو الواقعيات الموجودة فيه ويضعونها مجال الدراسة والبحث ، يشبه مايقومون به تماما أن يقوم أحد

---

(١) بالرغم من أنه لايمكن أن تكون الفسيولوجيا الاجتماعية هى علم الاجتماع كما أن الانسانية ليست علم الإنسان .

(٢) إننى أرى شخصيا أن رأى الفردانين والسكلوجين رأىٌ تجريدىٌّ ومثالىٌّ إلى غير حد لأنها تنزل بالواقع المستقل والغالب والمربى للمجتمع إلى مستوى « تجمع » أو « شكل » أو « إناء يشمل أفراد البشر » — أو على الأكثر إلى مستوى « منظمة أو نظام اجتماعى مكون من أفراد » ولاأريد أن أقبل النظرية الأكثر إلى مستوى « منظمة أو نظام اجتماعى مكون من أفراد » ولاأريد أن أقبل النظرية الأكثر رواجا : نظرية الاجتماعيين لأنها لاتعطى أهمية للحقيقة الانسانية أو بتعبير هايدجر للوجود الحقيقى والذاتى للإنسان أى إلى الـ « أنا » بالمفهوم العرفانى والوجودى . فالمجتمع ليس تجمعا من أفراد مستقلين ، هو جسد مكون

بقطع عضو من جسد إنسان حى ثم يقوم بدراسته ، فكل قضية اجتماعية قابلة للبحث فحسب والدراسة فى قلب ذلك المجتمع ، وفى « حيثيتها » الاجتماعية .

وفى باحة الحمام بالرغم من أن الجميع عرايا وواضحون وبلا غطاء أو زينة ، لايمكن لأحد أن يعرف حقيقة أيهم ينبغى أن يراه ويفهمه خلف مكتب الإدارة أو فى حجرة الدرس أوفى المحراب أو فوق المنبر أو فى السوق ، ومن هنا ففى المجتمع يناط فهم كل شىء اجتماعى « بمصطلح دوركهيم » بفهم الأشياء التى صنعت هذا التركيب الكلى وذات علاقة متقابلة معه .

وكثير من القضايا الاجتماعية والدينية التى نطرحها اليوم نعجز عن إدراك مفهومها الواقعى لأننا ننتزعها من جسدها الحى أى بيئتها الاجتماعية وجوها الزمانى وضمير المرحلة التى ظهرت فيها وروحها ، وكلها جزء لاينفصل منها ، وننظر إليها فى صورة « موضوع مستقل ومجرد وعلمى » كيف يمكن فهم الحجاب أو تعدد الزوجات أو الإحساس بهذا المعنى إلا اذا وضعناهما فى قلب المجتمع والزمان والروح المسيطرة للمرحلة والظروف التاريخية التى ظهرتا فيها وتشكلتا وكانتا تفهمان ؟ حتى الأمور البسيطة من قبيل الموضة والتزين والشكل فى الملابس ، بما أنها ظواهر اجتماعية فهى ذات معنى فى موضعها الاجتماعى

من خلايا يأخذ منها الدم والشكل والحياة ، مع وجود فرق وهو أن الخلايا فى هذا الجسد الاجتماعى ذات وعى وإرادة ، ومن هذا المفهوم ، سوف يكون لمسئولية الفرد معنى ومنطق ، وإلا فان اعتبار الفرد ليس شيئا إلامايأخذه من المجتمع ثم اعتباره مسئولا أمام المجتمع تناقض فى القول واضح ومضحك ويشبه أن نعتبر الشجرة التى تتبع حتمية الطبيعة ولاتنمو ولاتثمر إلابمقتضى الطبيعة وعوامل جوها وتربتها مسئولة عن ثمرتها ، لأن الجبر والمسئولية متناقضان معا ، لأن المرء الذى يستطيع أن يختار بإرادته المستقلة والحرة على الرغم من كل الظروف مسئول ويقول مولانا جلال الدين الرومى بأسلوبه الخاص : عندما ترمى كلبا بحجر ، بالرغم من أن الكلب يرى أن الحجر هو الذى شج رأسه ، لايأبه به ، بل ينبح على الفور فى وجهك ، لأنه حتى الكلب يميز بأن العلة ليست مسئولة دائما عن النتيجة ولأن علاقة العلية غير علاقة المسئولية ، لقد ميز بين الحجر وبينك ، بأنك فقط المسئول عن هذا الفعل لأنك أنت فقط الذى تملك الحرية والاختيار :

وبالرغم من أن السهم يخرج من القوس‌فان أهل العقل يرون أنه منطلق من القواس

وفى رأيى أن الفرد والمجتمع وجودان بينهما دائما علاقة من العلية والمعلولية متقابلين ومعيار هذا التأثير الثنائى مرتبط بميزان القدرة والأثر الوجودى للفرد والمجتمع مثل علاقة الإنسان بالطبيعة .

فحسب ، وإلا مسخناها كلية وجردناها من محتواها الاجتماعى . فإطلاق اللحى على سبيل المثال إذا جردناها كظاهرة من جوها الاجتماعى ماذا يمكن أن يكون لها من معنى ؟ إطلاق االلحى هذا فى جونا الاجتماعى التقليدى يجد مفهوما دينيا ومقدسا ، وفى أمريكا اللاتينية يجد معنى ثوريا وفى أمريكا الشمالية وأوربا يعبر عن معنى فلسفى وتمرد وعصيان ، وإذا أعطينا هذه « القضية » الموضوعية بشكل مجرد وانتزاعى ، شئنا أو أبينا سوف نخرج باستدلالات بشأن لحى أتباع كاسترو فى أمريكا اللاتينية التى تحمل معانى سياسية وطبقية وأيديولوجية واتجاه معاد للامبريالية ومعاد لأمريكا وثورى ويسارى ومعاد لحرب فيتنام مثل التى سنخرج بها بشأن لحى القساوسة المعادين لكاسترو وسوف تنظر إليهما بنفس العين التى سننظربها إلى لحى الهيبى الكثيفة وهم ضدهما معا .

إن ماسوف يطرح فى الجدل المنطقى بين الصفين : المدافعين والمعارضين سوف يكون مسائل من هذا القبيل : إن اللحية علامة على رجولة الرجل ، وإطلاق اللحى عمل بمقتضى الطبيعة وناموس الخلقة لأنها لو كانت زائدة لما أنبتتها الطبيعة . واللحية عضو من أعضاء البدن وحلقها يشبه تماما أن يقص أحد أنفه بمقص بدليل أحمق أنه عضو قذر أو أنه لايتناسب مع وجهه ، والفرق بين الرجل والمرأة فى الظاهر هو فى الالتحاء أو عدمه ، وكل من يزيل لحيته عنده ميول نسائية ومن الناحية الفسيولوجية تكون هورمونات الأنوثة أقوى عنده من هورمونات الذكورة ، إن اللحية فيها عظمة وجميلة وتضفى وقارا ، واطلاق اللحى يعطى إمكانيات متعددة للزينة والتزين والتفنن ... وعلى العكس يأتى المعارض بأدلة من هذا النوع فى دحض اللحية ، وسوف يقدمون الانتقادات إلى أتباع كاسترو ويحمى وطيس المعركة . هذه الأبحاث أية مساعدة سوف تقدمها فى معرفة اللحى والملتحين فى العصور المختلفة والبيئات المختلفة ؟ ينبغى الاهتمام بجغرافية اللحية حتى نفهم معناها ، إذ أننا لو أخرجنا اللحية من ظروفها المكانية والزمانية أى من جغرافيتها التاريخية ، فلن يبقى فى أيدينا إلا قبضة من الشعر .

أقصد بجغرافية الكلمة أنه يمكن معرفة صحة قضية فلسفية أو علمية أو أدبيه أو بطلانها بمعايير المنطق والاستدلال والتجربة . لكن بالنسبة للقضية الاجتماعية ينبغى أن تكون لدينا معلومات عن زمانها ومكانها ، ثم نقرر فى شأنها ، لأنه فى العلوم تكون القضايا إما صحيحة أو غير صحيحة ، لكن فى المجتمع والسياسة ليس الأمر بهذه البساطة ، لأن كل القضايا الاجتماعية ذات ارتباط وثيق ورابطة علية متقابلة وتأثر مقترنان لايتجنبان ، وكل هذه المعايير الخارجية والقضايا الالتزامية ينبغى أن تتدخل مباشرة فى الحكم عليها ، لأنه أحيانا تكون قضية ماصحيحة فى حد ذاتها ومنطقية ومعقولة وذات قيمة ، ويكون طرحها فى أرضية معينة وفى زمان معين مرضا وانحرافا وتصير فسادا وكارثة ، وعلى العكس تكون قضية ماخرافة فى حد ذاتها ولامنطق لها وغير صحيحة من وجهة نظر الواقع الفلسفى والعلمى أو الفنى والأدبى بل وتكون قبيحة ومبتذلة ، قد تكون فى أرضية معينة وفى زمن معين عاملا إيجابيا بناء ، وتركيزى على هذا الموضوع أكثر بسبب أنه يمكن فهم كل القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية والتاريخية وماهو مطروح فى الشرق والغرب بالانتباه إلى هذا الموضوع ، ليس هذا فحسب بل وفهم الرسالة الاجتماعية للمفكرين الذين يطرحون قضايا فى مجتمعاتهم وينطلقون منها أو يواجهون القضايا التى تطرح ويطرحها غيرهم ، وعليهم أن يعرفونها جيدا يتخذون منها موقفا صحيحا ، فمن ناحية من الضرورى معرفة هذه النقطة لأن غفلتنا عما أسميه « جغرافية الكلمة » ، ترك ميدان المجتمع خاليا ودون عقبات أمام الاستعمار المحتال الخبير فى الغرب لكى يستطيع بطرح ماهو قابل للرد من الناحية الفلسفية والعلمية والأدبية والفنية أن يحول دون ماينبغى طرحه بالفعل . وفى هذه اللعبة وبسبب أننا فقط لم نكن واعين بالقضية القائلة لكل مقام مقال ولكل موضوع مقام .

إن النقد الذى أوجهه إلى كسروى قبل أن أدخل فى متون آرائه وأفكاره وآثاره موجه إلى الزمان الذى اختاره لطرح قضاياه فالناس فى الغالب يفتحون كتبه كما يفتحون كتبا علمية أو أدبية ، ثم يفكرون فى صحتها أو سقمها ، ولم يفكر أحد قط فى هذا الموضوع : أنه بعد سنوات طويلة حصلت الأمة على حق التفكير والكلام واتخاذ القرار بحرية ، فرصة ومصادفة عابرة ، قليلا جدا ماوقعت فى يدها عبر تاريخها الطويل ، وتعلم أنها سوف تفر من يدها

سريعا ، وفى مثل هذه الفرصة الاستثنائية التى وجدت بعد لأى ، يكون طرح القضايا التى يمكن طرحها فى أية فرصة من قبيل الخيانة .

يروى أنه فى إحدى جلسات مجلس شورى الأمة ، كانت الحكومة قد قدمت لائحة ما وعند التصويت عليها كان تعداد النواب المؤيدين والمعارضين لها متساويا . وكانت الجلسة فى انتظار دخول أحد النواب حتى تتحدد نتيجة التصويت ، كان مصير اللائحة رهن هذا الشخص رفضا أو قبولا ، ومرت لحظات فى الانتظار وكانت العيون مركزة على باب الدخول ، ولم يدخل أحد ، وكان المرحوم مدرس [1] زعيم المعارضة ، وفجأة وقعت عيناه على أحد الحاضرين فى الجلسة وضع رأسه فى جيب ثوبه وراح فى النوم ، كان أحد اولئك المتعصبين عن جهل من نفس نوع النواب الذين قال عنهم « عين الدولة » عند الاستجابة لمطالب الدستوريين بتشكيل « عدالتخانه » وانتخاب نواب من الأمة من أجل تشكيل مجلس نيابى إن البلاط موافق بشرط واحد وهو ألا يتدخل النواب أبدا فى أمور السياسة فى المملكة ، ومما لاجدال فيه أنه كان من مؤيدى الحكومة ، ولاشك أن رأيه كان الموافقة على اللائحة ، ولكن بالصدفة ونظرا لميوله الدينية ، كان يميل إلى سيد مدرس شخصيا ربما لأنه من السادات ولباسه الدينى ، وذهب مدرس الذكى على الفور وجلس بجواره وقال : ليس من المعلوم إلى متى يطول هذا الأمر ، وصلاة الظهر وجبت ، أليس من الأفضل أن نذهب إلى حمام المجلس فنتوضأ ونصلى ثم نعود ؟ وتركا الجلسة معا وتوضآ ، وبمجرد أن رفع ذلك الجاهل يده بادئا الصلاة ، خرج مدرس وأغلق عليه الباب من الخارج ، وبمنتهى السرعة وصل إلى الجلسة وأعطى صوته ، ورفضت لائحة الحكومة بفارق صوت واحد ، وبعد ان انتهى الأمر ، عاد مدرس وفتح الباب وقال بلهجته الأصفهانية الجميلة لسجينه الأبله : فى النهاية يا مؤمن ، هل كان وقت الصلاة ؟

---

(١) المترجم : سيد حسن مدرس من كبار المجاهدين فى التاريخ الإيرانى المعاصر والوحيد الذى وقف فى وجه رضا شاه . اغتيل فى منفاه على يد عمال رضا شاه فى ١٩٣٨ .

إن ماأقوله يتعلق بجغرافية كلمة ما ، فالصلاة عماد الدين ، وأعز العبادات ، وهى الحديث مع الله وثواب الصلاة فى وقتها معلوم ... لكن انظروا لو أننا فصلنا هذه الحقيقة المطلقة والمقدسة عن ظرفها الزمانى والمكانى ونظرنا إليها كقضية فلسفية وعلمية ودينية وعاملناها بمقتضى القيمة التى لها ، كيف سنحكم على الأمر ؟ لكن ليس مدرس هو الذى يتصرف على الدوام ، أكثر علمائنا ومفكرينا القدامى والجدد كانوا ذلك النائب المتعصب الجاهل عابد الحقيقة .

فالقومية حركة تحررية وتقدمية ، وكما رأينا صارت هذه المدرسة الفكرية في العصور الوسطى سببا في الاستقلال القومي ومنح الشخصية الثقافية والتاريخية والأصالة المعنوية والسياسية والاقتصادية لشعوب متعددة ، وكان الأبطال والقادة القوميون دائما وفى كل مكان من أكثر الشخصيات البشرية قدسية ، ولايزالون هكذا ، وهناك مئات الأدلة المنطقية والعلمية والاجتماعية والتاريخية فى إثبات صحة هذا المعتقد ، وكانت القومية دائما حركة مضادة للامبريالية وللاعتداء وأعظم مدافع عن حياة الأمم وعزتها ، لكن بمجرد أن قامت هذه المدرسة التى تهب الحياة فى القرن العشرين فى المجتمع الإسلامى ، تمزقت الامبراطورية العثمانية - التى كانت كقوة مهاجمة إسلامية عالمية قد أمسكت بزمام أوربا الشرقية وتقدمت نحو الغرب ووضعت أوربا كلها فى ورطة شديدة - إربا ، ثم صارت كل قطعة منها مثل حلوى الملبن سهلة المساغ بين براثن الاستعمار وتحت أسنانه .

وبأى حماس وشوق كان العرب الأشقياء ينظرون إلى لعاب لورنس الإنجليزى وفمه ، ذلك الذى كان قد جلب لهم القومية كهدية من انجلترا ، وعلى الفور انتشرت الفلسفات والأشعار والأناشيد والأبحاث الاجتماعية والتاريخية وكلها صحيحة وكلها على حق فى تمجيد القومية فى أنحاء العالم الإسلامى الموحد ، وذلك دون أن يفكر مفكرونا وأحرارنا فى جغرافية الكلمة ويسألون : لماذا شاعت هذه الكلمة فى هذا الوقت ولماذا أشاعت فى هذه المنطقة دفعة واحدة ؟ وكيف حدث فجأة وفى وقت واحد أن فتح اللبنانيون والمصريون والعراقيون والترك والهنود والبربر وكل الأمم الإسلامية عيونهم على أصولهم العرقية ؟ من خلف الجبهة ودفعة واحدة ، ومن قلب الجيش المهاجم انطلقت كل الحلوق بألبان قبطية والبان لبنانية وألبان بربرية وألبان عربية والبان

تركية ؟ ولم يمر وقت طويل حتى رأينا العالم الاسلامى قد تمزق إلى عدد من « البانات » وكل بان تحولت إلى لقمة سائغة فى فم الاستعمار الغربى ،

وبقيت تركية وحدها مثل أسد بلا لبدة ولاذيل ولابطن ، وفى مقابل هذه الهزيمة فى كل الجبهات والطرد من كل أراضى شرق أوربا ، وتمزق كل أعضائها ، وفصلها عن كل تاريخها وثقافتها ودينها ، وتدهورها من قوة عالمية عظيمة إلى مرتبة كاريكاتير فكاهى لزرافة [1] ، وكل ماحصلت عليه هو النعرة القومية وعطلة يوم الأحد بدلا من يوم الجمعة ، وأبا مفروضا اسمه مصطفى كمال ، لم يكن تركيا فى الأصل .

فالدين وتقديس العلم والديموقراطية والليبرالية كلها حقائق عظيمة وعوامل مقدسة للتقدم المادى والمعنوى للبشرية ، وفى نفس الوقت إذا نظرنا جيدا سوف نرى كم من الجراح القاتلة التى أصيبت بها آسيا وافريقيا من نفس هذه الكلمات ، كلمات فى تلك الجغرافيا لها حساب يحسب ، وفى هذه الجغرافيا مجرد كلام فارغ ، وليتها كانت كلاما فارغا فحسب ، كم من المغارم الثقيلة دفعناها من أجل هذه الكلمات .... خرافة وهباء .

عندما يريد وصى خائن لقاصر أن ينقل أملاكه إليه خفية ، يتوسل لخداعه دائما بشعار مثير ، بقانون راق أو حقيقة مقدسة ، وبحسب مايستدعى وضعه الروحى وذوقه يحثه على الرياضة أو اللهو أو مواصلة التعليم أو زيارة الأماكن المقدسة والعبادة والأعمال والتلقينات الدينية الأخرى ، أو الدراسة والبحث والأعمال الأدبية والفنية ، أية واحدة من هذه الكلمات التى طرحها ليست حقيقية مطلقة بشكل مجرد ؟ أيها ليس قابلا للدفاع لاشك إن الاعتراض على أى منها يدل على جهل وبدائية بل وبلاهة ، وماهو مسلم به أن حقانية هذه الكلمات تخدع حتى الضحية نفسها ، فهو نفسه يقوم بمواصلتها بحماس وشوق وجدية ونشاط بل بتظاهر ومباهاة وإيمان وعشق كأنها رسالة إنسانية عظمى ، بل ويضحى من أجل القيام بها .

---

(١) المترجم : الزرافة بالفارسية : شتركاو بلنك أى جمل بقرة نمر فالجمل لعنقها والبقرة لجرمها والنمر لجلدها .

حينما كان المسلمون يعتقدون أن الأجانب نحس وأن المسيحيين كفرة وأنه لاينبغى الاتصال بالكفرة ولايصح أكل طعامهم ولايمكن عقد صداقة معهم، ولاينبغى أن نحب اليهود والنصارى، وحتى فى عهد الشاه طهماسب[1] عندما سمح لعدد من التجار الإنجليز المشكوك فيهم بالمثول بين يديه بعد قيود وشروط كثيرة بالنسبة للبس الأحذية ومكان الجلوس وطريقة الاستقبال، يأمر الشاه بأن يقتلعوا مواطىء أقدام هؤلاء «الأنجاس» من القاعة وعلى طول الممرات والدرجات والأفنية وحتى باب الخروج، ويلقوا بترابها بعيدا، ويرمموها من جديد.

ماالذى ينبغى عمله؟ ينبغى أن يستقر الاستعمار فى قلب هذه الأمة وماهو طريقه؟ الأخوة الإنسانية، مكافحة الخرافات

لقد كرهت دائما حقد المسيحيين المتعصب الوحشى على اليهود، بتهمة احتمال اشتراك عدد من اليهود فى قتل المسيح، يعتبر جنس كامل قاتلا للمسيح، وتعرض كل الأجيال طوال التاريخ للتعذيب والأذى غير الإنسانى، ثم الانشغال على مدى ألفى عام بالمذابح الوحشية ضد اليهود، وزرع الحقد ضد اليهود فى قلوب الأطفال المسيحيين على أساس هذا الاتهام، وتشكيل الحركات اللاإنسانية المضادة للسامية، هذه الفكرة البلهاء الوحشية كأن نعتبر نحن الإيرانيين الحقد العرقى على العرب جزءا من إيماننا الدينى وعقيدتنا الشيعية لأن ابن ملجم أو شمر بن ذى الجوشن كانا من العرب[2]. كنت مثل كل المفكرين والإنسانيين أتمنى أن يحكم الكنيسة أحد البابوات المستنيرين ويمحو هذه الوصمة القذرة الخرافية عن ذيل الديانة المسيحية والشرية المتمدينة ويبرىء جنسا من عواقب اتهام اتهم به أفراد منه منذ حوالى ألفى عام. وتحقق هذا الأمل. فالبابا المستنير عقد جلسة رسمية من كرادلة العالم فى روما، وأشترك أعظم أقطاب الدين المسيحى من المذاهب المسيحية الأخرى لأول مرة، ولم يعتبر العرق اليهودى متهما فى قتل المسيح بذنب اشتراك عدد من اليهود فيه، ليس هذا فحسب، بل أعلن رسميا أن هذا النفر لم يشترك أصلا فى قتله،

---

(١) المترجم: من ملوك الصفوية ٩٣٠ - ٩٨٤ ه.ق.

(٢) من الممكن أن يقال أن هذا القياس خطأ لأن عليا والحسن كانا من العرب، لا، هو صحيح لأن عيسى المسيح نفسه كان من اليهود.

قرار ثورى وإنسانى ، مجلس المسيحية بحث فى ملف قضية قتل عيسى الذى قدم منذ ألفى عام ، وبرأ الجنس اليهودى ، لكنى حين أسمع كلمة الحق هذه من فم البابا بيوس الثانى عشر سنة ١٩٦٠ [١] فى إطار جغرافية : فلسطين – إسرائيل – الصهيونية – العرب – الاستعمار ، والإسلام والمسيحية واليهود وبيت المقدس وقناة السويس وعبد الناصر وبن جوريون وأمريكا والفاتيكان وتل أبيب والشرق والغرب والرأسمالية والاشتراكية والعالم الثالث والثورات التحررية المضادة للاستعمار لأستطيع أن أخلص خناق فكرى من مخالب هذا السؤال : هل مؤتمر الفاتيكان و فتوى البابا بتبرئة اليهود بلا ارتباط بما يجرى الآن فى فلسطين وبالعلاقة الخاصة بين الغرب وإسرائيل وبالتالى بين المسيحية واليهودية فى مواجهة الإسلام وفلسطين ؟

ومن هنا فهناك قاعدة : أنه خلافا للفلسفة والعلوم ، لاينبغى فى المجتمع والسياسة أن نخدع بحقانية فكرة ما ، بل يجب أن نزنها بالظرف الاجتماعى ، نفس ماعبر عنه حضرة الأمير « الإمام على بن أبى طالب » الذى كان هو نفسه ضحية لهذه الحقائق المغرضة [٢] فى هذه العبارة البسيطة جدا والكاملة فى نفس الوقت : « كلمة حق يراد بها باطل » ، فشعار الخوارج شعار تقدمى جدا ومطلق : « عدم التفاهم مع معاوية ، الحكم لله لا للبشر ولا لأسر معينة ولا لأجناس معينة » وشعار معاوية كان هو الآخر شعارا محترما جدا : « الاعتراض على قتل الإخوة بعضهم البعض ووحدة المسلمين فى ظل القرآن » ، كان منطق المعترضين على خلافة على منطقا ديموقراطيا مائة فى المائة وإنسانيا وتحرريا ومضادا لاحتكار السلطة والأرستقراطية القبلية والتفرقة العنصرية والعائلية وفحواه : إن الرسول صلى الله عليه وآله من بنى هاشم وإذا صار على وهو من بنى هاشم خليفة له فسوف يبقى الحكم حكرا على أسرة واحدة ، وسوف

---

(١) الناشر : المقصود على مايدو هو البابا يوحنا الثالث والعشرين لأن تاريخ وفاة البابا بيوس هو ١٩٥٨ ، والجلستان الرسميتان للمجمع كانتا فى عهد يوحنا الثالث والعشرين الذى ظل بابا حتى ١٩٦٣ وبول السادس .

(٢) المترجم : من قبيل الحقائق المغرضة مهاجمة الثورة الإيرانية بأسلحة سماحة الإسلام والعفو عند المقدرة وعدم جواز مطاردة رجل مريض وهلم جرا مما يروج له الاستعمار الجديد حيث تنتزع كل الحقائق من بنيتها الاجتماعية وظروفها الزمنية وتطرح لتشويه الثورة الإسلامية .

يظل بنو هاشم أسرة حاكمة على الدوام ويحرم الناس إلى الأبد من القيادة ، وإذا كان خليفة رسول الله من غير بنى هاشم ، سوف يكون الحكم للناس كما يقول الإسلام لا للعائلات ، وسوف يحل فضل التقوى والعلم كمعايير للقيادة بدلا من فضل التراب والدم ... وهل مبدأ البيعة والشورى فى انتخاب القائد أكثر تقدمية وإنسانية وإسلامية أم مبدأ النسب والتعيين والوصية ؟ [١]

أى مفكر مستنير يشك أدنى شك فى صحة هذا الاستدلال والقيمة المطلقة لهذا الفكر حين يتناوله مجردا عن ظروفه التاريخية والاجتماعية والسياسية ؟ لكننا رأينا أن هذا المبدأ المنطقى التقدمى الإنسانى الشعبى طبق من هنا ، ثم صعدت فوقه الجاهلية والسلطة الوراثية و النظام الفاشى العرقى وغصب الحقوق من الناس والقضاء على الروحانيات ونهب كل الثروات المادية والفكرية ومسخ الروح الشعبية والثورية وتغيير مسار الاتجاه التقدمى التحررى للإسلام الأول ، وكان أول ما داسته هذه الأمور تحت أقدامها هو نفس هذا المبدأ المنطقى والتقدمى والإنسانى والشعبى ، أى أن كلمة الحق عندما تطرح فى جغرافية باطلة تقتل نفسها .

وكان أصل القضية أن قريشا لسابق خصومتها للإسلام كانت تفتقد فرصة الوصول إلى الحكم بعد وفاة الرسول ، ولو كان على قد أمسك بزمام القيادة ، لكانت المسيرة الإسلامية السياسية والاجتماعية قد توجهت وجهة أخرى فى المجتمع الذى كان هو قد صنعه والنظام السياسى الذى كان هو قد أقره ، ولبلغت الجماهير وعيها ونضجها بحيث يقضى تماما وإلى الأبد على أرضية إحياء الأرستقراطية القومية والاستبداد والخلافة الوراثية أو باصطلاح المسلمين أنفسهم « الكسروية والقيصرية » فى قلب المجتمع ، وبعد هذه الفترة من القيادة الملتزمة الثورية ، كان الناس سيحصلون على جدارة الوصول إلى الحكم وامكانية الوصول إليه وتأسيس الحكم الديموقراطى المبنى على البيعة والشورى أى « أصوات الأفراد » ومن هنا فأول إعداد للأرضية من أجل حكم بنى أمية

---

(١) من بين الاختلافات بين القضايا التى تطرح فى ميادين الفلسفة والعلم وتلك التى تطرح فى ميادين القضايا الاجتماعية هى أنه : « فى العلم ينبغى النظر إلى القول لا إلى القائل فى حين أنه فى السياسة ينبغى النظر أولا إلى القائل ثم إلى القول . »

وتجديد النظام الإيرانى الرومانى فى الإسلام ، أى إحياء الحكم الفردى الوراثى كان تنحية على ، كيف ؟ بشعار الديموقراطية ومعارضة الحكومة الوراثية والعائلية .

ويدل واقع التاريخ عى أن مبدأ « البيعة والشورى » فى الإسلام صار سببا فى القضاء على مبدأ البيعة والشورى فى تاريخ الإسلام وإلى الأبد ، وأن النضال ضد الحكومة العائلية « فى ذلك الوقت وفى تلك الأوضاع والأحوال والظروف الخاصة فى المجتمع الإسلامى » قد هيأ الأرضية لإحياء الحكومة العائلية ، لأنه – وكما قلت فى محاضرات « الأمة والإمامة فى علم الاجتماع » فى مؤسسة الإرشاد ومحاضرة البيعة فى نقابة المهندسين – : إن بحث التطورات السياسية والثورات التى حدثت فى نصف القرن الأخير فى العالم الثالث والتى أخذ فيها القادة التقدميون والعصريون للأمم المتأخرة وبعد طرد الاستعمار الخارجى والاستبداد الداخلى بنظام الحكومة الديموقراطية الغربية [1] كنظام للحكم عندهم تقليدا للرؤية التى سادت بعد الثورة الفرنسية الكبرى ، يثبت هذه الحقيقة القائلة إنه فى مجتمع متأخر تسيطر عليه تقاليد رجعية ونظام اقتصادى منحط وعلاقات اجتماعية جاهلة وغير إنسانية وتسيطر فيه قوى على آراء الناس ، بينما الجماهير فاقدة للنضج الاجتماعى والوعى القومى والطبقى والسياسى ، يكون شعار الديموقراطية أو حكم أصوات كل الناس خدعة يستطيع أعداء الشعب فى حماها أن ينحرفوا بمسيرة حركة الشعب ، ويذهبوا أدراج الرياح بكل الثمار الثورية التى حصلوا عليها فى نضال الأمة ضد الاستعمار والاستبداد .

(١) المترجم : وليتهم أخذوا به نصا وروحا وظاهرا وباطنا ، لكن الواقع المر أنهم قدموا ـ صورة مشوهة لها فحسب فلا توجد دولة من دول العالم الثالث ليس فيها دستور مفصل على قامة الحاكم ومجلس شعب منتخب بالطرق إياها عبارة عن ألعوبة لايملك إلا الموافقة وبعد توقيع الحاكم ، ويحل برغبة الحاكم وينعقد برغبة الحاكم ويرقص فى كوارث الأمة ويغضى عن مصائبها ويشترك فى إحكام العقدة حول عنقها ويشارك فى الإثم مشاركة فعالة ، ولاأذكر الأسماء فالنموذج فاضح ومكرر ... ثم تأتى لعبة الاستفتاء المأخوذة من النظام الغربى أيضا والتى تكون نتيجتها معروفة سلفا وإلا فهل يمكن أن يوافق شعب موافقة إجماعية على عبوديته وعلى التنازل عن حقه فى الإضراب وهو الذى تتمتع به الآلة ويتمتع به الحيوان ، ومن ثم فإن الكلمات العظيمة التى تكونت لها مدلولات محددة عبر التاريخ أصبحت الآن وعلى يد الزعماء فى العالم الثالث خالية من أى محتوى وفى حاجة إلى إعادة صياغة ... والحديث ذو شجون .. وحدث ولاتسل .

لاينبغى أن تخدعنا الكلمات والألفاظ : الحرية ، الشعب ، حكم الجماهير ، أصوات كل أفراد الأمة ، الانتخاب الديموقراطى وكلمات من هذا القبيل ، وكما قلت ينبغى فقط وفقط أن تعطى معانى فى ظرفها الزمانى والمكانى لأنها تأخذ معانى فى هذه الظروف ، وهذه الكلمات بشكل مطلق ومجرد لايمكن أن تعطى أى معنى ، وهذه الكلمات تأخذ الشكل والإحساس والاتجاه فى المجتمع وفى الظروف العينيه والواقعية للمجتمع ،وهى فى كل جغرافيا سياسية واجتماعية ذات معانى خاصة وتأثير خاص . إنها غير مفاهيم من قبيل : كروية الأرض ومركزية الشمس والدورة الدموية وهذا القبيل من المصطلحات العلمية التى هى فى كل مكان وفى كل وقت ذات معانٍ ثابتة ومحددة . بالنسبة لواحد من جراحى القلب يكفى أن يتعلم الأصول الثابتة لزراعة القلب ثم يقوم بإجراء العملية سواء بين السود فى جنوب أفريقيا أو البيض فى أوربا الشمالية أو فى مجتمع دينى شرقى أو فى مجتمع صناعى علمانى غربى ، سواء فى العصور الوسطى أو فى سنة ٣٠٠٠ ، وبها يصل إلى هدفه المحدد المسلم به ، لكن ليس لأحد الإيرانيين الحق بعد أن يكون قد تعلم الاجتماع فى أوربا أن يفعل كزميله الذى تعلم الجيلوجيا ، ويقوم بعد عودته إلى إيران بتطبيق ماتعلمه هناك هنا ، دون انتباه إلى الوضع الخاص لمجتمعه . لماذا اذن يوثق فى صحة أعمال الأطباء والمتخصصين فى العلوم الطبيعية أو التقنية فى إيران وفى دقتها لكن أعمال كثير من علماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء التربية عندنا والذين نالوا الدكتوراة من أعظم المراكز العلمية فى أمريكا وأوروبا يأتى معلم فى مدرسة المعلمين المتوسطة فى القرية واسمه صمد بهرنگى [1] ويسخر منها تماما سخرية دقيقة وصحيحة وفى محلها ؟ الجواب : لأنه كما يقول البروفسير جوروفيتش : « لايوجد مجتمع بل توجد مجتمعات » ومن هنا فإن مايثمر نتائج عظيمة جدا وراقية فى مجتمع ما ، لايحمل فى ثناياه بالنسبة لمجتمع آخر إلا الخراب والضعف ، وتكون نتيجته شؤما وضررا على هذا المجتمع .

---

(١) كاتب أطفال وباحث إيرانى معاصر توفى غرقا وهو سباح ماهر سنة ١٩٦٨ . المترجم .

لماذا لم يقف واحد من مفكرينا أمام هذا الموضوع الحساس جدا متأملا مرتابا وهو أنه في سنوات ماقبل الحركة الدستورية كيف صار الاستعمار الإنجليزى القذر اللاإنسانى معارضا للاستبداد ومؤيدا لحكومة القانون وأصوات الناس وانتخاب نواب الأمة بحرية أليست الدعوة إلى الإسلام والدعوة إلى الروحانيات حقيقة مسلما بها وسامية ؟ لكن إذا كان المفكر الإسلامى يعيش فى ماليزيا فإن مسئوليته الإسلامية تحتم عليه تحريم الدعوة الدينية بدلا من أن يقوم بتعظيم الشعائر الدينية ؟ لاتصيحوا فى وجهى بصيحة « واإسلاماه » على هو الذى يأمر بأن تسلوا سيوفكم على هذه المصاحف .

وقد انتبه رينيه لابوم وهو أحد مخططى الاستعمار الفرنسى العلماء بعد دراسة المجتمع الجزائرى وعلم الاجتماع الجزائرى إلى أن الجزائر تنقسم إلى عنصرين عرقيين ، لكن الإيمان والثقافة الإسلامية وتاريخهما وحضارتهما القويين قد وحدا بين هذين العنصرين بحيث أن الجزائر نفسها لاتحس بأنها مكونة من عرقين ، وحيثما وصل الإسلام محا الحدود العرقية والخصائص القومية والخاصة بالدم والتراب . هذا الاستعمار المجهز بعلم التاريخ وعلم الاجتماع والقومية والديموقراطية والفلسفة والعلم والفكر المستنير والحضارة ... وكل هذه الشعارات التى تصنع « مفكرا حمارا » وهذه الكلمات الساحرة والأوراد الساحرة الخاصة بالاستحمار الغربى اكتشف أن الجزائر مكونة من عرقين : العرب والبربر . وبعد دراسات عميقة ودقيقة لعلم الاجتماع وعلم النفس العرقى والتاريخى والاجتماعى وثقافة البربر والعرب فى شمال أفريقيا وثقافتهم ورؤيتهم وسلوكهم الاجتماعى ، وصل رينيه لابوم إلى النتيجة القائلة بأن البربر يغلب عليهم الجانب القومى أما العرب فيغلب عليهم الجانب الدينى ، وعلى أساس هذه الأبحاث العلمية قدم برنامجا من أجل صنع مجتمع « حسب الطلب ومتقبل للأجنبى » للمؤسسات الاستعمارية الفرنسية فحواه أنه « ينبغى نشر القومية بين البربر »

وقد واجه الاستعماريون فى آسيا وافريقيا التقاليد القومية القوية ، وواجهوا فى المجتمعات الإسلامية الإيمان الشديد والوعى الذاتى الدينى ، وهذان العاملان كانا يقاومان النفوذ الأجنبى وفرض شكل الاستعمار ومحتواه وهو عبارة عن : تغيير الأسس الاجتماعية والثقافية والأخلاقية لأمة ما من أجل تبديلها إلى سوق

وتحويل سكانها من شخصيات مستقلة إنسانية الى مخلوقات خالية ومقلدة ومستهلكة ومستسلمة ، وأدخل الاستعمار فجأة كل ثقافته المضادة للكنيسة إلى المجتمعات الإسلامية ، والآداب والفلسفات التى قضت هناك على الإقطاع والأرستقراطية المتعفنة والنمطية والكنيسة الرهيبة المستبدة الكاثوليكية واستبداد البلاط والخرافات والأوهام وحركت أوربا وغلبت عصر التنوير على ظلمة العصور الوسطى ، ووضعت المجتمع الغربى فى طريق التقدم والقدرة وأوصلته إلى ماوصل إليه اليوم ، وبدأ مفكرونا الذين كانوا مفتونين بها حركة النضال ضد الدين والقديم والتاريخ والتقاليد والعادات والطقوس وأشكال الحياة والاستهلاك وهم يظنون أنهم يقومون بأدوار فولتير وديدرو فى المجتمعات الإسلامية ، ورأينا أن نتيجة نضالهم هى تماما ماكان الاستعمار ينتظره ، ورأينا أنه بدلا من أن تحدث الثورة الفرنسية الكبرى والتقدم العلمى والنضج الاقتصادى ..... أن مجتمعنا الذى كان على كل حال ذا شخصية وكان واقفا على قدميه وكان يفكر بنفسه ويصنع بنفسه ويختار بنفسه وكان هو بنفسه ، صار جسدا مكونا من عناصر متنافرة مثل التعبير عن معنى الزرافة فى لغتنا : « شتركاو بلنك أى جمل بقرة نمر » . ومن هنا يقول المصلح الكبير الشيخ محمد عبده : « لقد تخلصت أوربا من الدين وتقدمت ، فتخلصنا نحن منه وتأخرنا » .

ومن النتائج المنحرفة القبيحة للرؤية المطلقة التفكير هو أنه عندما نذكر الدين يتبادر إلى الذهن مفهوم كلى ومجرد بالنسبة له ، وشبيه بهذا أيضا عندما نقول الإلحاد ، فى حين أن الأمر فى رأيى : كما يقول جورروفيتش « لايوجد مجتمع بل توجد مجتمعات » أقول أنا : « لايوجد دين ولايوجد إلحاد بل توجد أديان ويوجد ملحدون » وإذا كان هناك مفكرون أوربيون كثار اليوم لايعتقدون فى الدين ، ليس هذا دليلا بالمرة على أن كل من يكون علمانيا يكون من المفكرين التقدميين . وفى سير النوابغ العظام فى العالم نقرأ أنهم لم يكونوا من الطلاب النوابغ فى المدرسة قط ، لكن عكس هذه القضية ليس صحيحا بحيث نقول : إن كل تلميذ غبى وبليد يمكن أن يعد من نوابغ المستقبل .

إن المفاهيم الاجتماعية كلها نسبية ذات معنى خاص فى كل جو اجتماعى وزمانى خاص - إن المرأة الأوربية تحررت بعد بضعة أجيال من النضج الاجتماعي والثقافي وحريتها نتيجة لتضحيات ونضالات مستمرة وعميقة فلسفية وفكرية واجتماعية وقانونية كثيرة ، لقد حصلت على حريتها عن طريق الوعى والثقافة ، وبلا شك لا يوجد أى مجال للشبه بينها وبين امرأة منحها « مقص الخياط » حريتها . والثقافة العلمانية والرؤية العلمية المضادة للكنيسة فى أوربا ذات ماض يبلغ ثلاثة أو أربعة قرون من التنوير ومليئة بالجهاد الفكرى والعلمى ، هى وليدة النهضة ومن تربية جاليليو وكوبرنيكس ، والمفكر العلمانى الأوربى إذا وقف أمام نمط دينى له الحق فى أن ينظر إليه كما ينظر طرف أعلى إلى طرف أسفل ويحس بأنه متقدم عليه بعدة قرون اللهم إلا إذا كان قبل كل شىء مفكرا أصيلا ومن الناحية الفكرية متواضعا ودءوباً ، لكن فى مجتمعنا ، ينظر فلان الصبى الذى صار مفكرا علمانيا فجأة نتيجة لـ « صدمة الإبريق »[1] ينظر إلى أنا الذى أدرس له هو نفسه الفلسفة الحديثة والحضارة الأوربية والمدارس الاجتماعية والحركات الفكرية المعاصرة ولايتعلم ، وكأنه ديدر وأمام قسيس قديم فى كنيسة سان سولبيس .

وكيف وصل مفكرونا إلى الرؤية « غير الدينية » ؟ إن « ميكانيكيتها » معلومة . فأبوه كان شيخا أو حاجا متعصبا من تجار السوق ، وأمه امرأة عامية موسوسة ذات طراحة ، ومن الصغر كان البرنامج على هذا المنوال : فى الصباح وقبل شروق الشمس كانت أمه تذهب إلى فراشه توقظه بالصراخ والصياح والعويل والأنين والبكاء (والردح) الخاص بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى هذا الأساس توقظه وهو غريق فى سكر نوم الصباح ليصلى الصبح ، وهو نفسه كان يستيقظ بما لاحد له من الإكراه والضيق والتأفف والقرف والإحساس بالشقاء ويذهب إلى الحمام ، وبينما هو جالس لقضاء حاجته ، يسمع وقع أقدام تأتى ببطء ، وعندما يقترب الظل يحس أن : نعم ، إنه « بابا » وبرنامج كل يوم وقد وضع أذنه بجوار الحمام ليسترق السمع ويرى هل يستخدم ابنه الإبريق ويتطهر طهارة صحيحة أو يتبول واقفا مثل الكلب

(١) الناشر : انظر « ما واقبال » لشريعتى . المترجم : الترجمة العربية لأمين عبد المجيد .

الأرمنى . وبعد أن يقوم الصبى بألف نوع من المشقة النفسية والاضطراب والحذر والخوف والرعب بعملية التطهر ينتقل إلى الحوض ليتوضأ ، وثانية يقوم « منكر ونكير » من خلف زجاج الحجرة بالاشراف بدقة على مسرح العمليات ، ثم يقف للصلاة وقلبه يرتعد من الفزع من كل حرف يخرج من مخرجه الشرعي متسائلا : ماذا ستكون النتيجة ؟ وهو يذكر ذكريات مرة عن مئات المرات التى ضرب فيها « علقة ساخنة » من أجل ولا الضالين ، ذكرى تجعل الرعدة تتمشى فى ظهره ، والويل كل الويل إن أخطأ فى أركان الصلاة ، وبعد الانتهاء من مشاكل التجويد والقراءة ينبغى أن يستخرج الحل الأصلى من جدول اللوغاريتمات المسمى بالشيكات ، وبعد الانتهاء من الصلاة ، تبدأ القرقرة والتقنقة والسب : ضرب الله رأسك بهذه الصلاة البتراء لارأس لها ولاذنب .... لادعاء ... ولاتلاوة سورة من القرآن .... ولاتعقيبات ، ثم عندما تنمو لحيته يتضاعف شقاؤه ، يصير من فوق ومن تحت (١)

واذا كان المقصود هنا بنتا ، فوامصيبتاه ، ضحكها داخل المنزل أمام أخيها أو بشاشتها وماذا أقول ؟ كونها أنثى وحتى كونها جميلة جرم ، مخالف للشرع ، ينبغى أن تخفى وجهها أمام السمكة الذكر فى الحوض ، والدرس والبحث غير قابل للتحمل ، لاينبغى أن يوضع الكلام عنه فى أفواه تلك العورات ، والخط أيضا بالنسبة للبنات حرام لأنه طريق الفساد والانحراف ، من الممكن أن تكتب خطابا لصبى ، إذن ماذا تفعل ؟ ينبغى أن تخفى الجورب الشفاف وحذاء الكعب العالى والباروكة والمرآة والريميل وأصبغ الروج و ... الخ داخل حقيبة وتخرج من المنزل بملاءة سوداء وجورب سميك وحذاء « شريف » وغطاء ثقيل للرأس ، وبمجرد أن تبتعد عن منطقة الرعب والدين ، تتنفس الصعداء ، ومع آلاف من أنواع الحرج والإشكال والخجل تقوم داخل

(١) المترجم : كان أحد زملائى يهاجم الدين هجوما ساخرا لاهوادة فيه وبالرغم من أنه كان متخصصا فى علم النفس إلا أنه لم يفهم أن هجومه هذا من نوع ردود الأفعال ، وذات ليلة كنت أجلس معه ومع إخوته وكلهم من المثقفين الذين يتخذون موقف الرفض والسخرية من الدين وتشعب الحديث عن ذكريات الطفولة ، واكتشفت أنهم جميعا يتذكرون بمرارة كيف كان أبوهم يرغمهم على الصلاة فى فجر الشتاء البارد والصوم فى أشد أنواع الحر .

تاكسى أو فى منعطف حارة أو دورة مياه بخلع شعارها ودثارها الدينيين وتتحول إلى امرأة عصرية ، ثم ، وبعد عدة ساعات تقوم بنفس هذه الطقوس من أجل دخول منطقة الدين العسكرية . ودفعة واحدة ينفد صبرها فتجازف وتتمرد ، نوع من تنفيس العقد ، تعويض عشرين عاما من الاختناق والاستبداد والكبت و ..... رد فعل .

نرى إذن أن الرؤية اللادينية هنا حالة نفسية وعقدة ورد فعل . لم يصبح صاحبنا مفكرا بلا إيمان دينى عن طريق الدراسة ومعرفة الفلسفة والعلم والثقافة الجديدة والمدارس الفكرية والاجتماعية التى ظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أو تحت تأثير الحركات التقدمية البورجوازية أو الميل إلى الواقعية والمنطق المادى والجدلية والمادية والإنسانية ، إن ضغط « الإبريق » و « الحجاب » جعله عصريا ومفكرا ومتحررا وجعلها هكذا . إن حرية المرأة تعنى هناك تحررها من القيود المنحطة الفكرية والروحية والقانونية والاجتماعية وتعنى حرية الاختيار وحرية التفكير وحرية الحياة وحرية الحب الحرية من كل الألوان والتقاليد التى كانت تذكارا من مرحلة العبودية والذلة ونقص العقل وكسر قدم المرأة . أما حرية المرأة هنا فتعنى تحررها من الملابس والزينة التقليدية واستعبادها فى سوق بيع السلع الاستعمارية الاستهلاكية ولاعلاقة لها فى الأصل بشعورها وثقافتها وروحها وقدرة إدراكها ورؤيتها الشخصية والكونية وثورتها الفكرية وتغيير استحقاقها وجدارتها .

ومظاهر تلك الحرية أن تكون المرأة مثل الرجل ، ليس فحسب تستطيع اتخاذ القرار مثل الرجل وتختار وتعلن رأيها ومشاعرها ، بل مثل الرجل تماما تقرر وتختار ويكون لديها رأى وإحساس فى مستوى الرجل (ليس من نوع ماللرجل كما يظن العصريون عندنا) وتبدى هذا فى عملها وسلوكها وفكرها ، لكن مظاهر هذه الحرية هنا هى أن تستطيع المرأة أن تلبس مثل نساء سان دينيس وبيجال ومولن روج ، هذا من الوجهة الشخصية أما من الوجهة الاجتماعية فهى أن تصير مسئولية عن محطة بنزين أو تلبس لباس الجندية . المرأة التى تقضى سنة كاملة تتحدث وتعمل بشأن جهازها بحماس وجلبة شديدين ، وتساوم فى مهرها ، وتصر على ارتفاع ثمن فستان زفافها والجواهر التى تهدى إليها ووسائل

مجلس العقد وفخامة حفل الزفاف ، لاتزال جارية بالمعنى الكامل للكلمة ، سواء من وجهة النظر الروحية ومن وجهة النظر الاجتماعية ، انها لاتزال ترى قيمة شخصيتها فى المبلغ الذى يدفع مهرا لها والنقود التى حددت من أجل ذهابها إلى منزل الرجل ، وهو نفس المبلغ الذى كان الرجل يدفعه عندما يشتريها ، لايزال للمرأة سعر ، وهذا السعر تماما مثل عصر عبودية المرأة وسوق الجوارى مرتبط بجمالها ونضجها وسنها ومهارتها ومستوى تربيتها وأسرتها وأصلها ، والعقد وقائمة الجهاز والاجراءات الرسمية لصيغة الصفقة والمجلس التحضيرى للخطبة من أجل تحديد القيمة والمهر والقيود والشروط الجدية القانونية الموجودة تحت العنوان الظاهرى : هدايا ... وكل شيء صورة هذبت وبررت من أجل الاتجار فى جارية .

يقول بعضهم إن هذه القيود والشروط من أجل أن الفتاة عندما تذهب إلى منزل الرجل تضع شيئا ماتحت تصرفه (الاستسلام لإرادته وتمكينه من قضاء شهوته وسدحاجاته الجنسية) وعند خروجها من منزلها تفقد شيئا (البكارة) وفى مقابل هذين ينبغى أن يقدم الرجل شيئا وهذا الشيء هو المال ثم المال . وإذا تركنا المصطلحات الأدبية ودقائق صنعة التبرير والتأويل تكون الحقيقة العارية هى شراء كل ماهو إنسانى ومتعلق بالمرأة إذ أن مايحدد للرجل فى مقابله هو العملة الرائجة فى السوق .

ومن هنا فإن المرأة نفسها تعترف كما يعتقد المجتمع بأن البكارة هى التى لها أعلى سعر فالأرملة والأيم سعرهما منخفض ، فهى بزواجها السابق فقدت شيئا ولاجرم أن ينخفض سعرها وهذا التخفيض فى السعر ينبغى أن يعوض بزيادة مؤخر الصداق دليل على أنها جارية ولاتزال نفسها جارية وتفكر كجارية ، ومثل هذه المرأة لاتصير حرة بمساعدة البودرة التى تخفى الغضون والريميل وظلال العيون وأحمر الشفاة . ليس لهذه الأشياء دخل بالحرية فقديما كانوا يزينون الجوارى غاليات الثمن زينة كاملة ، وبالمصادفة فإن هذه التمثيليات دليل على مركب النقص والتأخر وكون المرأة مخلوقا من الدرجة الثانية .

كانت مدموازيل ميشن وهى امرأة حادة الذكاء واسعة الأفق قد سافرت إلى الشرق الأوسط فى مهمة صحفية لجريدة « الأومانتيه » وعند عودتها سألتها : ماهو انطباعك من هذه الرحلة ؟ ومن ضمن المشاهدات الدقيقة التى شاهدتها خلال رحلتها القصيرة قصت لى : كنت أتمنى دائما أن أضع فى حجرتى سجادة إيرانية جميلة وظريفة ، لكننى عندما رأيت مشاغل نسج السجاد فى إيران فإن كل بدنى يرتعد لمجرد أن أتصور أننى أطأ بقدمى سجادة إيرانية هذه الورود الحمراء الفاقعة فى سجاجيدكم تأخذ حمرتها من وجوه الصبايا العاملات البريئة الشاحبة . إننى أرى الأصابع الظريفة النحيلة لهؤلاء الأطفال الحزانى الذابلات بين طيات كل عقدة ، ليس هذا التعبير الرومانسى من عندى ، هو نص الأغنية التى كن يتغنين بها أثناء العمل فى تلك المغارات ، ثم قرأت بالفرنسية نص الأغنية التى يترنم بها نساج السجاد فى إيران همسا ، وكانت قد سجلتها ، وخجلت أنا الإيرانى والذى نشأت فى مدينة السجاد وأدعى المعرفة بالجماهير لأننى سمعت هذه الزمزمة عدة مرات ولم أفكر أبدا فى رؤية ماذا يقولون ، وهذه المرأة الفرنسية التى لاتعلم الفارسية سجلتها كاملة خلال رحلة قامت بها لمدة ثلاثة أيام إلى إيران (وهذا هو معنى حرية المرأة وتقدمها مع محافظتها على رقتها وإحساسها الأنثوى وهو فى نظرنا دائما توأم للضعف والحمق والسخف والسطحية) ، ثم قالت : إن التجربة الأخرى التى كانت مهمة جدا بالنسبة لى إننى عندما جئت من أمريكا إلى أوربا رأيت النساء الأوربيات أكثر أناقة واتباعا للموضة من النساء الأمريكيات وعندما ذهبت من أوربا إلى طهران رأيت النساء الطهرانيات أكثر إفراطا فى موضة الملابس والتزين من الأوربيات وعندما ذهبت من طهران إلى شيراز رأيت الأقلية العصرية من نسوة الأقاليم أكثر تقدما من الطهرانيات . قلت : لو كنت قد استطعت أن تواصلى السفر وتذهبى إلى قريتنا « مزينان » لكنت قد دللتك على فتاة من قرية محمد آباد كان أبوها صانعا لعراقات الحمر وكانت قد ذهبت هى نفسها إلى طهران واشتغلت خادمة لعدة سنوات فى منزل أحد الأشراف المشهورين فى شمال المدينة وعادت إلى القرية لتنسم الأخبار ، وتستطيعين إن أردت أن تقيمى هناك وترى كم من التأفف والقرف أبدته عند رؤيتها لأحوال نساء القرية : آه آه ، اف اف ، لا زلتن تذهبن إلى الخلاء وتجمعن الحشائش بأيديكن وتضعن أيديكن فى روث البقر ؟ ماهذه

الملابس الكرباسية الغليظة التى تلبسنها ؟ ألا تدمى أبدانكن ؟ رأيت زوجة الحاج فلان وآغابيبى وهما تظنان نفسيهما من الناس المحترمين لازالتا تلبسان هذه الملاءة المنقطة وتضعان هذا السروال القصير فى ساقيهما ... أصابنى الغم ، لاتوجد اليوم امرأة فى طهران تلبس هذا النوع من السروال ، وإن لبسه أحد يفهمون أنه قروى يحتقرونه ولايسمحون له بمحل الحمار ، يقولون أن لاشخصية له جاء من وراء الجبل ... اليوم كل المسائل عن الرجل والمرأة وعن مشاكلكم أنتم أهل القرية قد حلت ...

مثلا عندما أسير فى الشارع وتقع عينى على رجل غريب ويعجبنى أذهب اليه وأقول له بصراحة : ياسيد بأى لون لونت عينيك .. انت « تيب » لطيف جدا . أويتقدم إليك رجل فى الشارع فجأة نحوك ويقول : سيدتى .... هل قال لك أحد أن قوامك فريد من نوعه فى هذه المدينة ؟ قلبى فداك ... أين منزلك ؟ ألا تسمعين الإذاعة ؟ ليست سيئة ، وتشكر السيدة ذلك الرجل كثيرا ... الأمور إياها عند القرويين فقط .. ألا تقرأن مجلة « زن روز » ؟ كتبوا فيها أن النساء اللائى يملن إلى السمنة قليلا عليهن اتخاذ خدين حتى تتحسن أجسادهن ... هذه أمورحلت ، ألم تقرأن شعر السيدة الذى نشر فى الصحف والذى تقول فيه بصراحة « خلقت امرأة لكن شهوتى شهوة رجل » ؟ انتن فى هذه القرية لاخبر لديكن عن الدنيا ... اذهبن جميعا واقرأن الدروس وتعلمن الكتابة والقراءة لتقرأن البورده و « زن روز » و « اطلاعات بانوان » ومجلة « السينما » ومجلة « روشنفكر » ومجلة « سياه وسبيد » وكتبا أخرى تعلمكن فن الحياة ، إن شاء الله إن جاء التلفزيون وإن جاء الراديو تصرن متعلمات ... تتحسن الأمور .. حينذاك سيذهب الكرباس والخرق واللباد والبقر والحمر والخيل والقطن والقمح والشعير والأكواخ المبنية من الطين والقش .. والقباء والشال والحناء ... الخ كلها سوف تذهب لحالها وبدلا منها سوف تأتى السترات والسراويل الأجنبية والجوارب الشفافة التى تظهر البدن من طراز ستارلايت واسطوانات الموسيقى والمسجل والراديو الترانزستور والشامبو وأحمر الشفاه .... ثم يقام هنا بنك .... وكل نقود تريدونها تأخذونها منه وتشترون ماتريدون من المحلات وتخرجون من هذا الشقاء ... ماهذه الحياة ؟ من طلوع الشمس إلى غروبها العمل فى الخلاء ، ثم الأكل فى بداية الليل ، ثم النوم

كالدجاج ، وعدم فهم أى شىء عن الدنيا وعن الحياة ... قلوبكم فقط سعيدة لأنه لايوجد فى قريتكم سرقة أو قمار أوسكر أو زهرى أو سيلان أو بيوت دعارة ... أو أن حدائقكم عامرة وحقولكم خضراء وأهراءكم مليئة بالغلال ومخازنكم مليئة بالسمن والكشك والصوف والقطن والكمون ... وأن ملابسكم تنسجها نساؤكم ويخطنها وخبزكم يأتى من المزرعة وفاكهتكم من الحديقة وطعامكم من بقركم وغنمكم وطيوركم ومطاياكم خيلكم وحمركم وجمالكم ... ولاتحتاجون إلى الخارج ... أهذا كلام ؟ ... اذهبوا وانظروا كيف يعيش الناس اليوم ماذا يأكلون وماذا يلبسون ، والمتع والملذات واللهو وأنواع الراحة ؟ إنكم تتخيلون أن الله قد منحكم نعمة الدنيا لأن لديكم بقرة حلوب ، لقد كتبوا فى مجلة «زن روز» أن النساء الأجنبيات يملأن البانيو «البانيو يعنى الحمام» باللبن ويرقدن فيه ويغسلن أبدانهم حتى تصير بشراتهن ناعمة .... انظروا إلى بشراتكن التى لونت بلون ملابسكن الكرباسية وإلى أيديكن التى صارت مليئة بالكنف (القشف) كركبة البعير ... إلى متى ستبقين هكذا ؟ .... وإذا كنت قد تحدثت عن هذه الفتاة التى تنتمى إلى قرية محمد آباد فهذا راجع إلى أنه لسنا فى حاجة بعد إلى تفسير النمط الفكرى والدور الاجتماعى لمفكرينا العصريين فى المجتمعات التقليدية والإسلامية . لأنهم النموذج الكامل لجماعة المفكرين والطليعيين المطالبين بالعصرية والأوربة : فريق ورد أسلوب إعداده فى العصور الحديثة على لسان جان بول سارتر[1] والقبيلة حديثة الظهور فى إيران جدها الأعلى ملكم خان[2] صاحب اللوتريه ، ومكان تربيتها

(١) المترجم : ورد قول سارتر بالتفصيل فى « المفكر ومسئوليته فى المجتمع » لشريعتى والترجمة لنفس المترجم .

(٢) المترجم : ميرزا ملكم خان كاتب ومفكر إيرانى معاصر ، كان أول من دعا إلى إدخال النظم الأوربية فى الدولة . كما أدخل تنظيم الجماعات الماسونية لأول مرة فى ايران ، قيل أنه ارتد عن الإسلام أكثر من مرة ، أصدر مجلة « قانون » التى كان ينادى من خلالها بتطبيق النظم الأوربية فى إيران ، اهتمت الحكومة الإيرانية فى أواخر عهد الشاه بنشر أعماله لضرب الحركة الإسلامية .

« مؤسسة تربية الأفكار »[1] ونضجها تماما فى بداية القرن الرابع عشر الهجرى الشمسى (أى حوالى سنة ١٣٠٠ هـ . ش .)[2]هؤلاء جعلونا نبتلع العصرية بدلا من الحضارة ، ولم يفهموا ولم يتركونا نفهم أن هذين مفهومين وليسا مفهوما واحدا ، وتاريخ هذين القرنين الأخيرين فى كل الدول الإسلامية بل فى أنحاء أسيا وأفريقيا دليل على أننا دفعنا الثمن غاليا لعدم الفهم هذا ، ويدل على ماأعطيناه فى سبيل مالم نحصل عليه .

مسئولية المفكر فى مجتمعنا :

ليست مصيبتنا الكبرى فى تحول العوام المستهلكين إلى متشبهين ، وليست حتى فى تحول متعلمينا وحملة الشهادات المتخصصين عندنا فى الأعمال حديثة الظهور إلى متشبهين ، المصيبة الكبرى هى تحول المفكرين المستنيرين ، أى المفكرين الذين فى أيديهم قيادة الأفكار وتوجيه الروح والثقافة والإيمان فى المجتمع ، أولئك الذين حلوا محل علمائنا الدينيين وأولئك الذين يعتبرون ظهراء الزعماء السياسيين والاجتماعيين والقوميين فى بلدنا . وكما يذهب متعلمونا إلى أوربا للدراسة ويعودون أطباء ومهندسين وجراحى تجميل وعلمـاء جيولوجيا ...... الخ ، فان مفكرينا أيضا يعودون اشتراكيين وفاشيين ووجوديين وماركسيين وراديكاليين ، و «ينهمكون» فى العمل فى المجتمع .

وينبغى أن نعلن صراحة أنه بصرف النظر عن النتائج المشئومة والتخريب والفرقة التى أثمرتها هذه الجماعة ، أنه اذا كان لعملهم قيمة ، هو أنهم بهذه الألقاب يجدون لأنفسهم اسما ورسما ووضعا بين الشباب ، ومما يثير الأسف أنهم بهذا يرضون أنفسـهم .

ذات يوم كنت أتحدث مع أحد ضحايا أولئك المروجين أشباه المفكرين ، أى واحد من هؤلاء الشباب الذين يقومون بدور مريدى متعصبى الدين الجهال

---

(١) المترجم : مؤسسة تربية الأفكار أنشأها رضا شاه لتوجيه العقل الجماعى للايرانيين لقبول التحديث .
(٢) المترجم : ١٢٩٩ هـ ش . الانقلاب العسكرى الذى جاء برضا شاه إلى السلطة .

القدماء لهؤلاء الشيوخ الجدد ، كان موضوع الحديث حول : إنه لاينبغى أن نتحدث عن مسئولية المفكر بل ينبغى أن نتحدث عن مسئولية المفكر فى مجتمعنا الحالى ، والتفرقة بين هذين المبدأين وأحدهما مجرد ومطلق ولابد أن يكون مبحثا كليا وفلسفيا وعلميا ، والثانى واقعى وجزئى وعينى وعملى . أخذت أقول على سبيل المثال : إننى واحد من نفس هولاء المتعليمن العائدين من اوربا ، فرع تخصصى أيضا فرع مناسب ويهتم به العصر جدا وبخاصة مفكروه . والأن وقد جئت إلى إيران وجدت نفسى فى مفترق طريقين ينبغى أن أختار أحدهما ، ليس موضوع الخدمة والخيانة مطروحا هنا ، هنا لايعانى المرء من التردد ، كل يذهب فى طريقه ، إن البحث حول المفكرين والضمائر الواعية الحرة . هذان الطريقان هما : إما أن أختار نفسى أوأختار قومى .

الطريق الأول : إننى كاتب ومترجم وعالم من علماء الاجتماع وعلى علم بالأحداث الفلسفية والأيدلوجية والمدارس الأدبية والفنية المعاصرة فى عالمنا ، كما أفهم أيضا نبض مجتمعى ، وقد ترجمت كتاب « الوجود والعدم » وهو من أعقد الأعمال العميقة والفلسفية البحتة لجان بول سارتر ، العمل الذى اعترف مترجمه إلى الأسبانية صراحة أنه لايمكن ترجمة معانيه ودقائقه الفكرية بدقة ونقلها بأمانة ووضوح إلى اللغة الأسبانية وهى قريبة جدا من اللغة الفرنسية ، ومن ترجماتى الأخرى « المنحنى الشخصى لحياة ما » بشأن الحلاج وهو من أعمال البروفسير ماسينيون أعظم المستشرقين فى قرننا الحالى ، وبضع ترجمات أخرى عن لوى برول ودوركهيم وهالبواكس ، ولو نشرتها لظفرت بسرعة تشبه سرعة بابا طاهر فى علم الاجتماع ، ولصرت أحد أقطاب هذا العلم ، ومفكرا .... ووجوديا ،

وهذه هى أسمى الألقاب التى تهدى فى عصرنا وأقيمها . لكن هذا السؤال جعلنى أتردد فى هذا الأمر : بأى شىء تهم هذه الأمور قومنا ومجتمعنا الفعلى ؟ إن هؤلاء الناس بآلامهم واحتياجاتهم ومبادئهم وأوضاعهم الاجتماعية والدينية والثقافية لايتناسبون قط مع هذه المتون،إن هذا يشبه أن أذهب الى قريتى « مزينان » وأجمع قومى من رجل وامرأة وخان وفلاح ومؤمن وفاسق فى

المسجد الجامع ، وكعالم عائد من أوربا أقارن أمامهم بين السيمفونية الخامسة لبيتهوفن والسيمفونية السادسة لتشايكوفسكي ، أو أتحدث عن مسرح العبث أو انتظار بيكيت أو تكعيبية بيكاسو أو الأسباب الثقافية والاجتماعية لحركة الهيبى ، أو أعطى الكلام حقه عن خطأ كثير من قرائنا وأنصاف مفكرى أوربا الذين يظنون أن البير كامو وجودى أيضا ، وأفسر أوجه التشابه والاختلاف بين أفكاره وأفكار سارتر وهايدجر ، والنتيجة : تضييع وقت الناس وتعطيلهم عن أعمالهم وحياتهم ، وفتنة فكرية وإفساد لكل شيء و « هرجلة » وخداع بعض الشباب ضعاف العقول المنتفخين بالهواء الذين يظنون أنهم فهموا شيئا من هذه الكلمات وأصبحوا على علم بأحدث القضايا الفكرية وأعمقها فى زماننا ، لكنى فى مقابل كل هذا أكون قد حصلت على شيء ... إنهم سوف يقولون : إن مواطننا هذا ثرثر كثيرا ، انظر أية كلمات ينطق بها ، نحن عوام ولانفهم شيئا لكن من الواضح أنه ليس من هؤلاء الشيوخ والمتعلمين العاديين .... خسارة مثل هذا الرجل بالنسبة لنا الذين لسنا جديرين به ... إن مكانه هو الخارج ، هناك يعرفون لهذا الصنف من الناس قدره ، انظر ... إنه يتحدث عن أناس لم نسمع حتى أسماءهم .

هذا استغلال سيء لجهل الناس ، حينئذ : ماذا يكون الفرق بين المفكر المستنير الديموقراطى والمتحرر التقدمى العصرى وبين ذلك المتكلم والصوفى القديم الذى كان يجمع عددا من الناس الكادحين المستبعدين الجياع فى المسجد أو الخانقاه ويتحدث اليهم عن منازل الآخرة وطبقات جهنم والمراحل السبعة للعشق والسلوك ومسائل الذات والصفات ووحدة الوجود وعالم الأمر والخلق ودقائق عميقة وفلسفية وذكية ، فيم ؟! فى لاشيء ، الفرق بينى وبينه فى الألفاظ والحركات والسكنات ، وإلا فبالنسبة للناس ، سواء تحدثنا كذبا باللغة الصينية أو باللغة السنسكرتيه .. لافرق عندما لايهم أحد شيئا ، فالبحث عن ماهية هذا الشيء لامجال له ، بالنسبة لجماعة يلهثون فى صحراء محرقة ويرون الموت أمام عيونهم سواء تحدثنا عن قصة ليلى والمجنون أو تحدثنا بتاريخ موثق عن الحرب الطائفية فى أيرلندا .

والطريق الثاني : لأقل أنني لاشيء (الجهاد الأكبر) ولأر في البداية أي طريق أستطيع أن أسلكه لأكون على صلة بالناس ؟ بأية لغة أتحدث اليهم ؟ ثانيا : ماذا أقول وكيف أقوله حتى ينصتوا إلى ويقبلوا كلامي ؟ ولايفسرون أقوالى على أنها غريبة عن ثقافتهم وإيمانهم وعجيبة ومشكوك في أمرها وبعيدة ؟

لنفرض - وهذا مجرد فرض - أنني في أبحاثي الاجتماعية قد وصلت إلى النتيجة القائلة إن : مدينة مشهد هذه مثلا وهي المدينة التي أعيش فيها (قضية محسوسة وعينية وعلمية ، ليست اصطناع كليات بشأن مجتمع كذا أو شعب كذا أو جماهير كذا أو طبقة كذا أو شريحة كذا) وهي مدينة دينية ومركز زيارة (هذه هي سمتها الاجتماعية البارزة) يسكنها ثلاثمائة ألف نسمة ، ويوميا يصل إليها ألفا زائر من كل أنحاء الدولة ، من المدن والأرياف والقبائل وحتى من أبعد الأركان التي لاتصل إليها يد مفكر أبدا ، وإلى جوار ذلك فإن الأكثرية الساحقة لهؤلاء الزوار المتدينين لايقرءون كتبا ولايستمعون إلى محاضرة ولا يسمعون الأخبار والتعليقات والأبحاث العلمية التنويرية من الإذاعة ، ولاهم يتعاملون مع السينما أو المسرح الثقافي الجدى ، ولاهم على علاقة بالأنماط الواعية المستنيرة ، أى أن عيونهم وآذانهم مغلقة ، وكل نوافذ الوعي مسدودة أمام وجوههم . إنهم في الغالب ريفيون وفيهم أقلية حضرية ، لكنهم جميعا منتشرون في رقعة واحدة من الأرض ومسائل الكثافة السكانية والتكاثف ليست مطروحة في محيط حياتهم أصلا وهذا في حد ذاته عامل من عوامل ركودهم الفكرى وجمودهم وبقائهم غير واعين ، وهم من الناحية الثقافية تقليديون ، وبالنسبة للعمل ملتصقون بالأرض وهذا أيضا عامل آخر ، الجاذبية الروحية والاجتماعية هي التي تحركهم وهي التي تجمعهم وتدفعهم إلى التعصب ، الشيء الذى يحول دون تشتتهم الظاهرى وعزلتهم الداخلية هو الدين .

هذه هي معلوماتنا ، فما هو هدفنا ؟ كما قلت إن رسالة المفكر المستنير هي منح الوعي للجماهير والتنمية الاجتماعية والثورية لآرائهم وأفكارهم . وماهو المجهول لدينا ؟ نعلم أنه لكى يوعى فرد أو جماعة أو يربيان على المرء أن يكتشف أولا طريق الارتباط بهم وعليه ثانيا أن يعرف لغة التفاهم معهم أى شخصياتهم

وثقافتهم ومن ثم فإن المجهول هو : أى طريق يمكن من خلاله الاتصال بهؤلاء الناس أى الثلاثمائة ألف نسمة الذين يسكنون مشهد وأيضا هذه القافلة الأبدية التى لاتنتهى من الزوار الذين يمرون بهذه المدينة من أعماق هذا الوطن ، بأى لغة يمكن الكلام ؟ الجواب : الدين .

إن جماهير الناس فى هذه المدينة يجتمعون معا فى المنازل والمساجد والتكايا ، وفى أيام المناسبات وكل أسبوع باسم الدين . وبين الجماهير لايوجد تجمع قط ليس ذا أهمية خاصة بالنسبة لعالم الاجتماع أو المفكر الذى يكون بينه وبين الجماهير عمل . ويمكن أن نحدس تعداد هذه المجالس بحوالى عشرين ألف مجلس ، والمجتمع الشيعى فى الأصل وبسبب تقليده الخاص مجتمع حزبى ذو تشكيلات . ويمكن اعتبار هذه المجالس مراكز علمية دينية تتشكل على أساس فكر واحد وإيمان واحد متميز وقوى وبشكل طبيعى ، وفيها تتعرف الجماهير بشكل مستمر على أصولها العقائدية ، وفيها يلقن الإيمان . مثل هذا المجتمع يشبه مدينة مدت فيها الأنابيب (خلافا لمدينة يوجد فيها فى كل حى أو فى كل منزل بئر) يمكن إصلاحها بنفس البساطة التى فسدت بها .

لكن هؤلاء الزوار ، وهذا المزار ملتقى الجماهير التى ليس لها ارتباط ببعضها من أى نوع ، وفى المتوسط يأتى كل فرد من جماهير الناس حضريا كان أو ريفيا أو قبليا مرة واحدة إلى هذا المكان ، وإلى جوار هذا فليس فى وضع سائح أو عابر سبيل أو تاجر بل فى حالة روحية قابلة ومتهيجة وحارة . فإذا استطاع مفكر واع وعارف النفاذ داخل هذه الشبكة الدينية واتخاذ طريق إلى هذا الملتقى العام للجماهير ، وبث أصول الوعى والتنوير فيها ، يكون مثل مادة تدخل الدم عن طريق نقطة صغيرة ثم تطوف أنحاء الشرايين بسرعة شديدة ، وتدريجيا تصل إلى كل الخلايا وتجذب إلى كل أعضاء الجسد ، ويكون قد حقق نجاحا عظيما فى أن يبسط كلمته إلى كل الشرائح وإلى كل الزوايا فى المجتمع وينفذ فى أعماق فكر الجماهير وقلوبها ، وعمل بهذا الحجم بالنسبة لمجتمعنا الراكد الغافل والذى لاهدف له أمر حيوى وفورى وصعب أيضا بالنسبة للمفكر .

وإذا كنت قد وصلت فى أبحاثى الى هذا الحد وبالتالى أحسست أنه بدلا من ترجمة أعمال سارتر أو البحث فى مسرح العبث ، ينبغى على – من أجل هؤلاء الزوار وهم جماهير الشعب والنص الذى يتعاملون معه هو كتب الأدعية وكتب الزيارات – أن أختار النصوص الأصيلة المستنيرة للأدعية الإسلامية من بين آلاف النصوص المنتحلة والمنحرفة والتى لاطائل من ورائها ، ثم أقوم بترجمتها ترجمة بسيطة وأفسرها تفسيرا موعيا ، أو – بالنسبة لهذه العشرين ألف جلسة دينية التى تتشكل على أساس ثورة دموية وحركة ثورية مضادة للرجعية والاستبداد والانحراف الدينى ، أن أبحث عن بديل للروضات والبكائيات المخدرة المنحرفة الرائجة المضادة للتشيع ، والتى تبث الخمود و الخرافة والضعف والذلة والكذب فى أذهان الخلق ، وأبحث فى المتون التاريخية الأصيلة ، وأعرف بحقيقة مدرسة الانتفاضة وفلسفة الحركة الإسلامية وروحها ، والاتجاه التحررى المضاد للخلافة والموجود فى التشيع ، ولاينبغى على أبدا أن أتردد فى القيام بهذا العمل ، هذا بالرغم من أننى أعلم أننى إذا قمت بالعمل الأول فسوف أقدم للناس كمفكر مستنير عصرى يعرف الوجودية والماركسية وسارتر وبيكيت وكيركجاردو .... الخ ، وإذا قمت بالعمل الثانى فسوف أكون كاتبا دينيا يكتب كتب الدعاء ويدون متون مجالس الروضة . ولاشك أن مقام مفكر يتحدث عن مدارس أوربا الفكرية ويكتب شيئا عن نقد الفنون والآداب المعاصرة ليس كمقام رجل دين ينقح متون كتب الأدعية .

وهنا ينبغى على المفكر أن ينسى نفسه . وإنكار الذات هو الشرط الأول للقيام بالخطوة الأولى فى هذا الطريق ، هنا لايمكن للمرء أن يطلب الآخرة والأولى معا، لكن من بين هؤلاء الرفاق الهواه فى الأسس من يمكن أن تدلنا عليه ويكون هكذا ؟ ان أعظم فدائييهم مستعدون للتضحية بأرواحهم فى سبيل عقيدتهم الطاهرة ومن أجل الناس لكن بشرط أن ينتبه الناس إليهم ، أشخاص اجتمعوا معا من أجل الحرية حتى يستقبلوا الموت بإخلاص وسخاء ، لكن جمعهم يتبدد اختلافا على أيهم يكون رئيسا . يذكروننا بقصة أبى جهل عندما وقف عدوه على رأسه يحز عنقه ، كان الطلب الوحيد الذى طلبه منه أنه أشار بطرف إلى أسفل عنقه : أى حز من هنا ، لكى يكون رأسى أعلى من كل الرءوس بمقدار العنق عندما تضعون الرءوس على الحراب .

ماهو الهدف إذن من الكتابة والكلام ؟ ألكي يعرف الناس أنني كاتب ومفكر مستنير وعالم وتقدمي ؟ هل المهم أن يعرف الناس أسماء x و y ؟

كنت فى مفترق هذين الطريقين : إذا نشرت كتاب سارتر سوف أصير عالما بسارتر ، فيلسوفا، وبدلا منه نشر كتاب « أبو ذر الغفارى » لكن فى خمس طبعات متتالية ، وقرأه على الأقل مائة ألف شخص ، فأبو ذر صحابى الرسول متشيع لعلى ، محبوب ومحترم ، يؤمن الناس به وبكلامه إيمانا دينيا ، كلامه ينفذ فى قلوب الناس مثل آيات القرآن ويكون جزءا من إيمانهم ومن عقيدتهم . من هو أبو ذر ؟ ثورى عظيم ، ومعاد للأرستقراطية ومضاد للاستبداد ومضاد للرأسمالية (الكنز) وضد الفقر وضد التفرقة ، إنه أفضل من يتحدث عن التربية والهدف هو أن يعى الناس ، أن يعلموا أن الدين ليس هو الذى يجرعونهم إياه ، وصنعوه هم لاستحمارهم ، ويعلموا أيضا أن الحياة ليست هى ماهم عليه . الهدف هو أن أوصل رسالته لكل الناس « عجبت لمن لايجد قوتا فى بيته ولايخرج على الناس شاهرا سيفه » [١]

لكن لا شك أنه فى مجتمعنا القارىء ، الجانحون الى القديم والجانحون الى الجديد سواء بسواء قد تقولبوا ، سوف أصير كاتبا دينيا وشتان بين من ينشر كتابا عن أبى ذر ومن يترجم كتابا لسارتر ، لكن إذا حددت الأمر وهو أن التعريف بأبى ذر أكثر تأثيرا بالنسبة لايقاظ قومنا ومنحهم الوعى الذاتى والطبقى والاجتماعى من البحث فى الوجودية ، فلا ينبغى أن أخشى الأحكام المتقولة مهما كان عددها كبيرا ، بل لا ينبغى أن أخاف من حكم الروح المسيطرة على المجتمع ومن تلقيها ، ان الذين يتنازلون عن حيثياتهم فى سبيل المبدأ وفى سبيل الناس أعظم من الذين يضحون بأرواحهم فى هذا السبيل .

---

(١) هناك نقطتان عميقتان وعظيمتان فى هذه العبارة : الأولى أن أبا ذر لايقول للمحروم الحق أو يجب عليه أن يقوم بثورة مسلحة بل يقول : إننى أتعجب لماذا لايقوم بثورة مسلحة ، الثانية أنه يقول إن الثورة تكون على الجهاز أو الطبقة الحاكمة أو المستغلين أو الأثرياء بل « على الناس » لماذا ؟ لأننى إن لم أملك قوتا فى منزلى فكل الناس مسئولون ومسئولون عند الحكم عليهم بالموت .

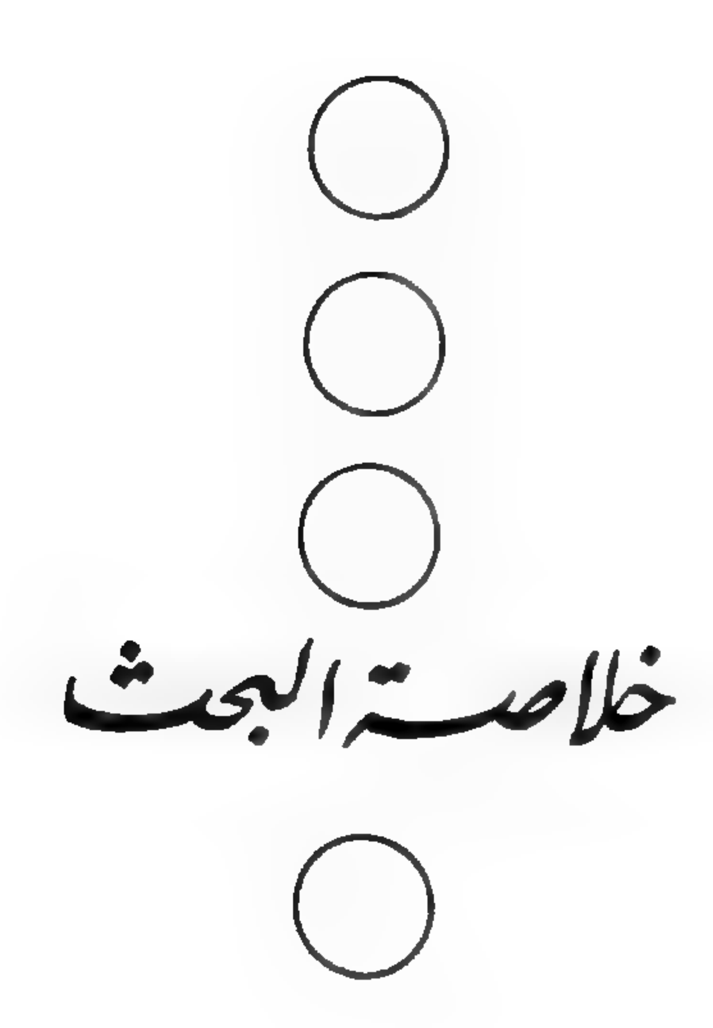
وهناك قول لديستيوفكى إن الساكت على الجريمة كالمشترك فيها لكن الخلاف بين القولين واضح .

وطالما ظل مفكرونا وكتابنا ومترجمونا وأهل الفكر عندنا عبادا للموضة يجدفون مع التيار ليصلوا بسرعة ويستلفتوا الأنظار فالناس فى محنة – وكما يبدو فإن هؤلاء الناس المساكين سقطوا مرة ثانية فريسة للترويجات الفكرية وخداع العوام والتلاعب بالمريدين الجدد ، وماداموا يربون على أيديهم ينبغى أن تمر ألف سنة أخرى على هؤلاء الملعونين .

والسبب الأصلى لكل هذه المصائب ، ليس الاستبداد وليس الاستعمار وليس الاستغلال ، كل هذه نتائج ، هناك سببان : أولهما الاستحمار ..... وثانيهما : أيضا الاستحمار .

والاستحمار على نوعين : الاستحمار القديم والاستحمار الجديد .





خلاصة البحث

والآن ينبغي أن نعلم :

١- أن القضايا السياسية والاجتماعية خلافا للقضايا الفلسفية والعلمية قضايا نسبية ، مايصدق على عصر ما ومجتمع ما ، أو يؤدى إلى نتائج بناءة وتقدمية ، يكون فى زمام آخر ومجتمع آخر بلا معنى أو نتيجة وأحيانا يكون ذا نتائج مخربة وجالبة للانحطاط .

٢ - أن مايجرى فى مجتمع أوربا وثقافتها وفكرها وأفكارها الفلسفية والاجتماعية والسياسية نتيجة طبيعية ومنطقية للعامل التاريخى والشروط الاجتماعية فى أوربا ، وأن انتقاله الى مجتمعات ذات تاريخ مختلف وظروف اجتماعية مختلفة ، بقدر ماهو خداع فى الظاهر ومحدث للحركة وراق فى نظر العيون التى لاترى سوى السطح ، أمر لانتيجة منه إلا تضييع أعظم الفرص وأفضل المواهب الانسانية وإفساد القيم .

٣ - أن السياسة بمعنى إحساس الفرد بالانتماء إلى جماعة ما أو مجتمع ما[1] ومسئوليته تجاهه ومنحه الوعى والاشتراك فى قيادته هى السمة البارزة عند الإنسان المتقدم .

٤ - أن المفكر المستنير لاهو بالفيلسوف ولاهو بالعالم ولابالكاتب ولابالفنان ، والمفكر المستنير هو متعصب ذو وعى ذاتى يحس بروح عصره وحاجيات مجتمعه ، وعنده رؤية ذات اتجاه محدد ولديه أيضا قيادة فكرية . وهذا الوعى والرؤية وعى ورؤية خاصان يتحققان وينضجان فى مسيرة التجربة الاجتماعية والعمل الثورى أفضل من تحققهما عن طريق الأفكار المجردة الذهنية والدراسة ، والاطلاع على المدارس الفلسفية والتخصصات العلمية ، لأن حركة « الفكر المستنير » هى مواصلة حركة الأنبياء فى التاريخ ، أى أن المفكرين هم « هداة الأمة » وغالبا كانوا أميين ، فى حين أن المثقفين هم النماذج المواصلة للحكماء والعلماء والأدباء فى التاريخ ، نماذج نضجت ، ويمكن أن نرى بوضوح الشبه بين الرسالة والاتجاه عند قادة الحركات التحررية الثورية المضادة للرجعية والاستبداد والنهب والاستعباد والتفرقة بين الأمم فى العصر الأخير وبين الرسالة التاريخية لشخصيات مثل ابراهيم وموسى ومحمد ، ويمكن

---

(١) وهو مايسمى فى لغتنا بالتعصب .

أيضا أن نرى التطابق البين جدا بين أعمال رجال مثل هيجل وديكارت وكانت وباستور وهايدجر وقيمتهم الحقيقية والفكرية كممثلين للانتلجنزيا المعاصرة ، وبين النمط الفكرى لأشخاص من قبيل أرسطو وأفلاطون وديموكريتس وبطليموس والكندى وأبى على بن سينا والغزالى وملاصدرا (١) ، هذا الوعى والشعور بالقيادة وهما ميزة المفكر ليسا بمعنى « الزعامة والحكم » بل بمعنى منح الحركة والاتجاه للمجتمع الذى يحمل المفكر تجاهه « مسئولية فردية » : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

٥ - ولأن المجتمع والقيادة الاجتماعية ليسا أمرا مجردا ومطلقا ، وكل مجتمع له وضع خاص مرتبط بظروفه الاجتماعية الواقعية ومرحلته التاريخية وروحه الإجتماعية ونوع ثقافته ، فان المفكر على خلاف الطبيب أو عالم الطبيعة أو الفيلسوف لايستطيع أن يكون مفكرا بتعلم المبادىء الاجتماعية والمدرسية العامة ومعرفة القضايا التى كانت تقدمية وبناءة فى أرضية خاصة لأنه كما قلت : المفكرون هم الذين يواصلون العمل الذى تعهد به الرسل فى التاريخ ، والآية القرآنية الكريمة : « وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » تعنى أن من تعهد بإيقاظ الناس وهدايتهم عليه أن يتحدث إليهم بلغتهم ، ليس بالمعنى الذى قاله كل المفسرين أن موسى على سبيل المثال كان يتحدث بالعبرية ومحمد صلى الله عليه وآله كان يتحدث بالعربية ، ليس هذا فى حاجة إلى قول ، وهل يصح أن يبعث رسول إلى قوم من اليهود ويتحدث اللغة الصينية ؟ فالمقصود أن الرسل لم يكونوا مثل مفكرينا يجلسون معا ويتبادلون معا الكلمات الفلسفية والعلمية جدا وليست لديهم الجرأة على أن يقوموا من كافتريا هوتيل بالاس ويسيروا خطوة واحدة فى السوق أو بين عمال القمائن والمحاجر ، أو فى المساجد وقرية محمد آباد ليروا ماهو شكل الشعب والجماهير الكادحة التى يحبونها غيابا

(١) ومن هنا ينبغى اعتبار الفقيه والحكيم والمتكلم وعالم الأصول والحكيم الإسلامى والعارف فى صف العلماء والمتخصصين ، واعتبار شخصيات من قبيل سيد جمال الدين والكواكبى ومحمد عبده فى صف المفكرين المستنيرين . فهؤلاء هم الذين يقول رسول الإسلام فى شأنهم « العلماء ورثة الأنبياء » ويقارنهم بالرسل الماضين فى قوله « علماء أمتى أفضل من أنبياء بنى اسرائيل » ومن هنا فالعالم فى المصطلح الإسلامى هو من يتميز بالوعى الذى يهدى وشعور القيادة . وهذا هو علم الإمامة فالعلماء المتخصصون يمنحون المجتمع قيمة وغنى ثقافيين ، أما هؤلاء فهم الذين يمنحونه الروح والحركة والاتجاه ومن هنا خوطبوا « أنتم ساسة العباد وأركان البلاد » .

ويحددون لها ماتقوم به بالوكالة ، وماذا يفعلون وكيف يفكرون ، ليس الرسول هو فلان المفكر التقدمى جدا الاشتراكى أو غيره الذى عندما يدخل مقهى ماأوتكية ماأو محلا لتجمع الفعلة والزراع ، يسكت من حوله خوفا وحذرا ، ويظن الناس أن « السيد الأجنبى » قد وصل وينبغى أن يكونوا على حذر ، ويحس هو أيضا أنه دخل مجتمعا غريبا لايوجد بينهما أى نوع من التشابه والتفاهم ، هذا هو معنى لسان القوم ، هذا اللسان ليس الفارسية أو العربية أو العبرية ، هو ثقافة قوم ماوروحهم وعواطفهم وحاجاتهم وآلامهم ومتاعبهم وأمانيهم والجو الفكرى والروحى والاجتماعى عندهم .

كانت مارى انطوانيت تتحدث بنفس اللغة التى كان الثوريون فى القرن الثامن عشر يتحدثون بها لكن عندما أخبروها أن الناس قد ثاروا لأنهم لم يجدوا الخبز قالت بنفس الفرنسية التى يتحدث بها الناس : إذا لم يكن لديهم خبز بسبب القحط أو احتكار القمح فليأكلوا البسكويت والشيكولاته . وكان « كديور » أحد نواب مشهد فى البرلمان ، وعند عودته من طهران للطواف بدائرته الانتخابية ودراسة مشكلات الناس ومطالب ناخبيه ، شكا له الناس ارتفاع أسعار السلع الضرورية وأخذوا يبثونه همومهم أن أسعار المواد التموينية قد ارتفعت بحيث جعلت الحياة قاسية جدا . ولكى يبدى كديور تأييده لشكوى الناس ، ولكى يواسيهم ويدلل على أنه أيضا يشاركهم هذه الآلام قال : فى الواقع أمر عجيب جدا ، أمر المواد التموينية يدير الرأس منذ عامين أو ثلاثة فقط عندما كان يقدم لك زجاجة شمبانيا أو ويسكى أو جين ذى الثلاث نجوم من النوع الفرنسى أو الأمريكى أو الانجليزى ومع طعام كثير بل ومع الأوز المحمر فى الشراب ، كان كل فرد يدفع مائتى تومان وعلى الأكثر إذا كان هناك فى الأمر إجحاف مائتين وخمسين تومان ، لكن الآن عندما تشرب كأسا واحدا من الخمر الأجنبية ومع طعام عادى جدا مثل الأرز بالدجاج أو « شاتو بريان » ترى أن الأمر يكلفك من مائة الى مائتى تومان ، ومن هنا فإن الجميع غير راضين فى الباطن ، والواحد منا يتقاضى ستة آلاف تومان شهريا دون أن يفكروا أن نفقات الحياة فى طهران قد ارتفعت عن باريس ونيويورك ، ناهيك عما يختص بنا نحن النواب ، علينا صادر ووارد ، وعندنا مظهر ونفقات طائلة وسهرات وولائم ... والخلاصة أن عضو المجلس ينبغى أن يكون داخل المجتمع ، إنه رجل سياسى

واجتماعى ، إنه يتعامل مع الجميع ، لايستطيع أن يغلق عليه منزله ويقبع فيه ويختبىء ويغلق بابه عليه ... إنه نائب ليس من زهاد الهنود ، من الممكن أن ينفق مرتب شهر أو شهرين على وليمة واحدة ، إلى جوار وضع الحياة ، إنكم ترون إلى أى حد بلغ ارتفاع أسعار المواد التموينية ».

إنكم ترون أنهما يتحدثان باللغة الفارسية لكن على موجتين ، كلاهما يستخدم نوعا واحدا من الألفاظ ، لكن معنى أى كلمة وروحها وإحساسها يختلف بين ذهنى شخصين من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين وجوين ثقافيين مختلفين . هذا اللسان المقصود هو لسان الحياة لا اللسان الذى يستخدم فى الأدب :

كم من هندى وتركى متفاهمين معا وكم من تركيين كأنهما معا غريبان منذ بضع سنوات كان أسلوب السيد « فلسفى » على المنبر قد ازدهر بحيث كان كل منشد روضة يحفظ متون مواعظه تقليدا له وليستخدم بلاغته وخطبه الخاصة فى مجالسه ، كان السيد فلسفى خطيبا وواعظا فى مجالس الأعيان والأشراف ورجال المملكة ، وفى ذلك الوقت كان « فلان » منشد الروضة المقلد عندما يذهب فى محرم إلى قرية « كذا » فى كرمان أو خوزستان أو خراسان كان يخاطب الناس الذين تعد أعظم وسائل النقل عندهم الحمار الصغير النشيط وليس منه إلا اثنان أو ثلاثة ، وأمام أناس لم يترك سوء التغذية والجوع والفقر إلا بقايا وميض ميت فى عيونهم : « أيها الرجال ، أيها الأعيان أيها الناس الذين تمرون راكبين عرباتكم الكيريزلر والشيفورليه من آخر طراز بكبرياء وتنشرون الغبار والطين والوحل على رءوس المشاة ووجوهم ، أيها الناس الذين تنفضون رماد سجائركم على القطع التى لم يؤكل الانصفها من أوزكم المشوى وديكتكم الرومية ... » والمفكر المعاصر الذى يتحدث إلى سكان هذه الدولة وهذا المجتمع وهذا العصر عن أوربا وأمريكا هو من منشدى الروضة المبتدئين ، يبهر الأبصار .

٦ – إن الثقافة هى مجموعة المصنوعات المعنوية لأمة ماأعدت وتشكلت على طول تاريخها ، وضمير المجتمع وروحه هو الذى يمنحها هذا الشكل ، ومن

هنا فلكل ثقافة اتصال مباشر قائم على قاعدة العلة والمعلول وعلاقة منطقية مع الحتمية التاريخية والبنية التحتية الاجتماعية الخاصة به ، والفرد عبارة عن خلية اجتماعية يكتسب شخصيته الإنسانية بتبلور الخصائص الثقافية لمجتمعه ، ومن هنا فإن مايسمى بالذات ليس إلاتجلى ثقافة المجتمع فى الوجدان الفردى ، ومن هنا فإن الشخصية الفردية لكل إنسان هى عبارة عن مجموعة الخصائص المعنوية التى ربيت داخلها « حتميته التاريخية » و « بنيته الاجتماعية » ويتدخل احتمالا بقدر وعيه الذاتى وقدرة الاختيار عنده فى توجيههما . ومن هنا فإن الوعى الذاتى وفهم الشخصية الذاتية عند الفرد هو خلافا لما قال به التصوف الهندى والزهد المسيحى فى أثره -

هو الوعى التاريخى ومعرفة البنية المادية والمعنوية لمجتمعه أى فهم ثقافته ، ومن هنا فالمفكر الغريب عن ثقافته غريب عن نفسه ، والمفكر الذى يفكر ويحس فى جو ثقافى مختلف ، مغترب يحس بذات آخر محل ذاته الحقيقية .

٧ - إن عالم النفس أو المحلل النفسانى أو الطبيب النفسانى ليس مثل عالم الأحياء أو الجراح أو الطبيب ، بتعلم القوانين العامة لعلم النفس يستطيع أن يحصل على أى نجاح ، بل ينبغى عليه أن يضع أساس الحكم والحل واتخاذ القرار على أساس الفحص الدقيق لمريضه ، و « يعرفه » بعد البحث فى ماضيه وحاضره ووضعه المزاجى والبدنى والروحى والفكرى والبيئى والأسرى والعرقى والوراثى وحتى ميوله الذوقية وهواياته وعقائده وشكل حياته ، لأن كل فرد يتميز بخصائص تتشكل من كل هذه العوامل المعقدة التى لاحصر لها ، وبالنسبة لعلم النفس لايوجد فرد بل يوجد أفراد . وفى علم الاجتماع أيضا لايوجد مجتمع بل توجد مجتمعات لكل منها شخصية اجتماعية مختلفة مرتبطة بتاريخه وبيئته الطبيعية وجنسه العرقى وشكل بيئته الاجتماعية والعلاقات الفردية والجماعية وعصر تطوره التاريخى واحتكاكه الاجتماعى والثقافى بالمجتمعات والثقافات والمذاهب المختلفة ، واختيار مدرسة اجتماعية أو قبول حل أو الايمان بعقيدة سياسية واجتماعية وعلمية من قبل المفكر دون معرفة هذه الشخصية الاجتماعية شىء بدائى و لاطائل من ورائه وأحيانا يؤدى إلى مأساة ، مثل أن أكتب وصفة لعلاج مريض لاأعلم من هو وماهو سبب مرضه وكيف مرض وماهو مرضه وأية امكانيات مادية أو خصائص روحية لديه . وأصعب

رسالة عند مفكرينا اليوم وأكثرها فورية ، هى فهم هذه الحقيقة الغامضة الصعبة : لماذا صنعونا وكيف صنعونا هكذا ، وقبل هذا ينبغى أن تعترف بهذا المبدأ المسلم به وهو أن كل مافكرنا فيه حتى الآن وبالطريقة التى رأيناه بها حتى الآن ، هو تماما ماأراده الاستعمار وجاهد فيه : حتى نفكر هكذا ونرى هكذا .

يلزمنا نوع من « الشك الديكارتى » شك فى أنفسنا وسوء ظن وريبة بالنسبة لعيوننا وآذاننا وأفكارنا وعقولنا وقلوبنا . وليس هذا أمرا سهلا ولايتيسر بمطالعة الكتب أو ترجمتها أو معرفة لغة أجنبية ، إنه عمل ثورى فى الذات .

الذوات التاريخية الثقافية :

لدينا عدد من الذوات التاريخية الثقافية :

١ – إيران القديمة : القومية ذات الجذور فى التاريخ الأكمينى والأشكانى والساسانى والدين الزردشتى ، وفى نهايتها تتصل بالأساطير الإيرانية الآرية . الذات المدفونة فى « صوص » وفى تخت جمشيد وفى بازار كد ، بقيت منها أعمدة محطمة ... والخلاصة أن الذى جمع شتاتها هو الفردوسى الفنان الوطنى عابد التقاليد بعون من موهبته وتعصبه مرة ثانية فى الـ « شاهنامه » . .

هذه الذات الثقافية الأولى .... ماذا عنها ؟
أ – أول شكل ثقافى وقومى للمجتمع الإيرانى .
ب – مرتبطة بالمرحلة التى تكون فيها التاريخ الإيرانى وتشكلت القومية الإيرانية .
ج – مرتبطةٌ بالمرحلة الأسطورية لأنها مجاورة لمرحلة ماقبل التاريخ .
د – ذات لون قومى فاقع بالرغم من الهلينية فى إيران الأشكانية والساسانية تلفت النظر بشدة فى بعض الأبعاد الثقافية وبعض الظروف السياسية لكنها لاتمسخ الشخصية القومية لإيران ولاتحط من الاستقلال الثقافى .

هـ - هى مقرونة بالمجد والقدرة والملاحم القومية والعرقية ، لأنها فى مرحلة كانت إيران السياسية واحدة من الإمبراطويتين القويتين فى العالم المتحضر فى ذلك الزمان ، وكان اتساع إمبراطوريتها يصل من ليبيا إلى السند بل ويمتد إلى الدانوب .

و - كانت حضارتنا القديمة واحدة من أكثر حضارات البشر عالمية وتقدما ، فهى وريثة حضارات مابين النهرين (السومرية ، الأكدية ، البابلية ، الآشورية) والمنافسة المهاجمة للحضارات اليونانية والرومانية ، وفى النهاية مانحة مواد كثيرة فى بناء الحضارات الإسلامية والأوربية المعاصرة .

ز - تحتوى على أربعة حركات دينية كبرى : عبادة الشمس والزردشتية والمانوية والمزدكية والتى تعد من بين أديان التاريخ المشهورة ذات التأثير ، فعبادة الشمس انتشرت حتى روما غربا ، وانتشرت المانوية حتى الصين شرقا وكان لها بنية تحتية فلسفية قو ية ، وكان للمذهب المزدكى سحنة اجتماعية ثورية هجومية ، أما المذهب الزردشتى فذو روح قومية وتقليدية ودينية وأخلاقية وتشريعية على قاعدة من النظام الطبقى والاقتصاد الزراعى .

ح - كانت ثقافتنا القديمة ذات عدة ملامح طبقية بل وطبقية مغلقة شديدة الوطأة بشكل يعد من الصعوبة بمكان أن تحس معه بالقومية فى حدودها وصورها المعنوية لأن المسافة بل والتناقض الطبقى بين الطبقات الأربعة المغلقة : الأشراف والإقطاعيين ، ثم رجال الدين ثم الكتبة ثم الحرفيين والزراع ، كانت موجودة إلى حد أننا لو تصورناها عناصر تولف قومية واحدة ذات روح مشتركة وثقافة مشتركة وضمير مشترك لكانت هذه نظرة بعيدة وكلية وذهنية وتجريدية لاتتواءم أبدا مع الواقع الموجود ، لأن هذه الطبقات كانت مغلقة ، وكانت هناك أسوار ضخمة عالية عبوس لاباب فيها ولا نافذة قد أحاطت بكل طبقة بحيث إن الفرد لم يكن يستطيع قط وفى ظل أية ظروف أن ينتقل من طبقة إلى أخرى ، فلم يكن مستوى الحياة العادية وحده أو الدور الذى تضطلع به كل طبقة فى الإنتاج أو معدل الدخل أو الرخاء الاقتصادى هى العوامل التى تميز طبقة عن أخرى ، بل كانت كل طبقة عالما مستقلا منغلقا على نفسه بتقاليده الاجتماعية وأشكال حياته وروابطه الفردية وحتى تبريراته المذهبية والفلسفية والعلمية والميتافيزيقية ، حتى طرز اللباس والزينة ونوع الغذاء والمطبخ ... وماذا أقول ؟

بل ولغة الخطاب فى كل طبقة كانت مختلفة عنها فى طبقة أخرى . كانت اللغة الدرية هى لغة البلاط والأوستائية لغة رجال الدين ولم يكن هناك لغة قومية واحدة ، ليس هذا فحسب بل لم يكن هناك خط مشترك ، وكان الخط الأوستائى « وكتابة الدين » خطا لرجال الدين يختلف عن خطوط الطبقات الأخرى .... وهذا التميز الطبقى بلغ حدا حتى لم يسمح بوجود موسيقى قومية ، وكان كل فرد مضطرا لعزف الموسيقى أو الغناء أو السماع فى إطار الموسيقى التى حددت لطبقته ، فالأغانى « الخسروانية » كانت خاصة بالبلاط ومحافل الملوك والأمراء و « الأناشيد » موسيقى العسكريين والأبطال ، والزمزمة « باث »موسيقى رجال الدين والرباعى موسيقى الفلاحين والعامة .

إذن فأى عوامل مشتركة تصنع من هذه العوامل المستقلة الغريبة الطبقية أمة واحدة ؟ أهى الاشتراك فى التراب أو الدم أو الماضى أو الدين أو الحكومة ؟ من بين كل هذه العوامل كان الرباط الوثيق القوى المقوى الذى يكون قرابة روحية وتفاهما فكريا وباطنيا هو الدين الذى كان أولا : أقوى عامل مبرر وحافظ للحدود والثغور المحددة الطبقية وثانيا : فقط وفى أوائل عصر الساسانيين وعلى أيدى ملوك هذه الأسرة صارت الديانة الزردشتية ديانة رسمية وقومية ، وثالثا : فى نفس الوقت الذى تصل فيه هذه الديانة إلى أوج قوتها وسيطرتها ويصير نظام الحكومة دينيا ، ويسيطر الموابذة على طبقة الأمراء العسكريين ويكون الإمبراطور الساسانى نفسه منها ، يصل نفوذها الروحانى فى قلب المجتمع إلى الحضيض ، ويظهر المذهبان القويان : المانوى والمزدكى داخل إيران بحيث يزدهران فى سرعة البرق ، ويهزان تماما جسم المجتمع ، ثم تأتى المسيحية من الغرب ، فتنتشر انتشارا متزايدا بل وتجتاح المدائن عاصمة الساسانيين ومن الشرق ينتشر مذهب بوذا بل ويقيم كعبته فى بلخ (كان يقوم بسدانتها أعظم أسرة إيرانية أى أسرة البرامكة) .

ومن ثم فإن العامل الوحيد الذى كان يجاهد ليصنع من هذه الأعضاء المتنافرة بل والمتناقضة فى المجتمع الإيرانى القديم ، أى من الطبقات التى كان لكل منها لغة منفصلة وخطا منفصلا وموسيقى وفنا منفصلين وتقاليد وآداب وطقوس

منفصلة وأوضاع اقتصادية وحياة اجتماعية منفصلة ، وحقوق فردية وحقوق جماعية منفصلة ، وحتى أشكال ملابس وبيوت وطعوم وزينات مختلفة ، العامل الوحيد الذى كان يجاهد ليخلق من هذه الأشياء جسدا واحدا يسمى الأمة أو على الأقل يبدو هكذا ، كان مبدأ « الشاهنشاهية » أو عبادة شخص الشاه ، وكل التركيز فى إيران القديمة من طرف الكتاب والسياسيين وجه لهذا الأمر ، ولتبريره الميتافيزيقى والدينى ومايسمى بالمجد الإلهى الهمايونى [1] والعلاقة الخاصة بين الشاه وآهورامزدا ، وهذا يدل على أنهم فى المجتمع الذى كانت كل طبقة فيه تدور حول محور منفصل وتتحرك فى خطوط متباعدة ومتنافرة، كانوا يحسون أنه عليهم بهذه الطريقة أن يخلقوا محورا مشتركا ، وعلى هذا النسق فبدلا من « القومية » التى تتشكل من أسس مشتركة ، صنعوا « مركزية » أى بدلا من الروح المشتركة صنعوا « ملكا مشتركا » وهذا هو الفرق بين الأمة والإمبراطورية ، ومايقدم اليوم باسم القومية هو فى الحقيقة مركزية أكثر منه قومية .

لكن ماأريد أن أتناوله هنا هو : حقيقة أن الثقافة الإيرانية القديمة أى مجموعة الأديان والآداب والفنون هى من لدنا وواحدة من الذوات الثقافية والمعنوية ذات الجذور والأصيلة والفخمة والتى تبعث الفخر فينا ، لكن السؤال الذى يطرح نفسه : أين هى الآن هذه الذات الثقافية ؟ والإجابة على هذا السؤال مصيرية بالنسبة لنا ولمسئوليتنا الفكرية والاجتماعية اليوم .

لاشك أن هذه الثقافة الزاهرة والأصيلة توجد فى التاريخ فحسب لا فى المجتمع .

هل المفكر باحث فى التاريخ أو عالم آثار أو عالم اجتماع ؟ سوف تقولون : لاشك أنه عالم اجتماع .

---

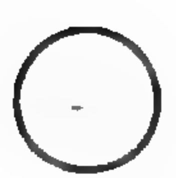
(١) المترجم : المجد الالهى هو النور الذى يورعه اهورا مزدا على المقربين من عباده ويحظى الملوك بالقسط الأكبر منه . وهما يونى : منسوب إلى طائر أسطورى يسمى « هما » وكل من خفق عليه بجناحيه صار ملكا . وكان من ألقاب الشاه حتى آخر شاه .

لكن : هل يمكن معرفة المجتمع دون استمداد العون من التاريخ ، لاشك : لا ، لكن التاريخ الثقافى على قسمين : تيار تاريخى منقطع وتيار تاريخى متصل . والمفكر لاينظر إلى التاريخ بنفس العين التى ينظر بها عالم التاريخ أو عالم الآثار أو باحث فى عصور ماقبل التاريخ ، فبالنسبة للمؤرخ أو فيلسوف التاريخ يعد التاريخ نفسه كميدان علمه حقيقة مستقلة وأتفه الحوادث مثل أعظم التطورات وأقدم العصور مثل أحدث العصور كلها ذات أهمية فى نظره لأن كلا منها عنصر من العناصر التى تشكل التاريخ وهدفه هو كشف مسيرة التاريخ وإيجاد العلل وعوامل التطور والتغيير وقوانين الحركة فيه .

إنه يريد أن يعرف التاريخ ، ولامعنى عنده لكونه متصلا أو منقطعا أو حيا أو ميتا ، وبالنسبة له تستوى قيمة اناء مكسور كان يستخدمه ريفى منذ عشرات الآلاف من السنين فى ركن ما من أركان الأرض وسند ملكية حديقة عقد بين شخصين منذ سبعة آلاف سنة لأنها جزء مباشر من عمله ، إنه لايفكر ولايسأل نفسه : هل يتذكر أهل عصره دين كذا أو لغة كذا أو حادثة كذا أو لايتذكرونها ، هل لها من أثر فى الزمن الحالى أولا ؟ ليس هذا فحسب ، إنه يهتم أكثر بالذكريات التى مضت ولم تعد منها ذكرى واحدة تشد الاهتمام لأنها مجهولة أكثر ، وهو يجاهد لكى يجد كل ماضاع فى الماضى ليوضح كل زوايا التاريخ المظلمة ، ومعرفته لما لايعرفه أحد قط أكثر قيمة ، واحتياجات المؤرخ هى التى تبدى حساسياته وأهدافه الخاصة ، إنه ينكب عمرا على حجر منقوش حتى يستطيع أن يقرأ خطوطه المجهولة ويكشف الستار عن وجود شخصية أو حدوث حادثة أو علاقة خفيت عن الباحثين المتخصصين ويكافح سنوات ليجد كلمات سفدى[1] عن طريق البحث فى اللهجات واللغات والنصوص المختلفة ثم يكتشف اللغة التى كان يتحدث بها أهل سمرقند منذ ألفى عام ولايفهمها أحد الآن ولايوجد بها نص واحد . ولاشك أن المؤرخ يأتى صوب الزمن الحاضر والمجتمع الحى ، لكن ليس من أجل أن يعرفه ، بل فى أثر دليل أو أثر أ وتذكار لواقع تاريخى أو حقيقة تاريخية ، هذا هو الذى ساقه إلى هذا

(١) المترجم : فى النص « سعدى » ولا شك أنه سفدى كما يفيد السياق .

الموضع . تماما كما يلجأ عالم اجتماع إلى التاريخ ، إنه يريد أن يعرف التاريخ ، لكى يطل إطلالة علية من أجل البحث عن مبدأ أو واقع اجتماعى ، وذلك عند تحليل قضية موجودة وحية فى مجتمعه ولاكتشاف جذورها . فقضية « لبس الحجاب » فى مجتمعنا ، ينظر إليها المؤرخ كظاهرة تاريخية أى ظاهرة ظهرت فى مكان كذا وفى زمان كذا نتيجة لعدد من العوامل الدينية أو السياسية أو الطبقية ، وعبر العصور وفى كل ظروف محددة تطورت هكذا ثم اختفت فى عصر كذا أومازالت موجودة ، لكنها بالنسبة لعالم الاجتماع واقع اجتماعى موجود ، إنه يجاهد فى فهمها وتحليلها فى قلب الظروف الاجتماعية العينية المادية والمعنوية لمجتمعه الحاضر ، ولما كانت معرفة حقيقتها الاجتماعية تستوجب معرفة جذورها التاريخية وأسباب وجودها ومراحل تطورها ، فإنه يستعين بالمؤرخ ، وفى المجتمع الأوربى الحالى يعد موضوع الحجاب من الموضوعات التى يبحثها المؤرخ فى تاريخ أوربا لأن لها وجودا تاريخيا فى أوربا ، لكن بالنسبة لعالم الاجتماع الأوربى تعد أمرا معدوما .



إن عالم الاجتماع يجاهد ليبحث « تخت جمشيد » الموجود بالفعل ، ويعرف وضع بنائه ونوعه ومقاومته وشكله وتركيبه ومواد بنائه وطراز هذا البناء بحيث يستطيع هو أو يستطيع معمار أن يرممه أو يجهزه لسكن أسرة معاصرة وحياتها أو يقيم وضعه المعنوى فى معرفة الناس وإحساسهم وانطباعهم ، لكن بالنسبة للمؤرخ يعتبر تخت جمشيد قضية تاريخية ذات حدوث على مر الزمان ومسير العصور والحادثات منذ بداية ظهوره وحتى الآن ، وهو يجاهد ليعلم هذا الحدوث فى الزمان ويتحرك على طول هذه المسيرة مع تخت جمشيد خطوة خطوة (١) . وها أنتم ترون أن كلا منهما يحتاج إلى الأخر ، لكن كلا منهما يقوم بعمل متميز فلو أن تخت جمشيد لاوجود له اليوم فى فارس ولو أنه كان قد اجتث من أساسه أو انتهى أمره تماما فى حريق الإسكندر فهو بالنسبة للمؤرخ أمر واقعى تاريخى ، أى كان له وجود على الدوام ، ولكان بالنسبة لعالم الاجتماع أمرا معدوما .

ومن هنا فإن ثقافة إيران القديمة وحضارتها أو بتعبير آخر واقعها التاريخى ذو وجود بالنسبة للمؤرخ وسوف يكون ذا وجود ، وجوده أبدى أزلى لأنه لاشيء يفنى فى التاريخ ، لكن بالنسبة لعالم الاجتماع ، يعد واقعا منتفيا أى لاوجود له فى المجتمع .

وقد قام سيف الإسلام السياسى والاجتماعى والثقافى بقطع التيار الثقافى الذى بدأ فى إيران بانتصار الأسرة الأكمينية ، وانفصلت إيران عن عهدها القديم ، بحيث أنه فى جيش الخراسانيين العظيم تحت قيادة أبى مسلم الخراسانى لم تكن «السيوف المحددة لمصير الخلافة العربية » تذكر أى شيء عن جيش خراسان تحت قيادة رستم فرخزاد (٢) الذى كان قد قام من نفس هذه الأرض . كان شعار هذا الجيش ومطلبه إقامة العدالة الإسلامية وليس إحياء

---

(١) يمكن قبول قول شاندل : ان المؤرخ يبحث المجتمع فى الزمان وعالم الاجتماع يبحثه فى المكان بالرغم من أن هذا التعريف قد فسر التاريخ بمعناه الاجتماعى الخاص .

(٢) المترجم : قائد جيوش ايران فى مواجهة الفتح الاسلامى .

حكومة آل ساسان بل إحياء حكم آل البيت ، وبيان هذا الادعاء القائل : نحن الخراسانيين نعرف الإسلام أفضل منكم أيها العرب ونحترمه أكثر منكم . ونحن نعلم أن فتح خراسان استغرق منذ عهد عثمان حتى أوائل عهد بنى أمية أى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، وأن الحركة الإسلامية المعادية للأمويين فى خراسان قامت فى النصف الأول من القرن الثانى ، وجيش أبى مسلم الذى ثار من أجل حكم آل البيت على الغاصبين لحقوقهم كان مكونا من الجيل الثانى من الناس الذين استسلموا لسيوف سعيد بن عثمان ويزيد بن المهلب .

والبحث فى كتب من أمثال فضائل بلخ لشيخ الإسلام وتاريخ بخارى للترشخى وتاريخ نيسابور وكتب أسمارها بقية كتب الطبقات والمدن الإسلامية تدل على أنه فى نفس هذين الجيلين الأول والثانى فى الإسلام ، كانت مدن ماوراء النهر وخراسان بالتعبير الجميل للحديث النبوى بشأن بلخ « مثل حبات رمان متكاثفة من العلماء والقضاة والمحدثين والقراء بل والزهاد المسلمين المشاهير » .

ونحن نعلم أنه منذ زمن أبى مسلم تغلب نفوذ الإيرانيين على العرب فى الدولة الإسلامية ، ومنذ بداية القرن الثالث الهجرى بدأت الأسر الحاكمة الإيرانية الأصل الطاهرية والصفارية والسامانية والديالمة وآل زيار تحكم إيران ، وعدم معرفتهم بإيران قبل الإسلام بلغت حدا بحيث أن علماءنا وأدباءنا ومؤرخينا القوميين فى نصف القرن الأخير مهما بحثوا ومهما جاهدوا لايجدون شيئا يذكر فى هذا الموضوع ، بل إن السامانيين الذين كانوا يبدون اهتماما بالقومية وبماضى إيران أكثر من الباقين وكانوا أكثر علما ووعيا ، كان العمل الذى قاموا به من أجل إحياء هذه الثقافة الميتة هو جمع القصص والخرافات القديمة أى كتب « الشاهنامه » والأطرف من هذا أنه حتى المفكرين والمتخصصين والعلماء والقوميين الذين قاموا بهذا العمل لم يكونوا هم أنفسهم يعرفون البهلوية وحتى أعظم نماذج هذا العمل أى الفردوسى الذى قام بنظم هذا العمل ، كان يستخدم مترجماً .

وقد أشرت فى محاضراتى فى حسينية الإرشاد إلى أن القومية الإيرانية فى الأصل وجدت بعد الإسلام ، وقد تعسف علماؤنا (الذين صاروا قوميين) أخيرا ليجدوا فى مقابل النوابغ العاميين أمثال ابن سينا والخوارزمى حتى شخصية واحدة ذات قيمة علمية وأدبية فى إيران القديمة ولم يجدوا ، ولم يستطيعوا أيضا أن يثبتوا أن حركات الأسر الخائنة مثل الأفشين ومرداويج السفاح الرهيب والمقنع النصاب السفاك والدمى الأخرى التى كانت فى يد الخليفة العباسى ، الذين كانوا يجعلون من الناس السذج المنحطين أدوات فى أيديهم من أجل استعادة حكوماتهم العائلية فى المنطقة ، والذين وقعوا فى بعضهم بفضل دسائس الخليفة العباسى وأخذ كل يحمل رأس صاحبه إلى حضرة الخليفة العباسى ، لم يكن لدى واحد منهم دافع قومى ، والوحيد من بينهم الذى ظهر من بين جماهير الشعب ، وكان فى نضاله مخلصا ومؤمنا وناضجا وهو بابك والذى صار ضحية للخليفة على يد نفس هؤلاء الأبطال القوميين الذين صنعوا على يد علمائنا القوميين المعاصرين ، كان مزدكيا ، والمزادكة حاربوا الديانة الزردشتية ونظام إيران قبل المسلمين .

وأول شعراء بدأوا نظم الشعر بالفارسية بعد الإسلام ، ونضجوا فى بلاطات إيرانية بعد الإسلام ، لاتوجد عند أى واحد فيهم أقل شبهة فى فكره وروحه وفنه أو لغته مع شاعر أو أديب قبل الإسلام (من اولئك الذين لابد وأنهم كانوا موجودين) حتى لغتهم وخطهم نسوهما كلية ، وظل هذا النسيان للغة والخط والدين والثقافة والتاريخ والحضارة ... الخ ، حتى استطاع المستشرقون الغربيون قراءة النقوش البهلوية والأوستائية واكتشاف نقوش دارا وقورش ، التى كان الناس يقولون إنها من كتابة الشياطين والجن ، وبدأ الاستشراق عمله فى أوربا لمصالح علمية وغير علمية ، ثم اكتشفت كل العهود القديمة دفعة واحدة .

ليس المفكر فيلسوفا ، وليس عالما ، وليس رجل دين ، وليس عرقيا قوميا ، وفى نفس الوقت يستطيع أن يكون واحدا من هؤلاء ، لكن ماهو مبدأ بالنسبة له ، ومايكون معيار صحة مدرسة ما أو سقمها أو حقانية رأى ما أو بطلانه ليس القضايا العقلية والذهنية والفلسفية والعلمية ، وليس الأدلة المنطقية

والإلهامات الإشراقية ، بل فى كلمة واحدة البنية التحتية لاعتقاد مجتمعه وحريته ، وأساس مسئوليته منح الوعى الذاتى الاجتماعى والقومى والطبقى والإنسانى لقومه .

هل الماركسية إيديولوجية ؟ بين الاشتراكية العلمية (الماركسية) والاشتراكية :

على كل حال أيا كان التعريف الذى نقبله بالنسبة للمفكر ، فينبغى أن نتفق على هذا المبدأ وهو أن المفكر المستنير هو مفكر واع له أيديولوجية محددة ، إيديولوجية تتفرع منطقيا من رؤيته الكونية . ولاأستطيع هنا أن أقوم ببحث عن الأيديولجية وأن أطرح معانيها المختلفة ، خاصة – وخلافا لما يدور فى أذهان الماركسيين الرائجين أو من يعبر عنهم كاسترو ببغاوات الماركسية – ليس لمصطلح الأيديولوجية كحال مصطلح الطبقة الاجتماعية فى الآداب الاشتراكية معنى ثابت ومحدد فهم غالبا مايظنون أن الأيديولوجية هى المدرسة الفكرية والعقيدة الخاصة لطبقة اجتماعية ما ،

تقوم هذه الطبقة عن طريقها بتبرير نفسها وتحديد مثلها ومسير حركتها واتجاهها وكيفية نضالها الطبقى أو على سبيل الخلاصة : أهدافها ، لكن من باب التوسع استعملت هذه الكلمة أيضا بشأن الأمة ، ومن هنا سمى ماركس كتابه المشهور « الأيديولوجية الألمانية » ولكن الطريف جدا وجود اختلاف جذرى وتناقض فكرى شديد بين ماركس والماركسية ، فإن الماركسية بسبب وضعها الاجتماعى والفكرى شبه الدينى ابتليت بمرض « الابتلاء بالعامة » وأعراض هذا المرض كما يبدو قد ظهرت بشدة فى زمان ماركس وأحس هو نفسه به ، وكان يتألم منه كثيرا ، بحيث صرخ ذات مرة فى جماعة من المريدين المتعصبين النمطيين الذين اختلفوا معه فى (التبرير الماركس لقضية ما : « إننى ماركس نفسه آخر الأمر ، لست ماركسيا » .

وأحد الخلافات الشديدة بين ماركس والماركسية كان بشأن الأيديولوجية ، والسمة الأساسية البارزة الفكرية عند ماركس هى خلافه الشديد والأساسى

والمطلق مع الأيديولوجية ، فى حين أن الماركسيين يتحدثون دائما عن الأيديولوجية الماركسية ، فماركس يعتبر الأيديولوجية نتيجة ذهنية للمنظرين . وبصرف النظر عن الأيديولوجيات الخائنة المنحرفة التى وضعها مفكرون مرتبطون بالطبقة الحاكمة من أجل تبرير الوضع الراهن ، يؤمن عموما بتفسير التاريخ والمجتمع ورسم المطلوب من أجل المستقبل ، وكل أيديولوجية حتى ولو كانت اشتراكية مُدافعة عن مصالح طبقات الشعب الكادحة والمستغلة ومعادية للقواعد الفكرية والاقتصادية والاجتماعية للطبقة الحاكمة لأنها من صنع مفكر ومن عمله أو من صنع فيلسوف ومن عمله ، ولأنها خطة مطلوبة ، ولأنها عقيدة مرغوبة ولأنها التزام طريق معين للوصول إلى المطلوب وأخيرا لأنها تقول :«هكذا ينبغى الفكر وهكذا ينبغى العمل وينبغى الإيمان بهذه الشعارات والجهاد لتحقيق هذه الأهداف » .

بسبب كل هذا فهى مرفوضة أساسا وغير علمية . وأساس الاختلاف بين اشتراكية ماركس وبين الاشتراكية والشيوعية عند المعاصرين له والسابقين عليه أن الاشتراكية كانت بالنسبة لهم عقيدة وبالنسبة له علما ، ومن هنا كان يعتبرهم من أصحاب المدينة الفاضلة . أى أن المجتمع الاشتراكى بالنسبة لهم مدينة فاضلة « يوتوبيا » ، وهى أمل كل محبى البشر وطلاب العدالة والمفتونين بالمساواة والاخاء والحرية بين الناس ، وهى الحاجة الفورية والنجاة الحيوية للجماهير المحرومة المغتصبة والمستعبدة فى المجتمع الظالم الطبقى ومن ثم ينبغى الجهاد لتطبيقها على الأرض وتبديل النظام الاقطاعى الظالم أو النظام البورجوازى أو الرأسمالى إلى نظام انسانى اشتراكى . هذه هى أيديولوجيتهم وهذه هى العقيدة التى يؤمنون بها ، لكن ماركس يعلن فى مواجهتها اشتراكية علمية أى أن الواقعة العينية للتاريخ تتحرك مرحلة بمرحلة على أساس قوانينها الحتمية الخارجة عن متناول يد الارادة والفكر والعقيدة وتتطور وتصل طوعا أو كرها إلى هذه المدينة الفاضلة .

والانسانية ليست مصباحا يضعه ذكاء أفراد من البشر وابتكارهم وتكنيكهم ليضيئوا بها الليالى المظلمة ، ويبددوا الظلمات والمتاهات وأنواع الحرمان

المتولدة من ظلمة الليل ، الاشتراكية شمس تسطع قطعيا فى الغد على أساس حركة المنظومة الشمسية وعلى الرغم من كل قوى حرس الليل واختراعاتهم والمستفيدين من الظلمة ومن عمى الناس ليلا ، سوف تضىء كل مكان فى العالم ، وسوف تحكم العالم ، أما أيديولوجيتهم فتقول ينبغى صنع مصباح وإضاءة الليل،ينبغى هدم الرأسمالية وإقامة الاشتراكية ، لكن الماركسية ترى أن نصرها أكيد ونهائى ومنظم والمنطقى لحركة التاريخ .

واشتراكية المنظرين اقتراح أما الاشتراكية العلمية فنبوءة ، الأولى تقول : ينبغى القيام بهذا الأمر أخلاقيا ، والثانية تقول : بل القاعدة أن يكون هكذا ، الاشتراكية اختراع بالنسبة للأول لكنها بالنسبة للثانى كشف . ويدعى ماركس أنه اكتشف قانون حركة قافلة التاريخ ، وعلى أساس هذا الكشف العلمى لاحظ أن الاشتراكية سوف تكون بالتأكيد المنزل الأخير ، ومن هنا يقول ماركس إنه لاينبغى أن يدعى الناس إلى الايمان بالأيديولوجية الماركسية بل ينبغى تعليمهم قوانين تطور المجتمع وأسلوب كشف حركة التاريخ ، إن الاشتراكية تريد أن تعطى الناس إيمانا دينيا أما الاشتراكية العلمية فتعطيهم « وعيا علميا » والأيديولوجية الاشتراكية مسألة ذهنية وشخصية أما الماركسية فأمر عينى وموضوعى ، الأولى حقيقة لكن الثانية واقع .

ومن هنا فالماركسية ليست أيديولوجية،ليس هذا فحسب ، بل هى مسيرة فكرية مضادة تماما للأيديولوجية . فالماركسية فى الواقع لاهى مدرسة عقائدية ولامذهب أخلاقى ولاتكنيك اجتماعى ولامدرسة فلسفية ولانظام مطلوب إقراره محل النظم الموجودة بل هى فى عبارة واحدة أسلوب كشف التاريخ أو فهم مسير حركة ومواصلة المنازل المعينة التى يقطعها باستمرار وعالم التاريخ . معه وتلقائيا سوف يصل إلى الاشتراكية أى إلى المنزل الأخير ، ومن هنا فإن من يسمى الماركسية أيديولوجية لم يعرفها وقام بتحريف واقعها بل نسب إليها ضدها كأن يقول أحد الدرويين « الأيدلوجية الداروينية » أو يستخدم عالم من علماء الرياضة تعبير « الأيديولوجية النسبية » .

لكن مع كل ذلك : الماركسية آيديولوجية لأنه : أولا : من السذاجة بمكان الادعاء بأن علم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم الإنسان قد بلغت درجة فى القرن التاسع عشر بحيث يستطيع عالم فيلسوف مهما كان نابغة أن يصل إلى كل القوانين ، كان جورج جوروفيتش عالم الاجتماع المعاصر العظيم قد قال فى أحد دروسه إن أحد علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر كان قد اكتشف ١٩٨ قانونا علميا فى علم الاجتماع فى حين أن علماء الاجتماع اليوم لايدعون كشف قانون علمى واحد مسلم به والعلم كلما تقدم تواضع وعلم الاجتماع فى القرن العشرين أكثر العلوم تواضعا ، وهذا الاعتراف لايؤيد وجهة نظر تلك الجماعة التى ترى التاريخ واقعا عينيا وعلميا ، والمجتمع جسدا واحدا حيا مثل كل الموجودات المادية والظواهر الطبيعية ، وعلى أساس من القوانين المسلم بها والروابط المنطقية العلية يعيشان ويتحركان وينضجان ويولدان ويموتان ويعتبرون هذين صورتين ذهنيتين ، ويعتقدون أن هذا الذهن الإنسانى الذى يصنع الكليات والذى يصور مجموعة من الحوادث والوقائع المتفسخة القديمة المتولدة من إرادة الأفراد والجماعات « وحدة متصلة عينية ، وأن المجتمع الذى هو عبارة عن تجمع من الأفراد وعلاقات بينهم وحدة متصلة عينية ومستقلة عن الأفراد الذين كونوه . مثل هذه النظرية ليس لها اليوم طابع علمى ، ويتحدث عنها أفراد لاعلم لهم قط بالنسبة للمجتمع والتاريخ ليس هذا فحسب بل يفتقدون الرؤية العلمية أساسا .

وقول جوروفيتش على العكس تماما دليل الاعتقاد الشديد والجدى عند علماء الاجتماع فى القرن العشرين بمبدأ علمية الواقع العينى للتاريخ والمجتمع ، وتحذير العلماء من فرض فرضيات ذهنية واهية وأحكام لا أساس لها وآراء خاصة أو آمال وأهداف شخصية وجماعية وطبقية ودينية وقومية وعرقية .. على المجتمع والتاريخ ، وصناعة نوع من فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع حسب الحاجة ومصلحى ومفيد . وهناك فرق بين ذلك المفكر الذى يكشف القوانين العلمية فى المجتمع ويكتشف المسيرة الحقيقية لحركة التاريخ ، ثم يحدد أهدافه على أساس هذه المعطيات والمعلومات العلمية وبين المفكر الذى يقوم بتحليل مطلوب للمجتمع وتحديد لمسيرة التاريخ على أساس آرائه وأحكامه المسبقة والمحددة سلفا .

المفكر والعلموية :

وهنا ، احترازا عن سوء الفهم أو سوء التعبير عن الفكرة أقول : إننى كما ذكرت آنفا لست مؤمنا بالعلم الحر أو العلم الملتزم ، فالأول عبارة عن جعل العلم بلا فائدة وفصل للفكر والنبوغ عن حياة الناس ، ومصير المجتمع البشرى والأمم المتأخرة والمحرومة التى سقطت ضحية للجهل والفقر والاستعمار الجديد والاستغلال الطبقى وتخليص أغلب البشرية من نظام لاإنسانى ، والثانى مسخ للعلم وبالتالى فصل الفكر والعلم والنبوغ عن الواقعية العينية والمعرفة العلمية والحقيقية للطبيعة والتاريخ والمجتمع والإنسان ، لأنه بمصطلح الحديث النبوى المشهور جدا والعميق والمنهجى عن تفسير القرآن وهو يعنى أن تفسير واقع ما بالرأى « سواء كان ظاهرة طبيعية أو أثرا أدبيا أو فنيا أو شخصية إنسانية عظيمة » بقدر ماهو مفيد وذو مصلحة فى إثبات رأى « عقيدة أو نظرية » الا أنه بالنسبة للوعى العلمى والمعرفة الحقيقية عبارة عن واقع مضر ومخالف للحقيقة .

وبين هذين الطرفين وأحدهما يؤدى إلى التضحية بالواقع فى سبيل المصلحة ، والآخر يؤدى إلى التضحية بالمصلحة من أجل الواقع ، هناك طريق ثالث هو تطبيق المصلحة على مقتضى الواقع ، أى علينا ألا نفرض الأهداف على العلم فنصل إلى اسكولائية جديدة (كما فعل النظام الرأسمالى اليوم ومبدأ عبادة الاستهلاك فى الغرب إذ أخرج العلم من خدمة الكنيسة وأدخله فى خدمة رأس المال) ، وأيضا علينا ألا نؤمن بهذا الادعاء الواهى المغرض للعلمويين والمتظاهرين بالعلموية وهو أن نترك العلم ليحدد أهدافه بنفسه ويحملنا معه إلى حيث يذهب ، لأن العلم ليس مرشدا ولايعين الهدف أو يختار الطريق أو يستنتج .. والطريق الثالث هو أن نحدد بعد أبحاث حرة وبحوث علمية غير ملتزمة الأهداف العلمية والمصالح الحيوية المعنوية والمادية بالنسبة لنا ونختارها .

ومن هنا فالمفكر عالم ينقسم عمله إلى مرحلتين : فهو فى المرحلة الأولى علموى ، ليس له رأى مسبق أو التزام سياسى أو طبقى أو دينى أوغيره ، إنه

يبحث فى التاريخ والمجتمع وكأنما لاهدف له إلا فهم واقعهما، لايريد أن يثبت مبدأ بعينه ولايريد أن يصل الى نتيجة معينة أو هدف ثابت، انه يريد أن يعرف فحسب ويكشف، وبعد أن ينتهى من هذه المرحلة وهى مرحلة العلم من أجل العلم أو العلموية، يعود حينذاك نحو الإنسان أو المجتمع أو الطبقة التى يحمل « التزاما إنسانيا بالنسبة لمصيرها أو سيرها، ويفكر فى آلامها واحتياجاتها ويجاهد فى اختيار الطريق والهدف على أسس المعرفة العلمية والواقعيات العينية والقوانين العلمية التى اكتشفها، ويبرز هذا الطريق، ويدفع الحرية والإرادة الانسانية إلى استخدام هذه القوانين العلمية من أجل تحقيق الأهداف الإنسانية والاجتماعية والطبقية لديه. وهذه هى الأيديولوجية، الأيديولوجية العلمية، فلا هى من صنع ذهن فيلسوف، ولاهى وليدة موهبة سياسى أو قائد، لكنها عبارة عن « تكنيك : فن ».

أجل، فالأيديولوجية الحقيقية عبارة عن تكنيك، ليست علما ولافلسفة، لاهى عمل فقط ولا أخلاق، وماهو الفرق بين التكنيك والعلم ؟ فى التكنيك : الهدف والنتيجة الغائية مقدمة على التكنيك والإنسان هو الذى يحددها، والإنسان هنا فى حالة تلقى وقبول، هو تابع ومستسلم محض للواقع الخارجى، ليس له أدنى حق فى التدخل فيها، لكن التكنيك عبارة عن فرض الإرادة الإنسانية على القوانين الطبيعية، وبتعبير آخر : استخدام العلم بوسيلة الإرادة الواعية (١) عند الانسان من أجل الوصول الى مايريده. ومن هنا فالعلم سعى الانسان من أجل فهم الطبيعة وكشف ماهو فى الطبيعة، والتكنيك سعيه من أجل استخدام الطبيعة وخلق ماهو ليس فى الطبيعة، ومن هنا فالأيديولوجية بمعناها الخاص هى التكنيك بمعناه العام.

---

(١) هذا الوعى من الممكن أن يكون تجريبيا كما أن أسس التكنيك القديم مثل صناعة طاحونة مائية أو هوائية كان على الدوام أمرا تجريبيا (فالطفل دون أن يعلم معادلات فيزيائية أورياضية متعلقة بالحركة والجاذبية والجو وغيره يقوم بصنع طائرة ورقية واطلاقها فى الهواء) ومن الممكن أن يكون وعيا علميا، والتكنيك المتقدم الجديد هكذا.

فعالم النبات ينقسم عمله إلى مرحلتين : المرحلة العلمية وهى عبارة عن كشف قوانين النبات ومعرفة أنواع النباتات وعلاقتها بالبيئات الطبيعية المختلفة ومعرفة قوانين التلاقح والنمو والإثمار والتطعيم والشتل والتدهور والرقى الكمى والكيفى لكل واحد من أنواعها ، ومجموعة هذه المعارف هى التى تكون علم النبات ، والمرحلة الثانية هى المرحلة التكنيكية والعملية فى عمله وهى عبارة عن الطرق (المنهج) والوسائل (الأدوات والآلات) المختلفة التى يخترعها على أساس هذا العلم حتى يحصل على ماليس موجوداً فى الطبيعة ويريده[1] ، وباستخدام القوانين العلمية الموجودة فى علم النبات كما يهوى يحول المسير الطبيعى لحركتها الكمية والكيفية إلى الجهة التى يريدها ، وبإحلال قوانين محل قوانين أخرى ، يحطم حتميتها ويفرض عليها الحتمية التكنيكية الإنسانية ، وعلى سبيل المثال يجعل من الغصن الذى تحمله الحتمية الطبيعية على أن يكون شجرة تفاح ويثمر تفاحا برياسىء الطعم ، يغير هو مساره الطبيعى الحتمى على أساس من المعرفة العينية والواقعية لقوانين هذه الحتمية وباختراع أساليب وأدوات جديدةويوجههالى أن يكون شجرة كمثرى ، يثمر ثمارا من الكمثرى غير عادية وموجهة .

والمفكر أيضا ينقسم عمله إلى مرحلتين : فى المرحلة الأولى وهى المرحلة العلمية من عمله يجاهد من أجل أن يفهم واقعا علميا وعينيا يسمى المجتمع ، ويكتشف قوانين الحركة والتطور والتكامل وعوامل الفترة والانحطاط والارتقاء لواقعية مستمرة عينية تسمى التاريخ ، وفى هذه المرحلة لايكون لديه التزام أو تعصب قط إلا إدراك الحقيقة ومعرفة الواقعية العلمية للتاريخ والمجتمع ، فهو قرين لعلموى ومساعد له ، وبعد أن يكتشف سلسلة من القوانيين الاجتماعية ويحصل على الأصول المسلم بها لحركة التاريخ وتطوره ويكتشف حتمية التاريخ (بتفسيرى وهو يعنى المسيرة الطبيعية لحركة التاريخ دون تدخل إرادة الإنسان الواعية تماما مثل المسير الطبيعى والحر لنمو الشجرة البرية) وعلى أساس هذه المعارف العلمية والعينية ، يطرح أيديولوجية وهى عبارة عن الأهداف

---

(١) ينتج أنواعا جديدة أو متكاملة وعالية من الورود والنباتات.والأشجار والثمار لم تكن موجودة فى الطبيعة دون تدخل الإنسان ولاتستطيع الطبيعة أن تنتجها .

والمطالب الإنسانية والاجتماعية والطبقية عنده والأساليب والطرق التى توجه التاريخ من مسيره الطبيعى أو المنحرف إلى تلك الناحية .

وخلافا لما وقر فى الأذهان ، ليست الأيديولجية دائما من صنع ذهن أو من نسيج طبع فيلسوف أو كاتب ، أو مظهرا للأحلام ومثل المدينة الفاضلة وبعيدة عن الواقعية العينية - بالرغم من أن كل الأيديولوجيات المصنوعة والمستخدمة حاليا هكذا بدرجة أو بأخرى - فالانسان ولأنه إنسان ، لديه الاستعداد العلمى لادراك الطبيعة والمجتمع وفهمهما ، ليس هذا فحسب ، بل ولديه قدرة الخلق والإبداع والتوجيه والاستخدام أيضا ، ولديه احتياجات فوق عادية وميتافيزيقية[1] .

ولأقدم خلاصة لما فصلت القول فيه :

١ - ليس من الملزم أن يكون المفكر فيلسوفا أو عالما أو عالما اجتماعيا أو فنانا أو سياسيا ، أو على حد تعبير آخر ، متعلما لكنه « إنسان واع ذو اتجاه اجتماعى واحساس بالارتباط الجماعى والالتزام الإنسانى تجاه هذه الجماعة .

٢ - هذه الجماعة التى يطرح التزام المفكر بالنسبة لها هى فى الأصل جماعة تواجه قضايا إنسانية وعن وعى أو غير وعى هناك المستسلم أو العامى الذى يعيش فى المجتمع البشرى فى عصرنا فى مواجهة الأقلية الحاكمة ، أو الأمة فى مواجهة الاستعمار الاقتصادى والسياسى والثقافى أو الطبقة الكادحة المحرومة فى مواجهة التفرقة والاستغلال والنظام الطبقى .

٣ - هذا الشرط « الإنسانى » أو « الأخلاقى » بالنسبة لالتزام المفكر نتيجة لأن المنافع المشتركة الاقتصادية والاجتماعية لاتستطيع وحدها أن تضمن هذا الالتزام لأنه : أولا : من الممكن أن يكون المفكر عضوا من طبقة مستغلة أو مجتمع مستعمر (بجر الميم) وهكذا أغلبية المفكرين ، لكن فى نفس الوقت يكون ملتزما تجاهه ، بحيث إن كثيرا من القادة والأبطال والمفكرين والكتاب والفنانين العظام الذين كانوا من الرأسماليين وأولاد الأشراف والإقطاعيين أو رجال الدين المنتسبين الى الطبقة المتوسطة ، وقاموا فى طليعة العمال والفلاحين ضد طبقاتهم

---

(١) لست أقصد بالحاجات فوق العادية والميتافيزيقية المعنى العرفانى الفلسفى فحسب ، بل إن كل مايريده وليس موجودا فى الطبيعة العادية يصر على صنعه (بالصناعة أو الفن) عبارة عن رغباته الميتافيزيقية ، وكثير من رغباته المادية من نفس هذه المقولة .

(وهذا فى حد ذاته أحد المبادىء المطلقة الخالدة للأخلاق ، الأخلاق غير النسبية) ، كما كان هناك رجال أحرار ضحوا حتى بأرواحهم بسخاء فى سبيل حرية أمم من الاستعمار الأجنبى أو الاستبداد الداخلى دون أن يكونوا من أبناء هذه الأمم بل وكانوا من نفس الدول المستعمرة « بكسر الميم » ، حتى فى عصرنا ذهب كثير من المفكرين المناضلين من فرنسا وانجلترا وأمريكا إلى أسبانيا وحاربوا الفاشية لتحرير الجمهورية الأسبانية ، وهناك كثير من الأوربيين بل والفرنسيين دخلوا الحرب عمليا إلى جوار جبهة التحرير الجزائرية ضد فرنسا ، والبيض الذين انضموا إلى السود فى حركة الحقوق المدنية ضد أمتيازاتهم هم أنفسهم ، وإلى جوار هذا ، هذا الالتزام بالنسبة للمفكر التزام إنسانى لأنه حتى ولو كان عضوا فى مجتمع مبتلى بالاستعمار أو من طبقة مستغلة فإن مايدفعه إلى الوفاء بالتزامه فى أية ظروف هو أخلاقه وإيمانه بالقيم الإنسانية التى تعلو على القيم الاقتصادية والكسب ، لأنه بالقياس إلى عامل أو فلاح أو أى عضو فى مجتمع متخلف مبتلى بالاستعمار ، خاصة إذا كان مفكرا مستنيرا تمنح له الفرصة دائما لتأمين مصالحه الاقتصادية بعيدا عن مصالح طبقته ومجتمعه ، والذى يمنعه من ارتكاب هذه الخيانة هو الأخلاق أى القيم الإنسانية السامية والخيالية .

٤ – بناء على قول جورروفيتش « لايوجد مجتمع بل توجد مجتمعات ، إذا أمكن الاعتقاد بأنه لايمكن فى علم الاجتماع تحليل كل المجتمعات والظواهر والعلاقات والمشاكل الاجتماعية المعقدة التى لاحصر لها على أساس قوانين وأصول صحيحة ودقيقة وثابتة وكلية وفى دقة العلوم البحتة مثل الرياضيات والفيزياء وحسمها ، كما أنه لايمكن القيام بتنبؤ نهائى للتاريخ والتطورات الاجتماعية ، لأن علم الاجتماع لم يتخذ حتى الآن صورة علم دقيق وكامل ، ينبغى إذن على المفكر ألا يعتمد على نظريات العلوم الاجتماعية وفرضياتها الكلية ، وأن يتجنب تطبيق الواقعيات الاجتماعية المحسوسة عليها منها ، وبدلا من ذلك عليه أن يقوم بالمعرفة المباشرة لمجتمعه عن طريق البحث فى التاريخ والاحتكاك بالمجتمع والتفاهم مع الجماهير وإيجاد روابط جماعية وطبقية ، وبحث الأسس والمؤسسات والثقافة والدين والخصائص العرقية والقومية والاجتماعية والعواطف والشخصيات القومية والأسس الاقتصادية والطبقية فيه ،

بمعنى أنه لمعرفة الدين أو الطبقة البورجوازية فى مجتمعه عليه بدلا من أن يلجأ إلى ترجمة علماء الاجتماع أو أفكار الاشتراكيين أن يذهب هو نفسه برؤيته العلمية وأسلوبه الدقيق والمنطقى إلى دينه والتحليل الطبقى لبورجوازية مجتمعه ، أى عليه أن يقوم بنفس العمل الذى قام به الاشتراكيون العلماء فى أوربا ، ومن هنا فإن تقليد نظريات علماء الاجتماع وأحكامهم وترجمتها وتحليلها على الواقع الموجود فى مجتمعنا مرفوضة وغير علمية ومضادة لعلم الاجتماع ، بقدر ماهى ضرورية ولايمكن تجنبها ومعرفة أسلوب العمل والرؤية ومعرفة المدارس والنظريات الاجتماعية من أجل الدراسة والتحقيق المستقل والمباشر للمجتمع لأننا نستطيع أن نقلع عن تقليد الأوربيين ونصل إلى استقلالنا العلمى والفكرى حين نتعلم أسلوب العمل عند الأوربيين ونعرف أعمالهم بدقة معرفة صحيحة لأأن نكرر أحكامهم وآراءهم ونعمل بها ، ولاوجه للشبه بين هذين العملين ، كما أن أخذ الوصفة من الطبيب وتنفيذ ما فى الوصفة دون استفسار قضية ، وتعلم الطب وأسلوبه فى الكشف والتشريح قضية أخرى ، وهناك طريق ثالث : وهو عدم الرجوع إلى الطبيب فى الأصل ومن أجل الاستقلال وعدم التقليد واعتمادا على ثقافة المرء وأفكاره ، القيام بالعلاج على طريقة النسوة العجائز وأدويتهن وسحرهن ودجلهن . الطريق الأول هو أسلوب العمل عند مفكرينا المتفرنجين العصريين والطريق الثالث هو أسلوب تفكير أشباه رجال الدين وطريقة عملهم ، والطريق الوحيد معرفة القضايا والمدارس العلمية والأيديولوجية الجديدة فى ميادين التاريخ والمجتمع والاقتصاد والسياسة ثم نسيانها كلها ، والسعى فى طريق المعرفة المباشرة والمستقلة للواقع التاريخى والمجتمع والثقافة والدين والإنسان وكل هذه الجوانب كما هى موجودة بالفعل ، وهذا برؤية ومنهاج علمى اجتماعى جديد وطرح حلول وتحديد أهداف على أساس هذه المفاهيم .

٥ - الاعتقاد بالمبدأين « الحتمية العلمية للتاريخ والمجتمع » و « إرادة الإنسان » بحيث يستطيع المفكر كعالم الفيزياء وعالم النبات ، وبقدر وعيه ومعرفته بالقوانين الموجودة فى قلب الواقع العينى لتاريخه ومجتمعه أن يسيطر على حتميته العلمية ويستخدمها فى سبيل تحقيق مثله . والإنسان الواعى الخلاق ليس قادرا بالمرة على نقض قانون علمى أو خلق آخر لكنه بإحلال قانون محل آخر ،

والسيطرة على القوى والظواهر العينية ، سواء فى الطبيعة أو فى المجتمع أو فى الفرد ، يجعل « الحتمية » تحت سيطرته ، ويغير مسيرها وفق هواه ، والإنسان كارادة واعية وخلاقة ومثالية يستطيع أن يتدخل بنفسه بصورة علة فوق طبيعية فى مسيرة حتمية الطبيعة وعلاقة العلة بالمعلول .

والاعتقاد بالحتمية المطلقة أو الطبيعية أو المجتمع بشكل يبين أن الإنسان مخلوق مطلق لهذه الحتمية ، هو بتعبير جورروفيتش « نوع من الكسل » لأ نه مثل الاعتقاد بالقضاء والقدر السماوى والمصير المحتوم المسبق والمشيئة الإلهية ، بما أنه ينفى عن الإنسان إرادته وحريته المستقلة كقدرة يستطيع بها أن يخلق نفسه ومجتمعه ، كما أنه يسلب منه المسئولية أيضا .

وينبغى أن نضيف هذا التنبيه وهو أن البحث هنا عن الإنسان بشكل مطلق لامعنى له ، لأن الإنسان بقدر وعيه العلمى والذى يجد القدرة الفنية على أساسه يستطيع كعلة حرة أن يسيطر على حتمية البيئة ويغير نفسه ومسيرة تاريخه وشكل مجتمعه على الرغم من كل العوامل الحتمية ، وإلا فان الإنسان غير الواعى موجود طبيعى صرف من صنع العوامل والظروف المادية والاجتماعية ... الخ ، ومن تربيتها ... مجرد ثمرة من ثمار الخربوزك تأخذ لونها وطعمها وشكلها ووزنها ونوعها من الطبيعة ومن مقتضيات الرى والتربة والجو والموسم والحوادث الجزئية والطبيعية .

وبقدر مايجعل الاعتقاد بالجبر المطلق الإنسان فاقدا للارادة والمسئولية وينزل به إلى مستوى نبات أو حيوان ، فإن الاعتقاد بالحرية والإرادة المطلقة الإنسانية ونفى القوانين العلمية الموجودة فى الطبيعة والتاريخ والمجتمع خارج الإنسان ، يجعل الإنسان فاقدا للوعى العلمى والقدرة التكنيكية ويجره إلى عالم الخيال والأسطورة واصطناع الفلسفات وكثير من المتعصبين الجامدين الذين يعتقدون اعتقادا جازما بحتمية التاريخ ، والتدخل الكامل للبنية الاجتماعية والبنية التحتية الاقتصادية والذين يعتبرون الإنسان من صنعها صرفا ، ويعتبرون عامل الإرادة

والفكر ليس علة بل معلولا لعلة خارجية هى الطبيعة أو الحتمية التاريخية أو الإنتاج الاقتصادى ، ولإثبات هذه النظرية يحتجون بالنوابغ العظام والكتاب والمفكرين والفنانين والشعراء والأبطال والشخصيات الاجتماعية من أمثال أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث وكونفوشيوس ونابليون ، ويقولون إن هؤلاء بالرغم من نبوغهم وبالرغم من أنهم كانوا يفكرون فى مستوى يفوق بيئاتهم الاجتماعية وقاموا بإبداع أعمال فنية غير عادية واختراعها ، يمكن فى نفس الوقت البحث عن روابط العلة والمعلول بينهم وبين بيئاتهم ، وبيان كيف أن الظروف الاجتماعية والمقتضيات الناتجة من شكل الإنتاج والمرحلة التاريخية لمجتمعاتهم هى التى أوجدت نوع الرؤية الكونية والرؤية والعقائد والميول الفكرية والعاطفية والمعايير الأخلاقية والنمط الذوقى عندهم ، وأشكال أفكارهم وآثارهم وأعمالهم الفنية ومحتوياتها ، وبهذا التحليل يستنتجون أنه حتى المواهب العظيمة الفلسفية والفنية الخارقة للعادة ، والإرادات القوية للشخصيات والقيادات وليدة للبيئة الخارجية .

والقضية هى أن المفكر والفيلسوف والأديب والفنان والزاهد والأخلاقى والبطل والقائد شىء وعالم التاريخ وعالم الاجتماع وعالم الإنسان شىء آخر ، فأرسطو بالرغم من أنه « المعلم الأول » ومن أعظم الفلاسفة العقليين ، وبوذا بالرغم من أنه أقوى الأرواح الإشراقية فى التاريخ ، لكن كليهما كانا أسيرين للطبيعة مثل بشربدائيين ونصف وحشيين ، وكانا فى مواجهتها بلا سلاح أو دفاع ، ولمْ يكن لهما نصيب حتى من البخار والعجلة ، فى حين أن أى فتى بسيط لايستطيع فى القرن العشرين أن يفهم كلام هذين ، مجهز فى مواجهة الطبيعة ويسيطر على أقوى قواها ، والسبب فى هذا واضح فالنبوغ والفلسفة والأدب والفن كلها أمور عاجزة فى مواجهة الطبيعة ، كانت أثينا مليئة بهذه الثروات العظيمة والقدرات المدهشة ومع ذلك فقد كانت ترتعد لأقل عبوس من الطبيعة تماما مثل قبيلة بدائية ، وعالم الطبيعة هو فحسب الذى يضع زمام التكنيك حول عنقها ويمتطيها ، حتى ولو كان شخصا يضيق تلاميذ سقراط من انعدام إحساسه ، والمفتونون بهوميروس من « قلة ذوقه » والطفل الذى يطلق طائرة ورقية فى الجو انتصر على الطبيعة أكثر من سقراط وأفلاطون وسان أوغسطين والغزالى وبوذا ولاوتسى .

وهكذا أيضا بالنسبة للمجتمع ، يستطيع الإنسان كعلة مستقلة أن يدخل فى سلسلة العلل التاريخية الاجتماعية وينتصر على المجتمع ، ويلجم قوى المجتمع الطبيعية لصالحه ويغير شكلها بمجرد أن يعرفها ، وعلى أساس معرفته العلمية هذه ، يطرح تكنيك تغييرها والثورة عليها وإصلاحها والعمل على تكاملها كما يهوى ثم يعمل بما طرح ، إن الوعى الاجتماعى الصحيح هو الذى يصنع المجتمع لا الفلسفة ولاالفيزياء ولاالكيمياء ولا الطب ولا الفن أو الأدب والشعر .

٦ - على أساس هذه الواقعية الجدلية بين الجبر والاختيار أو الانسان والبيئة (الطبيعة أو المجتمع) أو بتعبير ديكارت تقابل «باطن الذات أو الذهن» و«خارج الذات أو العين » أو بالمصطلح القرآنى « سنة الخلق والناس » فإن كل القضايا الإنسانية المادية والمعنوية والفردية والاجتماعية فى صيرورة وجريان ، والمفكر ارادة واعية وهو عالم بهذه الحقيقة القائلة أنه كلما كان الناس أكثر علما بالحتمية التاريخية والقوانين العلمية للحياة والحركة الاجتماعية وبنية مجتمعهم ، وكلما نضج وعيهم الذاتى الإنسانى والاجتماعى والطبقى نضجا علميا وصحيحا ، سوف تكون لديهم القدرة أكثر على تحطيم الحتمية التاريخية والطبيعة الاجتماعية التى فرضت عليهم قسرا وفى غفلة منهم ، وسوف يجعلون من العلل التى صنعت حتميتهم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والطبيعية معلولة لإرادتهم الواعية الخلاقة والمدبرة والطموحة إلى المثل ، ومن هذا الطريق فحسب يستطيع الناس - أى اولئك الذين صنعوا فى المجتمع على غفلة منهم[1]

---

(١) هنا يتضح عبث البحث المعروف الذى راج بيننا والذى فحواه : هل الأديب والكاتب والشاعر هم الذين يصنعون المجتمع والحضارة أو الطبيب وعالم الفيزياء والمخترع والمكتشف والمهندس هم الذين يصنعونها . المجتمع المعاصر يصنعه أولئك الذين يعرفون المجتمع ويعلمون تكنيك تغييره وتكوينه ويعملون بما يعلمون ، وكما قلت فى « إسلام شناسى : معرفة الاسلام » : إن القضية الغامضة التى لاتحل أى قضية الجبر والاختيار التى طرحت فى الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الإسلامى بشكل مسهب فيه وغامض وغير مفهوم ، قضية واضحة تماما ومنطقية جدا وعلمية وصريحة ومقنعة . فـ « السنة » هو القانون المسلم به والنهائى وغير القابل للتبديل وتمثله القوانين العلمية والروابط الجبرية العلية فى الطبيعة المادية والمجتمع الإنسانى ، أما الناس أو الإرادة الواعية المسئولة فليست مسيرة أو مجبرة غافلة لهذه القوانين الجبرية « السنة » لكنها مشروطة ومقيدة ومحددة بها . والمنزلة بين المنزلتين بهذا المعنى أى الناس مع السنة . إسلام شناسى ص ٥٠ .

أن يصبحوا الصناع الواعين فى المجتمع ، وهذا المبدأ بقدر ماهو ممثل لحقيقة علمية محدودة ومسلم بها ، هو الذى يحدد طريق المفكر ومسئوليته العامة والدائمة .

والنضال ضد الاستبداد والاستعمار والاستغلال والقضايا الفورية الحيوية من قبيلها هى التى تحدد الهدف الغائى للمفكر ومسئوليته المطلقة والأبدية ، لأن هذه القضايا فى حد ذاتها ليست واقعيات مطلقة وأبدية لكنها مصائب وموانع عاقت طريقه ، ولما كان التحرك محالاً إلا بالقضاء عليها ، فإنه مضطر إلى الجهاد للقضاء عليها وتحطيمها ، وهذا مصداق آخر لذلك المبدأ الكلى الذى تناولته ومضطر فى الغالب إلى تكراره وهو أن « الاقتصاد مبدأ وليس هدفا » . (١)

٧ – أن رسالة المفكر ليست القيادة السياسية للمجتمع ، وبالرغم من أن القائد السياسى يستطيع أن يكون مفكرا فالرسالة الأساسية للمفكر هو منح الوعى الذاتى السياسى والاجتماعى والطبقى للناس ، أى للأمة والطبقة المحكومة المستغلة « بفتح الغين » .

٨ – بالنظر إلى العالمية والقومية والدين « التقليدى » من ناحية الرابطة المشتركة التى يمكن أن تقيمها بين الطبقات الاجتماعية ، تعد مسائل تصيب البصيرة

---

(١) وهذا عامل يستوجب أن أرى نفسى متفقا فى العمل مع أناس أختلف معهم فى الفكر وينبغى أن يكون الأمر هكذا ، وهكذا أنتظر من مخالفى فى الرأى رفاقى فى الطريق . والأمر يشبه أن أخوين ورثا منزلا عن أبيهما وكلاهما يريد أن يبنيه من جديد بحيث يدخله الهواء والنور وتفتح نوافذه على فضاء فسيح وتتوفر فيه الراحة والحرية والطمأنينة وتتجمع فيه كل الوسائل الحديثة للراحة والرفاهية ، وتكف عنه أيدى الغاصب والمدعى واللص والمشاكس .. الخ ، الخلاف الوحيد بينهما أن أحدهما يريد أن يواصل حياته فى المنزل الجديد والثانى يريد أن يواصل دراساته ، الأول يعتقد أنه بدون وجود منزل أو العيش فى منزل بالإيجار لايمكن أن يحيا حياة طيبة ، والثانى يعتقد بأنه لايمكن أن ينضج فى مثل هذه الحياة ، الأول يريد أن يبنى منزله الخرب الموروث غير الصالح للسكنى الذى له فيه شريك ومدعى حتى « يجلس فيه ويحتسى فيه خمره مستريحا دون أن يضايقه أحد » والثانى يريد « أن يجلس فيه ويقرأ المثنوى حسنه جدا ، لكن هذين الشابين المفكرين قد نسيا خراب المنزل واغتصابه والخلاف من جرائه بل والمنزل نفسه وأمسك كل منهما بخناق الآخر متنازعين متظاهرين هذا يقول لذاك : اذهب أيها الرجعى المثالى الدينى وذاك يقول لهذا : اذهب أيها العصرى المادى الملحد .

والإحساس الطبقي بالعمى ، وهي غطاء خداع لإخفاء نظام التفرقة المسيطر على المجتمع ، لأنها قضايا فوق طبقية وعلى المفكر أن يراعى الآمور الأتية عندما يواجهها :

أ - أن العالمية أو الإنسانية واقع متعالى تأتى مرحلة طرحها وتحقيقها بعد مرحلة النضال الطبقى . وطرح الإنسانية والتركيز عليها قبل هذه المرحلة خدعة أو جهل لاإنسانى وهنا تصير الانسانية عاملا ضد الإنسانية .

ب - ينبغى إبعاد القومية عن مرض عبادة العرق « العرقية » أو مرض عبادة التراب « الشوفينية » إذ أن مزاجها مستعد دائما لقبول هذين المرضين ، وإقامتها على قواعد عينية وعلمية وإنسانية ، فليست القومية واقعا ثابتا أبديا بل ظاهرة جدلية ، بمعنى أن القومية تظهر عندما تتعرض للرفض والكبت والتحقير ، والتحقير فى حد ذاته نوع من الرفض وكبت القيم والفضائل .

فقد ظهرت القومية اليهودية منذ أن تعرض وجودها وقيم وجودها للإنكار فى المجتمع المسيحى الغربى . والصهيونية منطقيا وجبريا وليدة للحركة المضادة للسامية ، ولماذا لم تظهر القومية اليهودية والفاشية الوحشية العرقية الإسرائيلية فى الشرق وبخاصة فى المجتمعات الإسلامية التى كانت منذ عهد بعيد محل عمل وإقامة لكثير من اليهود ؟

وفى تاريخ إيران نرى أن القومية الإيرانية ظلت صامتة تماما فى مواجهة الفتح الإسلامى لكنها تظهر فى عهد الحكم الأموى وتسترد الروح لأن الإسلام كان له شأن بنوع التفكير والعقيدة الدينية فحسب ، وكان يريد تغيير الشكل الاجتماعى والسياسى والعلاقات الاجتماعية والفردية فى إيران ، فى حين أن نظام بنى أمية كان يجاهد استنادا على العربية والتفاخر القومى فى تحقير أمة إيران وإنكار قيمتها الثقافية ومفاخرها القومية وقتل تاريخها ، ووقفت الأمة الإيرانية فى مواجهة العرب ، وقام العرب بخلق القومية الإيرانية بينما كانوا يحاولون قتلها .

وهذه الحقيقة القائلة أن القومية منطقيا ليست مدرسة فكرية بل ظاهرة جدلية تميزها فى الظروف الحالية العالمية كأطروحة مضادة فى مواجهة الإمبريالية الاستعمارية فى شكلها السياسى والاقتصادى وبشكل خاص فى شكلها الثقافى والفكرى ، ومن هنا فإن المفكر حين يعلم هذه الحقيقة القائلة بأن الطبقة المتنفعة وجهاز قيادتها خاصة قد صنع من القومية قناعا خادعا وضعه على سحنته الاستغلالية ، ومادة تصيب الوعى الذاتى الطبقى بالعمى ، ينبغى أن يتخذ موقفا فى مرحلة النضال ضد الاستعمار فحسب فى جبهات هذه القاعدة لأن الاستعمار فى زماننا واقعية ضد القومية . والمفكر فى مركز مراقبته الحساس والمشرف ، ينبغى أن يجعل موضعين من مواضع الخطر تحت نظره دائما :

١ - أن اشعال نار النضال الطبقى عند احتدام النضال ضد الاستعمار على مستوى الأمة ، بمثابة إحداث الفرقة والخلاف فى وحدة كل القوى المتحررة المضادة للاستعمار ، لأن الاستعمار يجعل من الوجود التام لأمة ما أو لمجتمع ما بكل أبعاده وطبقاته مجالا لهجومه ، وفى نفس الوقت من أجل أن يستقر فى مجتمع ما يعتمد على قاعدة فى الداخل ، ويصنع شريحة داخلية مصطنعة ، ولكن من المستحيل أن يصير الطابور الخامس واجهة طبقية لبنية المجتمع أو طبقة اجتماعية أصيلة ، إن الاستعمار لايبتلى الجماهير فحسب بالفقر والعبودية والجهل بل يجر معه الملاك والبرجوازية والإنتاج القومى إلى الانحطاط والزوال ، ومن ناحية لما كان يرفض كل القيم العرقية والخصائص الإيجابية القومية وتاريخ الأمة وثقافتها ومعنوياتها ودينها أو يمسخها ، فإن كل القوى الصادقة تقوم مرغمة ضده أيا كانت ميولها العقائدية وانتماءاتها الطبقية وحيثياتها الاجتماعية .

٢ - النقطة الخطيرة الأخرى التى ينبغى على المفكر أن يلاحظها هى : أنه بعد نهاية النضال ضد الاستعمار الذى احتدم فى جبهة خارجية وبمشاركة كل القوى القومية والطبقات الاجتماعية فإن الأجنحه والشخصيات التى أصبحت من ذوى النفوذ المعنوى والسيطرة المتقدمة نظرا للشجاعة والإخلاص والجدارة التى أبدتها ، عند العودة من الحرب القومية المضادة للامبريالية إلى الميدان الداخلى حيث يبدأ الصراع الطبقى تجاهد لحفظ حيثياتها ومواصلة قيادتها ، ومن

موقعها الخاص وسابقتها البارزة ونفوذها الذى اكتسبته فى النضال القومى وخاصة بطرح شعار المحافظة على الوحدة الوطنية واتحاد كل القوى والطبقات الاجتماعية ، تأخذ فى الحيلولة دون النضال الطبقى ، وتصبح الوحدة التى كانت حيوية وإيجابية فى النضال ضد الاستعمار مضرة وسلبية بنفس القدر فى النضال ضد الاستغلال الداخلى .

وهذه هى المشكلة الموجودة حاليا فى الهند ، فإن الراجات والسادة الهنود الذين كانوا يناضلون إلى جوار الناس فى سبيل القضاء على الاستعمار الإنجليزى ، وكانوا لنضجهم الثقافى ووضعهم الاجتماعى البارز قد وقفوا فى الصفوف الأولى للنضال ، وبالطبع ظهروا فى صورة أبطال قوميين ومتحررين ومضادين لاستعمار الأمة الهندية ، الآن وقد احتدمت الحرب الطبقية فى قلب المجتمع وقام ملايين الكادحين الذين يسلمون الروح فقراً وجهلا وقحطا ليقاوموا الاستغلال المفجع والامتيازات المدهشة لطبقة الراجات ، ولكى يسلبوا منهم امتيازاتهم ، يرون أنفسهم فى مواجهة هؤلاء الأبطال القوميين والشخصيات المحترمة المقدسة المضادة للاستعمار وقادته المبجلين فى الحرب على الإمبريالية الإنجليزية ، وفى هذه المرحلة تتحول أسوار القومية والوحدة الطبقية التى ظهرت فى هجوم الاستعمار على كافة الطبقات وأحاطت بوجود المجتمع إلى أسوار تحيط بالحدائق والمصانع والأملاك ورءوس الأموال والامتيازات .

فالأخوة الدينية والأخوة الوطنية التى تضمن النصر فى مواجهة الخطر الخارجى ، تكون فى مواجهة الخطر الداخلى وسيلة للحفاظ على عدم المساواة بين الأخوين ، وعندما تتدخل القومية ويتدخل الدين بين الحاكم والمحكوم وبين من يملك ومن لايملك تكون عوامل خداع وعوامل تخدير ، وكل عامل يعقد بين السجين والسجان أو بين العبد والسيد صلة أو قرابة قيد جديد فى يد السجين وقدمه وربقة جديدة حول عنق العبد تضغطه ، ماذا أقول ؟ قيد ؟ ربقة ؟ حول اليد والقدم والعنق ؟ لا ... بل على فكره وروحه وتعقله ورؤيته ، ولايوجد عامل يحفظه فى العبودية والأسر أكثر إحكاما من هذا العامل ، إنه العامل الذى يجعله أسيرا وعبدا ويربيه فى الأسرو العبودية ، مادة تزرق فى دمه .

متى تطرح المدارس المختلفة ؟

وهنا ينبغى أن أكرر ما طرحته آنفا وسميته « جغرافية الكلمة » أى أننا فى الميادين السياسية والاجتماعية ينبغى أن نفكر فى الظرف الزمانى والموضع الاجتماعى لفكرة ما أو لشعار اجتماعى وإيمانا بهذا المبدأ ينبغى عند طرح المدارس الفكرية أن نراعى ما يلى ، كما ينبغى ذلك عند بيان الطرق :

أ – لأن الاستعمار واقع مضاد للقومية وهو فوق طبقية الدولة التى يستعمرها والبنية التحتية لمجتمعها ، تكون القومية كاستناد على القيم الفكرية والواقع التاريخى والوجود المتميز القومى المستقل موضع تركيز من المفكر فى أكثر النضالات فورية وحيوية ، ولما كانت القومية منطقيا واقعية جدلية وليدة للاستعمار والإمبريالية فإن الاستناد عليها ليس أمرا مثاليا وعاطفيا وناشئا من إحساسات رجعية وعرقية ومفاخرات مغرورة جاهلة ، بل هى اتخاذ موقف منطقى وعلمى وشديد الرقى .

ب – بعد انتهاء مرحلة النضال ضد الإمبريالية وطرد الاستعمار تماما ينبغى أن يتغير شكل النضال على الفور ، وأن ينتقل إلى الداخل ، واستمرار القومية كوحدة وطنية فى هذه الفترة فى صورة صراخ وأناشيد حماسية فى ميدان غاب عنه العدو وضجيج للتغرير بالناس داخل المدينة ، فى هذه المرحلة ينتقل النضال من مرحلة القومية إلى شكله الطبقى ، وينبغى أن يترك شعار الأخوة الذى كان له .

معنى ومجال فى مواجهة الأجنبى مكانه لشعار « المساواة » .

ج – فى المرحلة الأخيرة تطرح العالمية أو الإنسانية .

وطرح العالمية فى مرحلة النضال ضد الاستعمار دعوة للتفاهم والتذكير بالنسب بين الأمة المستذلة والطبقة المستغلة وبين الأمة الاستعمارية والمستغلة « بكسر الغين » وهى فى حد ذاتها دعوة لاإنسانية وتذكير مغرض وخداع . وينبغىأن نقبل هذه النقطة كمبدأ ، أنه كما أن أعتقاد « القادة القوميين » بأن القومية رابطة أبدية ومثال سرمدى ، هذا الشعار بقدر ما هو فى مرحلة النضال

ضد الاستعمار حيوى وبناء ، يعد بعد طى هذه المرحلة ونيل الاستقلال يتجه اتجاها سلبيا ورجعيا وباعثا على الانحطاط ، وأيضا اعتقاد القادة الاشتراكيين بأن الاشتراكية هدف غائى ومثال نهائى وليست منزلا على الطريق ينبغى للإنسان أن يتجاوزه لا أن يقف فيه ، بقدر ماهو فى مرحلة النضال الطبقى بناء وحيوى ، يصير بعد الاستقرار الواقعى للاشتراكية عامل انحطاط وفساد فى طريق مواصلة التكامل المعنوى والإنسانى للنوع البشرى .

العالمية فى رأيى ينبغى أن تكون أمرا مطروحا بعد الانتهاء من المرحلة الطبقية فى النضال ، عبارة عن مدرسة فكرية باعتقادها بمبدأ أن الإنسان هو مخلوق فوق طبيعى وأن استعداد الوعى والاختيار والخلق والذى صنعه فى الطبيعة على نسق الله يقوده إلى نضجه القويم وتكامله المعنوى فى هذه الأبعاد الثلاثة إلى مالا نهاية أى إلى كمال لايقبل التصور ، لكنى قلت هذه النقطة مرارا وهى أن العالمية أو الإنسانية التى من مستلزماتها عدم الإيمان بالحدود العرقية والقومية والطبقية إذا طرحت فى الظروف الحالية لن تكون الا إخفاء للمتناقضات والتضادات اللاإنسانية الموجودة ، فهى دعوة إلى الوحدة البشرية عندما تكون الوحدة البشرية مفهوما انتزاعيا فلسفيا ، أما فى العالم الواقعى : عالم المستعمر والمستعمر والمستغل الحاكم الذى يملك والمحكوم المفلس والمتحضر والمنحط وساكن الدولة الاستعمارية والمحلى الأبيض والأسود ، الغربى والشرقى ، والرأسمالى والعامل ، الاقطاعى والأجير ... سوف تكون خدعة وسفسطة مغرضة لصالح « خمسمائة مليون إنسان ولضرر مليار وخمسمائة مليون محلى » شركة رأسمالى قوى القبضة مع مفلس عاجز .

وللوصول إلى الإنسانية ، إذا بدأنا بالإنسانية فقد ابتعدنا عنها إلى الأبد ، للوصول إلى الإنسانية فى الوقت الحالى على الأمم التى تواجه الامبريالية والاستعمار أن تعبر أولا مرحلة القومية ثم مرحلة المساواة الطبقية ، والوصول إلى الإنسانية من قبل أن تتحول الأجناس المحتقرة والأمم التى محيت شخصياتها و « غسلت » من الثقافة والقيم والأصالة إلى بشر ليس ممكنا ، فى البداية ينبغى أن يتحول « المحليون » إلى بشر حتى يجد نوع البشر تحققه العينى والواقعى .

(يتحدث أحد المحليين ويذكر مدعيي الإنسانية بالقيم الإنسانية المنسية)

كان باتريس لومومبا قد ظهر فى سحنة مهدى منتظر منتقم ومسيح مخلص كان ينتظره التاريخ طوال قرون العبودية المشئومة ، واستعمار الجنس الأبيض ، والخضوع لتعذيب العبودية وأغلالها داخل زنزانة الاستعمار ، وكانت أفريقيا هذه الدمعة الحارة على الأرض تهتز على كراسة الخرائط . أفريقيا هذه التى كانت دائما قطرة دمع ساخنة تسيل على وجه الأرض أصبحت مثل قلب ينبض ، أجل ، أليس القلب يشبه فى شكله الدمعة ؟ هناك دلائل عديدة كانت تجيب على هذا السؤال المفعم بالآمال والعشق جوابا إيجابيا ، لقد دخل الاستعمار العالمى مرحلة الاحتضار ، لقد أصبح هناك منافس للرأسمالية فى العالم ، فى العالم المستبعد تنتصب القامات الرشيدة فى الأمم البطلة وتمنح العبيد الإيمان والأمل ، وتمرد الجيل المفكر الحر فى أوربا جنة البورجوازية وكفر بالمذهب القذر « عبادة الاستهلاك » ومبدأ « القدرة والحياة » مع كل خدعة الفلسفية والفنية والثقافية ، ومن بين كل هذه الأمور كان أكثرها أصالة ومنحا للبشرى : أن أفريقيا قد تحركت ... وفى مكان العبودية والجهل والوحشية ، نمت من الغضب والتمرد نباتات سامقة ذات جذور ، وهى تنبت لحظة بلحظة ، والأرض التى جعلها التاريخ أرض إنتاج وتصدير عبيد أصبحت تنتج الآن الثورة والحرية والفكر وتصدرها ، تصدرها ؟ أجل ، ليس هذا بالقول الهزل ، أحيانا تدل ظواهر صغيرة على وقائع عظيمة ، ولعلنى طوال عمرى لم أصادف حادثة بهذا المعنى العميق والعظمة ، تلك الحادثة التى علمتنى أن أفريقيا لم تتحرر فحسب ، بل إن حضارة جديدة وثقافة بديعة قد ولدت على الأرض . أجل ، رأيت أن « شرفة إيوا ن مدائن أوربا تتساقط وأن النار الكاذبة لمعبد نار الغرب فى سبيلها إلى الهمود » .

كيف ؟ متى ؟ ذلك اليوم الذى منعوا فيه مجلة « الثورة الأفريقية » من دخول باريس ، باريس ؟ نعم ، مدينة الحرية ووريثة الثورة الفرنسية الكبرى وكاتبة حقوق الإنسان والمنادية بشعار الحرية والمساواة والإخاء ، المدينة التى حفظت فى الواقع حتى الآن تقاليد حريات الفكر واللغة والقلم والدين والحزب والنقابة وأسلوب الحياة ... الخ .

عند تقاطع سان جرمان دوبريه وسان ميشيل ، تلتقى بكل المدارس السياسية والفلسفية والاجتماعية ... وفى مكان واحد بالملكيين أى أنصار الملك معارضى الثورة الفرنسية الكبرى وظهور الحكم الجمهورى والمنادين بعودة ملكية آل بوربون ، وإلى جوارهم الفوضوائية وشعارهم « لا الله ولا الملك ولا القانون» وبعدهم بقليل الشيوعيون بأنواعهم وكل فرقهم ومذاهبهم : الشيوعى الستالينى والشيوعى الخروشوفى والشيوعى الكوسيجينى والشيوعى البريجينيفى والماوى والكاسترونى والتروتسكوى (العالمى) والشيوعى القومى ، وإلى جوارهم المزدائون ، يعنى ماذا ؟ يعنى أولئك الذين ابتلوا بمرض التشرق وهم يمارسون رياضة اليوجا الهندية وهم بارسيون فى القرن العشرين ويقلدون الجوكيين ومرتاضى الهنود (أى ينشغلون بالحقيقة المطلقة وقد طلقوا عقلهم الديكارتى الجاف طلاقا بائنا ، ونوروا بنور الإشراق الذى سطع على بواطنهم فى قلب الشرق . فأخذوا فى إخلاء بواطنهم من الطعام وبدلا من زجاجة بلا خمر يطلبون خمرا بلا زجاجة ، وهم حائرون فى البحث عن تجرد العنقاء فى وادى الطلب)[1] وفى ركن آخر النباتيون، وأبعد قليلا الرهبان المتعصبون الذين ينتسبون إلى القرون الوسطى الكاثوليكية والذين يذوبون شوقا إلى عقد محكمة تفتيش وسلخ مرتد أو حرقه ، وإلى جوارهم الكاثوليك المستنيرون الأحرار ورجال طائفة الذين كانوا يساعدون المجاهدين العرب من أجل تحرير الجزائر والذين كانوا يأتون إلى فرنسا بالرشاشات تحت آباطهم بدلا من جوازات السفر فيمدونهم بالملجأ والمال .

بل وأتذكر أنه فى سنة ١٩٦٠ لم تكن هناك علاقة سياسية بين فرنسا والصين الشعبية ، لكن باريس الحرة كانت قد سمحت للصين ليس بطبع صحيفتها الملتزمة « بكين » وتوزيعها فى باريس نفسها فحسب ، بل وسمحت لها بمطبعة ومركز ثقافى فى فرنسا كان يقوم بالدعاية لأكثر الأفكار تطرفا وثورية .

---

(١) المترجم : يسخر شريعتى من الأسلوب الصوفى المغرق والعنقاء طائر خرا فى يرمز للحقيقة الإلهية ووادى الطلب أحد الأودية التى يقطعها السالك بحثا عن الحقيقة .

لكنهم .... صادروا مجلة « الثورة الأفريقية » ومنعوا دخولها باريس ، ولايمكن أن يتخذ هذا القرار ببساطة ، لاشك أن فرنسا استسلمت لهذا العار بصعوبة وبضمير جريح ، وبرغم الأنف وعرق الخجل يتصبب من سحنة ماضيها المليء بالمفاخر وخاتم السكوت على شفتيها الصارختين بأنا شيدها الحماسية وملاحمها . ولاشك أن الخوف والخطر اللذين كانت تحس بهما من الثورة الأفريقية كانا أعظم من كل هذه الثروات الفياضة من الثقافة والتقاليد وقيم الثورة الكبرى وروح تحررها بحيث أنها لوثت يدها بفعل يقوم به الجبابرة المنحطون والطغاة الذين لاثقافة عندهم وأعداء الحرية والفكر والإنسان . ففي فرنسا التي تبلغ قدرة الحرية وسلطتها فيها درجة يمكن معها سب المسيح والحديث عن الثورة الصينية ببساطة ، ماذا حدث بحيث فقدت تحملها وفضلها وسعة صدرها وخافت من فكر أفريقيا وكلامها ؟ لاشك أنها ليست الثورة الأفريقية هي التي خوفت فرنسا بحيث تجاهد لتمنع شرارتها من أن تمسك بطرف رداء هدوء فرنسا وأمنها ، لأن الثورة إن لم تكن لها كلمة ، كلمة تولد الثورة فهي ليست خطرة بالمرة بل هي زبد مهما كان رابيا وواسعا ودمويا يذهب جفاء ببساطة وبسرعة ، ولايتبقى منه إلا رواسب قذرة عفنة ، رواسب على الأقل تسمم جيلا كاملا ... الخوف كل الخوف من أن : المحلى نطق !!! الأسود الوحشى آكل البشر يذكر الضمير القذر أو الممسوخ الأوربى مدعى الانسانية بالقيم الإنسانية المنسية ، « أشباه البشر » الأفريقيون يعلمون أصحاب الحضارة المطلقة والثقافة الإنسانية الوحيدة المعاصرة الدروس الأولى فى كيفية أن يكون الإنسان إنسانا أو يصير إنسانا ، عبيدهم الأوفياء لم يتمردوا على سادتهم فحسب حتى يتخلصوا من عبودية السادة بل نهضوا ليصنعوا من السادة أكلة البشر بشرا !!!! لم يقوموا من أجل تخليص أنفسهم من قيد الاستعمار الأوربى ، بل قاموا فى نفس الوقت لمنح الأوربى ذلك الذى كان إنسانا ومسخه الاستعمار إلى حيوان عالم وقوى وجعل منه مستعمرا الشفاء ، ويعيد إليه ماهيته الإنسانية التى قلبت

أنظروا ماذا تقول أفريقيا :

« لنمض أيها الرفاق ، لقد انتهت أسطورة أوربا بالنسبة لنا إلى الأبد ، ينبغى أن نبحث لنا عن موضوع آخر . نحن اليوم قادرون على أداء أى عمل بشرط ألا نبتلى بوسواس التحول إلى أوربيين »

من أجل أوربا ، من أجلنا ، ومن أجل الإنسانية أيها الرفاق ، ينبغى أن يظهر جلد جديد وينبغى أن يخلق فكر جديد ، وينبغى الكفاح ليظهر إنسان جديد » فانونلقد طرحت أفريقيا الأساس الوجودى لأوربا والفكر الأوربى والمجتمع الأوربى والحضارة الأوربية من جذورها ، ليس الحديث فقط عن الاقتصاد والسياسة والصراع القومى والطبقى والصادرات والواردات والضعف والتقدم والجوع والشبع بل إدانة الإنسان الأوربى وتحطيم حضارته وثقافته ورؤيته ، وإعلان هزيمة الأوربى وانكساره فى مرحلة نصره وسلطته ، الثورة الأفريقية تريد أن ترفض أوربا فى كل أبعاد وجودها : الإنسان والحضارة والثقافة والمجتمع والحياة والرؤية الكونية والمادة والروح ، ثم تخلع سلاحها وتسترد منها دفة توجيه التاريخ والحضارة والفكر والولاية على النوع البشرى التى ادعتها سنوات وجعلت المفكرين غير الأوربيين يصدقون هذا الادعاء ويقولون إن الولاية فى أيديهم بالفعل ، ثم تأخذ هى الرسالة التى عجزت أوربا عن القيام بها لأن أوربا قد تحدثت عن الإنسان دائما ، ولم تفعل شيئا إلا أنها قامت بقتل ثلثى البشر ومسخهم والقضاء على إنسانيتهم والتضحية بهم فى سبيل مصالحها المادية ، وأوربا فى كل ماقامت به تقوم بمطاردة الإنسان وتعذيبه باسم الإنسانية وقتله حيثما وجدته .

ولفرنسا الحق حتى ولو ضحت بالقانون فى أن تقاوم هذه الأفكار الخطرة التى تجعل الجيل المفكر للضمير الأوربى يكفر بكل قيمه ، وتجعل هدفها وضع ضميره ووجوده فى عمق إحساسه وإيمانه وتدفع الوعى الذاتى الصادق الإنسانى عند أبناء أوربا إلى العصيان مثل آدم فى جنة الرأسمالية والصناعة الغربية ، وفى أوج فراغه ولذته ومتعته وسطوته تفتح عينيه اللتين أغلقهما ملائكة الجنة بعزف الفن والجمال وخداع النصر ونشوى السكر حتى يبصروا إلى أى مدى هم عرايا ولايخجلون ، وأى عصيان أخطر وأشد اقتلاعا من الجذور بالنسبة لسادة الجنة وآلهتها وحجابها من هذا العصيان ؟ . (١) ومن هنا ففى جنة الحرية والمتعة والراحة التى فيها كل شىء حر وكل شىء فى متناول اليد ، الثورة الأفريقية فقط هى الفاكهة المحرمة لأنها فاكهة شجرة الرؤية.

(١) هذا هو العصيان الذى لايمكن مواجهته بالحيل الاقتصادية ودفع الإتاوات الطبقية وإيجاد العواطف

ليس من الملزم أن يكون المفكر أحد المتعلمين بالمعنى الرسمى أو العماء أو الفلاسفة أو علماء الاجتماع أو المؤرخين ، إن المفكر « متعصب واع » ويحدد تعصبه فى الموقف الجدلى المتغير والمتحرك بينه وبين غيره ، أى تعصبه للإنسان فى مواجهة الطبيعة والعوامل اللاإنسانية والمجتمع البشرى ، وتعصبه للأمة فى مواجهة الإمبريالية والفرقة والاستعمار ، وتعصبه للطبقة المحكومة المستغلة فى مواجهة التفرقة والحكم الطبقى .

وإحدى الخصائص البارزة عند المفكر أن « التزامه الجماعى » غير منصب على « انتمائه الجماعى » ، بمعنى أنه أيا كانت الجماعة التى ينتمى إليها من النواحى العرقية والقومية والطبقية فهو ملتزم تجاه الأمة المستعمرة والطبقة المستغلة والإنسانية ، لأن العامل فى الالتزام هو القيمة وليس النفع والمصالح المشتركة ، وهذا هو المبدأ الأخلاقى المطلق والأبدى الخاص بالنوع الإنسانى وهو ثابت فى كل مرحلة تاريخية ونظام اجتماعى وأساس إنتاجى أو اقتصادى ، ومن هنا فهو واقع ماوراء تاريخى وفوق طبقى .

وفى مرحلة النضال الإنسانى الذى يتجلى فى صورة مكافحة العرقية والرأسمالية والإمبريالية والاستعمار والاستغلال الطبقى والاستبداد ، ينبغى على المفكر أن يقيم مدرسته الاجتماعية واتجاه نضاله وأهدافه على أسس قواعد خاصة فلسفية ونظرية ، والمساواة الإنسانية والحرية والعدالة والوحدة الطبقية والنضال ضد التفرقة والامتيازات والاغتصاب والقوة كلها حقائق عامة وقيم

والإشباعات والرفاهيات الكاذبة السطحية والأدوية المسكنة والمؤقتة ، وإيجاد دين عبادة الاستهلاك والبحث عن اللذة ، وإحداث الصراعات الحزبية والنقابية والفلسفية والفنية المتفق عليها سلفا والكماليات البلهاء الخادعة التى لاحصر لها (التى يعتبرها المجتمع الغربى درءاً للخطر وتحريفا لوجهة الهجوم ومسخا للعدو) ومن هنا أحس أن سادة الغرب الذين استطاعوا السيطرة حتى على النضال الطبقى وحالوا دون ثورة طبقة البروليتاريا القوية الثورية قد خافوا الآن من تمرد الجيل الشاب المتعلم عندهم الذى يزداد وخامة ويتسع ويرفض الشكل العادى للحياة الغربية بحقد ، بحيث أنهم لايملكون فى مواجهة هذا الطوفان إلا الشكوى .

مشتركة وشعارات تضمن مصالح أكثرية الأفراد والجماعات والنقابات وأتباع المدارس الفكرية والأديان المختلفة ، وهى الأكثرية المطلقة فى أمم العالم فى أية مرحلة تاريخية وثقافية ، وأيضا فكل إنسان يؤمن بهذه الشعارات اللهم إلا أقلية ضئيلة ويمكن أن تؤمن بها فى حالة وعيها .

هذه الشعارات شعارات إنسانية مشتركة وقامت الإنسانية بالمناداة بها والسعى والجهاد والتضحية فى سبيل تحقيقها عبر التاريخ بطرق صحيحة وغير صحيحة وفى صور مختلفة عن طريق الدين والأخلاق والعرفان والأدب والأساطير والفن ، وعلى المفكر فى نضاله الاجتماعى واتجاهه المضاد للإمبريالية وضد الاستغلال وضد الديكتاتورية أن يستند على عوامل مشتركة ودائمة وهذه النقاط شعارت دائمة ومتصلة ومثيرة للحماس خلقتها البشرية ، وفى هذه الحالة يقف المفكر وراء الضوابط المحددة والمختلفة بل والمتناقضة المذهبية والنظرية والتقليدية والفرضيات المتنوعة غير الثابتة وغير العلمية والمشتتة والميول العقلية والعقائدية المتناقضة المتضادة ، وبالاستناد على أسس إنسانية مشتركة يستطيع أن يخرج كل القوى الصديقة والواعية من أطرها المحدودة والدينية والمدرسية والفلسفية والطائفية ويعبئها فى جبهة مشتركة ضد الجبهة المشتركة لأعداء الإنسانية أى أعداء الحق والحرية والنضج .

أجل : ألم تكن لهم جبهة مشتركة ولازالت موجودة ؟ فالمستعمر والمستغل والعرقى وطبقة الذهب والقوة تظهر غالبا فى لباس الأديان والمدارس المختلفة المتناقضة والمتضادة أحيانا ، ولكن أى عين مبصرة يقظى لاترى إلا أن العقائد والآراء ليست إلا ملابس بالنسبة لها ، وإلا فإنهم لايدينون بأية عقيدة دينية أو فلسفية ولايتقيدون بها ومبادىء العقائد والأسس الثابتة عندهم فى كل دين ومدرسة هى المصالح الطبقية والفردية فحسب ، كما أن الناس ، بالرغم من أنهم يؤمنون بمدارس وأديان مختلفة وإيمانهم صادق ومخلص ، إلا أنهم فى نفس الوقت يتفقون فى الإيمان بالحرية والعدالة والصدق والحقيقة على الدوام ، وأولئك الذين يعادون البشر وهم قلة ، قد اتفقوا معا على الاستبداد والظلم والامتيازات والاستغلال والتسلط والاغتصاب وذلك بتظاهرهم الكاذب بأديان الناس ومدارسهم الفكرية المختلفة .

ولم يحدث قط أن إحدى جماعات الطبقة قد انفصلت عن جماعة متصلة بها قد نسجت خيوطها معها فى طبقة واحدة بسبب الإيمان بعقيدة دينية أو فلسفية خاصة ، أو دخلت معها فى صراع حول قضايا فكرية ، بل على العكس تماما ، كلما استدعت مصالحهم اتحدوا على رغم التضاد العقائدى بينهم بل وقاموا يحاربون رفاقهم فى العقيدة فى صفوف أعدائهم التقليديين ، وطول التاريخ وعرض الجغرافيا دائما وفى كل مكان معرض لهذا الواقع . وحرب الأحزاب (الخندق) حيث شكل اليهود وقريش جبهة متحدة ضد الإسلام ليحطموا « المدينة » القاعدة الأصيلة لحركة التوحيد على أساس أيديولوجية ابراهيم ، نموذج واقعي لهذا المبدأ . كانت قريش حارسة الشرك والوثنية ، وكان اليهود يسمون أنفسهم الورثة الوحداء لابراهيم وشعب الله المختار وبناة التوحيد والأمة التى حطمت الأوثان فى تاريخ البشرية . وبالأمس يشير اشتراك المسيحية مع الاستعمار الغربى (أو التفاهم بين المسيح وقيصر) ، واليوم يشير الوفاق التآمرى بين القطبين : الرأسمالية العالمية والشيوعية الدولية أن هذا المبدأ لايزال صادقا فى عالم اليوم ولايزال مؤثرا فى مصير البشر ، وتقييد معارضة الاستغلال والتناقض الطبقي والحياة البورجوازية والنظام الرأسمالى — التى تنبع من المصالح المشتركة لأغلبية الناس والمطالبة بالعدالة والحرية لكل البشر الأصدقاء ، تقييد هذه المعارضة بنوع من المادية الخاصة نوع من التعصب وضيق الأفق بقدر ماترى طائفة دينية ما أن الطهر والإنسانية أمور خاصة بالمؤمنين بعقائدها وتنادى بأن من هم سواهم كفرة وأنجاس ومهدرو الدم وضالون وذاهبون إلى جهنم . حقيقة أن الماركسية فى حالة تقدم سريع منذ القرن التاسع عشر ، لكن لاينبغى أن يؤدى هذا الواقع الى نتيجة خاطئة بتحليل خاطىء ، فإن جماهير آسيا وأمريكا اللاتينية قد جنحوا إلى الاشتراكية حبا فيها وحاجة إليها وليس من أجل ماديتها ، ولاينبغى أن نسوى بين سبب ميل المثقف القارىء المتفلسف الأوربى إلى الماركسية وبين أسباب ميل الفلاح الفيتنامى اليوم أو العامل الألمانى بالأمس إليها .



المادية والماركسية :

والمادية نظرية فلسفية ، وأولئك الذين يعتبرونها حقيقة علمية توصل إليها العلم اليوم ، يقيمون ذلك على فرضية هم وحدهم الذين يؤمنون بها ، لأن المادية لاهي مرتبطة بالعلم ولاباليوم ، ففي اليونان القديمة بل وفي العصر الجاهلي عند العرب [١] كانت المادية موجودة ، وكانت الطبيعية موجودة في مظاهر مختلفة مناسبة لثقافة العصر ودرجة نضجه العقلي والعلمي ، ولاارتباط لهما بالعلم لأن الغالبية العظمى من المكتشفين ونوابغ العلم ومؤسسي العلم الحديث والفكر العلمي كانوا عبادا لله واذا كان بعضهم قد كفر من قبل الكنيسة أو لم تكن له علاقة بالكنيسة فقد كان ذلك بسبب حريته الفكرية وتحرره في التفكير ومعارضته للخرافات والتقاليد المنحطة والأسكولائية التي لانتيجة منها والجامدة التي كانت الكنيسة تتخذ جانبها باسم الدين ، وليس بسبب عدم إيمانهم بالدين وذلك لأن قادة النهضة وبناة الرؤية العلمية وحتى أعظم مكتشفي العلوم الجديدة مؤمنون بالله ، وشخصيات من أمثال : روجرز بيكون وفرانسيس بيكون وديكارت وكانت ومونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو وجليليو وكبار وبسكال وكيركجارد وبرجسون وداروين ووليم جيمس « مؤسس البراجماتية » وآينشتين وماكس بلانك وياسبرز وآخرين غيرهم إن لم نستطع أن نعتبرهم متدينين بالمفهوم المتداول لله والدين فهم أيضا معارضون للمادية مثل هيجل ومترلينك بل وجان بول سارتر [٢] ، واني اعتقد أن السبب في نضال

(١) العربي الذي جاء الى الرسول وسحق عظام ميت نخرة أمامه ونفخ غبارها في الهواء ثم سأل منكرا : هل تقول إن الله يبعث هذا حيا ؟ كان ماديا واعيا لماديته بالمعنى التام ، والدهريون وهم مشهورون في ثقافتنا وتاريخ عقائدنا أتباع إحدى الفرق الفلسفية من نفس هذا القبيل من الفكر ، ويعرفهم علماء الملل والنحل المسلمون بأنهم فرقة تعتقد بالدهر بدلا من الله ونحن نعلم أن الدهر يعني الزمان ، وقد اعتبروه علة العلل و « المبدأ الأول » لكل مظاهر العالم ، كما نعلم أنه كان في اليونان جماعة من المعتقدين بـ « كرون » أي الزمان (ونرى هذا اللفظ في الكرونولوجي أي وقائع الزمان و كرنومتر أي مقياس الزمان) .

(٢) الإيمان بحرية الإنسان وفضله وأنه مخلوق مافوق طبيعي في فكر سارتر الذي يعتبر أن خلقةالإنسان عبر حلقة كل الأشياء المادية تعد فكرة مضادة للمادية ، أخذها سارتر مع خلفيته الروحية وتربيته الجديدة الدينية ذات الجذور من وجودية هايدجر .

المفكرين المتحررين والمفتونين بالعدالة وتحرير جماهير الشعب المظلومة والذين كانوا قد انجذبوا فى القرن التاسع عشر إلى المادية ومعاداة الدين لم يكن الأبحاث العلمية (لأن الباحثين العلماء الجدد لم يميلوا إلى المادية) بل كان السبب هو دور الكنيسة المخدر واتجاهها المضاد للشعوب وتعاون القائمين على الدين (وهم يمثلون واحدا من أبعاد الطبقة الحاكمة مع بعدين آخرين هما البعد السياسى والبعد الاقتصادى) ، من أجل حفظ الاستغلال والتفرقة والجمود وخداع الناس وتبريرها .

على كل حال ، المادية عقيدة نظرية ومدرسة فلسفية خاصة ، فى حين أن الاشتراكية هدف إنسانى وضرورة حيوية . المادية مبحث ينبغى أن يقوم به المفكرون والعلماء فى حين أن الاشتراكية فى مسيرة مبدأ التحرر والمطالبة بالحق والبحث عن العدالة من أجل الإنسان دعوة إلى رفض التفرقة والتكاثر الفردى والشرك الطبقى ، ودعوة إلى اقامة التوحيد الإنسانى والخلاصة هى مبحث يطرح فى ميدان الجوع والشعب والتمتع والحرمان والامتياز والاشتراك فى عطايا الحياة المادية والمعنوية بالنسبة لشعب مجتمع ما . أما القضايا التى من قبيل إثبات وجود الروح أو إنكارها ومبدئية المادة والطاقة أو أى شىء آخر لاهو بالمادة ولابالطاقة.

لكن هناك قضايا أخرى تطرح فى الاشتراكية : هل الفرد هو المبدأ أو المجتمع ؟ هل حقوق الفرد مقدمة أو حقوق المجتمع ؟ هل قول بوروردين أن « الملكية مرفوضة لأنها مضادة للملكية » صحيح أو لا ؟ ألا يقوم أولئك الذين يعتبرون أن الملكية حق مقدس بمنح هذا الحق لفرد معين فى حين أنهم يسلبون هذا الحق من كثيرين ؟ وألا تعنى ملكية الفرد لوسائل الإنتاج وضع مصير المستهلك أى المجتمع فى يده ؟ وألا تؤدى الملكية الفردية فى المجتمع إلى التفرقة العنصرية ؟ وألن تملك الطبقة التى فى يدها الملكية الاقتصادية فى المجتمع الحكم الوطنى والريادة الشعبية أيضا بشكل مباشر أو غير مباشر وفى السر أو العلن ؟ وأليس النفوذ الاقتصادى عاملا لكسب القدرات الاجتماعية المختلفة ؟ ومع مثل هذا الوضع الاجتماعى المتميز التى تكون كل أنواع النفوذ

فيه حكرا لها ، فان الطبقة الحاكمة التى تجعل كل الهيئات الحاكمة أداة طيعة فى يدها بالطبع ، وتسيطر على طبقة رجال الدين وطبقة المثقفين داخل دائرة نفوذها ، ألن تستخدم الأخلاق والعلاقات الاجتماعية والعقائد والعلوم والفلسفة والآداب والفنون لتبرير الوضع الراهن وفرض رؤية كونية فلسفية وذوق أدبى وإحساس خاص لحفظ منافعها وألن تنحرف بها أسس امتيازاتها واحتكاراتها الطبقية ؟ ألن تقوم الملكية الفردية والتكاثر والمنافسة والحرص وحرمان الآخرين والمادية وعبادة المال بترويج التضحية بكل الفضائل والقيم والاحتياجات الروحية ومسخ الشخصية الإنسانية تحت أقدام صنم المال ؟ وألن يؤدى اعتماد كل القوى وإلامكانات والقوى البشرية على المال إلى ابتذال الثقافة والأخلاق والعلم وعبادة الحقيقة ومعرفة الجمال والعواطف والأحكام الدينية ، وإلى وضع القوانين الجائرة ومنع النضج التدريجى لكل الأجنحة والجماعات والأبعاد المادية والمعنوية للمجتمع وتحويل طبقة إلى ذئاب وطبقة الى ثعالب وطبقة من الأكثرية إلى قطيع من الخراف (رعايا) ؟ وألن تقوم بإيجاد الأمراض العضالة لعبادة العرق والأرستقراطية وعبادة الأصل الجنسى و « مذهب الوراثة » والاستبداد لخنق العدالة والديموقراطية وحريات الإنسان وحقوق البشر ومحوها ؟ وألن تؤدى فى إثر ذلك إلى موت استعدادات ومواهب لاحصر لها وذبولها وتنتهى برواج أنواع من عبادة الأصنام والعبودية بين جماهير الشعب ؟ وبالقضاء على عنصر القبح فى كل هذا ، ألن يصل الأمر إلى أن تكون ممارسة الكذب والاحتيال وقتل الحقوق وإشعال الحروب والمادية والتفسير العلمى وضيق الأفق الاقتصادى بنية تحتية مبدئية وهدف غائى بل وفلسفة للحياة البشرية ؟ وفى عبارة واحدة : ألن يبدل الإنسان وهو مخلوق متكامل إلى غير حدود وذو ثلاثة قوى فوق مادية هى الوعى والإرادة أو حرية الاختيار والخلق ومن هنا يرى نفسه مخلوقا شبيها بالله ويحمل مسئولية فى العالم لكونه حامل الأمانة الخاصة لله وموجه الطبيعة ومكمل كل مايفتقده العالم - إلى حيوان أعور اقتصادى ؟

إن الاعتقاد فى هذه المبادىء ليس منوطا باعتقاد عقيدة ما وفلسفة أولى على الاطلاق ، لأنها كلها أوليات إنسانية مشتركة وليست فرضيات أو نظريات خاصة علمية وعقلية وميتافيزيقية وحكمية .

لم يصل ماركس عن طريق الأبحاث الفلسفية والعلمية والجدل فى المادية إلى الفلسفة الطبقية وحتمية الجدلية التاريخية ومنها إلى الاشتراكية ، لكن على العكس تماما ، كان هدفه الأساسى والغائى هو الاشتراكية بل ومن قبلها تحرير طبقة البروليتاريا أى الطبقة التى كانت قد قامت ضد الرأسمالية التنافسية فى كل أوربا وبخاصة فى انجلترا وفرنسا وألمانيا . نعم كان هذا هو هدفه الأساسى والغائى ، وللوصول إليه ، مال إلى الاشتراكية ، ومن أجل تبريرها فلسفيا وتسليحها بالمنطق وإعطائها رؤية كونية أو قاعدة عقائدية ، اتجه إلى الجدلية والمادية ، وهاجم الدين لأن الدين الذى كان موجودا فى عصره وفى كل العصور كان عاملا قويا من عوامل تبرير الوضع الراهن الذى كان ظالما دائما واحتكاريا عن طريق العاطفة الدينية والإيمان الدينى ، والاعتقاد بالمبدأ القائل أن كل ماهو موجود وكل مايحدث إنما هو بمشيئة الله أو الآلهة ، وكان كل نوع من النقد له أو التمرد عليه يفسر على أنه عمل ضد الإرادة الإلّهية وعصيانا فى مقابل المشيئة والتقدير الغيبى [1]

لقد رفض الله ، لأن إله الدين الموجود هو معين الأغنياء والأقوياء وصديقهم ، وهو يحب شقاء الناس وسعادة الحكام ، والمقربون منه فى بلاطه السماوى هم الذين استطاعوا عن طريق النذور والأوقاف والإطعام والأضحيات وبناء المعابد الضخمة الفخمة والتعهد بنفقات المؤسسات الدينية ومد العباد والزهاد ورجال الدين وهم عمال الله على الأرض بالمساعدة ، ووضعهم فى الآخرة شبيه بوضعهم فى الدنيا ، فهم يحصلون على أفضل المناطق الموجودة حول أنهار اللبن والعسل والأراضى الواقعة على ساحل الكوثر ، وأفضل المواضع تحت ظل طوبى وأعلى الغرف والقصور فى الجنة ، ولما كان العبيد والأجراء هم الذين يقومون بالأعمال المادية الدنيئة ، وأصبح السادة والأغنياء فى فراغ من القيام بهذه المشاغل الدنيئة الاقتصادية والمادية ، وكان لديهم من وقت الفراغ الكثير ، فإنهم كانوا يستطيعون القيام بتلطيف الروح وتنمية القوى العقلية والعاطفية والتمتع بالمراتب العالية الفكرية والدينية والأخلاقية واكتساب المعارف

(١) انظر محاضرتى « مذهب عليه مذهب : الدين ضد الدين » .

ومعرفة المعنويات واكتساب الجدارة لرضا الله - أو الآلهة - وعنايتها ، أما الجماهير الفقيرة التى كانت تنحدر من أسر منحطة ومحرومة من كل الإمكانات المادية والمعنوية ، وكانت تكبر (دون أن تربى) ومن الطفولة تنتقل مباشرة إلى أعمال المكارية ورعى الدواب والأغنام أو العمل كـ « شيالين » ، وكانت تعيش فى أدنى الظروف كالحيوانات ودائما ماكانت تكافح فى سبيل لقمة العيش وكانت أعظم وأسمى مثلها هى أدنى وأحقر المطالب المادية والاقتصادية ، فكانت تبقى بالقطع منحرفة ومتوقفة من ناحية المعنويات والأخلاقيات والروحانيات ، ولما كانت تعيش دائما فى فقر وعبودية وجهل ، فلا محيص لها من ملازمة الكفر والفساد والانحطاط الروحى ومادية الفكر وذلة الشخصية ، وهؤلاء الناس المجردون من كل فضيلة ومعرفة وروحانية ، كيف يمكن أن يكونوا أعزاء عند الله .

ومن هنا فإن العلاقة الموجودة بين الأديان المسيطرة على التاريخ بين الله وأشراف الناس كانت ذات طابع صداقة ومكافأة ، أما العلاقة بينه وبين العبيد والأجراء و « أراذل الناس » فذات طابع رحمة ومغفرة ، ومن ثم نتج هذا المبدأ العام المسلم به ، أنه لما كان الله هو الذى يحدد مصير كل إنسان ووضع كل جماعة ويقدرهما ، وكل من هو فى وضع مافهو فيه على أساس إراداته ومشيئته فمن المنطقى والحتمى أن كل من يعيشون فى عز هم أعزاء الله ، بينما أولئك الذين يقضون أعمارهم فى ذل هم أذلاء الله .

وقد أنكر القيامة ، لأن القيامة فى نظر رجال الدين كانت « معادا » يدفع الجماهير المحرومة المظلومة المنهوبة إلى تحمل الظلم والذلة وهضم الحقوق قبل الموت على أمل أنه فى حياة مابعد الموت وفى ذلك « المعاد » سوف ينتقم دون ضرر وخطر وحاجة إلى فدائية أو تضحية بالروح أو قتال ، بل وسوف يأخذ حقوقه المهضومة مائة ضعف بل ألف ضعف . ومن هنا فإن « المعاد » كان وسيلة تدفع الناس إلى تأجيل التنفيس عن عقدهم النفسية والقيام للمطالبة بحقوقهم والعدالة إلى مابعد الموت ، وأية نعمة وطمأنينة بالنسبة للظلمة وأكلة الحقوق والنهابين والراكبين على كواهل الخلق .

وهاجم الإحساس الدينى بعنف ، لأنه على الدوام وعبر التاريخ ، وفى خضم الحرب الطبقية فى أوربا ، كان هذا الإحساس هو الصلة التى تقرب والتى توصل والتى تؤدى إلى المحبة والتعاطف بل والتعصب بين طبقتين يعدان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية قطبين متنافرين بل ومتناقضين وقفت كل مواجهة الأخرى ، وكل عامل يؤدى إلى التئام الوعى والخصومة الطبقية بين القطبين : القطب المتمتع الغاصب والقطب الكادح المنهوب ويوجد بينهما وجه اشتراك وصلة قرابة وتعاطف واشتراك فى الفكر والقلب يعد عاملا مضرا ، لأن السلام والتفاهم بين الظالم والمظلوم بين من يأكل ولا يعمل ومن يعمل ولا يأكل ، هو بلا شك لضرر المحروم ولصالح المتمتع . ففى معبد ما وفى يوم دينى مقدس ما ، عندما يرى العامل صاحب العمل قد جلس إلى جواره بإخلاص وحماس وإيمان يبكى مثله على تعذيب المسيح ويحب المسيح مثله ، لن ينظر إليه كعدو غاصب قاس مهدر الدم ، بل سوف يراه أخا فى الدين عزيزا وطاهرا ومتدينا ومحبوبا من الله ، وحتى لو علم أن مبلغا من أجره الحقيقى لايزال طرفه ، فسوف يتغاضى عنه ببساطة ، وسوف يسامح أخاه فى الدين وفى العقدة وفى القلب .

وهو حين ينكر القومية فلنفس السبب ، لأن « المواطنة » بين فردين ينتميان إلى طبقتين متحاربتين تؤدى إلى رباط عاطفى وشركة معنوية وثقافية وتاريخية وعرقية ، لأن القومية أيضا مثل الدين تؤدى إلى اشتراك معنوى إما أن يضيع فيه الخلاف الاقتصادى تماما وإما تخف حدة الاحساس به .

وهو يتخذ من المادية بنية تحتية لفلسفته ، ومن الاقتصاد مبدأ أصليا لكل تطورات التاريخ ولكل الأشكال الاجتماعية وبنية تحتية لكل الثقافة والآداب والفنون والأديان والأفكار والعقائد والرؤى الكونية والفضائل الأخلاقية ، حتى يجعل التناقض الطبقى ومنطلق النضال الذى بدأه العمال مطلقا ، ولايكون شعار النضال فى ظل شعارات أخرى بطرح عوامل أخرى إلى جوار الاقتصاد ، ولايفكر العامل فى قضية أخرى أبدا أثناء عمله من أجل هدف نضاله ، وبطرح هذه الأولية القائلة بأن العامل الاقتصادى هو الذى يصنع كل القضايا الاجتماعية والمعنوية والأخلاقية ، يقوى ويتميز بأولويه عامة ومطلقة .

وهذا يعلن « الحتمية التاريخية » كقانون لايقبل التغير وحقيقة علمية وواقع عيني ليس في متناول الإرادات والشخصيات والرغبات والعقائد ، حتى يعتقد العامل الذى يرغب في المساواة وكسر الاحتكار والامتيازات والرأسمالية والذى هب لتوه للنضال للوصول إلى حقوقه الطبقية وسقوط الطبقية الحاكمة الموجودة وصعود طبقته ، أن انتصاره جبرى ومحتم ، ويرى ضعفه ونجاح الطبقة الرأسمالية ونفوذها أمر مؤقت ، ويثق في زوالها ويعتقد فيه كما يعتقد في وصول فصل الربيع أو طلوع الشمس غدا ، لأنه لو وكل تحقق المجتمع اللاطبقي أو عدم تحققه واستقرار الاشتراكية في المستقبل إلى رغبات البشر وإرادة الأبطال والزعماء وقدرة الطبقات ، لكان الشك والاحتمال واليأس في انتظار العمال ، ولو أنه هزم في عصر ما أو في نضال ما وسيطر العدو على مصير المجتمع لرسخت فيه هذه الفكرة ولأخذ يحدث نفسه قائلا : « لقد انتصروا ، لن نستطيع أن نقوم بعمل ما ، لقد كانوا هم المسيطرون دائما وعلى مر التاريخ ، وفي المستقبل سوف ينتصرون أيضا ، إن الأوضاع والأحوال والظروف السياسية والإجتماعية تشير الى أنهم دائما حكام » وهكذا يستنتج أن أسس نفوذهم وسيطرتهم تزداد رسوخا يوما بعد يوم وليست قابلة للاهتزاز ، إن قوة النفوذ والمال في أيديهم كالمعتاد ، واليوم أيضا استولوا على قوة العلم والتقنية وصاروا أذكى وأعلم ، أما نحن فقد سقطنا بين عجلات الآلية وتروسها والخيوط العنكبوتية للبيروقراطية الجديدة التى نسجوها وصنعوها ، صرنا أسارى أكثر من العصور الماضية وصرنا عجزة فاقدى الأرجل والأيدى ، وأجهزة دعايتهم المجهزة الذكية تقوم بطريق مباشر وغير مباشر بتغيير نمط تفكيرنا في الأصل لصالحهم ، وتصنعنا بطريقة وتحمسنا لنمط حياة تقتضيها مصالحهم ، لاأظن أن قوتنا سوف تصل إلى درجة القضاء على هذه الطبقة ، لايمكن أن نجندل الرأسمالية المسلحة المجهزة بأيدينا الخالية التى نمدها إليها كل يوم طالبين لقمة العيش ، مجتمع بلا طبقة أمر مثير للحماس ومثالى ، ولكننا لانملك القدرة على ذلك .

والحتمية التاريخية لاتسمح بطرح كل هذه الأنواع من التردد واليأس والضعف والتبرير والتحليل السياسى والاجتماعى وتقييم القدرات الطبقية الموجودة . فالتاريخ مستقلا عن قوة الساعد وأمل القلب وتدبر فكرى وفكره ، وعلى أساس

مبدئه الكلى الحتمى الجدلى يتحرك من تلقاء نفسه ، وكما رأيناه قد طوى مرحلة العبودية قسرا ، ووصل إلى مرحلة الإقطاع وطواها هى الأخرى ووصل إلى البورجوازية وفى أوجها إلى الرأسمالية ، فانه طبقا لهذا القانون الحتمى سوف يصل بحركته إلى الاشتراكية والمجتمع اللاطبقى ، هذه هى مشيئة التاريخ ، وهذا هو المقتضى الحتمى لسنة التاريخ التى لن تجد لها تبديلا . إن طبقة العمال لن تواجه الطبقة الرأسمالية ولن تبدأ النضال بمشيئتها وقرارها ، ولن تنتصر بشرط حسن التفكير واتخاذ القرار الصحيح والتضحية وتعبئة كل القوى ثم التغلب على نفوذها ، بحيث تحبط لو لم تتحقق هذه الشروط ، إن الاشتراكية تنضج بالحتم ، وطوعا أو كرها سوف تكبر وتكبر ، وتأكل الرأسمالية من الداخل مثل الأكلة ومثل الجنين ، حتى تصل لامحالة إلى لحظة الميلاد .

تماما كما هو موجود فى « الجهاز المدرسى » للماركسية ، تستنبط الاشتراكية من مبدأ حتمية التاريخ ، والتاريخ من الصراع الطبقى ، والصراع الطبقى قائم على مبدأ الجدلية ومبدأ الجدلية قائم على مبدئية الاقتصاد ، وتستنبط مبدئية الاقتصاد من نظام الإنتاج ونظام الإنتاج قائم على أدوات الإنتاج ، وكل هذه الأشياء قائمة على الرؤية الكونية الفلسفية للمادية . ولاشك أن أى « فكر » يحصر داخل هذا النظام العقلى الخاص سوف يراه قواما واحدا وسوف يرى أن هذه القضايا المختلفة مكملة لبعضها ، وسوف يجد سلسلة علية منطقية قد ربطت مابين الطبيعة والتاريخ والمجتمع والفرد والإنتاج وأدواته والثقافة والنظام الاجتماعى .... الخ معا بحيث تكون كل منها علة حتمية وعلمية لما بعدها ونتيجة حتمية وعلمية لما قبلها ، ومن هنا فإن الاعتقاد بأية واحدة منها يستلزم منطقيا وحتميا الاعتقاد بالأخرى ، لكن لو استطاع هذا الفكر أن يخرج نفسه من هذا الإطار المدرسى ، سوف يستطيع أن يفصل القضايا عن بعضها أو يجد لكل منها منشأ علميا وعلة أو عللا منطقية أخرى ، وبالتخلص من ضرورة هذا التسلسل يستطيع على الأقل أن يحس بوضوح بهذا الواقع القائل إن ادراك الاستغلال والاستبداد الطبقى وتفسيره بأنه ظلم وبالتالى مقاومته أو حتى التضحية من أجل القضاء عليه وإن اقرار العدل والمساواة أمور لاينبغى أبدا أن تؤجل

إلى وقت أن تحل قضايا فلسفية كالجبر والاختيار عند الإنسان أو قدم العالم وحدوثه ، فعلى طول التاريخ وعرض الجغرافيا ، كانت هذه المبادىء هى الأسس الأخلاقية والروحية لكل المذاهب والفلسفات والثقافات عند كل الأمم وفى كل المراحل المختلفة للتطورات الاجتماعية ، فالصراع بين العدل والظلم والمساواة والتفرقة والحرية والاستبداد وحق ملكية وسائل الإنتاج ومصادره (الأرض) واغتصابها كان محتدما وظل حتى الآن فى كل مكان وفى كل عصر ، وكم من الدماء التى بذلت فى هذا السبيل ، وكم من الملاحم والمآسى الفخمة التى كتبت فى سبيل هذه المثل وذلك دون أن يكون من قاموا بها ماديين ، وبالرغم من أنهم لم يوفقوا إلى تحقيق هذه المثل على الدوام ونهائيا ، فذلك بسبب عدم الوعى الاجتماعى والطبقى والسياسى والقانونى عند الجماهير فى الماضى . فإذا كنت أيها المفكر المادى تبنى الاشتراكية على أساس الرؤية الكونية المادية الخاصة ، وتعتقد أنك بمنهج الجدلية ومبدأ المادية التاريخية والتطور الحتمى لأدوات الإنتاج وبالتالى التطور الذى لايتجنب للنظام الاجتماعى سوف تصل إلى الثورة الحتمية أى هدم النظام الطبقى القديم وإقامة مجتمع لاطبقى اجتث منه الاستغلال الاقتصادى والاستبداد السياسى والانحطاط الثقافى والأخلاقى من الجذور ، يستطيع متدين مستنير الفكر أيضا على أساس رؤيته الكونية الخاصة الروحية أن يقيم اشتراكية اعتقادا منه فى أن الطبيعة نظام معقول وحى على الدوام ، تديره إرادة واعية ، وكما هو واضح فإن هذا التدبير قائم على أسس قوانين دقيقة لاتتغير وروابط منطقية ومعقولة وخطط وحركات معلومة ومحسوبة ونظم متناسقة ومبدأ علية ، ولكل ظاهرة فيه علة ظهور ومنهج تقدير معين وهدف معلوم متنبأ به ، ولابدله من أن يعترف بهذا المبدأ القائل بأن هذا القوام العظيم المتحرك الحى للطبيعة الذى صنعت كل خلية فيه على أساس خطة ما ، واستخدمت فى موضعها الخاص بدقة ، والتزمت بعمل معين وتتحرك نحو غاية معلومة ، ولايوجد جزء على الإطلاق فى هذا « الكل » المدهش عبثا ، ولا توجد حركة فيه « بلا ثمر » وبلا جدوى وبالمصادفة ، وهو نفسه لايستطيع أن يكون جسدا ميتا فاقدا للشعور ولامعنى له وخواء وعبثا وبلا هدف خاصة وأن العلم الحديث كلما اقترب منه وصار أكثر معرفة به يزداد فهما لمنطقية حركاته وعلمية بنائه ، ويصل إلى هذا المبدأ الحاسم أنه لاسبيل إلى التناقض

والفوضى والمصادفة والعبث إلى هذا الجهاز المعقد المتحرك الحى الجميل ، والأطرف من هذا أنه فى نفس الوقت الذى تستند فيه أنت أيها المادى على أولية العلم وإمكانية التبرير العلمى والعقلى والمنطقى لكل أسرار الطبيعة وحركاتها وظواهرها وتستنتج من ذلك أن الدين وهم وأن وجود الله فى الطبيعة ، يستطيع هو بنفس هذا الدليل القائل أنه بشهادة العلم يستند بأن كل شىء فى الطبيعة علمى ومنطقى ومتوازن ويستنتج منه أن فى الطبيعة علما ومنطقا وعقلا .

ومن هنا نرى أنه بتقدم العلم ، يتقدم العلم ، بقدر مايتقهقر المفهوم الخرافى والتصور الذهنى الجاهل والمعرفة العامية غير المعقولة عن الله ، وفى مقابل التنوير المتزايد يوما بعد يوم والذى يقدم العلم والوعى المنطقى والمعرفة الحقيقية للطبيعة ، يختفى مفهوم الله ذهنيا ، ويتخذ حضوره فى العينية لونا ، ويتقدم حضوره فى الطبيعة – هذا هو الواقع الذى يشهد به التطور الفكرى الجديد أنه فى الماضى كان شيوخ الدين والصوفية هم الذين يقومون بإثبات وجود الله ، واليوم العلماء هم الذين يتحدثون عن وجود الله ، وحل علماء الطبيعة والكمياء والأحياء والحيوان والنبات وعلماء النفس وعلماء الإنسان عمليا محل الحكماء الإلهيين وعلماء الدين والشيوخ المتدينين وسدنة المعابد ، وبشكل طبيعى توجهت الأسماع من المعابد والصوامع نحو الجامعات والمعامل لتسمع شيئا فى هذا الصدد ، أى أنهم ينظرون اليوم بحثا عن الله إلى نفس المكان الذى كان قبل ذلك المجمع الخصوصى ومحل التردد المحتكر لمنكرى الله .



الرؤية الكونية المنطقية :

إن الرؤية الكونية التى بنيت على المنطق والوعى والهدف الغائى ولاسبيل إلى المصادفة والعبث إليها ، عندما يوضع التاريخ أيضا فى قلب هذا العالم فإنها تحوله إلى واقع حى على الدوام ومنطقى ، فهو ليس كما يراه بعض المؤرخين من صنع شهوات الملوك أو إرادة الأبطال أو من وضع شخصيات وليس إلا مجموعة من أحداث المصادفة والأفعال التلقائية ، وأنه ليس كما يظن نابليون عبارة عن « مجموعة من الأكاذيب التى اتفق عليها الجميع » وليس بتعبير توماس كارليل « قدم إلى بطلا وسوف اكتب تاريخ عصره » ، بل إن التاريخ مسيرة وحدة متصلة له مبدأ حركة متميزة على أساس قوانين حتمية أو بتعبير القرآن « سنن لن تجد لها تحويلا » ، وفى مسيره الطبيعى يمر بمنزل معين وذو خط سير علمى ومرتفعات ومنخفضات وزاويا وحنايا وبُطء واسراع نحو هدفه الغائى ، أو على الأقل كما هو مسلم به سائر نحو هدف ، ومن هنا فالتاريخ الذى هو عبارة عن عمر نوع الإنسان ومسيرة المجتمع البشرى الذاتية ، أو بتعبير آخر « الزمان العام الاجتماعى » ذو قوانين علمية محددة يمكن اكتشافها بتدوين علم التاريخ ، وكما أن الزمان التقويمى عبارة عن مجموعة من الحركات المتناسقة والمنتظمة طبق قوانين ومبدأ العلية (ومن هنا يمكن تحليلها ومعرفتها علميا وبكشف قوانينها يمكن إدراك مسير حركاتها ومعرفة مقصدها العام ويمكن التنبؤ بالمراحل القادمة بل وبالأحداث التالية) فإن الزمان الاجتماعى أى التاريخ قد شكل أيضا بحركات متناسقة ومنطقية من التحركات المختلفة للمجتمعات البشرية هى فى حد ذاتها نتيجة لعلل وتابعة لقوانين ثابتة .

لكن ، ماهى هذه القوانين وكيف يتطور المجتمع البشرى فى مسيرته التاريخية وطبقا لأية علل وعوامل ، وأية مراحل طواها وسوف يطويها فكل هذه قضايا ينبغى أن يجيب العلم عليها ، وعلى المؤرخين وعلماء الاجتماع كلما أرادوا معرفة التاريخ والمجتمع أكثر أن يلقوا بعيدا بحدسياتهم وفرضياتهم وأذواقهم وميولهم الشخصية والعرقية والطبقية والسياسية وتعصباتهم الدينية أو

اللادينية وعقائدهم المصنوعة سلفا وآرائهم المسبقة وعليهم أن يقوموا بمحوها ، ثم يقيموها على أسس منطقية وعلمية وعينية ، وعلى عالم التاريخ وعالم الاجتماع أن يتنحيا عن الإيمان بمدرسة معينة فكرية أو فلسفية أو أدبية أو فنية أو شعرية ، وعليهم أن « يجاوروا » العلوم البحتة .

ونحن نعلم أن مثل هذا العمل يحتاج إلى عدة قرون من الجهد العلمى ومن تقدم العلوم الإنسانية ، لأننا إذا نظرنا إلى علوم الفيزياء والكمياء والطب والهندسة ومايسمى بالعلوم الدقيقة ورأينا علماء هذه الفروع قد وصلوا إلى قوانين عينية كثيرة ومسلم بها تؤيد التجربة صحتها وتثبتها التقنية ، وأن معرفتهم العلمية واقعية وحقيقية إلى حد كبير وبعيدة عن الحدس والفرض والذوق الشخصى والعقيدة ، بحيث إنهم قادرون على التنبؤ بالمستقبل ، ويسيطرون على موضوعات علومهم إلى حد أنهم يقومون بتغييرها وإكمالها وتطبيقها كما يريدون ، ويفرضون إراداتهم ورغباتهم ومنافعهم عليها ، فإن هذا النجاح ليس وليد المخترعين والباحثين النوابغ فى القرون الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين من أمثال جاليليو وكبلر ونيوتن واديسون وباستور وكوخ ودالتون وآينشتين وبلانك وكار ، بالرغم من أن أكثر الاختراعات والكشوف العظيمة اللامعة فى العلوم الحديثة التى تقدمت إلى هذا الحد واكتسبت قوتها وسلطتها الحالية على يد نفس هؤلاء النوابغ فى العصور الحديثة ، ولكن الحقيقة أن هذا النجاح المذهل للعلوم الطبيعية هو نتيجة عدة آلاف من السنين من العمل المستمر وتقدم العلم وتكامله . ولاشك أن الانتصارات المذهلة لعلماء الفضاء اليوم الذين يقيسون بدقة قطر كل كوكب والمسافة التى بينه وبين كوكب آخر تبتعد عنا بملايين السنين الضوئية ، أو اولئك الذين يرسمون خريطة دقيقة لجغرافية القمر والمريخ إنما هى نتيجة أعمال سابقة فى علم الفلك على الأقل من عصر السومريين والبابليين ، وعند صناعة أبولو ١٣ ولونا ، لم يشترك لابلاس فحسب ، بل وبطلميوس وحتى الصابئة وعبدة الشمس منذ سبعة آلاف سنة فى بلاد ما بين النهرين ، أولئك الذين كانوا يعتقدون أن لكل واحد من آلهتهم منزلا فى أحد النجوم ، وأن رب الأرباب عندهم أى الشمس يسكن فى برج الشمس .

والعلوم الطبيعية التى تسمى اليوم بحق بالعلوم الدقيقة أو البحتة ولدت مع المجتمع والتمدن البشرى ، ولها تاريخ مدون يرجع على الأقل إلى سبعة آلاف سنة ، وقام الإنسان منذ بداية مرحلة فكره وبحثه بالبحث والنقيب والفكر والتجربة على أساس عاملين : احتياجه الدينى واحتياجه المادى وذلك حتى يعرف الطبيعة وخواص الأشياء الطبيعية : الجماد والنبات والحيوان وحتى يعرف أعضاء جسده ، وفى هذا الطريق غالبا ماكان منتبها إلى خارجه ، وبنفس القدر الذى كان ينظربه إلى ماهو حوله وماهو أمامه ، كان يبقى غافلا عن نفسه وكان فى الغالب متفرجا واعيا بغفلته ، ونحن الآن نرى فى الحياة والحضارة الإنسانية نتائج هذا التناقض بوضوح ، ونرى الإنسان قد خطا خطوتين : خطوة عظيمة الى مالاحد وخطوة ضئيلة إلى مالاحد ، فمن ناحية فتت الذرة وصنع أدوات تفتيتها وصنع القنبلة من النواة وقاس قطر الكون ويستعد للسفر إلى المنظومات الأخرى الموجودة فى الكون ، وفى نفس الوقت ظل عاجزا عن حل أكثر مشاكله النفسية سهولة وعادية وأكثر مشكلاته الاجتماعية والأخلاقية بدائية فى حياته العادية ، وفى هذا الشأن لم يخط خطوة واحدة أبعد من الحكم والمواعظ والأمثال التى قدمها القدماء ، بل وباعتراف علماء الإنسان العظام تأخر عن ذى قبل وأصبح أضعف من السابقين فى السيطرة على نفسه وأكثر بدائية ، أما العلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأجناس وعلم الأديان وعلم التاريخ فقد وجدت موضوعية مستقلة إلى حد ما منذ مايقل عن قرنين من الزمان ، وتعرفت على الأسلوب العلمى والتحليلى ولازالت فى مرحلة جدل العلماء حول الحدود المميزة ، وإلى جوار هذا فإن اختلافات الحدود جعلت وجود بعضها وموضوعيته مجالا للشك والإنكار .

لايزال هناك كثير من المفكرين يبحثون فى موضوعات من قبيل : هل للتاريخ واقع أو أن ذهن الإنسان الذى يصنع الوهم ويصطنع الكليات ويخلق التعميمات وصل فى ذهنه مجموعة من الحوادث المتفرقة والشخصيات والمجتمعات الماضية وتخيل منها « مسيرا واحدا » ؟ ويظن بعضهم أن التاريخ ليس واقعية عينية وبالتالى ليس علما يمكن اكتشافه ، بل يظنونه نوعا من الفنون يصنعه

المؤرخ بل ويعتبره امر صيغ شعرا ينظمه المؤرخ . ومثل هذه الشكوك تحيط بالعلوم الإنسانية الأخرى فعلماء الاجتماع لايعترفون بعلم النفس وعلماء النفس بدورهم لايعترفون بعلم الاجتماع ، والمعتدلون المتفاهمون من الطرفين مستعدون بصعوبة للتخلى عن موضوع أو عدة موضوعات لمنافسهم .

والعظمة التى يعترف بها لفرويد ويونج وآدلر تدل على أن الانسان المعاصر الذى ركب الفضاء اللامتناهى وجعل الجاذبية مطية ذلولا له ، عندما يخطو خطوة واحدة داخله ، ينفعل ويندهش إلى هذه الدرجة عند اكتشاف أكثر القضايا الكلية بدائية وبساطة فى « النفس » من قبيل العقدة النفسية أو اكتشاف هذا الأمر القائل بأن للذاكرة درجتين أو ثلاث درجات .

ولايمكن أن نحدد من هو المؤسس لأى علم من العلوم الطبيعية ، لأن البداية قد ضاعت فى البعد الأقصى المظلم لتاريخ الفكر والفلسفة والدين والحضارة الإنسانية ، لكن عندما يدور الحديث عن العلوم الإنسانية بمعناها الخاص فإن الجميع متفقون على وجه التقريب ، فعلم الاجتماع مثلا أسسه أوجست كنت ، ومؤسس التاريخ (ليس علم التاريخ الذى لاوجود له حتى الآن) هو ابن خلدون .

على كل حال فإن العلوم الانسانية وعلى رأسها علم الاجتماع وعلم التاريخ بالرغم من أنها أصبحت ذات طابع علمى ، إلا أنها لاتزال بعيدة عن اعتبارها علوما بالمعنى الدقيق ، ومن هنا فإن أكثر القضايا أساسية فيها تبين على شكل نظريات مختلفة وأحيانا متناقضة تطرحها المدارس الفكرية المختلفة ، وينبغى أن تمر سنوات طويلة حتى تختفى هذه المدارس الفكرية فى ضوء الطبيعة الواضحة والثابتة للعلم ، ويستطيع كل المفكرين أيا كانت ميولهم العقائدية والفلسفية الاستناد على قواعد ثابتة علمية .



حادثة تاريخية كنموذج :

لقد أعلن منشأ نوع الإنسان كإنسان ، فآدم هو المخلوق ذو البعدين المتناقضين الذى وصل إلى الوعى الذاتى ، بل وقام بالاختيار (العصيان) فى مواجهة إرادة الله ، وهذا اعتراف بالارادة الانسانية المستقلة فى مواجهة النظام الحاكم على الطبيعة وهو تجلى إرادة الله . [1]

ومن قصة خلق آدم يمكن أيضا فهم العالمية الخاصة بالأديان ، أى قرابة الإنسان مع الطبيعة (الأرض) من ناحية ، ومع روح الله (الإرادة والوعى والقدرة على الخلق والسيطرة على الطبيعة) من ناحية أخرى ، ويمكن فهم مسئولية الإنسان تجاه إرادة الوجود ، وتناقضه الفطرى وحركته الجدلية التكاملية على الأرض ، وشبهه بالله أى مايسمى بالوعى والاختيار والخلاقية عند الإنسان .

لكن من قصة ابنى آدم ، يمكن فهم أول حرب وتناقض فى حياة الإنسان على وجه الأرض ، ومن قصة قابيل وهابيل يمكن استنباط فلسفة التاريخ ، فقابيل بسبب « مسألة جنسية » هى عشقه لجمال أخته التى كانت خطيبة أخيه هابيل ، قام بأول ذنب وحقد وقتل للبشر وخيانة لأخيه وعصيان لأبيه وذنب أمام الله . فمن بين ابنتى آدم تصير الأجمل خطيبة لهابيل ، ولايقبل قابيل . ويرفع آدم قضية الأخوين إلى حكم الله ، فيأمر بأن يقدم كل منهما قربانا إلى الله ، وأيهما يقبل قربانه ، سوف يكون هذا دليلا على حكم الله وعلى الآخر أن يقبله .

وقبل الأخوان ، كان هابيل راعيا ، فاختار أفضل إبله الذهبية الغالية القوية ، وكان قابيل زارعا فقرب إلى الله حفنة من القمح المصفر العطن من مزرعته . وواضح أن قربان هابيل الذى لم يدع حق أحد ولم يفكر فى المال فى سبيل إيمانه ، وقرب إلى معبوده أغلى وأعز ماعنده ، قد قبل . وفى نفس الوقت لم يستسلم قابيل ، وتمرد على حكم الله الذى لم يكن فى صالحه ، وواصل تمرده واعتداءه . وقال هابيل : إنى سلمت لحكم الله ولئن بسطت إلى يدك لتقتلنى

---

(١) من أجل ألا يؤدى القول باستقلال إرادة الإنسان عن إرادة الله إلى الثنوية والإيمان بأقنومين ووجود ذاتين منفصلتين فى الوجود (إرادة الله وإرادة الانسان) ولاينقض توحيد العالم ووحدته ، فسرت إرادة الإنسان على أنها من روح الله التى نفخت فى آدم بمعنى أن استقلال إرادة الإنسان حتى فى مواجهة إرادة الله واقعية تعد تجليا لإرادة الله فى حد ذاتها .

ماأنا باسط إليك يدى لأقتلك ولن أفصم عرى الأخوة بيننا ، لكن قابيل وقد جن جنونه ، استدرج هابيل إلى الخلاء وقتله خفية ، وسفك دم إنسان على يد إنسان لأول مرة على وجه الأرض .

هذه القصة كما رويت تفهم غالبا على أنها حادثة تاريخية ، ونزاع بين أخوين حول شهوة ، وخبث جبلة قابيل وطهر جبلة هابيل .... الخ ، فى حين أن جبلة كل منهما واحدة : كلاهما ولد من أب واحد وأم واحدة وربى فى بيئة واحدة وعلى يد مرب واحد ، لم يكن المجتمع قد تكون بعد أو البيئات المختلفة حتى يتربى كل واحد بطريقة . وأولئك الذين قاموا بتحليل هذه القضية علميا ومنطقيا أرادوا أن يستنبطوا هذا المبدأ الذى يريد أن يقول إن الشهوة أو الغريزة الجنسية هى السبب الرئيسى وعلة العلل فى الجريمة والذنب ، وأن أول دم سفك فى التاريخ كان من جراء الشهوة .

هذا صحيح : لكن هذا السؤال بقى بلا جواب وهو : لماذا يسقط قابيل فريسة للشهوة ولايؤثر هذا العامل القوى على هابيل ويدفعه إلى الخيانة وسفك الدماء وقتل أخيه وارتكاب الذنب ؟ ففى هذين الأخوين العدوين ذات واحدة ولهما أب واحد وأم واحدة وبيئة تربية واحدة وبيئة طبيعية واحدة ومدرسة تربية واحدة وتجربة كليهما واحدة : فمن أين هذا التضاد فى الخلق والجبلة والسلوك ؟ من هنا ينبغى من الناحية العلمية أن نبحث عن عامل يفسر هذين الشخصين المتناقضين عامل لايكون مشتركا بين هذين الأخوين .

وبالبحث نرى أن العامل غير المشترك فى سيرة هذين الأخوين هو نوع العمل ووضع الحياة الاقتصادية لكل منهما ، فأحدهما راعى والآخر زارع . وهذا الاختلاف جدير جدا بالتأمل . ماذا يعنى الإنسان الراعى ؟ يعنى إنسان عصر سكنى الخيام والقبلية ، إنسان بدائى ، أى إنسان المرحلة التى لم تكن فيها الملكية قد ظهرت بعد ، مرحلة ان البشر يعيشون فيها فى جماعات فى أحضان الطبيعة أحرارا ويأكلون من مائدة الطبيعة العامة ، كان صيد البحر والنهر والغابة هو مصدر الإنتاج ، ولما كان مصدر الإنتاج وهو الطبيعة السخية البكر موجودا بالتساوى تحت سيطرة الأفراد ، لم تكن الملكية بالطبع موجودة إلا على مصادر الإنتاج الموجودة فى الطبيعة ، ولم تكن الملكية بمعنى احتكار فرد لمصدر

الإنتاج وحرمان الآخرين منه موجودة ، وكان المجتمع ينقسم إلى أفراد لا إلى طبقات فالطبقات الاقتصادية تتشكل على أساس الملكية ، والملكية أو احتكار مصادر الإنتاج تظهر عندما تصبح مصادر الانتاج محدودة ، وهذا عندما يتحول شكل الإنتاج الاقتصادى من الصيد والرعي (استئناس الحيوانات الموجودة فى الطبيعة بكثرة وحرية) إلى الزراعة . فالأرض الزراعية محدودة وليست غير محدودة كالنهر والبحر والغابة والصحراء والجبل تحت سيطرة الجميع وزيادة عن الحاجة . وفى مرحلة إنتاج الصيد والرعى فى الغابة والبحر يصير الإنتاج محدودا بقدرة الفرد المنتج ، وفى مرحلة الإنتاج الزراعى فى المزرعة يصير الإنتاج محدودا باتساع مصدر الإنتاج ومن هنا ففى مرحلة الإنتاج الموجود فى الطبيعة يجاهد الفرد فى القيام بزيادة قدراته ، وفى المرحلة الزراعية يقوم بالجهاد لتوسيع مصدر الإنتاج والأرض المحدودة الصالحة للزراعة لايمكن أن تصير تحت سيطرة أفراد غير محدودين ، ينبغى أن تكون فى النهاية نصيبا لأحد ، ويبقى آخر بلا نصيب منها ، ومن هنا تقوم الملكية بايجاد طبقتين :

طبقة محرومة وطبقة مالكة ، ويتبدل المجتمع الذى كان مجموعة من الأفراد إلى مجتمع يحتوى على طبقتين ، وإذن : ماهو العامل الذى يحدد هذا الامتلاك أو الحرمان ؟ إنه القوة ، فحتى ذلك الوقت لم يكن هناك تبرير فلسفى وعلمى وعرقى ودينى ولامعيار اقتصادى وقانونى ووراثى ومئات من الزينات والزخارف التى وجدت فيما بعد ووضعت على ملامح القوة ، فخبئت عن الأنظار وزينت بحيث لايزال الكثيرون يخطئون فيها حتى الآن . فالأقوياء الذين كانوا أكثر توفيقا من الآخرين فى صيد البحر والغابة كانوا أسبق من الآخرين فى الاستحواذ على الأرض الزراعية المحدودة واغتصابها ، فأقاموا حولها قلاعا ، وأوجدوا الاحتكار وطردوا الآخرين خارج الجدران . ومن الطبيعى أنه عندما تكون القوة هى معيار الحق ، فإن أحدا لايقيد نفسه بحقه ويجاهد فى الاستيلاء على القدر الممكن والموجود لاالنصيب اللازم المعقول . ومن هنا تستقر الأرض فى يدى جماعة من الأقوياء أكثر من حاجتهم وإمكان إدارتها أو العمل فيها ، وتبقى جماعة من الضعفاء خاوية الوفاض . والآن لم يعد مجتمع الأفراد الأحرار يتحرك فى حضن الطبيعة المنبسط اللا محدود ، بل وينتقل من مكان إلى مكان بحثا عن الطعام ، لقد وجد السكن وربط بقيد إلى ماء وأرض ، وصارت المزرعة

المحدودة مصدرا لغذاء الجميع . وأصبح الملاك الذين يملكون من الأرض فوق مايتحمله عملهم الفردى فى حاجة إلى عمال ، والعامل الذى لايملك أرضا فى حاجة إلى أن يأكل ، وهذان الاحتياجان يحددان العلاقة بين الطبقتين وظاهرة جديدة أيضا : شراء الإنسان الذى لاأرض له المحتاج إلى الطعام من قبل الإنسان مالك الأرض الذى يحتكر مصدر الطعام ، ثم المجتمع الطبقى والعبودية والرق ، الذى يحتوى على مالك وأجير وأشراف وعامة وحاكم ومحكوم وحر وعبد وسيد وتابع وصاحب فضيلة وفاقد للفضيلة وطاهر ونجس وجنس أعلى وجنس أدنى ، وأشخاص ينشغلون بالفضائل والمعنويات والتسامى الروحى والفن والثقافة والفكر والعواطف ، وأشخاص عليهم القيام بالأعمال الدنيئة الشاقة المبتذلة فى المجتمع .

وهابيل راعى ، أى إنسان مرحلة الحرية وتحرر الإنسان من الأرض ، أى الإنسان الذى ينتمى إلى مجتمع بلا طبقة الشركة الأولى العصر الذى كانت فيه الطبيعة العظيمة ملكا للمجتمع ملكا لكل من يعمل فيها وقابيل زارع أى إنسان مرحلة السكنى وارتباط الإنسان بالأرض ، أى انسان المجتمع الطبقى ، الملكية الفردية والاحتكار ، الامتلاك والحرمان ، استغلال الفرد للفرد ، تسلط الإنسان على الإنسان ، والأطفال الذين يقطفون من حديقة ويأكلون منها أحرارا وهى مليئة بالثمار ، كل منهم فى صراع مع الطبيعة ، وعلاقة كل منهم بالآخر قائمة على الأخوة والمساواة والسلام والمصالح المشتركة ، لكن عندما يجلسون هم أنفسهم إلى مائدة واحدة ، يتغير اتجاه الصراع مع الطبيعة ويحل محله الصراع بين كل منهم والآخر ، ومن ثم يظهر الحرص والتكاثر وعبادة الذهب والمادية والاحتيال والكذب والقوة والاغتصاب والاستغلال والجريمة والحقد والحرب واستخدام الانسان والعبودية والاستعمار والتسلط والميل الى النفوذ والخلاصة وطء كل العلاقات والعواطف والمعنويات بالأقدام فى سبيل جمع المال . وهابيل نموذج لمجتمع للاطبقة ، للشركة الأولى والأخوة والمساواة السلمية بين البشر قبل الملكية الفردية وقبل ظهور الطبقات الاقتصادية المتشاحنة والاستغلال . وقابيل نموذج المجتمع الطبقى والملكية الفردية والتناقض والاشتباك الممتزج بالكراهية بين الطبقات وتقسيم المجتمع الإنسانى وتبديل الأخوة البشرية إلى تشاحن

اقتصادى ووطء الحقيقة بالأقدام فى سبيل المنفعة وحقيقى أن الغريزة الجنسية عامل قوى مؤثر جدا فى العلاقات بين البشر ، وهو واضح فى العلاقة بين قابيل وهابيل لكن البنية التحتية الأساسية للرذائل والانحطاط الأخلاقى وجنون المنفعة وعبادة الذات امر آخر ، ومن هنا فإن الغريزة الجنسية المتساوية بين هذين الأخوين تدفع قابيل فحسب إلى الجريمة ، ويبقى هابيل مصونا من هذه الآفة يحتفظ بشرفه وسلامه ومحبته وإيمانه بالرغم من عدم وجود أية قرينة تشير إلى أنه كان فاقد الرجولة أو يعانى من أى نقص جنسى ، ومن هنا فإن قابيل يخون حتى الله الذى يؤمن به ، ومقتل هابيل الراعى على يد قابيل مالك الأرض يعنى انتهاء عصر الشركة والمساواة الأول ، ودخول التاريخ إلى مرحلة الزراعة والملكية أى عصر سيطرة الطبقات وتقسيم الإنسانية إلى كتلتين متضادتين متشاحنتين .

ويدخل الإنسان مرحلة تاريخه الحاضرة بموت هابيل والعدالة والأخوة والحرية والمساواة وبقاء قابيل والملكية والخصومة والعبودية والتفرقة ، ذلك التاريخ الذى حفظ فى مراحل تطوره المختلفة نظام التفرقة بين البشر والتضاد الطبقى ، فعصر الملكية الطبقية يختم عصر الشركة الاجتماعية (أى يقتل قابيل هابيل) وتسيطر الطبقة الثرية القوية على مصير الطبقة الفقيرة الضعيفة ، ويحكم النظام القابيلى على تاريخ الإنسان وبالتالى على نوع الإنسان ، وتتغلب المنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية ، وتصير الأنانية الاقتصادية والسياسية والجنسية وكلها من مظاهر الروح القابيلية هى الروح المسيطرة على النظام الاجتماعى ، وقابيل فى التاريخ هو الذى يكنز الأموال ، ويقيم أجنحة الجحيم ، كما يصير مالكا وملكا ، كما يصير سيدا ، كما يسفك الدماء أى روح الأنانية ، أى الحرص على امتلاك كل شىء وحرمان كل شخص .

ومن الواضح أن حفظ هذا النظام لايتيسر كما يقول ماكيا فيللى فقط بكون الإنسان ذئبا ، ينبغى أن يكون أيضا ثعلبا ، وكون الإنسان ذئبا يعتمد على السيف والمال (الأول فى نعومة الحرير والثانى فى لون الذهب) ، وكونه ثعلبا يعنى أن يستند على الدين واليوم على الأيديولوجية وإلى جوارها الاستعانة بالفن والآداب والشعر والفلسفة والعلم ..... الخ .

طبقة واحدة ووجوه ثلاثة :

السيف والمال والدين ، هذه هي وجوه ثلاثة لطبقة واحدة تلك الطبقة التى كانت على الدوام مسيطرة على التاريخ ، وهكذا أظن أن التثليث انعكاس ذهنى لهذا التثليث العينى ، فالله واحد ذات واحدة ومبدأ واحد وقدرة واحدة ووجود واحد ، لكنه على ثلاثة وجوه : انعكاس للتثليث الطبقى ، فالطبقة الحاكمة واحدة : ذات واحدة ومبدأ واحد وقدرة واحدة ووجود واحد لكنها على ثلاثة وجوه مختلفة : القوة والذهب والدين ، وفى اليونان القديمة يعد زيوس إلها ذا ثلاثة وجوه ، وفى الهند أيضا « ويشنو » ذو ثلاثة وجوه ، وفى روما : صار عيسى بن مريم إلها ذا ثلاثة وجوه ، هى الأب والابن والروح القدس ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة ، وهذا من الناحية العلمية والمنطقية والفلسفية غير قابل للتصور باطل ، لكننا نسيء الفهم ، نظن أن الحديث عن اله الكون ، وإلا فأى رسول أو فيلسوف أو عقل قد اكتشفت أن الله ذو ثلاثة وجوه حتى نرد عليه ؟ ان الحديث عن طبقة قابيل التى هى واحدة وثلاثة وبينما هى واحدة هى أيضا ثلاثة : إله مسيطر فى ثلاثة وجوه ، كم هو صحيح ، طبقة حاكمة فى ثلاثة وجوه : وجه سياسى ووجه اقتصادى ووجه دينى [1] الحاكم والرأسمالى ورجال الدين ... أرأيتم أنها فعلا ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة ؟ هل رأيتم إلى أى مدى يتسم المنطق الكاثوليكى بالصحة والدقة ، هذه الوجوه الثلاثة فى جسد واحد سيطرت دائما على التاريخ وعلى المجتمع قابيل ، وفى الأديان الابراهيمية ومن بينها القرآن أشير إلى مثل هذه الكيانات الثلاثة للطبقة الحاكمة وهذا التثليث القابيلى فى ثلاثة شخصيات : فرعون وقارون وبلعم بن باعوراء ، ومعمعة نضال الرسل الرعاة ونصلهم الحاد كان متجها بدقة إلى هذا الجسد الواحد ذى الوجوه الثلاثة ، ومن هنا نرى فى سيرة حركات هؤلاء الرسل ومصيرهم كما نقرأه أن هناك أجنحة ثلاثة وقفت دائما فى وجوههم ، وبكل

---

(١) المترجم : وفى عصرنا الحديث قد تتجسد الوجوه الثلاثة فى واحد ، ومن ثم نقرأ أن فلانا الرئيس يعظ فى الكنيسة يوم الأحد ويمتلك الشركات ويحكم ويسير الجيوش والأساطيل ، وأن فلانا السياسى اليهودى كان يذبح سكان قرى فلسطين العزل وهو يضع الطاقية السوداء فوق رأسه ويرتل آيات التوراة ، وأن بابا روما يمتلك أكبر الشركات العالمية وإدق نظام مصرفى يغطى وجه البسيطة ، ولايخلو رئيس من أعمال تجارية استثمارية ، بينما هو أيضا يؤلف الكتب ، فلم يعد سلطان يقنع بوجه واحد .

قوتها حاولت القضاء عليهم وعلى حركاتهم [1] : الملأ والمترفين والرهبان ، فالملأهم الذين يملئون العيون والأفواه ، أصحاب الرقاب الغليظة والرءوس الكبيرة ، والمترفون : الرجال الممتلئون عنجهية وكبرياء وتنفجا ، أولئك الذين يسيرون بين الخلق مثل الديكة الرومية اتكاء على ثرواتهم العظيمة التى تبرئهم من كل مسئولية ، والرهبان : سدنة المعابد ورجال الدين فى الأديان المختلفة .

لكن الحكم العام بالنسبة للأديان خاطىء بقدر ماهو كذلك فى الأيديولوجيات . ينبغى أن نحدد فى البداية عن أى دين نتحدث ، وحينذاك نحكم بشأن دوره الاجتماعى واتجاهه ورسالته الطبقية ، وقد دلنا علم الاجتماع التاريخى والدينى إلى أن الرؤى الكونية الفلسفية والدينية المسيطرة دائما ماهى إلا انعكاس للنظام الاجتماعى وأشكال الحياة المادية الموجودة عند البشر ، ودائما ماكان الوضع الاجتماعى مفسرا ومبينا فى صورة الدين ، وفى الحقيقة فإن النظام العقائدى الدينى المسيطر كان مفسرا للنظام الاجتماعى المادى وأن الحقائق السماوية اللاهوتية كانت تصويرا للوقائع الأرضية الناسوتية .

فالهيئة القديمة (التصور الفلكى للأجرام والسماوات) تشمل أفلاكا تدور حول مركز هو الأرض والسماء نظام طبقى ثابت ، وكل طبقة تابعة عقلية تحت العقل الفوقى وفوق العقل التحتى بالنسبة لها ، وكل الطبقات تابعة لأعلى طبقة (فلك الأفلاك) والعقل المدبر لها أى عقل العقول أو العقل الكلى . وهذه الهيئة نسخة طبق الأصل من النظام الطبقى فى مجتمع مغلق وحركته الدورية .

فالأديان الموجودة ، الأديان المسيطرة على التاريخ ، كانت دائما وبلا استثناء أدوات فى أيدى الطبقة الحاكمة ، كانت واحدا من وجوهها الثلاثة ، ودائما ماكانت طبقة رجال الدين فى كل المجتمعات على رأس المجتمع ، ودور الدين هو التبرير الفكرى والعقائدى للنظام الحاكم وللوضع الموجود وللتضاد

---

(١) فى المسرحية الجيدة « سيزيف » للكاتب الفرنسى المفكر روبير مول التى أخذ شخصياتها من آلهة اليونان القدماء يخطف سيزيف بطل البشر قلم الموت من يد الآلهة ويمنح البشر الخلود فى مواجهة الآلهة ، وعندما لايكون موت لن يسيطر الآلهة على البشر الميتين ، لكن فى هذه الحالة لن يسيطر السادة والملاك على الناس ، سوف يتمرد العبيد والفلاحون ، ويلتمس السادة من سيزيف قائلين فلترد إليهم قلم الموت فإن نظام المجتمع قد انهار ويتعجب سيزيف : كيف أن ممثلى الآلهة هؤلاء وهم أنفسهم من البشر وقد وصلوا إلى الخلود يطلبون منه هذا الطلب ؟ ولايرد سيزيف القلم ، ويتفق ممثلو الطبقة الحاكمة

الطبقى وتطبيع الوضع الاجتماعى لكل فرد ولكل جماعة ولكل طبقة فى سلسلة مراتب المجتمع بل وجعلها إلهية . وعلى حد قول كريلوف فى مفهوم الأناجيل « إن القساوسة يسمون الناس أغنام الله لأنهم كلفوا من قبل الله برعى الخلق لكى يستطيعوا استغلال صوفهم ولبنهم » كان فرعون يضع قيدا حول رقبة رجل ويمتطى كتفيه ، بينما يقوم قارون بتفريغ جيوبه ، وكان بلعم بن باعوراء مكلفا بالهمس فى أذنه برقة وحنان وعطف وإقناعه بأن يتحمل هذا الوضع ويعتبره مشيئة الله ، لأنه على حد قول بطرس الرسول « كل يد تريد أن تخل بالترتيب الموجود فى المجتمع فإنها تكون قد اصطدمت بالمشيئة الإلهية » .

فالمهمة الرئيسية لهذا الدين : أولا : إبراز أن الوضع الاجتماعى الموجود على أنه أزلى وإلهى ، وثانيا : إرجاء الانتقام من الظالم وإقامة العدل وإحقاق الحق وإدانة الغاصب ورفاهية الحياة والمتعة المادية والخلاص من الكدح والجوع والعبودية إلى مرحلة مابعد الموت والعالم الآخر ، وأيضا استخدام المركزية الموجودة فى المراسم الدينية والإمامة الدينية والوساطة المحتكرة لهم بين الخلق والله أو الآلهة لاكتساب النفوذ والسيطرة على الناس ، واتخاذ طبقة رجال الدين مكانا فى صف الطبقة الحاكمة ، وتعاملها المختلف بمقتضى الزمان فى العلاقة مع الجناحين الآخرين .

فالأديان المسيطرة على التاريخ التى كانت سلاحا معنويا فى يد الطبقة الحاكمة ، كانت فى يد أجنحتها القديمة والقوية سدا منيعا يمنح القوام والدوام لبنية المجتمعات المكونة من أكثر من طبقة المتناسقة شكلا لكنها مليئة بالتضاد والتناقض والشقوق فى طرزها المختلفة من عبودية ورق وإقطاع وطرز تجارية وأشكال مختلفة من ملكية وأرستقراطية وإمبراطورية وإلهية وحتى ديموقراطية ، والتى كانت بسبب هذا التضاد الداخلى وعدم الاتساق والتشابه بين الأبعاد والعناصر التى تكونها محكوما عليها بالفناء والانهيار .

فى اليونان مع آلهة الموت ويصيرون عملاء له ويأخذون القلم من سيزيف بالخدعة ويردونه إلى آلهة الموت حتى يحتفظوا بأوضاعهم ولو كان الثمن هو موتهم ، وهنا يئن سيزيف شاكيا : « أواه .... كنت أظن أن الميتين لهم مصالح مشتركة » وهؤلاء الممثلون للطبقة الحاكمة كانوا أيضا ثلاثة : أحدهم أرستقراطى والثانى تاجر ، والثالث رجل دين .

وكل واحد من آلهة الأديان المسيطرة على التاريخ أب لقومه وخالق لهم أما الأقوام الأخرى فمخلوقات وضيعة وغريبة لآلهة أخرى وضيعة وغريبة . فبنو إسرائيل هم أبناء يهوه ويهوه عدو للكنعانيين ، وزيوس إله لليونانيين وعدو لأهل طرواده والبربر (الإيرانيين) ، وآهورامزدا أيضا إله لإيران وعدو لأنيران (أى ماسوى إيران) ، وفى النهاية ويشنو إله الرق فى العالم (العالم الهندى) الذى خلق من رأسه الملوك والأمراء والأشراف ومن يديه العسكريون والمحاربون ومن صدره البراهمه ، ومما دون ذلك جماهير الناس . أما المنبوذون فهم غير آدميين وأنجاس .

والله أو الآلهة بالمعنى العام فى الأديان القديمة كانوا ذوى بنية اجتماعية تحتية ومادية محددة . وفى الحقيقة كانت مهمة الأديان منح قاعدة ميتافيزيقية وكونية وأزلية أبدية للنظام الموجود والوضع الحاكم فى المجتمع ، وكل واحد من هؤلاء الآلهة ممثل للمبدئيه والوحدة والتفاخر العرقي والقومى (زيوس ، ويشنو ، يهوه ، المسيح ، آهورامزدا) أو رمز الثنوية الاجتماعية ، أى تقسيم المجتمع الواحد إلى طبقتين متناحرتين مختلفتين (ثنوية ، ازدواج الآلهة ، الخير والشر . . الخ) أو مظهرا للنظام الإقطاعى أو الأمبراطورى الشامل لعدد من الوحدات العرقية والقومية المستقلة ، وفى نفس الوقت متصلة ومرتبطة (نظام الآلهة الملتزمين ، الأساطير واليونانية والآلهة الرومانية والويدية وعبادة الشمس ... الخ) .

والأصنام كل منها يشير إلى سلسلة المراتب العرقية والقبلية والطبقية والأسرية ويفسرها ، وحين تكون الآلهة ذات سلسلة من المراتب المختلفة ، ويكون الآلهة الآخرون متفاوتين كل عن الآخر من ناحية الشرف والمحتد وموضع القدر ويصدق عليهم أيضاً نظام التفرقة وسيطرة الطبقات والامتيازات العريقة ، فإن المجتمع البشرى والعروق والطبقات والأسر أيضا وهى مخلوقة من لدنه وتابعة له وتدبر بإرادته ، بحيث تكون كل وحدة من هذه الوحدات المستقلة الإنسانية مرتبطة بإله خاص بها لاتستطيع أن تبرأ من هذا النظم الكونى المسيطر على الوجود والنظام الشامل للعالمين ، أو تتصور أن التفرقة العنصرية والتضاد الطبقى والمبدئيات والامتيازات العرقية والذاتية أمور عرضية ومؤقتة وانحرافية وقابلة

للتغيير ومن صنع أفراد ونتيجة للاغتصاب والقوة والإجحاف ، وفى النهاية قابلة للثورة والتخريب والإصلاح .

وآلهة الأديان كنها رموز ما وراء طبيعية للمبدئيات القومية والعرقية والطبقية والأسرية ، فهذه الأديان فى الغالب بها إله عظيم وعدد من الآلهة الصغار ذات صلة به بشكل ما (البنوة ، الزوجية ، القرابة ، التبعية) مع حفظ استقلالها وحق تقرير مصيرها وسيطرتها على مناطق نفوذها ، وتشكل فى مجموعها نظاما خاصا فى السماء كان مثيلا للنظام الاجتماعى على الأرض ، فإله أو آلهة كل دين ، كانت تقيم مجمعا للأديان يعد ملكا خاصا من أملاك القوم (القبيلة أو فى شكلها المتكامل الأمة أو العرق) . ورب الأرباب أيضا كان ذا صلة عرقية وقرابة نسبية بشكل ما مع قومه ، وفى الغالب كان عبدة رب الأرباب وأتباعه أبناء له ، وقد خلق ويشنو الهنود من جسده بهذه الطريقة : خلق الكاشريين (الملوك والأمراء والأشراف) من رأسه ، والعسكريين والمحاربين من يديه ، والبراهمه (رجال الدين عند الهنود) من صدره ، والباقى أى جماهير الناس ممادون ذلك من جسده ، ونرى أن المساواة الطبقية فى هذا الدين وانتقال فرد من الشعب إلى موضع الأشراف إلى أى حد غير معقول بل ومحال فالذى يدير فى رأسه فكرة المساواة بين البشر أو يعترض على المسافات الموجودة بين الطبقات الاجتماعية أو التضاد بينها ، كأنه يريد أن يجعل سواء رأس رب الأرباب وماهو موجود أسفله من أعضاء . وبومثيوس هو الذى خلق اليونانيين ، أما زيوس رب الأرباب عند اليونانيين فيأتى من كريت إلى اليونان ويصير بالتدريج يونانيا ورب الأرباب لليونانيين ، وعندما يريد أن يعاقب برومثيوس بتهمة جلب النار الآلهة التى اختطفها من السماء للإنسان (أى اليونانيين) يقيده فى أرض نائية أى القفقاز ، وعندما يريد أن يزيد عذاب الغربة والوحدة على عذاب الأسر والقيد لهذا الاله الخالق يختار منفاه بين السيكانيين . فى الحرب بين طرواده واليونان نرى أبولو وبالاس من ناحية وزيوس وهير اكلوس من ناحية أخرى يتقدمان قومهما وقد أمسك كل منهم بخناق الآخر باذلا كل قوته ،

حقيقة أن آلهة الشرق ذات تجرد ماورائي وروحانيات أكثر من آلهة اليونان ، إذ أن آلهة اليونان جيران لاصقين لبنى البشر . [1]

واني اعتقد أن هذه الأرباب العظمى ذات الجذور القومية والتى هى فى حكم الأب أو الملك بالنسبة لأقوامها ، كلها شكل تغير وتكامل للطواطم القبلية للمرحلة البدائية للمجتمعات الوحشية . والطوطم كان حيوانا يختار كمعبود لقبيلة ما ، وكان أكل لحمه حراما على أفراد القبيلة ، والقبيلة وهى أسرة موسعة وذات منشأ واحد يعد الجد المشترك لكل أفراد قبيلة ما وعائلاتها وعشائرها تنسب نفسها بوعى أو غير وعى إلى جدها الأعلى ، وأحيانا تأخذ اسمها من اسمه على شكل صفة نسبية أو اضافة [2] وأحيانا تضع اسمه عليها دون إضافة (غطفان ، هوازن) .

وتصبح روح الجد الأعلى للقبيلة روحا للمجتمع ، والأفراد بمدحهم وعبادتهم إياه واحترامهم له ، يقدسون الروح الجماعية عندهم ويعظمونها (حالة مثل التى عند الأمم اليوم بالنسبة للعلم القومى) ، وهذه الروح تحل فى طائر (العقاب عند الجرمان والرومان) أو دابة (البقرة عند الآريين خاصة هنود اليوم والفرس والقدماء) أو أحد الزواحف (الحية فى الشرق الأقصى ولايزال لها معابد إلى اليوم فى الهند الصينية ونيبال ولها سدنة ورجال دين وعباد كثيرون) ، وتبقى خالدة ودائما على صلة بقبيلتها وتحميها على أساس أن القبيلة من أبنائها ، وترى كيف أن المجتمعات البدائية (كما حلل دوركهيم بدقة ومن قبله بحث علماء الثقافة وعلماء أجناس الشعوب البدائية مثل اسبنسر وتايلور ومولر شخصيا) تعبد روحها العرقية والقومية فى اسم جدها المشترك وفى جسد

---

(١) أى مخلوقات شبيهة بأبطال البشر بكل أحوالهم وخصائصهم وميولهم الشريرة أو الطيبة ومافيهم من غريزة جنسية وعبادة للشهوة واحتيال وكبرياء وحقد وأحياناً خيانة للروح والمال والعرض بالنسبة لرفاقهم فى العالم الآخر لكن هذا العالم الآخر اليونانى ليس كعالم الآخرة الشرقى بعيدا وغامضا وغير قابل للتصور ، فهو فوق قمة الأوليمب على قمم جبال بارناس .

(٢) بنى : بنى اسرائيل ، وفى إيران أيضا بأدوات النسبة : الياء ، ان ، زاده ، بور ، وفى لورستان وند مثل طائفة تقى وند وحسن وند ، وربما كان العرب يختارون عند الميلاد كنية أبو أو أم للمولود على سبيل التفاؤل بأن الطفل سوف يصير فى المستقبل جدا أعلى لطائفة ما ، طائفة تنسب نفسها إلى اسمه مسبوقا بلفظ بنى .

طوطمها [1] ومن هنا فإن الطوطم هو التجلى العينى والتجسد المادى للإحساس المشترك الجماعى والروح القومية والعرقية عند أمة فيها اشتراك فى الدم .

والأمة أيضا على نفس الشكل الذى كان موجودا منذ القدم ، أو كما تفسر هي الشكل الواسع للمجتمع القبلى ، كما أن كلمة nation التى تعنى فى اللغات الأوربية الأمة مشتقة من الأصل اللاتينى Naitre أى الميلاد ، ومن هنا فإن المفهوم الموجود لمجتمع قومى فى الأذهان هو اشتراك كل أفراد أمة ما فى الدم ، بمعنى أنهم جميعا قد ولدوا من أب واحد ، وحتى الآن لاتزال الأمم المتقدمة اليوم تفسر تاريخ شعبها بهذه الرؤية ، ويعتبر شعب فرنسا نفسه من قبيلة الفرانك ، وشعب ألمانيا يعتبر نفسه من قبيلة الجرمان كما يعتبر الإنجليز أنفسهم من قبيلة « إنجل » .... الخ ، بحيث أنه عندما تتحول قبيلة صغيرة بدائية وترتقى إلى أمة كبيرة متحضرة ، يتحول طوطمها إلى إله عظيم : ويشنو ، زيوس ، جوبيتر ، آهورامزدا ويهوه – وهذه الأرباب التى صورت مرارا ونحت لكل منها التماثيل ، لكل واحد منها ملامح تشير الى أن المصور أو المثال جاهد فى نقل الصورة الموجودة فى الأذهان عن جد القوم ، ومن هنا فإن ويشنو هندى تماما فهو حليق اللحية ذو شوارب مبرومة حادة الأطراف سوداء وبشرة داكنة وعينين سوداوين وحاجب أسود ، وجوبيتر بطل رومانى عظيم وزيوس ذو ملامح يونانية وآهورامزدا بالنسبة للخصائص العرقية إيرانى مائة فى المائة ..... وفى النهاية فإن المسيح ومريم رجل أوربى وامرأة أوربية .

وكما أنه فى مرحلة عبادة الطوطم البدائية ، كان أبناء القبيلة يعدون أنفسهم أبناء الطوطم الخاص بهم ، أيضا فى مرحلة الرب المتحضرة ، يفسر أفراد الأمة علاقتهم بمعبودهم على شكل رابطة الأبوة والبنوة ، رأينا كيف أن ويشنو يخلق الهنود

---

(١) فى يوم خرداد (المترجم : السادس من كل شهر إيرانى) من شهر فروردين (الشهر الأول فى السنة الإيرانية) نقرأ أنه فى بداية الخليقة ، كانت البقرة توأما فى الميلاد لكيومرث الجد الأعلى للآريين فى الهند وإيران ، ويشير هذا إلى أن الدابة المذكورة كانت طوطما لشعبة من الآريين . ورءوس الأعمدة فى فارس القديمة كل منها على شكل رأس بقرة وتقديس البقرة وتحريم قتلها أو حتى أكل لحمها فى الديانة الهندوكية وهى أقدم الديانات الموجودة عند الهنود ، تدل على أن البقرة كانت طوطما عند الأمتين اللتين كانتا فى البداية أمة واحدة .

من جسده ، ونعلم أن بنى اسرائيل يعتبرون أنفسهم رسميا أبناء الله ومدللى يهوه ، والرومان صنعوا آلهتهم على شاكلتهم وبذلك هيئوا الأرضية لقرابتهم العرقية معا ، وعن طريق الاشتراك وتناول الخبز والنبيذ المبارك أى لحم المسيح ودمه يصيرون مشتركين معه فى الدم والذات ، وعلاوة على ذلك ، عيسى نفسه الذى يحتوى على عنصرين عنصر لاهوتى وعنصر ناسوتى إنسان رومانى فهو فى نفس الوقت إله وأب وفى نفس الوقت ابن الله ، وفى الغالب فإن الإله العظيم فى هذه الأديان خاصة فى المسيحية « أب » ويدعى « أبانا الذى فى السموات » وهذا الأمر يذكر بالأصل الطوطمى لهذه الآلهة . [1]

ومن هنا نرى أن الآلهة الكبار فى نفس الوقت الذى كانوا فيه محورا وطنيا لخيام مجتمعاتهم ، وكانوا يمنحونها القوام والدوام والتناسق ، كانوا أيضا عاملا لتبرير عبادة العرق والدم والمبدئية والتسامى القومى : جاهلية مشئومة لم يتخلص منها الإنسان اليوم وهو فى قمة حضارته .

وفى السنوات الثلاثين الأخيرة قتلت العرقية والفاشية والنازية والصهيونية ومعاداة السامية والتمييز العنصرى ملايين البشر ، واليوم بعون من الفلسفة وعلم الإنسان والفسيولوجيا وعلم الأجناس وعلم الثقافة وعلم النفس والتاريخ يقوم العلماء والكتاب المرتبطون بالطبقة الحاكمة بإبراز الخرافة القذرة « عدم المساواة وعدم التجانس » بين الأجناس البشرية كواقع علمى وطبيعى ، ولايدفعون الجنس الأعلى فقط إلى الإيمان بهذه الخرافة القذرة بل والجنس الأدنى .

---

(١) يقول قساوسة المسيحية إنهم يحملون قبسا من الروح أى الروح القدس ، وهو أحد التجليات الثلاثة للإله ، ومن هنا ينبغى أن يرجع الناس اليهم من أجل الاتصال بالله وهم مكلفون بنشر الروح التى يحملونها فى العالم ، ومن هنا يأتى لقب « روحانى » الذى يلقبون به أنفسهم . وليس لهذا اللقب وجود فى الإسلام لأنه لاوجود لهذه الطبقة . وهو موجود فقط عند الشيعة وعلى الأخص شيعة ايران الذين يستخدمون روحانى (المترجم : بمعنى رجل الدين) وروحانيت (المترجم : بمعنى هيئة رجال الدين) ، وأظن أنه استخدام جديد لأن هذا اللقب لاوجود له فى نصوصنا الدينية والأدبية القديمة ، ولاشك عندى فى أنه نقل عن المسيحية ، وأظن أن ذلك كان على أيدى الصفوية الذين اقتبسوا كل المراسم والشعائر والعلامات المذهبية من قبيل : التكية (إلى جوار المسجد) وهيئات الدق على الصدور وقفل السلاسل حول الجسد بالأقفال وضرب الجسد بالسلاسل والضرب بالقمة (سيف قصير) وحمل الجريدة (المترجم : شكل على هيئة صليب يحمل فى المواكب المذهبية) والعلم والعلامة والرسوم ، واقامة التمثيليات (تمثيليات المعجزات والميستر واعادة

فى الماضى ، كانت أديان الطبقة الحاكمة تقوم بهذا الدور ، وكانت الآلهة عاملا لإثبات التفرقة والتجزئة الذاتية والنوعية بين البشر : نحن شعب يهوه المختار ، نحن الأعزاء عند الله ، إلهنا إله مقدس ، إله أسمى ، إله الخير أما الآلهة الأخرى فتخلق الشر والدنس ، نحن أبناء الإله الأعظم ذاتنا وطينتنا ودمنا وبنيتنا وطبيعتنا وخميرة وجودنا وبذرتنا وأصلنا وعرقنا كلها من نوع خاص ، نحن تسبيح وحدنا ، نحن أصحاب العرق الأسمى ، الذات المقدسة ، الجوهر الإلهى والأصل السماوى والماورائى والشرف الآهورائى ، نحن مكلفون على الأرض بالمسئولية والمهمة الإلهية الخاصة : حكم الأرض ، السيطرة على كل

المسيحيين آلام المسيح وصلبه عند ذكرى الجمعة الحزينة وأناشيد تعذيب عيسى أو القداسات والتى لاتزال موجودة إلى اليوم بنصها وفصها فى مسرحيات اللورد) وذلك لكى ينفصل التشيع عن المذهب السنى من كل نواحى المراسم والشعائر والمظهر والتمثيليات الدينية ، ولايحس الشيعى بأى وجه اشتراك مع المسلمين من غير الشيعة الذين كانوا فى حالة حرب دائمة معهم وكان قيام الصفوية فى الأصل ضدهم . لكن لما لم يكن للتشيع قبل الصفوية أى مجال للمظاهر المذهبية الخاصة ، وعلاوة على هذا كان السنى والشيعى يكونان أمة واحدة ومجتمعا واحدا ويشتركان معا فى العقيدة والعمل والعبادة ، ولاخلاف بينهما إلا فى بعض مسائل ثانوية ، إلا أنه بعد استقرار النظام الصفوى الذى كان عدوه الأصلى أهل السنة والنظام العثمانى ، بذلت جهود كثيرة لكى تنمحى الوجوه المشتركة التى تخفف من العداوة وتقوى الوحدة أو على الأقل تحد من انتشار العداوة ، وذلك بحيث يحس الشيعى أنه صاحب دين مختلف ويحس السنى أنه صاحب دين مختلف ويحسان أنهما نقيضان . وأحد هذه الجهود البدع والابتكارات الجديدة فى الشعائر الدينية والرموز والعلامات الخاصة التى لاسابقة دينية لها ، وكانوا مضطرين لهذا الأمر إلى التقليد والاقتباس من العادات والمراسم الخاصة الدينية لأوربا الشرقية وكان الصفويون على صلة قرية منهم ومصالح مشـ كة وصداقة حميمة وتكتل ضد العثمانيين ، وكان عندهم وزير خاص بأمور أناشيد الروضة كان من مهامه تقليد « الفنون الدينية » من أوربا واقتباسها ، انظروا إلى الستائر السوداء المفتوحة التى تكتب على حواشيها أشعار محتشم ، تقليد كامل لطراز ستائر الكنيسة ، وتصوير الشخصيات الدينية مثل الرسول والأئمة وهو فى الإسلام مكروه موجود دون زيادة أو نقصان ، حتى مايسمى بالجريدة هى تماما الصليب المقدس ، ولم يطرأ على شكله أى تغيير أو تبديل ، وهذه الجريدة التى تحملها جماعات الدق على الصدور دون أن يكون لها أى دور أو معنى أو تبرير (وحتى حملة الجريدة لايعلمون هم أنفسهم ماذا تكون هذه ومن أجل أى شىء فى الأصل) وفى نفس الوقت يهتمون بها جدا ويتعصبون لها ، وحيثية كل جماعة واحترامها مرهونان بثقل جريدتها وزينتها وتعقيدها وارتفاع ثمنها ، وحملة الجريدة لهم ألقاب وشخصيات متميزة خاصة ، ولأنهم يقومون بهذه الرسالة الدينية العظيمة التى لاتتأتى من كل إنسان توجد لهم « مجوزات لاتجوز لغيرهم » ، حتى كيفية حمل الجريدة لم يغيروا أدنى تغيير ، وأظن أن كلمة جريدة ليست فارسية أو عربية بل هى تلفظ فارسى أو معرب للصليب فى اللاتينية ليس لدينا روحانى فى الإسلام ، لدينا علماء ، وعلاقتهم بالناس هى العلاقة بين العالم والعامى وبين المتخصص وغير المتخصص ، لابين المقدس وغير المقدس وحامل البركة وفاقدها والروحانى والمادى والمراد والمريد .

الأرض وهداية كل الأمم والشعوب وإقرار لإرادة الله فى هذه الدنيا والقضاء على كل الآلهة والأديان . نحن أبناء الله ، نحن أقرباء الله ومن نسله ، أما الآخرون فهم من خلق آلهة غريبة وحقيرة أو شريرة ودنسة ، هم من صنع التراب ومن نسل الحيوان وذواتهم حيوانية . هذه هى التفرقة العنصرية ، أفضلية جنسنا على الأجناس الأخرى ، ليس ادعاء تسلطنا وتحكمنا فى الأجناس والأقوام والملل والنحل الأخرى ، ليس من أعمال القوة والنفوذ والاغتصاب ، وليس أمرا غير طبيعى ، ليس وليد أحوالنا وظروفنا الطبيعية أو ثروتنا أو خصب أراضينا ، هذا هو اقتضاء ذاتنا وخلقتنا الاستثنائية . أليس هو « يهوه » الذى يقول فى التوراة : إننى جعلت أبناء كنعان عبيدا لأبناء سلم أى قوم يهوه إلى الأبد ؟ ألم أعدكم بأرضهم ؟ ألسنا نحن أمة الهند قد عجنا من جوهر ذات ويشنو المقدسة ؟ ألسنا نحن الإيرانيين مخلوقات آهورامزدا إله الخير المختارة ، أما غير الإيرانيين فهم أبناء أهرمن ومختاريه ومن كتابة زروان المظلم عنصر الظلام ، أليس المجد المجد الإلهى فى صلبنا وظله فوق رءوسنا ؟ هؤلاء الآلهة هم الشكل المتطور للطوطم كما أن الأمم هى الأشكال المتطورة للقبائل ، وعلى طول التاريخ كانت الأديان عن طريق رفع هذه الرايات المختلفة وغير المتجانسة واللاإنسانية والميتافيزيقية ، تقوم بتبرير هذا الاختلاف وعدم التجانس وعدم المساواة بين الأمم وتثبيته ، كانت تبدى السمو الجنسى وغربة الجماعات والمجتمعات والأقوام المختلفة وبالتالى الاستعمار والاغتصاب والحروب والبحث عن السلطة والامبريالية السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية والاقتصادية والعسكرية لأمة على أمة أو أمم أخرى أمورا طبيعية ومنطقية ومقدسة وإلهية بل وتعدها أداة لرسالة إلهية كلفت بأدائها وتفسر استعباد أقوام آخرين والسيطرة عليهم أو القضاء عليهم واقتلاع الحضارات والمدن والمعابد من جذورها وتخريب الأراضى والقيام بالمذابح العامة بين الناس ، ونهب ثروات أولئك الغرباء « الشيطانيين سيئى الدين وسيئى الأصل و سيئى الجوهر » تحقيقا لإرادة إلههم ، أبيهم العظيم فى السموات على يد أبنائه خاصته . لماذا نتحدث عن التاريخ ؟ أليس هذا بعينه قائما الآن ؟ كما كان الحكماء والقناصل والنواب والضباط فى روما يعتبرون أنفسهم مكلفين من قبل جوبيتر لنشر الحضارة الرومانية بين البدائيين والأقوام والملل والأجناس المنحطة وفوق كل البسيطة ، ومنح القيصر وهو جوبيتر السلطة النفوذ على

العالم ، وتقوية إرادة جوبيتر وهو نفسه فى السموات فى صراع مع الآلهة الأخرى ، وذلك عن طريق استعباد الأقوام وقهر الأمم الأخرى وإجبار الأجناس على الاستسلام وضم كل الممالك والقوى فى الشرق والغرب إلى الامبراطورية الرومانية العالمية وتذويبها فيها ، مثلهم تماما يجاهد البابا اليوم لإقامة حكومة الأب السماوى المسيح فى شرق العالم وغربه ، وبقوة الاستعمار بل والحرب يجعل الأقوام والأمم الكافرة تستسلم لإرادة المسيح ، ويدخل الوثنيين الأفارقة والوحشيين المنتشرين فى الأرض « قطيع المسيح » أغنام الله ، ليقوم برعيهم جميعا . والصهيونية هى الأخرى تريد أن تحقق وعود يهوه إلههم لقوم بنى إسرائيل مختاريه الأعزاء وحملة مهمته الخاصة ، فقد جعل لهم فلسطين « أرض ميعاد » ، وقام شمعون لأداء الرسالة بمذبحة عامة فى بيت المقدس ، ووعدهم بأن يجتث من الجذور القوم الملعونين الغرباء عن يهوه أى الفلسطينيين ، ذلك لأن يهوه كتب فى لوحه المحفوظ سيادة أبنائه وزعامتهم على كل الغرباء ، وحكم على أبناء كنعان بالعبودية لهم إلى الأبد . ويقرأ الجنس الأبيض فى كتابه المقدس أن الإله العظيم يكرر عدة مرات فى سفر التكوين : إننى خلقت الإنسان على صورتى ونفخت من روحى فى هؤلاء البشر الذين يشبهوننى على الأرض ، ويرى فى نظامه المقدس وأرضه المقدسة أن الإله العظيم « أبانا الذى فى السموات » أبيض الصورة ناعم الشعر أشقر أزرق العينين لطيف القوام ورشيق ونحيل وطويل ، وحينذاك يعتقد : إذن فهؤلاء السود ليسوا بشرا ، فأجسادهم ضخمة ليست رشيقة وعيونهم سوداء وشعورهم مشعثة خشنة قصيرة سوداء كالليل ، وبشراتهم سوداء ، وحواجبهم سوداء وأجسادهم سوداء ، ويقول :

إننى لاأصدق أن دماءهم حمراء ، لابد أن دماءهم سوداء كالحبر ، إذن من أين لهم الشبه بالإله العظيم أبينا الذى فى السموات ، هؤلاء هم أولاد الظلام من جوهر الظلمة ، لم ينفخ فيهم الله من روحه قط ، إنهم يفتقدون الروح الإنسانية والشرف والفضيلة البشرية والنور الإلهى واستعداد الهداية ، إنهم يفتقدون كل شىء ، العلم والحضارة والثقافة والفن والتقنية والتقدم والصناعة

والرفاهية والفكر والإحساس والمنطق والعقل والدين ومعرفة الله ، إنهم ليسوا بشرا أشباه الله ، هم حيوانات تشبه البشر . إن الله أبونا وليس أباهم . [1]

إذن ، إذا كان صحيحا أن مهمة الدين الحاكم كانت اظهار نظام التفرقة والظلم الموجود فى المجتمع الطبقى حقا والهيا ، وإذا كانت حقيقة أن كل طبقة تختص بإله وكل عرق بإله وكل أسرة أو عائلة بإله ، فإن هذا كان يبرر الأرستقراطية والتفرقة الطبقية ويظهرها ذات جذور وطبيعية وأزلية ومقدسة وميتافيزيقية ، ويقوم بترسيخ الإيمان والاعتقاد بها فى الأذهان ، وكان عاملا للتمكين من الجماهير والعمل على استسلامها ، ومن هنا جاهدت الاشتراكية العلمية عن طريق إنكار الدين فى شل هذا العامل وسحب هذه القاعدة الدينية والقواعد الميتافيزيقية للتفرقة العنصرية والطبقية من تحت قدم الطبقة الحاكمة ، أما الإسلام فباعلانه للتوحيد ونفى الشرك واعتقاده بالأصل الواحد لكل البشر فيصل أيضا إلى هدم هذا النظام .

O

(١) يقول أحد الكتاب المسيحيين إن الله يقول فى التوراة والإنجيل أكثر من مرة أننى خلقت الإنسان على صورتى ، وبما أننا نرى المسيح الرب أشقر أزرق العينين أبيض البشرة ، فلا يمكن إذن أن يكون السود بشرا .

الوحدانية : رؤية كونية :

ومن هنا فإن رؤيتى قائمة على تفسير معنوى للكون ، والوجود فى رأيى ليس جهازا ماديا بلا شعور أو هدف وليس جهازا عابثا ، بل قوام حساس وحى وواعي ومعقول ويتميز بقوة الإرادة والعلم والخلاقية ، وبناء على هذا فقد شكل على أساس طبيعة واحدة من مجموعة الظواهر المتناسقة والمظاهر (الآيات) بنظام علمى دقيق وهو متجه إلى هدف عال سام ، يتحرك نحوه فى حركة تكاملية . والإنسان واحد من العناصر التى تشكل هذه الطبيعة ، وعضو من أعضاء هذا القوام العظيم ومن هنا لايمكن أن يكون عبثا بلا معنى ولا هدف ، أو مجرد ظاهرة حدثت بالمصادفة ، فهو بسبب ارتباطه بالطبيعة لامحيص له من التناسق مع نظامها ومسيرة حركتها التكاملية وهدفها الغائى ولأنه هوأكثر المخلوقات تكاملا فى السلسلة التكاملية لمخلوقات الطبيعة فرسالته الوجودية أثقل ومسئولياته فى الخلقة صعبة وحساسة .

وفى مدرستى العقائدية ، الإنسان هو ممثل الله وخليفته وشبيهه ، وهو يحمل الخصائص الأخلاقية لله وموضع أماته ، والذى تعلم الحقائق بواسطته ، وسجدت له كل الملائكة العظيمة والصغيرة وكل الوجود ، والبحر والبر والأرض والسماء كلها مسخرة لإرادته وعلمه وفنه ، فهو القريب الذاتى لله . ومجموعة هذه التعبيرات والمصطلحات الرمزية تريد أن تشير إلى هذه الحقيقة القائلة ، إن الانسان هو المخلوق الوحيد من بين كل مظاهر الوجود الذى يملك أربع خصائص ممتازة يملكها الله وهى ١ - الوعى و ٢ الإرادة (الحرية والاختيار والقدرة على الاختيار) و ٣ - المثل و ٤ - الخلاقية .

هذه الخصائص بقدر ماتمنحه السيطرة والقدرة على الطبيعة ، تجعله مسئولا أمام هذه الإرادة الواعية الخلاقية المطلعة والمافوق إنسانية ، أى الشعور الذى تنبعث منه معجزة الحركة والنظام والحياة . ومن هنا فإن الإنسان ليس كإنسان المادية والطبيعية والحتمية والاشتراكية شجرة بلا إرادة تنبت فى قلب الطبيعة أو المجتمع الخاص بها بمقتضى العوامل المادية للبيئة ودون دخل منها ، وليس كإنسان الوجودية والليبرالية والراديكالية والإنسانية إرادة حرة واعية بذاتها وقع

فى دنيا العناصر والطبيعة المادية هذه ميتا شريدا بلا مسئولية وغريبا عن الوجود وعاريا من الجمال . بل هو إرادة واعية ذات قدرة على الاختيار والخلق وصنع مصيره وفى نفس الوقت مسئول أمام الوجود .

والاعتقاد بأن « الله فى الوجود » يمنحنى رؤية شاملة كونية نرى فيها الطبيعة ذات نظام واع بذاته ومنطقى وذات هدف ، والتضادات وألوان عدم الاتساق والنظام الموجودة فيها نسبية وظاهرية ، أعتقد أن فى ماورائها حقيقة متناسقة وواقعية معقولة ومتصلة ، ومن ناحية أخرى أحس بنفسى فى هذا الجهاز العظيم ذا معنى وهدف وفلسفة وجود وبالتالى أحس بنفسى جديا ومسئولا . وإعلام إله واحد مجرد من الخصائص القومية والعرقية والطبقية ومطلق يحكم كل الوجود ، وأن عالم الوجود امبراطورية ممتدة ولها ذات واحدة تابعة لخلقه وأمره ، من وجهة نظر الفلسفة وعلم الإنسان يلغى كل الحدود العرقية والتناقضات الطبقية والتفرقات الأسرية وامتيازات الدم والعرق وبالتالى الامتيازات فى الحقوق ، لأن التوحيد بإلغائه للآلهة المتعددة الصغيرة والكبيرة القومية والطبقية والعرقية ، وإنكاره للأجهزة الدينية والرؤية الكونية فى الشرك يحرم الشرك الاجتماعى والتعدد الطبقى والعرقى فى الحياة البشرية على وجه الأرض من تبريرها الفلسفى والعلمى والدينى وقاعدتها الميتافيزيقية . والتوحيد بإلغائه هذه الآلهة المصطنعة المغرضة المضادة للبشر ، لايقوم بإلغاء الإحساس الدينى فى الإنسان أو الحقيقة الموجودة فى ما وراء المحسوس أو إنكار الإرادة الواعية والمدبرة فى الطبيعة ، حتى يعرى الإنسان بالرغم منه من فضائله غير المادية وحاجياته المتسامية وتساميه المعنوى ورسالته الإلهية ، وينزل به إلى مستوى حيوان اقتصادى ، ويقطع صلته بالأساس المعنوى للدنيا وقرابته مع روح الوجود ويجعل مبدئية النفع محل مبدئية القيمة فيه ، أو ليظهر الانسان « الذى هو على شاكلة الله » عاشقا للكمال والجمال والحقيقة ، والذى كان دائما فى ماوراء الطبيعة العادية والمنفعة المادية باحثا عن الأبدية وقلقا فى سبيل اكتشاف سر الوجود والحصول على المطلق فى صورة حيوان طالب للقوة ومكافح للاستهلاك . أجل ، إن التوحيد يبدى الكون أكبر من الطبيعة المحسوسة للإنسان وأكثر إدهاشا وأشد عمقا مما هى عليه ، وأنها ليست آلة عمياء حمقاء ذات مجموعة من الحركات المتفرقة العابثة التصادفية ، ليس هذا فحسب بل

يبديها في صورة شخصية واعية مفكرة ذات إرادة وإحساس وجمال وتمييز ، وأن الوجود ليس مجموعة متراكمة من العناصر ، وليس جسدا ميتا بلا صاحب ، بل جسد حى يرى ويشعر وله قلب ويميز بين الخير والشر والجمال والقبح والعظمة والخسة ، يفهم الحب ويتأثر به وينفعل أمام ألطف الأمواج جمالا لروح ما ، وأدق نبض لعاطفة ما وأكثر الجذبات الباطنية لعشق ما خفاء ، ويبدى ردود أفعاله بحساب لايدخل لنا فى وهم ، وحركة أية ذرة فى خضم هذه الكائنات التى لانهاية لها ليست من قبيل المصادفة والعبث .

فى مثل هذه الإمبراطورية العالمية ، يبدو تقسيم العالم بين عدد من الآلهة أشبه بملوك الطوائف ، وبالتالى التفرقة العنصرية والقومية والامتيازات والاحتكارات الأسرية والشرف والفضيلة الطبقية والجماعية أمورا متوهمة غير ذات قاعدة ، ومن صنع القوة والاغتصاب والاستغلال ومؤقتة ومنحرفة ، ليست أصيلة ولاسماوية ، بل أمراض غير طبيعية وضد إلهية ومحكوم عليها بالزوال ، والعمل من أجل جعلها تتمكن استسلام لنظام الشرك ، وقبول حكم شخص واحد أو أسرة أو عرق أو طبقة نقض للحكم المنحصر والمطلق لله الواحد . وقبول ثنوية الجنس الإنسانى وادعاء أو قبول ادعاء وجود نوعين من البشر فى المجتمع القومى أو المجتمع الدولى ثنوية فى العبادة وليدة نوعين من الشرك ، شرك بالنسبة للخالق أى الله وشرك بالنسبة لمنشأ الجنس البشرى ، فكل البشر مخلوقون من قبل قوة واحدة ، ولكل البشر حاكم واحد ، وكل البشر ولدوا من أب واحد ، والتراب هو الخميرة العرقية لكل البشر ، والخلاصة أن الروح الإلهية نفخت فى كل البشر والأمانة الخاصة بالله فى أيدى كل البشر . والإنسان مخلوق ثنوى يجمع بين النقيضين والضدين ، الله والشيطان والروح والطين ، روح الله والطين العفن ومن هنا فإن التضاد والتناقض الذاتى فى بنية الإنسان هو الذى يكون الحركة التكاملية . هذه هى الجدلية الموجودة فى خلقة البشر : الله والطين ، الطين : ترسب التراب ، التراب الجاف الذى يشبه الفخار ، والذى يترسب من السيل (الحركة) ، ثم يتجمد ويصير كالطين المحروق للإناء الفخارى ويصير حجرا لاينبت منه نبات ، يغطى الأرض كغطاء حجرى ، ويخنق البذور والأغصان فى داخله ويقتلها ، ويكتسب الطين رائحة عفنة (هذه هى الأطروحة) وبعد ذلك « نفخ فيه من روحه » (عكس الأطروحة) ، ومن

الحرب الدائمة بين هذين الضدين توجد الحركة والنضال والمسئولية ، وتكامل الإنسان وذهابه نحو الله « الأوج المطلق للتكامل » هو (انعدام الأطروحة) .

والصراع بين الله والشيطان ليس موجودا فى العالم بل هو محتدم فى الإنسان الذى يستطيع بإرادة الوعى الذاتى والقدرة على الخلق والعلم والتقنية ، ومعرفة القوانين الحاكمة على الدنيا والمجتمع والإنسان ، وباستخدام هذه القوانين والتدخل فى المسير الحتمى والطبيعى للطبيعة والإنسان ، توجيه التضاد والحركة الجدلية التى تجرى فى فطرته وحياته إلى المثل المتسامية فيه وإلى اتجاه تكامله ، وبهذا الشكل يتدخل فى قدره الطبيعى ويغيره مما هو عليه بالفعل إلى مايريده وماينبغى أن يكون ، وهنا تطرح قضية المسئولية فى الإنسان وعلى هذا النسق : فى هذه الرؤيا الكونية - ليس الأمر مثل الرؤية الكونية المادية - ليس الكون نظاما أعمى بلا شعور وماديا والإنسان فيه ظاهرة مادية محصورة ومسيرة ، ولامثل الرؤيا الكونية الوجودية إن الدنيا بلاهة مجسدة والإنسان فيها مجنون مندهش بلا مصير ولاملجأ وبلا هدف فاقد للماهية والمعنى ، وإن ذاته وعمله فحسب هما اللذان يمنحانه الماهية والمعنى ، ولما كان الكون فاقدا للإدراك والإرادة ، ولأنه غير واع فهو نفسه غير مسئول فى عمله ، فلا مفر من أن الإنسان نفسه هو المسئول أمام نفسه وأمام اختيار نفسه وهذه مسئولية عابثة وبلا قاعدة لأنه : أولا : الإنسان الفاقد للمعنى فاقد للمسئولية أيضا ، وثانيا : إن المسئولية فى الأساس علاقة التزامية بين إرادة تابعة وإرادة غالبة على أساس القيم والواقعيات العينية والمسئولية التى يكون فيها الشخص المسئول مسئولا أمام نفسه وهو نفسه يعتبر مسئولا والمسئولية متعلقة به ، فإن القيم والواقعيات التى تتعلق بها المسئولية أيضا تحدد بواسطته ، فماذا ستكون ؟ قضية حساسة وأخلاقية بدون قاعدة منطقية وموقف كونى وضمان تنفيذ عينى أو خارجى .

إن الرؤية الكونية المبنية على التوحيد الكونى أى الإيمان بإرادة واعية قوية خلاقة ومنطقية مسيطرة على الوجود ، والثنوية الجدلية البشرية أى الاعتقاد فى أن الإنسان إرادة فى حالة « تطور » دائم بوعيه وإرادته وخلاقيته ، وفى هذا التطور الذى يحتوى على مسافة مابين أدنى الأصول من التدنى الذى لاتدنى

بعده ، من الطين المترسب ، إلى أعلى الذوات تساميا ، إلى مالايضاف بعدها شيء ، إلى روح الله ، فى هذا التطور يعد عمل الإنسان « اختباره وتحققه » وبهذا الشكل أومن فى هذه الرؤيا الكونية مثل الماديين بالقدر العلمي والحتمية التاريخية المسيطرة على جبلة البشر ومصيرهم ، وأعتبر الطبيعية والإنسان واقعيات عينية ومادية تابعة للعلية والمنطق والقوانين الثابتة العلمية ، وأيضا كما فى الوجودية العالمية أعتبر أن الانسان فى نفس الوقت ذو إرادة خلاقة وقدرة على الاختيار ، بناء عليها فهو مسئول ، الفرق أنها ليست مسئولية عاطفية وأخلاقية وذهنية ، لكنها مسئولية عينية واقعية ، مسئولية الإنسان أمام الوجدان والإرادة والوجود ، هذه هى المعايير العقائدية التى تفسر « وحدة الإنسان مع الإنسان » و « وحدة الإنسان مع الطبيعة » و « وحدة الإنسان مع الله » .

ومن هذه الرؤية الكونية التوحيدية ، تتشعب أيضا وحدة التاريخ ، ففى هذه الرؤية الكونية كل ظاهرة وحركة تابعة للنظام والحركة الكليين المعتدلين والمنطقيين والعلميين المسيطرين على الوجود بأكمله ، فليس التاريخ مجموعة من الحوادث والأحداث التصادفية والتى لاعلة لها ولاهدف ، ليس مجموعة من الحركات المنفصلة والحلقات المتفسخة التى لا ارتباط بينها ، فالتاريخ هو مسيرة الحركة المنطقية والعلمية للنوع الإنسانى تحقق على أساس قوانين مسلم بها ومعينة وعلمية هى الخطة المثالية للتكامل البشرى فى الوجود .

فى التاريخ ، ليست المجتمعات البشرية مجموعات من الأفراد ، تتجمع حول بعضها وتشكل نظاما يواصل حياته مستقلا مجردا عن الحركة الطبيعية والهدف من الخلق ومصير المجتمعات من قبله ومن بعده ، ثم يموت على أساس عامل أو عوامل تصادفية أو إرادية . فكل مجتمع له قدر علمى (ولكل أمة أجل مسمى) ومجموع المواليد والوفيات فى المجتمعات يبدى حركة منطقية كلية ومتصلة نحو الهدف الغائى ، هذه هى حركة التاريخ ، والنوع الإنسانى يطوى مسيرته من كونه طينا إلى الله فى التاريخ ، ومن هنا فإن التاريخ هو صيرورة نوع الإنسان الى علم ، كما أن « السيرة » هى صيرورة الفرد الإنسانى إلى علم .

○

رقم الإيداع ٧٤٠٠ / ٨٥

رقم الإيداع الدولى ٧ ــ ٦ . ــ ١٤٧٠ ــ ٩٧٧